

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والخطابية

المصادر العربية
مؤرخو القرن التاسع (٢)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الخامس و العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن التاسع

- ١— من منتقى المقرئى من أخبار مصر لابن ميسر
- ٢— من اتعاظ الحنفا— للمقرئى
- ٣— تراجم من المقفى الكبر— للمقرئى

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

كان من مزايا الأحوال الثقافية لأواخر العصر المملوكي ظهور عدد كبير من المؤرخين المتميزين الذين لم يقتصر عملهم على التصنيف بل تعدى ذلك الى معالجة عدد كبير من القضايا التاريخية والاجتماعية، ففي هذا العصر عاش في القاهرة ودمشق ابن خلدون ، وفيه عاش المقرئزي مؤرخ مصر الاسلامية.

والمقرئزي هو: تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي ، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٥ م منحدرًا من أسرة كانت تنتمي بالأصل الى بلدة بعلبك ، قيل انها كانت تقطن في حي من أحياء بعلبك عرف باسم حي المقارزة ، زالت الآن معالمه ، ولم يعد أحد يعرفه.

نشأ المقرئزي في كنف جده لأمه، وعرف بابن الصائغ، وكان من فقهاء الحنفية ، لهذا تأثر الحفيد بالجدة، فكان حنفيا حتى غدا شابا فتحول الى المذهب الشافعي.

حصل المقرئزي على ثقافة عالية ، والتحق بعدد من الوظائف السامية، كما قام بزيارة عدد من بلدان المشرق العربي خاصة : دمشق ومكة، حيث أقام في كل منهما فترة طويلة، وقد انتهت حياته في القاهرة عام ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.

كان المقرئزي غزير الانتاج، وخاصة في ميادين التاريخ، وقد عاصر ابن خلدون وتأثر به كثيراً أثناء اقامته في القاهرة، وقامت بينهما وشائج

من القريب، ويمكن تصنيف نتاج المقرئزي الى قسمين: المؤلفات الكبيرة والرسائل الصغيرة، وقد أوقف مؤلفاته الكبيرة إما على موضوع من مواضيع التاريخ الاسلامي العام، أو تاريخ مصر الاسلامية السياسي والعمراني، عبر عدة مراحل، أولها منذ الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية، وثانيها تاريخ لهذه الخلافة حتى سقوطها، وثالثها منذ نهاية العصر الفاطمي حتى أيامه.

وعالج المقرئزي في الرسائل الصغيرة عددًا من القضايا الهامة جدًا، وتظهر في هذه الرسائل أصالة المقرئزي وعبقريته العظيمة، وصورة المقرئزي في رسائله هي في كثير من الأحيان معاكسة لصورته في مؤلفاته الكبيرة، حيث أنه في غالبية هذه المؤلفات الكبيرة هو كحاطب ليل يغير على مصنفات الذين تقدموه فينقل عنها ما شاء له الحظ أن يفعل دون الإشارة الى مصادره، وهنا اذا حدث وورد ذكر مصدر من المصادر في نص من كتب المقرئزي، فهو في الغالب مصدر اعتمده صاحب الكتاب الذي أغار عليه المقرئزي دون ان يسميه.

وعلى الرغم من هذا فان كتب المقرئزي على اختلاف أحجامها على درجة عالية من الأهمية، لأن جل المصادر التي اعتمدها هي محجوبة عنا الآن وتعد بحكم المفقود.

لقد تجمع عند المقرئزي مادة تاريخية عملاقة، أراد في أواخر أيامه تصنيفها في كتاب تاريخ كبير يؤرخ به لمصر وللوافدين اليها، يجعله في ثمانين مجلده كبيرة مثل تاريخ دمشق لابن عساكر وقد لحق المقرئزي بربه قبل أن يتاح له اكمال مشروعه الكبير هذا، الذي بوب مواده حسب حروف المعجم، وقد قيل انه كتب منه ست عشرة مجلدة قبل ان يتوفى.

لاندري مدى صحة هذه الرواية ، وفي الوقت نفسه لانعرف حجم المجلدة لدى المقريري ، والذي أعرفه الآن هو أنني وقفت على خمس مجلدات من هذا الكتاب لدي مصورة عنها جميعاً، أربع منها بخط المقريري ، وهذه المجلدات واحد منها محفوظ الآن في مكتبة برتو باشا في استانبول ، ويضم جل الأول وربما بعض الثاني ، وهذا المجلد كبير جداً، نسخه صاحبه - كما صرح - عن نسخة بخط المقريري ، أما بقية المجلدات فأحدها في باريس، وثلاثة في ليدن في هولندا، واستخرجت من المجلدات مواد عن الفاطميين، وعن القرامطة وعن العباسيين، والآن استخرجت ما تعلق بعصر الحروب الصليبية.

وكما سلف بي القول ، أوقف المقريري كتابه « اتعاظ الحنفا » على التاريخ للخلافة الفاطمية، وعدّ هذا الكتاب فيما مضى ومازال يعدّ أفضل مصادر التاريخ الفاطمي وأكثرها حيادية، وأثار هذا الكتاب جدلاً حول المقريري وميوله المذهبية، عالجه أكثر من باحث، بينهم المرحومان : الدكتور جمال الدين الشيال ، والدكتور محمد مصطفى زيادة.

وقد تم التعرف أولاً الى هذا الكتاب عبر نسخة خطية ناقصة عثر عليها في مكتبة غوطا الألمانية ، ونشرت هذه القطعة أولاً سنة ١٩٠٩ بعناية المستشرق الألماني هوجربونز، وقد أعاد المرحوم الشيال نشر هذه القطعة ثانية بعناية أكبر سنة ١٩٤٨ في القاهرة.

وبعد هذا بوقت قصير تم التعرف الى نسخة كاملة من الكتاب تقع في مائة وسبعون ورقة ، وهي محفوظة الآن في مكتبة أحمد الثالث في استانبول .

واهتم المرحوم الدكتور الشيال مجدداً بالكتاب ، واستطاع قبل

وفاته نشر قسم من الكتاب عام ١٩٦٧ في القاهرة، وبعد وفاته بآمد أكمل نشر الكتاب فجاء في ثلاثة أقسام.

ومن المحزن حقا أن الذين عملوا في نشر هذا الكتاب شروعا من المرحوم الدكتور الشيال أخفقوا في قراءة نصه، لهذا جاءت الطبعة محشوة بالتصحيفات. وقد تمكنت من التمييز بين التصحيفات والأخطاء المطبعية، فبعض التصحيفات جاء مع سبق الاصرار حيث وضع الصواب بالهامشية واستبدل بالخطأ بالمتن، ويخيل لي أن الذين دونت أسماؤهم كمحققين للكتاب لم يتولوا ذلك، بل كلفوا طلابهم بالعمل، ولم يقوموا حتى بالمقابلة والمراجعة.

لقد أعدت الآن تحقيق الثالث الأخير من اتعاظ الحنفا، وبنيتي تحقيق الكتاب ونشره بأكمله انشاء الله تعالى وأعان.

وكانت مكتبة المقرئ غنية، ومصادره ثمينة، من ذلك « أخبار مصر » لابن ميسر تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب المتوفى سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م، وفي المكتبة الوطنية بباريس مخطوط رقمه « ١٦٨٨ عربي » يتكون من ٩٤ ورقة يحتوي على مختصر الجزء الثاني من كتاب « أخبار مصر » والذي تولى الاختصار هو المقرئ، وهذا الكتاب بالأصل من أهم مصادر المقرئ في اتعاظ الحنفا وغيره، وانتقيت مما انتقاه المقرئ المواد ذات العلاقة بالحروب الصليبية فضبطتها وحققتها مثل بقية مواد المقرئ.

- ١١٤٨٢ -

والحمد لله تعالى ومنه جل وعلا استمد العون وأطلب السداد
والتوفيق ، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه
أجمعين.

دمشق ١٤ - جمادى الأولى ١٤١٦ هـ

٨ / ١٠ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار

من منتقى المقرئ

من

أخبار مصر لابن ميسر

سنة تسعين وأربعمائة

فيها كان بمصر غلاء وجوع

وفي صفر قدم على الأفضل الرسل من عند فخر الملك رضوان بن
تتش صاحب حلب وأنطاكية، وهو يبذل له الطاعة في إقامة خطبة
المستعلي بالشام، فأجيب بالشكر والثناء، فخطب للمستعلي في يوم
الجمعة سابع عشر رمضان، وكان الحامل لرضوان على ذلك أنه أراد أن
يستعين بعساكر المصريين على أخذ دمشق من أخيه دقاق، فاتفق أن
الأمير سكران بن أرتق أنكر على رضوان ذلك فقطع خطبة المستعلي
وأعاد الخطبة للعباسي، فكانت مدة الخطبة للمستعلي أربع جمع.

وفي شهر ربيع الأول ندب أمير الجيوش الأفضل عسكريا له عدة وافرة
إلى ثغر صور، فمضى إليها وحاصرها حصارا عنيفا حتى أخذها
بالسيف، ودخلها العسكر فقتل منها خلقا كثيرا وقبض على نائبها وحمل
إلى الأفضل فقتله، وسبب ذلك أنه كان نائبا عن الأفضل فعصى عليه.

وفيها كان ابتداء

خروج الإفرنج من بلاد قسطنطينية إلى بلاد المسلمين

وكان أول ما بدأوا به أنطاكية فملكوها، ثم ملكوا البلاد الساحلية
كلها.

وفي يوم عاشوراء تجمع العامة عند مشهد السيدة نفيسة وأعلنوا بسب
الصحابية وهدموا قبور الصالحين التي هناك، فسير الأفضل إليهم
وردهم عن ذلك، وأدب والي القاهرة، وهو ذخيرة الملك بن علوان،
جماعة، وذخيرة الملك هذا هو صاحب المسجد بسوق الخيل تحت قلعة
الجبيل.

وفي محرم حرر الأفضل عيار الدينار وزاد فيه.

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

في شعبان خرج الأفضل بعساكر جمة وسار إلى بيت المقدس، وكان به الأمير سكران وإيلغازي ابنا أرتق في جماعة من أقاربها ورجالها وعساكر كثيرة من الأتراك، فراسلها الأفضل يلتمس منها تسليم بيت المقدس إليه بغير حرب، فلم يجيباه لذلك. فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانباً، فلم يجدا بدا من الإذعان إليه فسلماه إليه وخلع عليهما وأطلقهما، وعاد في عساكره وقد ملك بيت المقدس، فدخل عسقلان، وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، فأخرجه وعطره وحمله في سبط إلى أجل دار بها وعمر المشهد، فلما تكامل حمل الرأس على صدره وسعى به ماشياً إلى أن أحله في مقره، وقيل أن المشهد (بعسقلان) بناه أمير الجيوش بدر الجمالي وكمله ابنه شاهنشاه الأفضل وكان حمل الرأس إلى القاهرة ووصله إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة

في رجب حاصر الفرنج البيت المقدس، وكانوا قد ملكوا الرملة قبل ذلك في ربيع الآخر، فخرج إليهم الأفضل بعساكره، فلما بلغ الفرنج خروجه جدوا في حصاره حتى ملكوه يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان، وهدموا المشاهد وقبر الخليل، عليه السلام، وقتلوا (أهل) البلد جميعهم إلا اليسير، وانحازت طائفة إلى محراب داود، عليه السلام، فسلموا المحراب في الثالث والعشرين بالأمان وأحرقوا المصاحف، وأخذوا من الصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات مالا ينحصر.

ووصل الأفضل عسقلان في الرابع عشر من شهر رمضان، وبعث رسلا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه، فأعادوا الجواب مع رسله، فلم يصل إليه الرسول إلا وهم في كثرة فهجموا على الأفضل وقتلوا من عساكره فانهزم بمن خف معه إلى داخل عسقلان، وحصل بأيدي الفرنج من الغنائم مالا يوصف وتعلق خلق كثير بشجر الجميز هناك، فأحرقوا أكثر الشجر، ونزل الفرنج على عسقلان وحاصروها فاتفق وقوع الخلف بينهم، فارتحلوا عنها، وسار الأفضل في البحر إلى القاهرة.

وفيها توفي أبو الحسن (علي بن الحسن) بن الحسين بن محمد الموصلبي الشافعي المعروف بالخلعي، المحدث المشهور، في يوم السبت ثامن عشر ذي الحجة، وإليه نسب مسجد الخلعي بالقرافة، وبه دفن، وكان محدثا مقرئا سمع على جماعة كثيرة، وجمع له الحافظ أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي عشرين جزءا سماها الخلعيات، وكانت ولادته في محرم سنة خمس وأربعمئة بمصر، وقبره أحد المزارات بقرب النقعة من القرافة، وولي جده قضاء فامية.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة

فيها قدم إلى مصر خلق كثير من البلاد الشامية فرارا من الفرنج والغلاء.

وعم جميع البلاد الوباء، ومات بمصر خلق كثير.

وفيها مات قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن رجا، وتولى مكانه أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة

في شعبان أخرج الأفضل عسكريا كثيفا للقاء الفرنج، فوصل إلى عسقلان في أول رمضان، فأقام فيها إلى ذي الحجة، فنهض إليه من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل، فكانت بينهما حروب كثيرة كسرت فيها ميمنة المسلمين وميسرتهم، وثبت سعد الدولة القواسي مقدم العسكر في القلب، وقاتل حتى قتل، وتراجعت عساكر المسلمين فهزموا الفرنج إلى يافا وقتلوا منهم وأسروا كثيرا.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة

في ليلة السابع عشر من صفر توفي أبو القاسم أحمد المستعلي بالله الخليفة ومولده لعشر بقين من محرم سنة ثمان وستين وأربعمائة، ومدة خلافته سبع سنين وشهران ونقش خاتمه (الإمام المستعلي بالله).

وفي أيامه خرجت الفرنج على بلاد الساحل والشام فملكوه.

ولم يكن له سيرة تذكر فإن مديبر أموره الأفضل.

وترك من الولد ثلاثة هم أبو علي ونعت بالآمر، وجعفر، وعبد الصمد.

وقضاته أبو الحسن بن الكحال، ثم أعاد محمد بن عبد الحاكم المليجي، ثم أبو الطاهر محمد بن رجا، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي، ثم صرف بعد وفاة المستعلي في ربيع الأول منها، وذلك أن ابراهيم بن حمزة الشاهد كان يعاديه، فبلغ الأفضل أنه أحدث في مجلس الحكم فصرفه، وتولى بعده حسين بن يوسف بن أحمد الرصافي وصرف، فولي بعده أبو النجم بن بدر الخوافي، ثم أبو الفضل نعمة بن بشير النابلسي المعروف بالجليس.

ويقال ان المستعلي قتل سرا وقيل أنه سم فمات.

وكان المستنصر عقد لست الملك ابنة بدر الجمالي على ابنه المستعلي فاتفق موت المستنصر وبدر في سنة واحدة، وكان بدر قد أكثر من شراء الجواهر الثمين فلما مات تفرقه أولاده نهبا.

ولما مات المستعلي أحضر الأفضل أبا علي، وبايعه بالخلافة، ونصبه مكان أبيه، ونعته بالأمير بأحكام الله، وعمره خمس سنين وشهر وأيام، وكتب ابن الصيرفي الكاتب السجل بانتقال المستعلي وولاية الأمر، وقرىء على رؤوس كافة الأجناد والأمراء.

سنة ست وتسعين وأربعمائة

في أول رمضان جرد الأفضل عسكريا وجعل عليه ابنه شرف المعالي، وسير الأسطول في البحر، وكان قد خرج في رجب سنة خمس وتسعين عسكر وعليه سعد الدولة القواسي فاجتمع العسكران بيازور والتقى مع عسكر الفرنج فهزموهم وحاصر شرف المعالي قسرا كان الأفشين قد بناه قريبا من الرملة وملكه قهرا وقتل من كان به من الفرنج، وسير تسعمائة أسيرا إلى مصر، فحضر في البحر عدة مراكب نجدة للفرنج وحاصروا عسقلان فرحل شرف المعالي من الرملة إلى عسقلان، فارتحل الفرنج عنها، وكتب الأفضل إلى شمس الملوك دقاق، صاحب دمشق، يستنجد به على الفرنج، فاعتذر عن ذلك ولم يحضر.

سنة سبع وتسعين وأربعمائة

فيها حاصر بردويل ملك الفرنج، وصاحب القدس، ثغر عكا وملكه، فخرج عن أيدي المسلمين ولم يعد، وكان ثغر عكا بأيدي نواب صاحب مصر، وكان الوالي يومئذ زهر الدولة نبا بن الجيوشي ففر إلى دمشق وأكرمه

ظهر الدين أتابك وأحسن مثواه مكرمة للأفضل، ثم جهز إلى مصر فشكره الأفضل.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة

فيها جمع الأفضل جمعا كثيفا من العرب وأنفق فيهم أموالا جمة وجهزهم مع عساكره وعليهم ابنه شرف المعالي، وكتب لظهر الدين أتابك، صاحب دمشق، بمعاضدته فلم يتمكن من الحضور لانشغاله بمضايقة بصرى، فإن أرتاش بن تاج الدولة، صاحب بصرى، كان قد كاتب الفرنج يغريهم بقتال المسلمين، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، ثم سير عسكرا لابن الأفضل نجدة له فاجتمعا بظاهر عسقلان وكان التقاؤهم بالفرنج في رابع عشر ذي الحجة فيما بين يافا وعسقلان، فحمل الفرنج على المسلمين فانكسروا وقتل والي عسقلان وأسر بعض المقدمين، وقتل كثير من الفريقين، ورجع وقد كانت الكرة لهم وعاد عسكر دمشق إلى بصرى، فكان القتل من الفريقين متقاربا.

وفيها مات كنز الدولة محمد في ثامن شعبان وقام مقامه أخوه فخر العرب هبة الله.

سنة تسع وتسعين وأربعمائة

في سادس عشرين جمادى الأولى قتل خلف بن ملاعب، صاحب أفامية بها، قتله قوم من الباطنية.

سنة خمسمائة

أهلت والخليفة ببغداد المستظهر بالله، ومدبر العراق السلطان غياث الدين محمد بن ملك شاه، والخليفة بمصر الأمر بأحكام الله أبو علي

المنصور بن المستعلي، وهو العاشر منهم، ومدبر مملكته القائم مقام السلطنة أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، والأمر ليس له حل ولا ربط سوى اسم الخلافة، وهو مقام الوزير والذي في مملكته ديار مصر وغزة وعسقلان وصور وطرابلس.

وفيهما بنى الأفضل دار الملك بشاطئ النيل على ساحل مصر، وفرغت في سنة إحدى وخمسمائة وسكنها وتفنن الشعراء في مدحها، وصارت هذه الدار دار متجر في أيام الكامل محمد، ثم عملت دار وكالة في أيام الظاهر بيبرس، وكانت دار الطاووس بستانا فكان الأفضل يتردد إليها وزخرف بها مجلسين ثم بنى بجوارها دارا سماها دار الملك، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرباع السلطانية فكانت تقبض إلى آخر وقت.

وأنهت زيادة النيل إلى سبعة عشر ذراعا وأربعة أصابع.

سنة إحدى وخمسمائة

فيها جدد الأفضل ديوانا سماه ديوان التحقيق، واستخدم فيه أبا البركات يوحنا بن (أبي) الليث النصراني، وبقي فيه حتى قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة، ولم يزل هذا الديوان حتى زالت الدولة فانقطع إلى أيام الكامل محمد، فأعاده في سنة أربع وعشرين وستمائة واستخدم فيه ابن كوجك اليهودي، ثم أبطله في سنة ست وعشرين وستمائة فلم يعد، إلا أنه تجدد أيام المعز أيك، أن صفى الدين عبد الله بن علي بن المغربي، استخدم مستوفيا على مقابلة الدواوين وهو نوع منه.

وفيهما نزل بردويل على ثغر صور، وكان النائب به سعد الملك كمشتكين أحد مماليك الأفضل، وعمر بردويل حصنا مقابل حصن

صور على تل المعشوقة، وصانع سعد الملك بردويل على سبعة آلاف دينار حتى رحل عن البلد.

وفيها أحضر أهل فخر الدولة ابن عمار إلى مصر من طرابلس، ومعهم أمواله وذخائره، وسبب ذلك أن فخر الدولة لما طال عليه حصار الفرنج له خرج من طرابلس في سنة خمس مائة بتحف وهدايا إلى دمشق فشكا إلى ظهير الدين طغتكين أتابك ماناله من حصار الفرنج فأكرمه وقام بأمره إلى أن أتفقا على المسير لبغداد ليستنصرا بالسلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، فسارا بالهدايا، ثم بدا لطغتكين فرجع وكان قد بلغه أن السلطان غياث الدين يريد قصده لينزع منه ملك الشام، وسار فخر الملك بن عمار واجتمع بالسلطان وشكا إليه أمره فشق عليه عود طغتكين، وحلف أنه لم يكن عنده خبر مما نقل إليه، وعاد فخر الملك إلى دمشق وقد استوثق من السلطان أن يمدّه بالعساكر نجدة له، فبينما هو كذلك إذ نافق أبو المناقب ابن عمار على ابن عمه فخر الملك ونادى بشعار الأفضل، وسير إليه أن يحضر لتسليم طرابلس، فسير إليه الأفضل الأمير شرف الدولة ابن أبي الطيب، فلما وصلها نقل حريم فخر الدولة ابن عمار وأولاده وأمواله وذخائره إلى مصر، فاضطرب لذلك فخر الدولة وازداد ألمه وسير السلطان غياث الدين طائفة من عسكره وأمر مقدمهم بقصد الموصل وحصار جاولي، فنزل عليها وجرى بينه وبين عسكر الموصل.

ولم نجد في النسخة ما يتم المعنى، ولانسخه مثلها نقابل بها، فكتبنا ما وجدناه على التوالي كذا على هذا المنوال .

وأقام الخليفة في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر، ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصر، فوجد له من الذخائر النفيسة مالا يحصى.

فوجد له ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتان وخمسون ألف دينار، وخمسون أردبا دراهم ورق، وثلاثون راحلة من الذهب العراقي المغزول، برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال، عليها العنائم المختلفة الألوان وتسعمائة ثوب ديباج، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتيس برسم كسوة بدنه، ولعبه عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الرائحة ومن الطيب والنحاس والآلات مالا يحصيه عدد، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه ونتاجه أربعين ألف دينار في السنة، ودواة يكتب منها مرصعة بالجواهر قوم جواهرها بإثني عشر ألف دينار، وخمسمائة ألف مجلد من الكتب.

وكان سبب قتله، أنه قبض على رجل يعرف بالبديع، من الباطنية، وكان قد نفي قديما من مصر، ثم أعيد بشفاعة وقعت فيه، فصار له أتباع، وهم الأفضل بنفيه إلى اليمن إلى الحرة بنت الصليحي، فإن هذا المذهب كان عندها وفي بلادها ظاهرا، فحضر عشرة من الباطنية وأرادوا أن يكونوا معه في الاعتقال، وتتابع معهم جماعة، فقبض عليهم الأفضل وهم نيف وعشرون وقتلهم جميعا، وكثر تحرسه من الباطنية في ركوبه وخروجه.

فلما كان قبل عيد الفطر بيوم خرج من داره، دار الملك بمصر، إلى القاهرة لإخراج العدد والتجمل وقصب الفضة برسم العيد على العادة، فلما انقضى عمله وعاد إلى مصر وثب عليه رجالان من حانوت دقاق في طريقه وقد شهرا سكاكينهما، وكان هو قدام الناس والجند متفرقون عنه (في) عوده لكثرة من حوله فحين رآهم من بين يديه من الركابية بادروا إليهما وقتلوهما، وخف من حوله ودهشوا لما رأوا من الإقدام عليه فوثب رجل خياط، ذكر أنه من القاهرة، من خلفه فصاح الأفضل حين رآه

أقبل إليه وقال: إلى أين؟ فقال: إليك وشتمه وبادره فقبض على أطواقه وسقطت عمامته وضربه ضربات وقع منها، فارتج الناس ووثبوا عليه فقتلوه، وحمل الأفضل إلى داره وبه رمق وقد اثختته الجراح، فلما وصل إلى داره بعث ابن البطائحي، وزيره المستولي على أموره، إلى الخليفة الأمر ليحضر، وكان الناس قد انزعجوا انزعاجا شديدا وهم بعض المقدمين أن يخرج بعض أولاد الأفضل ويجعله مكان أبيه، وكان الأفضل قد حبس سائر أولاده في دورهم ومنعهم التصرف فلم يكن يظهر منهم سوى أبي علي فإنه كان يركب، فخرج ابن البطائحي للناس، وقد اجتمعوا بدار الملك وأظهر أنه ركب ليسكن الناس بالقاهرة، وصار إلى الأمر فبادر للوقت وحضر بنفسه إلى دار الأفضل وختم الدار وبيت الأموال والخزائن والصناديق وسائر مافيها وعاد إلى القاهرة، فلما أصبح صلى بالناس صلاة العيد الداعي، والأفضل في داره ميتا، فلما كان بعد الصلاة غسل ودفن عند أبيه ونفذت المكاتبات إلى أعمال مصر بتطبيب قلوب الناس وإعلامهم الحال.

وأخذ الأمر في نقل ما بدار الأفضل إلى القصر، وهو يرتب الأمر فيما يحمل بنفسه هو وأصحابه، واستمر ذلك مدة شهرين وأياما، والأموال تحمل على جمال وبغال إلى القصر، والأمر يطلع إلى القصر ويعود كل غداة ويقيم حتى يرتفع النهار، ويقرر ما يفعل ويرتب ما يحمل.

وذكر متولي الخزانة بالقصر أن ما وجد في دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، وسبعمائة طبق فضة وذهب، ومن الآلات كالأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقذور والزيادي والقطع من الذهب والفضة المختلفة الأجناس مالا يحصى كثره، ومن براني الصيني الكبار المملوءة بالجوهر التي بعضها منظوم كالسبح وبعضها منشور، شيء كثير.

وكان الأفضل، في أوقات الشرب، يصف في مجلسه صواني الذهب وفيها البراني المملوءة بالجواهر، فإذا أحب فرغت البرنية في الصينية فيكون ملؤها، ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتاي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقي وشرب عمل بتنيس ودمياط على كل صندوق شرح مافيه وجنسه، وخزانة الطيب مملوءة بالأسفاط من العود وغيره مكتوب عليها أوزانها وأجناسها، وبراني المسك وبراني الكافور ومن العنبر مالا يحصى.

وكان له مجلس يجلس فيه للشرب، فيه صور ثمان جوارى متقابلات، أربع منهن بيض من كافور، وأربع سود من عنبر قيام في المجلس عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلبي وبأيديهن أحسن الجواهر، فإذا دخل من باب المجلس ووطىء العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات.

ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارج والمخاد والمساند الديباج والديبقي الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها، أربع حجر كل حجرة مملوءة من هذا الجنس.

ووجد له عدة صناديق ملو خزانة بها أحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال، وثمانمائة جارية منها حظايا له خمسون جارية لكل واحدة منهن حجرة، وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات الديباج والذهب والفضة وغيره من كل صنف.

قال الخازن: هذا ما حضرنى حفظه (مما) في داره، وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله والجباة وضمان النواحي من المال وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك مما لا يحصى.

وحمل من داره أربعة آلاف بساط وستور حمل طنافس، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار، وخمسمائة قطعة محكم برسم النقل، وألف عدل من متاع اليمن والإسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب، يعني سرج.

وكان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ما سمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر في زمانه ولا قسط عليه، ولما حصر الاسكندرية كان بها يهودي يبالغ في سب الأفضل وشتمه ولعنه، فلما دخلها الأفضل قبض عليه وأراد قتله وقد عدد عليه ذنوبه فقال: إن معي خمسة آلاف دينار خذها مني واعتقني واعف عني، فقال: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك وعفا عنه، ولم يأخذ منه شيئا، و(كان) إذا غضب على أحد اعتقله، فلما مات أطلق من سجنه عشرة آلاف إنسان، فإنه كان إذا اعتقل أحدا نسيه ولا يرى بإخراجه.

ومحاسنه كثيرة وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلقها في الحال، وكانت هذه من حسناته التي تفرد بها دون من تقدمه.

واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث في أيامه مما ينتظر وصول مستحقه من مشرق الدنيا ومغربها ما قدره مائة ألف وثلاثون ألف دينار، فلما ولي القضاء ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي بن الرسعني، بعد وفاة القاضي الجليس، رفع إليه أني قد اعتبرت ما في مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار ورفعها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع فإن لها السنين الطويلة لم يطلب شيء منها، فوقع على رقعته «إنما قلدناك الحكم ولا رأي لنا فيما لانستحقه فاتركه على حاله لمستحقه ولا تراجع فيه» فأخذها عرفا.

وبقي هذا القاضي، ابن الرسعني إلى آخر أيام الأفضل، فلما مات الأمير السعيد محمود بن ظفر والي قوص في أيام المأمون، وحضر المأمون والقاضي عزاءه وحضرت صلاة الصبح، أشار المأمون للقاضي بالتقدم للصلاة، فلما أحرم بالصلاة، أخذه هلع فلحن في الفاتحة وارتج عليه في (الشمس وضحاها) فوقف عند قوله (ناقة الله و سقياها) فردها المأمون عليه فزاد استبهاما، فكرر الرد على القاضي فلم يهتد، ثم صحف قوله تعالى (ناقة الله وسقياها) فقال (وسقناها) بالنون فقرأ المأمون عندها بقية السورة وسجد وسجد الناس، ثم قام إلى الركعة الثانية وقد دهش فلم يفتح عليه شيء، فقرأ الفاتحة و(قل هو الله أحد) وقنت فلما انفض الناس وكل المأمون عليه حتى يحفظ القرآن وصرفه وقرر عوضه القاضي أبا الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، قاضي الغربية.

وأمر الأفضل بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر، فعمل ذلك، وجاء خمسة آلاف ألف دينار وكان متحصل الأهرء ألف ألف أردب.

وبني في أيامه كثير من المساجد والجوامع منها: جامع الفيلة المطل على الجبل المعروف بسطح الجرف، والمسجد الذي على جبل المقطم المعروف بالجيوشي، وبنى المأذنة الكبيرة بجامع عمرو بن العاص، والمأذنة السعيدية والمأذنة المستجدة به أيضا وجامع الجيزة.

وعمل خيمة سماها خيمة الفرح، ثم سميت بالقاتول، لأنها إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين واحد أو اثنان، اشتملت على ألف ألف ذراع وأربعمائة ألف ذراع، وقائمها ارتفاعه خمسون ذراعا بذراع العمل، صرف عليها عشرة آلاف ألف دينار، ومدحها جماعة من الشعراء.

وكان الأفضل يقول الشعر فمنه في غلامه تاج المعالي:

أقضيـب يـميس أم هـوقـد

أوشقيـق يـلوح أم هـوخـد

أنا مثل الهلال سقما عليه
وهو كالبدريحين وافاه سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه، وله فيها أخبار منها: أنه طلع ذات يوم
سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق فأمر بضرب
عنقها، فلما جيء برأسها بين يديه قال:
نظرت إليها وهي تنظر ظلها
فنزعت نفسي عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها
حذارا ومن مسك لها في الذوائب
ولي غيرة لو كان للبدريح مثلها
لما كان يرضى باجتماع الكواكب

وكان عدة الوعاظ والقراء والمنشدين عند عزائه أربعمائة وعشرين
شخصا، فخرج أمر الخليفة أن يعطى كل واحد منهم ثمانين دينارا،
للصغير مثل الكبير، فقال ابن أبي قيراط: يا مولانا هذا مال كثير، فقال:
لا يرد أمرنا فهذا من بعض حقه علينا، فجاء مبلغ مادفع نحوا من أربعة
وثلاثين ألف دينار.

وهو الذي أنشأ بستان البعل، والمنتزه المعروف بالتاج، والخمس وجوه
والبستان الكبير ببولاق، والبساتين بقليوب، وجدد بستان الأمير تميم
ببركة الحبش، وأنشأ الروضة بحري الجزيرة فكان يمضي إليها كل يوم في
العشاريات الموكبية، رحمه الله.

وفيهما شرف القائد أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدولة أبي شجاع
فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بابن
البطائحي في الخامس من ذي الحجة، وكان قبل ذلك عند الأفضل
أستاذ دولته وهو الذي قدمه إلى هذه الرتبة، واستقرت نعوته في سجله

المقروء، على كافة الأمراء والأجناد «بالأجل المأمون تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع فخر الأنام نظام الدين والدعاة»، ثم نعت بها كان ينعت به الأفضل وهو «السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين».

ولما كان يوم الثلاثاء سابع ذي الحجة، وهو يوم الهناء بعيد النحر، جلس المأمون في داره عند أذان الصبح وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم من أرباب السيوف والأقلام، ثم الأمراء والأستاذون المحنكون، والشعراء بعدهم، وركب إلى القصور فأتى باب الذهب فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له في موضعها الجاري به العادة، وأغلق الباب الذي عندها على الرسم المعتاد لوزراء السيوف والأقلام، وهذا الباب يعرف بباب السرداب، وعندما شاهدها، توقف عن الجلوس عليها، لأنها حالة لم يجر معه حديث فيها، ثم ألجأته الضرورة لأجل حضور الأمراء (إلى) الجلوس عليها، فجلس وجلس أولاده الثلاثة عن يمينه وأخواه عن يساره، والأمراء المطوقون خاصة دون غيرهم قيام بين يديه، فإنه لا يصل أحد إلى هذا المكان سواهم، فلم يكن بأسرع من أن فتح الباب وخرج عدة من الأستاذين المحنكين بسلام أمير المؤمنين، وخرج إليه الأمير الثقة متولي الرسالة وزمام القصور، فعند حضوره وقف له أولاد المأمون وأخواه فطلع عند خروجه قبالة المرتبة وقال: أمير المؤمنين يرد على السيد الأجل المأمون السلام، فوقف عند ذلك الأجل المأمون وقبل الأرض وعاد جلس موضعه، وتأخر الأمير إلى أن نزل من المصطبة وقبل الأرض، وقبل يد المأمون، ودخل من فوره من الباب وأغلق الباب على حاله على ما كان عليه الأفضل وكان الأفضل يقول: ما أزال أعد نفسي سلطانا حتى أجلس على تلك المرتبة والباب يغلق في وجهي والدخان في أنفي فإن الحمام (كانت) من خلف الباب في السرداب، ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر فدخل إلى المكان الذي هيء له، ودعا لمجلس الوزارة وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس

الخليفة واستفتح القراء واستدعى المأمون فحضر بين يديه، وسلم عليه أولاده وأخواه، ثم وصل الأمراء على قدر طبقاتهم أولهم أرباب الأطواق، وتلاههم أرباب العماريات والأقصاب والضيوف والأشراف، ثم دخل ديوان المكاتبات سلم بهم الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة، ثم ديوان الإنشاء سلم بهم الشريف ابن أنس الدولة، ثم نقيب الطالبين بالأشراف، ثم سلم القاضي ابن الرسعني بشهوده، والداعي ابن عبد الحقيق بالمؤمنين، ثم سلم القائد مقبل الركاب الأمري بجميع المقدمين الأمرية، ثم سلم بعدهم الشيخ أبو البركات بن أبي الليث متولي ديوان المملكة، ثم دخل الأجناد من باب البحر وسلم كل طائفة بمقدمها، فلما انقضى ذلك دخل والي القاهرة ووالي مصر وسلم كل منهما ببياض أهل البلدين، ثم البطرك بالنصارى وكتاب النصارى، ورئيس اليهود وكتاب اليهود، ثم سلم المقربون وقد قارب العصر، ودخل الشعراء على طبقاتهم وأنشد كل واحد منهم ماسمحت به قريحته، فكان هذا رتبة المأمون في هذا اليوم.

وفيهما عمر المأمون الجامع الأقرم بالقاهرة وكان مكانه دكاكين علافين.

سنة ست عشرة وخمسمائة

في ربيع الأول أمر المأمون وكيله الشيخ أبا البركات محمد بن عثمان أن يتوجه إلى المساجد السبعة، التي بين الجبل والقرافة، وأولها مشهد السيدة زينب، وآخرها مشهد السيدة كلثوم ويجدد عمارتها، ويصلح ما تهدم منها، ويجعل على كل مشهد لوحا من رخام عليه اسمه وتاريخ تجديده، فمدحه الشعراء بقصائد عند فراغ العمارة.

وفيهما أراد الأمر أن يحضر إلى دار الملك في النيروز الكائن في جمادى الآخرة في المراكب على ما كان عليه الأفضل، فأعاد المأمون عليه أنه

لا يمكن، فإن الأفضل لا يجري مجراه الخليفة، وحمل إليه المأمون من الثياب الفاخرة برسم (النوروز) للجهات ماله قيمة جلية.

وفي شوال أمر المأمون بعمل دار ضرب بالقاهرة فعملت وضرب فيها، وأمر أن يكون الدينار أعلى ذهباً من كل دار ضرب فبنيت بالقشاشين

وفيهما أمر ببناء دار وكالة بالقاهرة، لمن يصل من العراق والشام من التجار.

وفي ذي القعدة صرف قاضي القضاة ثقة الملك ابن الرسعني، وقد تقدم سبب صرفه، وتولى مكانه القاضي جلال الملك أبو الحجاج يوسف ابن أيوب المغربي، وكان قاضي الغربية، وأشهد ستة عشر نفساً بأمر المأمون فإنه خرج أمره للقاضي أن يستشهد من يقع عليه الاختيار، فاختر جماعة طالعه بأمرهم فانتقى منهم ستة عشر.

وفيهما انتدب المأمون وحشي بن طلائع فمضى إلى صور، وقبض على مسعود بن سلال واليها، فإنه كان قد خالف وأحضره مقهوراً.

وفيهما جهز المأمون أسطولاً في البحر، وأوسق المراكب بخمسة عشر ألف أردب قمح وأقوات كثيرة فمضت إلى صور وملكتها وأحضرت واليها مسعود بن سلال.

وفي رجب وصل الدوك من عسقلان، وأخبروا أن الباطنية فرحوا بقتل الأفضل.

وفيهما نقل المأمون عمارة المراكب الحربية من الصناعة التي بجزيرة مصر، إلى الصناعة القديمة بساحل مصر، وبنى عليها منظره.

سنة سبع عشرة وخمسمائة

فيها ورد من المغرب إلى الاسكندرية، طائفة من لواتة فأفسدوا في أعمالها فسادا كثيرا، فندب المأمون أخاه نظام الدين أبا تراب حيدرة الملقب بالمؤتمن لقتالهم فكسرهم وقتل منهم خلقا كثيرا، وكسب خيولهم وأمواهم، ثم دخل مدينة الاسكندرية، وكانت مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وقتلوا وأسروا فحاربهم وأخذ الأسارى.

وفي جمادى الأولى كان وصول رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن معز بن باديس، صاحب المهديّة، يخبر بانحيازة للدولة وأن رجار بن رجار، صاحب صقلية، تواصلت أذيته واستعد لمحاربتة، وسأل أن يسير لرجار يمنعه، فسير من مصر إليه مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخد، فأصلح بينهما.

وفي شوال توجه هلال الدولة سوار رسولا إلى حرة اليمن. وفيها وصل رسول من ظهير الدين أتابك، صاحب دمشق، ورسول من آق سنقر، صاحب حلب، يكتب للخليفة الأمر، فلما وصلا باب الفتوح ترجلا وقبلاه ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك، وأوقفا عند باب البحر قدر ما جلس الخليفة، وكانت كتبها تتضمن الأخبار بنزلة الفرنج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية، وأن الفرصة قد أمكنت فيهم، وسألا أن يجهز بعض العساكر والأساطيل، فنفق في العساكر، وجهز المأمون أربعين شينيا فيها عشرون أميرا وهدايا وأجوبة الكتب صحبة الرسل الواصلين، فسار العسكر إلى يافا وأقام عليها ستة أيام، ورحل عنها وقد تناذل عنه ملوك الشرق، ورجع إلى مصر فوافاه الفرنج على بينى في ثاني ربيع الآخر فانكسر العسكر المصري من غير مصاف.

وفي ربيع الأولى أغلق المأمون دار العلم التي بالتبانين مجاورة القصر

الصغير، وذلك أن رجلا يعرف بحميد بن مكي الأطفحي القصار ادعى الربوبية واجتمع معه خلق كثير، وكان يصعد الجبل المقطم ويحضر لأصحابه ما يريدونه ويناول كل واحد ما يشتهي، وكان أولا جيد النظر في علم الكلام على طريق الأشعرية، ثم انسلخ من الاسلام وسلك طريق السحرة والموهين، فحكيت عنه حكايا كثيرة، فقبض عليه المأمون وقتله هو وجماعة كثيرة من أصحابه، وكان ذلك سبب إغلاق دار العلم فإنه أفسد عقول جماعة.

وفيها نقل المأمون الرصد من الجبل المطل على راشدة إلى علو باب النصر بالقاهرة، فتقدم شيوخ الصناعة الفلكية أبو عبد الله الحلبي، وابن العيثمي، وأبو جعفر بن حسداي، وابن سند، وأحمد بن مفرج الشاعر، وابن قرفة ومعهم جماعة فوجدوا الطارة الواحدة قد فسدت، فجمع السباكون واحضر لهم ما يحتاج إليه من النحاس والذهب والفضة وسبكت الدائرة وأعيدت بحضرة الشيوخ بعد تعب كثير ومصروف كبير ونقلت إلى أعلى الباب فاستمرت إلى آخر أيام الأمر، فلما كثر الهرج أهمل وأفسد ثم نهب ما قدر عليه منه، فحمل إلى المناخ، فلما نهب المناخ كسرت الطارات بالفؤوس ونهبت وبقي منها طارتان على أحديهما اسم الأفضل وعلى الأخرى اسم المأمون خفي مكانها وسلمها فكانا بالمناخ.

وفيها توفي ولي الدولة (أبو البركات) بن عبد الحقيق داعي الدعاة، فاستقر عوضه أبو محمد حسن بن آدم، ثم صرف لحدائثة سنه، وقرر أبو الفخر صالح، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ملك الفرنج مدينة صور، واستمرت بأيديهم حتى زالت الدولة، وكان أخذها بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم، فأغاثهم

ظهر الدين طغتكين، صاحب دمشق، ووصل إلى بانياس وراسل
الافرنج فوق الاتفاق على أن يتسلموها بالأمان فخرج أهلها بها خف
حملة وتفرقوا في البلاد، وكان تسليمهم إياها في الثامن والعشرين من
جمادى الأولى.

وفيها أمر ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كسر السد بخليج
القاهرة بالكراء، وذلك أن الناس عند كسر الخليج كانوا يعملون أخشاباً
يركبون بعضها على بعض ليتفرجوا عليها، فيحصل لهم الضرر، ولم يكن
هناك من الآدر سوى دارين إحداهما لأبي عبد الله محمد بن المستنصر
ولي العهد، والأخرى دار ابن معشر ولم تزل هذه الدور الثلاثة إلى أن
أحرقت في أيام شاور في كائنة سنة تسع وخمسين وخمسمائة ولم يبق لها أثر.

وفيها توفي بالموت الحسن بن صباح، رئيس الاسماعيلية وقد تقدم خبر
قدومه إلى مصر في أيام المستنصر، ومسير ابن صباح إلى المشرق وأخذه
قلعة الموت.

فلما مات المستنصر مال ابن صباح إلى القول بإمامة نزار بن المستنصر،
وانكر إمامة المستعلي وإمامة ابنه الأمر، وندب جماعة لقتل الأفضل.

فلما ولي المأمون بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا لموت الأفضل
وقتلته، وأنهم قد امتدت آمالهم لقتل الأمر والمأمون معاً، وأنهم أرسلوا
رسلاً لأصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال للتفرقة عليهم.

فتقدم المأمون إلى والي عسقلان وصرفه عنها وولى غيره، وأمره بعرض
أرباب الخدم بها، وأن لا يبقى فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد،
ووصاه بالاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم،
وأن لا يثق بها يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم وحلالهم، بل
يكشف عن بعضهم من بعض ويفرق بينهم ويبالغ في كل ذلك، ومن

وصل ممن لم تجر له عادة بالوصول إلى البلاد فليعوقه بالثغر ويطالع بحاله وبما معه من البضائع، وكذلك الجمالون لا يمكن أحدا من الوصول إلى البلاد إن كان معروفا مترددا، ولا يسير قافلة إلا بعد أن يتقدمها كتابه إلى الديوان بعدة التجار وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين، وذكر أصناف البضائع، ليقابل بها في مدينة بليس وعند وصولهم إلى الباب، ويكرم التجار ويكف الأذى عنهم.

ثم تقدم أمر المأمون لوالي مصر والقاهرة وأمرهما أن يسقعا له شارعاً شارعاً وحارة حارة بأسماء من فيها من السكان وأن لا يمكننا أحدا من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره بها يعهدها فيه.

فلما وقف على أوراق التسقيع وفيها أسماء أهل مصر والقاهرة وكناهم وأحوالهم ومعاشهم، ومن يصل إلى كل ساكن من سكان الحارات من الغرباء حيثئذ سير من قبله نساء يدخلن هذه المساكن ويتعرفن أحوال الباطنية، فكانت أحوال من بالقاهرة ومصر لا يخفى عليه منها شيء، ولذلك امتنع من يصل إليه من الباطنية، سوى من يصل من بلاد العجم وغيرها لهذا القصد.

ثم إنه ركب في يوم من الأيام جماعة من العسكرية وفرقهم وأمر بمسك من عينه فمسك منه جماعة كثيرة، منهم رجل كان يقرى أولاد الخليفة الأمر، ومسك رسلا معهم المال الذي سيره ابن صباح برسم نفقة المقيمين بمصر فأخذه، وكانت هذه الفعلة من المأمون من عجائب الخدق، وبث مع ذلك الجواسيس في أقطار الأرض، وكان الباطني إذا خرج من الموت لاتزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة حتى يصل بليس فيمسك بها ويحمل إليه فيقتله.

وقال للخليفة الأمر: كشفت الغطاء وفعلت ما لا يقدر أحد على فعله،

وأما القصر فما لي فيه حيلة، ولوح للآمر أن أخت نزار وأولاده لا يمكنني كشف أمرهم، فبلغ أخت نزار القصة فحضرت (إلى الخليفة) الأمر لتبريء نفسها، ورغبت أن تخرج للناس لتقول ماسمعت من والدها وشاهدته ليكون قولها حجة على من يدعي لأخيها ما ليس له، فاستحسن الأمر ذلك وأحضر المأمون، وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلي، واتفقوا على يوم يجتمعون فيه.

فلما كان في شوال سنة ست عشرة وخمسة استدعى دعاة الاسماعيلية، وأحضر أبو الحسن علي بن أبي أسامة، كاتب الدست، وولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة وأبو محمد بن آدم متولي دار العلم بالقاهرة، وأبو الثريا بن مختار فقيه الاسماعيلية ورفيقه أبو الفخر، وجماعة من الأمراء وغيرهم، والشريف ابن عقيل، وقاضي القضاة، وشيوخ الشرفاء، وأولاد المستنصر، وجماعة من بني عمها ممن وقع عليه الاختيار.

وكان المأمون إماميا فاحتجوا بأن المستنصر نعت المستعلي ولي عهد المؤمنين وأفرده بذلك فدل على تخصيصه، إذ ولاية عهد المؤمنين تتضمن ولاية عهد المسلمين، لأن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس وكان المستنصر نعت المستعلي بهذا النعت لما عقد نكاحه على ابنة أمير الجيوش بدر.

واحتجوا بأن من يقول أنه ضربت السكة باسم نزار وأن الدينار المنقوط باسمه، قول باطل وأن المنقوط ضرب العزيز، ولو كان الأمر على ما يقولون لما كان فيه حجة لأن الحاكم ضرب السكة باسم بعض بني عمه نيابة عنه وليس بإمام، وأن الوزير اليازوري سأل المستنصر أن يكتب اسمه على سكة نقش عليها «ضربت في دولة آل الهدى آل ياسين سنة كذا» وطبعت عليها الدنانير نحو شهر ثم بطلت، وأمر المستنصر بأن لا يسطر في السير.

واحتجوا بأن المستنصر لما جرت على دولته الشدائد سير أولاده عبد الله إلى عكا لأمر الجيوش، وسير أبا القاسم والد الحافظ، لعسقلان، ونزار لثغر دمياط، وسير الأعلى إلى الأعلى، ولم يسمح بخروج المستعلي من قصره (لما أهله له من الخلافة).

وعند وفاة المستنصر بايع نزار المستعلي فجري في هذا مفاوضة.

وكانت أخت نزار في قاعة صغيرة بجانب الإيوان بالقصر وعلى الباب ستر، وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الأستاذين، فلما جرى هذا الفعل قام المأمون من مكانه ووقف بإزاء الستر وقال: من وراء الستر؟ فعرف بها اخوتها وبنو عمها، وأنه ليس غيرها وراء الستار، فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا علي يا جماعة الحاضرين، وبلغوا عني جماعة المسلمين، أن أخي شقيقي نزار لم يكن له إمامه، وإنني بريئة من إمامته جاحدة لها لاعتة لمن يعتقدها، لما علمته من والدي وسمعته من والدي، لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمية والدة عبد الله أخي إلى المنطرتين اللتين على القناطر المعروفتين بالحولا والبرياب للنزهة أيام النيل جرى بينهما مشاجر في ولديهما، فأحضرهما المستنصر بين يديه وأنكر عليهما، وقال: ما يصل أحد من ولديكما إلى الأمر صاحبه معروف في وقته، وشاهدت والدي المستنصر، في المرضة التي توفي فيها، وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبل بين عينيه وأسر إليه طويلا وتدمعت عيناها، وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليله استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا، ومد يده إليها فقبلها وعاهدها واشهد الله تعالى معلنا ومظهرا.

فلما انتقل في تلك الليلة حضر صبيحتها الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد، ووقف بظاهر المقرمة ثم جلس وكلهم قيام وأخذ في التعزية، ثم قال: يامولاتنا من ارتضاه للخلافة؟ فقالت: هي أمانة قد

عاهدني عليها، وأوصاني بأن الخليفة من بعده ولده أبو القاسم أحمد، فحضر وبايعته عمتي، وبايعه أخوه الأكبر عبد الله، فأشار الأفضل إلى نزار فبايعه، وأمر الأفضل بالتوكيل على نزار وتأخيره فأخر إلى مكان لا يصلح له، واستدعى الأفضل الداعي وأمره بأخذ البيعة من نفسه ومن الموالي والأستاذين، وسألت عمتي الأفضل في نزار فرفع عنه التوكيل عليه بعد أن كلمه بكلام فيه غلظة، ووالله مامضى أخي نزار إلى ناصر الدولة أفتكين بالاسكندرية لطلب إمامة ولالإدعاء حق، ولكن طالبا لزوال الأفضل وإبطال أمره لما فعل معه، والله يلعن من يخالف ظاهره باطنه، هذا آخر ما نطقت به، فشكرها الناس على ذلك.

وأمر المأمون ابن الصيرفي الكاتب بإنشاء سجل يقرأ على منبر مصر بذلك، فكتبه وانفض المجلس.

وأما النزارية فإنها تقول إن المستنصر لما مات، والأفضل صاحب الأمر وهو مستحوز على المملكة والجند جنده وغلما ن أبيه لا يعرفون سواه، وكان نزار لما يرى من الغلبة من الأفضل على الدولة يتكلم بما يبلغه فينكره فتخوف شره، فلما مات المستنصر ولى أحمد المستعلي لأنه زوج أخته، وإنما ذكر هذا المجلس هنا ليصير الكلام منسجما بعضه على بعض، ولم تزل الاسماعيلية بجبل الموت ومملكتهم يقولون بإمامة نزار إلى أثناء الدولة التركية.

وأما ابن صباح فإنه لما قربت وفاته أخرج فتى، كان مختفيا عنده، وسلم إليه جميع قلاع، وكانت عامة من في دعوته تحت طاعته فلم يمت حتى ملك بالشام جبل عامل وحصن العليقة والكهف ومصيف والخوابي وحصن الأكمة وقلعة العيد.

ثم امتدت مملكته بعد وفاته، فصار لهم عدة بلاد ومملكة طويلة إلى

حد شرقي أذربيجان وبحر طبرستان وجرجان، ولهم بخراسان مدينة كبيرة يقال لها رشيش، أخذها منهم شهاب الدين محمد في سنة سبع وتسعين وخمسة، وقتل كل من فيها، وبقي بأيديهم إلى آخر سنة اثنتين وستين وستائة بالشام ثمان قلاع على جبل عاملة: قلعة الكهف، والعليقة، والقدموس، والخوابي، والمنيقة، ومصياف، والرصافة، والقليلة، وكان رئيسهم في سنة ست وخمسين وستائة رضي الدين أبو المعالي، وقدم إلى مصر رسولا منهم قبل أن يرأس عليهم في شوال سنة خمس وستين، وفيها خرج من مصر فرأس عليهم.

ولما ملك التتر الشام سلموا إليهم أربع قلاع من هذه القلاع، فلما كسروهم المظفر قطز عادت الأربع قلاع إليهم، فتسلمها رئيسهم، وقتل أصحابه الذين سلموها للتتر، وتوفي في سنة ستين وستائة، ورأس عليهم نجم الدين اسماعيل بن أبي الفتح الشعراني.

وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح وإلى سنة بضع وعشرين وستائة عظيما، وجرى للناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب معهم أمور.

ثم إن الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية، ومن كان بالموت يقال لهم الباطنية والملاحدة، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم اسماعيلية، وكان للرئيس فيهم على كل ملك إقليم مال يحمل إليه تقية من شروهم.

ولما انفض المجلس أمر المأمون ابن الصيرفي فكتب لابن صباح كتابا طويلا يدعو به إلى الحق، فيرجعه عن القول بإمامة نزار ويحتج عليه بأمور مما ذكرنا، وسيره على يد ستة نفر من العربان فلم يسيروا غير مسير حتى وردت رسل الدعاة وعلى أيديهم كتب فيها الارعاد والابراق والازعاج مالم

تجر به عادتهم، ويذكرون ان القوم قويت عزائمهم وطالت ألسنتهم بما يصل إليهم من كتب أهل البلاد متضمنة بأن الله قد سهل الأمر، وقد وجدوا السبيل إلى إظهار الحق، ومابقين العاقة إلا منكم لأنه قد تجرد من الركوب والتوجه إلى البساتين والمنتزهات والمقام بها ليلا ونهارا ما اتسع فيه المجال وتحقق به بلوغ الآمال، ويخاف أن يعود الحال إلى ما كان عليه فيعود الطلب عسيرا، وقد توجه إليكم جماعة ببال كثير، وهم مقيمون في بلادكم عند جماعة يخفون أمرهم والقوم يسيرون المال مع التجار، فجمع المأمون الجماعة بين يدي الأمر وفاوضه في أمرهم، وأخذ المأمون في فعل ما تقدم ذكره من الضبط والحزم.

سنة تسع عشرة وخمسة

في ليلة السبت لأربع خلون من رمضان قبض الخليفة الأمر على وزيره المأمون بن البطائحي، وعلى إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من خواصه وأهله، واعتقله وصلبه مع إخوته في سنة اثنتين وعشرين وخمسة.

واختلف في سبب القبض عليه، فقيل أنه بعث إلى الأمير جعفر، أخي الخليفة، يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه في الخلافة، فلما تقرر الأمر على ذلك، بلغ الشيخ الأجل أبا الحسن علي بن أبي أسامة ذلك، وكان خصيصا بالخليفة الأمر قريبا منه، وأصابه أذى كثير من المأمون، فأعلم الأمر بالحال، وأنه سير نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن وأمره ان يضرب السكة ويكتب عليها «الإمام المختار محمد بن نزار».

وقيل بل سم مبضعا ودفعه لفصاد الأمر فأعلمه بالقصة فقبض عليه.

وكان مولده في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة أو سنة تسع، وكان من

ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدولة كريها، واسع الصدر، سفاكا للدماء، كثير التحرز والتطلع إلى أحوال الناس من العامة والجند، فكثير الوشاة في أيامه.

وذكر ابن الأثير في «تاريخه» عن أبيه: أنه كان من جواسيس الأفضل بالعراق وأنه مات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير بمصر، فدخل مع الحمالين إلى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفا رشيقا حسن الحركة حلو الكلام، فأعجبه وسأل عنه فقليل له: هو ابن فلان فاستخدمه مع الفراشين، ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته.

قال المؤلف: هذا وهم فإن والد المأمون توفي في سنة اثنتي عشرة وخمسة، وولده مدبر ملك الأفضل، ورأيت جزءا فيه من مرثي والد المأمون شيء كثير، ومدح الأفضل في بعض المراثي وقد ذكرنا ذلك في سنة اثنتي عشرة.

ورأيت في كتاب «البستان بحوادث الزمان» أن المأمون كان يرش بين القصرين بالماء.

سنة عشرين وخمسة

فيها جهز الأمر الأمير المنتضى بن مسافر الغنوي بخلع سنية، وتحف مصرية، وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقي، صاحب الموصل، فسمع في الطريق بقتل المذكور فرجع بما معه إلى مصر.

وفيها قدم إلى مصر الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم

مصنف «سيرة الافرنج الخارجين إلى بلاد الاسلام» في هذه السنين، برسالة من حلب.

وفي شوال كان بدء أمر الراهب بمصر في مصادرات الناس.

سنة إحدى وعشرين وخمسة

فيها أحضر نجيب الدولة، داعي اليمن، وكان المأمون قد سيره إلى اليمن فبعث به صاحب اليمن فدخل على جمل وخلفه قرد يصفعه بدرة محشوا حصى في يوم عاشوراء، وصلب.

وفيها توفي قاضي القضاة أبو الحجاج يوسف بن أيوب بن اسماعيل الأندلسي، وكان قد أقرأ المؤتمن أخا الوزير المأمون القرآن والنحو، فولاه قضاء الغربية، ثم نقل إلى قضاء القضاة بعد ابن الرسعني بوساطة المؤتمن، ولما مات استقر مكانه في القضاء أبو عبد الله محمد بن هبة الله ابن الميسر القيسراني.

سنة اثنتين وعشرين وخمسة

فيها أحضرت رأس بهرام الباطني، وكان طغتكين قد وهب له بانياس خوفا من شره، فتضايق الحال وأفسد أصحابه بالشام، إلى أن جرت له حادثة فقتل وحملت رأسه إلى مصر.

وفيها رتب الأمر قاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر مشارفا على ثقة الدولة بن أبي الرداد في قياس الماء وعمارة المقياس، وعمل مصالحه فاستمر إلى أن قتل، فلم ينظر بعده أحد على هذه الجهة، واستمر ابن أبي الرداد بمفرده وأطلق له في كل سنة مائة قنطار جير لعمارة المكان.

وفي الليلة المسفرة عن العشرين من رجب، قتل المأمون بن البطائي الوزير، وصالح بن العفيف، وعلي بن ابراهيم بن نجيب الدولة، وأخرجوا ثلاثتهم إلى قرب سقاية ريدان فصلبت أبدانهم بغير رؤوس، وفي صدر كل واحد رقعة فيها اسمه، فشك الناس فيهم، فأخرجت رؤوسهم وحملت على أبدانهم.

وقيل بل كانت ولاية ابن ميسر القضاء في ذي الحجة منها، ولقب «ثقة الدولة القاضي الأمين سناء الملك شرف الأحكام قاضي القضاة عمدة أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي الفرج هبة الله بن ميسر» فواصل الملازمة والدأب، وتوفر على الانتصاب للجلوس، واعتمد التثبت في الأحكام، وعدل جماعة فبلغت عدة الشهود في أيامه ما يزيد على مائة وعشرين، ولم تكن عدتهم تبلغ الثلاثين، وردت إليه المظالم فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بها حضرة أمير المؤمنين، وكانت فيهم جماعة قد يؤسوا من الفرج، فاستخرج أمر الخليفة بالإفراج عنهم وتكلم مع الخليفة في أمر التجار، فكتبت مناشير في معناتهم تليت على المنابر.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها قتل أبو نجاح النصراني المعروف بالراهب، قتله الأمير مقداد، والي مصر، وصلبه عند الجسر، ثم أمر به فأنزل وربط على خشبة ورمي به في النيل، وخرجت الكتب إلى الأعمال بأن ينظروه كلما أوقفه التيار في مكان يحدرونه عنه، فلم يزل كذلك حتى خرج إلى البحر المالح.

وكان ابتداء أمره أنه كان يخدم ولي الدولة أبا البركات يحنا ابن أبي الليث، ثم اتصل بالآمر بعد قتل المأمون، وبذل له في مصادرة قوم من النصاري مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم وتسلسل الحال حتى عم

البلاء منه لجميع رؤساء مصر وقضاتها وكتابها وسوقتها، بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه من ضرب أو نهب أو أخذ مال، وارتفع عند الخليفة حتى كان يعمل له بتيس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصوف الأبيض (المنسوج) بالذهب فيلبسها ومن فوقها غفارة ديباج، ويتطيب بعدة مثاقيل مسك كل يوم، فكان يشتم ريحه من مسافة بعيدة، ويركب الحمير بسروج محلاة بالذهب، والفضة، ويجلس بقاعة الخطابة في الجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة، واتفق أنه طلب يوما رجلا من مصر يعرف بابن العرس من العدول المتميزين، وكان معظما عند الناس، فأهانته وأخرق فيه، فخرج من عنده ووقف بالجامع في يوم جمعة وقال: يا أهل مصر انظروا عدل مولانا الأمر في تمكينه (هذا) النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنه، فدخل خواص الأمر وخوفوه عاقبة ذلك وأعلموه ما حل بالمسلمين، فاستدعاه وكان بحضرته رجل من الأشراف فأنشد:

إن الذي شرفت من أجله

يزعم هذا أنه كاذب

فقال له الأمر: ماتقول ياراهب؟ فسكت فأمر به فقتل

ووجد له في مقطع ثلاثمائة طراحة سامان محشوة جددا لم تستعمل قد رصت إلى قرب السقف، هذا من نوع واحد فكيف ماعداه، وأصله من أشمون طنّاح وترهب أولا على يد أبي اسحاق بن أبي اليمن، وزير ابن عبد المسيح متولي الديوان بأسفل الأرض.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

في ربيع الأول ولد للأمير ولد فسماه أبا القاسم الطيب، وجعله ولي عهده وزينت مصر والقاهرة، وعملت الملاهي في الأسواق وبأبواب

القصور، ولبست العساكر، وزينت القصور، وأخرج الأمر من خزائنه وذخائره قماشاً وصياغات وأواني ذهب وفضة، فزين بها وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوماً، وأحضر الكباش الذي يذبح في العقيقة وعليه جل ديباج وقلائد فضة، وذبح بحضرة الأمر، وأحضر المولود فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله، ونثرت الدنانير على رؤوس الناس، وعملت الأسمطة، وكتب إلى الفيوم والشرقية والقلوبية، بإحضار الفواكه فأحضرت وملىء القصر من الفواكه وغير(ذلك) وامتلاً الجو بدخان العود والعنبر.

وفي يوم الثلاثاء الثاني من ذي القعدة، قتل بجزيرة مصر الخليفة الأمر أبو علي المنصور بن المستعلي بالقرب من المقياس، وثب عليه عدة من النزارية فقتلوه، وحمل إلى المركب وأحدر من الخليج إلى اللؤلؤة، وحمل منها إلى القصر، فتوفي باقي يومه، وقبض على الجماعة فقتلوا وأحدروا في النيل، ونهب سوق الجزيرة.

وكان عمره يوم قتل أربعاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، ومولده يوم الثلاثاء الثالث عشر من محرم سنة تسعين وأربعمائة، وبويع يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين، وقتل يوم الثلاثاء ثالث عشر ذي القعدة وقيل ثاني عشره، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر ونصف، ولم يزل محكوماً عليه حتى قتل الأفضل وتولى المأمون، فتزايد أمره عما كان عليه في أيام الأفضل، فلما قتل المأمون ظهر أمره وصار يتصرف ويركب في يوم الجمعة والسبت والثلاثاء، فإذا لم يركب في يوم من هذه الأيام ركب في يوم غيره، فكان الناس من القاهرة ومصر يخرجون بالمعاش للنظر إليه فيكون يوم ركوبه مثل يوم العيد.

ولم يستوزر بعد المأمون وزير سيف، بل استبد بأمره وياشرها بنفسه، وكان قبيح السيرة في الرعية مبالغاً في ظلمهم وأخذ أموالهم واغتصاب

أملأهم، كثير السفك للدماء، يرتكب المحظورات ويستحسن القبائح،
وقد تقدم تمكينه الراهب.

وفي أيامه ملك الإفرنج كثيرا من المعازل والحصون بساحل الشام مما
كان بيد آبائه، فملك عكا في شعبان سنة سبع وتسعين، وعرقه في
رجب سنة اثنتين وخمسمائة، وتسلموا طرابلس بالسيف في يوم الاثنين
لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة وملكوا بانياس
وجبيل بالأمان لثمان بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، ثم قلعة
تبين في سنة إحدى (عشرة) وخمسمائة، ثم تسلموا صور في سنة ثمان
عشرة وخمسمائة.

ومن شعره:

أما والذي حجت إلى ركن بيته

جراثيم ركبان مقلدة شهباً

لأقتحم من الحرب حتى يقال لي

ملكيت زمام الحرب، فاعتزل الحرباً

وينزل روح الله عيسى بن مريم

فيرضى بنا صحباً ونرضي به صحباً

وكان قد تجهز ليسافر إلى الشام للغارة على بلاد خليفة بغداد، فعمل
آلات السفر منها مخالي الخيل من الديباج وقال في ذلك:

دع اللوم عني، لست مني بموثق

فلا بد لي من صدمة المتحقق

وأسقي جيادي من فرات ودجلة

وأجمع شمل الدين بعد تمزق

ووزراؤه: الأفضل ثم المأمون.

وقضاته: ابن ذكا النابلسي، ثم نعمة بن بشير الجليس النابلسي، واستقال فولى الرشيد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد الصقلي ومات، فتولى الجليس النابلسي ثانيا ثم صرف، وولى أبو الفتح مسلم بن الرسعني وصرف، فتولى أبو الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي ومات، فولى أبو عبد الله محمد بن هبة الله (بن) ميسر القيسراني، وقتل الأمر وهو على القضاء.

وكتابه في الإنشاء: الشريف سناء الملك أبو محمد بن محمد الحسيني الزيدي، والشيخ الأجل أبو الحسن بن أبي أسامة الحلبي، والشيخ تاج الرئاسة بن الصيرفي، وابن أبي الدم اليهودي.

ونقش خاتمه «الإمام الأمر بأحكام الله، أمير المؤمنين».

ولما قتل كتم الحافظ أمر ولده الذي ولد في هذه السنة فبايع الناس الأمير أبا الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، بولاية العهد إلى أن تنكشف أحوال نساء الأمر، هل فيهن حامل أم لا؟.

وثار الجند وأخرجوا ابن مولاهم أبا علي أحمد بن الأفضل الملقب بكتيفات وولوه إمرة الجيوش في يوم الاثنين وقيل الخميس سادس عشر ذي القعدة، فحكم واعتقل أبا الميمون صبيحة بيعته ودعا للإمام المنتظر.

ويها قبض الحافظ على جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط الكاتب، وإبراهيم السامري الكاتب، ونهب الجند دورهما، وحبسوا بسجن المعونة ثم أخرجوا ميتين.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها رتب أبو علي أحمد بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة، يحكم كل

قاض بمذهبه، ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية الفقيه سلطان وقاضي المالكية البني، وقاضي الاسماعيليه أبو الفضل بن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل، ولم يسمع بهذا قط في ماسلف.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

في يوم الثلاثاء سادس عشر محرم ركب أمير الجيوش أبو علي أحمد بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي إلى الميدان بالبستان الكبير، ظاهر القاهرة للعب بالكرة على عادته، فاتفق جماعة من الأجناد على قتله، فبدره بعض صبيان الخاص بطعنة ألقاه عن فرسه ونزل فاحتز رأسه ومضى بها إلى القصر، وأخرج الحافظ من الخزانة التي كان بها معتقلا وبويع بالخلافة بيعة عامة.

وكان أبو علي قد أسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق، الذي تنسب إليه الاسماعيليه، وأزال من الآذان «حي على خير العمل» وقطع ذكر الحافظ من الخطبة واختار لنفسه دعاء يدعو به على المنبر وهو «السيد الأجل الأفضل مالك أصحاب الدول، والمحامي على حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصرته، بهاضي سيفه وصائب رأيه وتديره، أمين الله على عبادته، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش».

وكانت مدة حكمه سنة وشهرا وثلاثة عشر يوما، وكان إماميا يكثر ذم الأمر والبغض له وكرهه الشيعة، ولما ولي جرى على منهاج أبيه في حب العدل وأعاد على الناس ما أخذ من أموالهم وأملاكهم، فحسده الأمراء وقتلوه، فدفن عند أبيه وجده، وكان يلقب بكتيفات.

وفي ثالث ربيع الآخر قرىء سجل بإمامة عبد المجيد، وركب من باب العيد إلى باب الذهب بزي الخلفاء، ورفع عن الناس بواقي مكس الغلة، وأمر أن يدعى على المنابر «اللهم صلى على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين».

واستوزر أبا الفتح يانس الرومي، من مماليك الأفضل أمير الجيوش، وكان أهدها باديس، جد عباس الوزير الآتي ذكره، إلى الأفضل، ولما ولي الوزارة لقبه الحافظ بأمير الجيوش، فتتبع الطائفة المعروفة بصبيان الخاص وقتل منهم جماعة منهم قاتل أبي علي كتيفات، وكان عظيم الهيبة بعيد الغور، كثير الشر، فخافه الحافظ وتخليل منه فأحس بذلك، فاستوحش هو أيضا من الحافظ وأخذ كل منهما يدبر على الآخر، فسبق تدبير الحافظ فيه وسمه في إبريق فاستعمل منه الماء وقت الطهارة فتلف منه، وتدارك نفسه بالعلاج حتى قارب النهوض والبرؤ، فشاور الحافظ بعض خواصه من الأطباء فأشار عليه أن يتوجه إلى زيارته وتهنئته بالعافية، فإن أمير المؤمنين إذا دخل عليه لا بد أن ينهض للقاءه ماشيا وإذا مشى لا يكاد يبقى، فمضى إليه الحافظ فلما رآه يانس قام للقاءه وخرج عن فراشه، ومضى الحافظ بعد زيارته فانتكس ومات من ليلته في السادس والعشرين من ذي الحجة فكانت وزارته تسعة أشهر وأياما.

وفي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول صرف عن قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، وتولى مكانه سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر، وأضيفت الدعوة إليه فصار قاضي القضاة وداعي الدعاة.

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

فيها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية، فكانت حرب بينهم وبين العسكرية.

وفيها تولى نظر الدواوين الشريف معتمد الدولة علي بن جعفر بن غسان المعروف بابن أبي العساف.

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

في شعبان كانت حرب بين أبي تراب حيدرة ابن الخليفة الحافظ، وبين أخيه حسن طالت واشتدت، فافترق لذلك العسكر فرقتين: فرقة مع أبي تراب، وفرقة مع حسن، وهما الريحانية والجوشية، فكانت بينهم حروب بين القصرين قتل فيها من الطائفتين نحو عشرة آلاف نفس، وسبب ذلك أن الحافظ جعل ابنه حيدرة، ولي العهد من بعده، فلم يرض أخوه حسن بذلك، فكانت بينهما الحروب المذكورة، فاستظهر حسن على أخيه وهرب حيدرة والتجأ إلى أبيه، فبعث أبوه خلف ابنه حسن ليسكن أمره، فامتنع من المجيء إليه وطالبه بحيدرة أخيه، وضايق القصر وحاصره حصاراً شديداً، هذا والحافظ يتلافى ولده حسن وولاه ولاية العهد من بعده وكتب بذلك سجلاً قرىء، فتمكن حسن من الدولة وتصرف فيها حتى لم يبق لأبيه معه حكم البتة.

وفي يوم الخميس الثامن من شوال قتل القاضي سراج الدين أبو الثريا نجم، وقتل معه الشريف أبو العينين وجماعة، ورد حسن بن الحافظ القضاء لابن ميسر، وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

وتوفي القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد بن حمدون الكناني، قاضي الاسكندرية بثغر رشيد، وهو

عائد من مصر في جمادى الآخرة، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة وكانت له مدة في القضاء، وهو الذي كان السبب في اعتقال أبي الصلت أمية ورثي بعدة قصائد، وذكره السلفي وأثنى عليه.

وفي جمادى الأولى توفي أبو عبد الله الحسين (بن) أبي الفضل عبد الله ابن الحسين الزاهد الناطق بالحكم بن بشرى، المعروف بابن الجوهري، واعظ ابن واعظ ابن واعظ، قرأ عليه السلفي وكان حلو الوعظ لم يكن في بيتهم أحلى كلاماً منه، وتعرض في آخر عمره لما لا يعنيه، فوشى به إلى الخليفة فسيره إلى دمياط وبها مات، وذلك أن الأمر ظهر له ولد يسمى قفيفة كان عند ابن الجوهري فعلم به الحافظ الخليفة.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها اشتد أمر حسن واستقل بتدبير الدولة، وكان الأمراء والأجناد يميلون إليه، فلذلك سألوا الحافظ أن يوليهم أمرهم، ففوض إليه ذلك كما مر، فحسده أخوه حيدرة، وقال: أنا ولي العهد، فجمع كل منهما واقتتلا فقتل بينهما جماعة من الأمراء وقتلهم بسبب قيامهم مع أبي علي كتيفات وأقام غيرهم، فخافه من بقي من الأمراء وعزموا على خلع الحافظ من الخلافة، وخلع ولده حسن، وتجمعوا بين القصرين وبعثوا للحافظ بما هم عليه، فسير إليهم واعتذر وفر ابنه حسن إليه فمسكه وقيده، وبعث إلى الأمراء يعلمهم، فسيروا إليه لابد من قتله فسقاه سما قتل به، وجعله على سرير وأمر أن تدخل إليه الأمراء لتراه وهو ميت، فدخلوا عليه، فلما شاهدوه ميتاً سكنوا واطمأنوا وكان ذلك في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة.

وقيل إن الحافظ دس إلى الأمراء والأجناد أن يثبوا على ابنه حسن، وقيل إن الحافظ جعل ابنه سليمان ولي عهده ليسد به مكان وزير كي يستريح من الوزراء فمات بعد ولايته بشهرين، فحزن عليه وكان أكبر

أولاده، فترشح أخوه حسن، وهو يتلوه في العمر، لولاية العهد، فلم يرضه ذلك، فدعا لنفسه وكاتب الأمراء وعول على اعتقال أبيه ليستبد بالأمر، وأطمع الناس فيما يواصلهم به إذا تم أمره، فامتدت إليه الاعناق وكاتب الأمراء وكاتبوه، ثم خشوا ألا يتم له أمر مع وجود أبيه فأعلموا الحافظ الخبر بمكاتباتهم، فبعث بها الحافظ إلى ابنه حسن وقال: لاتعتقد ان معك أحدا فأوقع حينئذ حسن بعدة من الأمراء وقتلهم وأخذ ما في دورهم وقصد إضعاف أبيه، وأخذ أبوه في إضعافه حتى أفسد عليه أمره وافتقر إلى أبيه، وكان قد سير إلى بهرام الأرمني يستحثه أن يصل إليه بالأرمن، فلما التجأ إلى أبيه وأعلم من بقي من الأمراء بمكانه لخوفه منه فاجتمعوا على طلبه من أبيه ليقتلوه، وصار بين القصرين من الفارس والراجل عشرة آلاف نفس، فراسلهم الخليفة وألان لهم في القول وقبح مرادهم من قتل ولده وأنه قد أزال عنهم أمره فلا يتحكم فيهم أبدا، ووعدهم بزيادة أرزاقهم فأبوا إلا قتله أو خلع الخليفة، وأحضروا الأحطاب والنيران لحرق القصر وبالغوا في الجرأة عليه، فلم يجد بدا من أن سألهم أن يمهلوه ثلاثة أيام ليرى مايفعله، فأجابوه لذلك، ولما علم أنه لابد من قتل ولده قصد أن يكون قتله مستورا بشيء من السمومات، فأطلع طبيبه ابن قرفة، على ذلك، فقال: الساعة ولاينقطع شيء من جسده بل تفيض نفسه لاغير، فأحضر ابن قرفة شربة واستدعى الحافظ ابنه حسن ومازال به حتى شربها كرها من طائفة من الصقالبة جبروه على شربها فمات، وأعلم القوم سرا بما كان ليمضوا إلى دورهم فأبوا إلا أن يشاهده منهم من يثقون به، فانتدبوا أميرا اسمه محمد، وينعت بالأمير المقدم المعظم جلال الدين بن عبد الله بن محمد، ويعرف بجلب راغب، كثير الشر والشغب والجرأة، دخل على حسن وهو مسجى وعليه ملاءة فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكيناً وغرسها في مواضع خطيرة من جسده، فلم يتحرك فعلم حينئذ أنه قد مات، فرجع إلى القوم وأخبرهم الخبر ففرقوا، ثم إن الحافظ بعد ذلك قتل طبيبه ابن قرفة.

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة
خلت منه قدم بهرام الأرمني من الغربية إلى الديار المصرية، فاستوزره
الحافظ ونعته «بسيف الاسلام تاج الملوك» وكان نصرانيا، وذلك أنه لما
وصل واجتمع بالحافظ رأى منه عقلا وافرا وإقداما في الحرب والسياسة
وحسن تدبير.

وسبب وصوله أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه
ممن ولي بعده فتعصب عليه جماعة من الأرمن ورفضوه وولوا عليهم غيره،
فخرج من تل باشر مغضبا وقدم إلى القاهرة فندب للوزارة بها، وأخذ
الحافظ يستشير من يثق به في ذلك فلم يشر به أحد عليه، وقيل: أولا
هو نصراني فلا يرضاه المسلمون، والثاني من شرط الوزير أن يرقى مع
الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزرة الحاجبة بينه وبين الناس،
والثالث أن القضاة نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ويذكرون النيابة
عنهم في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة، فلم يصغ
لذلك وقال: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا وهو وزير السيف، وأما صعود
المنبر فيستنيب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا
حاجة إلى ذلك، ويفعل ما كان يفعل قبل أمير الجيوش، واستوزره
والناس ينكرون عليه ذلك، وقيل أنه ترقى في الخدم حتى ولي ولاية
المحلة وأنه سار منها مجدا حتى وصل القاهرة وحاصرها يوما واحدا
ودخلها، فقرر في الوزارة، وهو الصحيح.

وفي المحرم توفي الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد
الله الجروي الحزامي الاسكندراني المعروف بالحداد الشاعر بمصر.

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

فيها كان خروج بهرام من الوزارة واستقرار رضوان بن الوحشي، وذلك أن بهرام لما ثبت قدميه في الوزارة سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك، فأحضرهم من تل باشر ومن بلاد الأرمن، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان فاستطالوا على المسلمين، وأصاب المسلمين من النصارى جور عظيم.

وبنيت في أيامه كنائس وأديرة حتى صار كل رئيس من أهله يبني له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا ملة الاسلام، وكثرت الشكايات فيه وفي أهله، وكان أخوه المعروف بالباساك قد تولى قوص وجار على أهلها جورا عظيما واستباح أموال الناس وظلمهم، فعظم على أمراء المصريين ذلك وشق عليهم، فبعثوا إلى رضوان بن الوحشي—وكان والي الغربية— كتبهم يستحثونه على المسير إليهم وإنقاذهم مما هم فيه.

وكان رضوان أحد الأمراء بالقاهرة ويوصف بشجاعة وإقدام، فلما ولي بهرام الوزارة خافه وخشي وثوبه عليه، فأبعده عنه وأخرجه من مصر، وكان إذ ذاك يلي حجة باب ابن الخليفة الحافظ، وخلع عليه بولاية عسقلان، في سلخ رجب سنة تسع وعشرين وخمسمائة، فوصل إلى عسقلان وأقام بها فوجد جماعة من الأرمن يتواصلون في البحر يريدون مصر، فناكدهم ورد بعضهم، فعظم ذلك على بهرام فصرفه عن ولاية عسقلان، واستدعاه إلى مصر، فشكره الناس على فعله في رد الأرمن فأخذ بهرام في إبعاده وولاه الغربية في صفر سنة إحدى وثلاثين، فلما وصلت إليه كتب الأمراء شمر لطلب الوزارة، وكان أول ما بدأ به أن رقي المنبر خطيبا بنفسه وخطب خطبة بليغة حرض الناس فيها على الجهاد، وكان ذلك بناحية سخا، وأخذ في حشد العربان وغيرهم فصار في نحو ثلاثين ألف فارس وسار إلى مصر لمحاربة بهرام، فلما قرب من القاهرة خرج

إليه بهرام بعساكر مصر، فلما تقاربوا رفع رضوان المصاحف على الرماح فلما هو أن رأى عسكر المسلمين المصاحف تركوا بهرام والتجأوا بأجمعهم إلى رضوان، وكان ذلك باتفاق منهم مع رضوان قبل قدومه، فلما رأى ذلك بهرام بعث إلى الحافظ يعرفه، فخاف من عاقبة ذلك، وسير إليه بالسير إلى الأعمال القوصية ليقيم بها عند أخيه حتى يرى رأيه، فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ معه ماخف حمله وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى، وسار إلى قوص وبعث بالمراكب في البحر فوصل قوص وماهو إلا أن انفصل عن القاهرة نهب العامة سائر ديار الأرمن، وكانوا قد نزلوا بالحسينية ظاهر باب الفتوح وعمروها منازل للسكنى، ونهبوا كنيسة الزهري، ونبشوا قبر أخيه البطرك.

وانتشر الخبر بانهم بهرام فطار إلى قوص قبل وصوله إليها، فثار المسلمون أيضا بقوص على الباساك أخي بهرام، وقتلوه ومثلوا به وجعلوا في رجله كلبا ميتا وألقوه على مزبلة، فلما كان بعد ذلك بيومين قدم بهرام في طائفة من أقاربه وجنده فرأى أخاه بتلك الحال فقتل من أهل قوص جماعة بالسيف ونهبها وسار عنها إلى أسوان فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة ففارقه جماعة من أهله وعادوا إلى بلادهم واستقر هو هناك، وإلى الباساك تنسب القرية التي بالقرب من إطفيح.

وأما رضوان فإنه لما خرج بهرام من القاهرة دخل إليها فوقف بين القصرين واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله إلى دار الوزارة فنزلها وأخلع عليه خلع الوزارة ونعته «بالأفضل» وذلك لاحدى عشرة خلت من جمادى الأولى.

فكان أول مابدأ به أن بعث أخاه ناصر الدين بعسكر إلى بهرام فصار إلى الأديرة وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها، وعاد الجند الذي كانوا معه إلى مصر وارتحلوا عنها إلى بلادهم.

وفي يوم الأحد لسبع خلون من المحرم في وزارة بهرام صرف عن قضاء
القضاة بديار مصر، أبو عبد الله محمد بن ميسر، وأبعد إلى تنيس وقتل بها
يوم الاثنين ثاني ربيع الأولى، وقدم من قيسارية إلى مصر مع أبيه وهو
صغير في أيام أمير الجيوش بدر الجمالي عند حضوره إلى المستنصر أيام
الشدة، وبعثه إلى البلاد الشامية لإحضار أرباب الأموال وذوي اليسار،
وكان ممن أحضر والد القاضي، وكان له مال جزيل ففوض إليه أمر
الخطابة بمصر، وفتح بمصر دار وكالة وأقام بها مدة حتى مات فترقى
ولده حتى ولي القضاء وتردد فيه عدة مرار وكان له كرم مشهور ورتبه
جليلة وضرب باسمه دنانير كثيرة كان اقترحها على الخليفة الأمر.

وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى لأن أبا بكر محمد بن علي
الماذرائي وزير الدولة الإخشيدية، عمل كعكا وسماه «افطن له» وعمل
عوضا من حشو السكر دنانير، فلما حضر الناس في يوم العيد وأكلوا من
طعامه، أراد بعض خدامه أن يؤثر إنسانا فقال له: افطن له، وأشار إلى
الكعك، فتناول منه وصار يأخذ ما في حشوه من الذهب، فعمل القاضي
ابن ميسر أيضا نظير ذلك صحفا فيه هيئة فستق ملبس حلوى على قلب
فستق من ذهب وأطعمه أهل مجلسه، وسبب قتله أنه كان أسقط شخصا
يعرف بابن الزعفراني فعاداه لذلك، وطلع إلى الخليفة الحافظ وذكره بأن
كتيفات لما ولي الوزارة واعتقل الحافظ وجلس للهناء، ودخل الشعراء
فهنوه بالوزارة، كان في جملة من أنشد علي بن عباد الاسكندري الشاعر
قصيدة يذم فيها خلفاء المصريين وسوء اعتقادهم ذما قبيحا، أولها:
تبسم الدهر بعد تعبيس

إلى أن قال منها في ذم الحافظ:
هذا سلبا نكم قد رد خاتمته
واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فلما وصل (ابن) عباد إلى هذا البيت قام القاضي ابن ميسر وألقى
عرضيته طربا لهذا البيت، فكان ذلك سببا لصرف ابن ميسر عن القضاء
وقتل، وأمر بإحضار الشاعر، فلما قام بين يدي الحافظ قال له أنشدني
قصيدتك، فأخذ في إنشادها حتى قال منها في بيت:
ولا ترضوا عن الخمس المناحيس

يعني الحافظ وأباه وابنية وجده — فأمر أن يلزمه الغلمان، فلزم حتى
مات بين يديه، وكان ينعت «بجلال الدولة»، وكانت علامة ابن
ميسر «الحمد لله على نعمه».

وفيهما مات أبو البركات بن بشرى الجوهري الواعظ في جمادى الأولى
عن إحدى وتسعين سنة، واستخدم في الحكم أحمد بن عبد الرحمن بن
أحمد بن أبي عقيل، ونعت «بقاضي القضاة الأعز أبي المكارم».

وفيهما ثار بناحية برقة رجل من بني سليم أدعى النبوة، فاجتمع عليه
أناس كثير، وزعم أنه ينزل عليه قرآن منه «أيها الناس إنما الناس بالناس،
ولولا الناس لم تكن الناس والجميع برب الناس»، ثم انفض عنه جمعه
وانحل أمره.

وفي ذي القعدة جلس الوزير رضوان لاستخدام المسلمين في المناصب
التي كانت بأيدي النصارى، واستجد ديوان الجهاد، وأحضر جميع
الدواوين وكشفها ورتبها، ودبر الأمور أحسن تدبير.

وكان من جملة الضمان في أموال الدولة هبة الله بن عبد المحسن
الشاعر، فلما عرض حسابه وجد قد انكسر عليه في ضمانه، فكتب له في
مجلسه هذه الأبيات:

أنشاعرو صناعتني الأدب

وضمان مثلي المال لا يجب

أنا مستمحيكم وليس على من
جاء يطلب رفقكم طلب
وإذا تأخر الباقي علي فما
من حاصـل ورق ولا ذهب

فسامحه مما عليه من الباقي.

وفي رمضان أحضر من الصعيد الأعلى جماعة يقدمهم رجل بجاوي
يدعى فيه أصحابه أنه إله، فصلبوا أصحابه وقطعت رأسه.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسة

فيها أطلق الوزير رضوان شمس الخلافة مختار الأفضل، صاحب باب
بهرام، من اعتقاله وولاه الاسكندرية.

وفيها شدد رضوان على النصارى أصحاب بهرام وصادرهم وقتلهم
بالسيف وأباد أكثرهم.

وفيها أحضرت من تنيس امرأة بغير يدين وموضع اليدين مثل
الحلمتين، فأحضرها الوزير إلى مجلسه وأخبرته أنها تعمل برجليها
ماتعمله بيديها من رقم وخط وغير ذلك، فأمر لها بدواة، فتناولت الأقلام
برجلها اليسرى (وتأملتها) قلما قلما، فلم ترض شيئا منها فأخذت السكين
وبرت لنفسها قلما وشقته وقطعته واستدعت ورقة فأمسكتها بالرجل
اليمنى وكتبت بالرجل اليسرى رقعة بأحسن خط تكتبه النساء، وحمدت
الله في آخر الرقعة وناولتها الوزير، فإذا قد سألته فيها أن يزداد في راتبها،
فزداد لها خلف رقعتها وأعادها لبلدها.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسة

في رمضان سير الحافظ من أحضر إليه بهرام الأرمني وأسكنه بالقصور عنده وأكرمه، فعظم ذلك على رضوان، وأخذ الحافظ يشغب عليه الجند حتى ثاروا به، فكانت بينهم وبين رضوان حرب بالقاهرة، فطلب السكن مع الحافظ في القصر، فلم يجبه، فازدادت الوحشة بينهما حتى ضعفت قدرة رضوان على لقاء العسكر ففر من مصر في خامس عشر شوال وقيل في ثالث عشره، وقصد كمشتكين، والي صرخد، وأقام عنده مكرما مبجلا.

وفي شعبان توفي الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن ابن أبي عقيل، فأقام منصب القضاء شاغرا ثلاثة أشهر.

ثم اختير في ذي القعدة أبو العباس أحمد بن الحطيئة، فاشترط أن لا يحكم إلا بمذهب الدولة، فلم يتمكن من ذلك، فتقدم رضوان إلى الفقيه أبي (عبد الله) محمد بن عبد المولى أن يعقد الأنكحة.

ثم ولي الحافظ قضاء القضاة للقاضي فخر الأمناء هبة الله بن حسين الأنصاري في الحادي عشر من ذي القعدة.

سنة أربع وثلاثين وخمسة

في سلخ المحرم عاد الأفضل رضوان بن الوحشي من صرخد، في جمع كثير، فبرزت له العساكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى إلى سطح الجرف ونزل بباب الرصد في يوم الثلاثاء مستهل صفر، ثم مضى إلى الصعيد، فسير الحافظ عسكرا يقدمه الأمير (سيف الدولة) أبو الفضائل ابن مصال ودفع إليه أمانا فصار إليه ولم يزل به حتى أحضره إلى القصر

في يوم الاثنين رابع ربيع الآخر، فعفا الحافظ عن الأتراك الذين حضروا معه، واعتقله هو بالقصر.

وفي سابع عشر جمادى الآخرة أضيف لقاضي القضاة هبة الله بن حسن الأنصاري الأوسي، المعروف بابن الأزرق، تدريس دار العلم، فمضى إليها، وكان مدرستها الفقيه أبو الحسن علي بن اسماعيل، فجرى بينهما مفاوضات أدت إلى المصافعة والخصام، فخرج القاضي إلى القصر ماشيا وقد تخرقت ثيابه وسقطت عمامته، فأعلم الحافظ بالخبر، فعظم عليه خروج القاضي في الأسواق على تلك الهيئة فصرفه عن الحكم ورسم عليه وغرمه مائتي دينار وألزمه داره، وولى عوضا عنه أبا الطاهر اسماعيل ابن سلامة الأنصاري، ونعته «بالموفق في الدين» في هذا اليوم بغير تقليد، فأقام إلى غرة المحرم سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فوفر جاري الحكم، وهو أربعون دينارا في كل شهر وخدم بجاري التقدمة على الدعاة وهو ثلاثون دينارا في الخدمتين، فأجيب إلى ذلك واستمر.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر مات بهرام الأرمني بالقصر، وكان الحافظ قد أنزله عنده في دار بالقصر، ولم يمكنه من التصرف وكان يشاوره في تدبير الدولة فلما مات حزن عليه حزنا كثيرا بحيث ظهر على القصر كمد، وأمر بغلق الدواوين وأن لا تفتح ثلاثة أيام، وأحضر بطرك الملكية بمصر وأمره بتجهيزه، فأخرج عند صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج وحوله النصاري يبخرون باللبان والسندروس والعود، وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته، وخرج الحافظ راكبا بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أحضر بغير طيلسان، فما زال الناس سائرين والأقساء يعلنون بقراءة

الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، فنزل الحافظ عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديداً.

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان (بن) إبراهيم بن المسلم المعروف بابن رشا المقدسي في آخر جمادى الآخرة.

سنة ست وثلاثين وخمسة

في ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سقطت صاعقة أحرقت ركن المنارة من الجامع العتيق بمصر.

وفي شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير، فبلغ القمح تسعين درهما الأردب، والدقيق مائة وخمسين الحملة، والخبر ثلاثة أرطال بدرهم، والويبة الشعير سبعة دراهم، والزيت الطيب الرطل بثلاثة دراهم، والجبن كل رطل بدرهمين، والبيض كل مائة بعشرة دراهم، والزيت الحار الرطل بدرهم ونصف، والقلقاس كل رطل بدرهم، والدجاج والفراريج لا يقدر على شيء منها، وكثر الوباء والموت.

وفيها مات أحمد بن مفرج بن أحمد (بن) أبي الخليل الصقلي الشاعر، المعروف بتلميذ ابن سابق كان فاضلاً ذكياً يتصرف في فنون شتى، وله رسائل في غاية الحسن وشعر فائق، فمناه، وقد كان الشعراء في أيام الحافظ قد أطنبوا في المديح وتناهوا في القصائد حتى صار الإنشاد يؤدي إلى قصر الوقت الذي جرت العادة باستماع أشعارهم لطول مثولهم بالخدمة، فأمروا لذلك بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار، فقال أحمد ابن مفرج، يخاطب الخليفة الحافظ:

- ١١٥٣٢ -

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لا بد أن تجري سوابقنا
حتى بين لها في مدحك الأثر

فأمرنا بها كانوا عليه أولا.

سنة سبع وثلاثين وخمسة

فيها عظم الوباء بديار مصر فهلك فيه عالم لا يحصى.

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولا لرجار، ملك صقلية، بسبب
محاربه أهل صقلية، وكان رجار يحب مديح الشعراء ويجزئهم، فذهب
إليه جملة من الشعراء ومدحوه منهم ابن قلاقس وأمر أن يصنف له
تأريخ فصنف له تأريخ كبير.

سنة ثمان وثلاثين وخمسة

فيها خرج محمد بن رافع اللواتي بالبحيرة في طائفة كبيرة من العربان،
فسار إليهم طلائع بن رزيك، والي البحيرة، وحاربهم فكسرهم، وقتل
أميرهم محمد بن رافع.

وفيها غلت الأسعار بمصر.

سنة تسع وثلاثين وخمسة

فيها سير الحافظ الرشيد أبا الحسن أحمد بن الزبير رسولا إلى اليمن
بسجل يقرأه عليهم، فسار في ربيع الأول.

وفيهما خرج أبو الحسين بن المستنصر إلى الأمير أبي المظفر خمارتاش، صاحب الباب الحافظي، وقال له: اجعلني خليفة وأنا أوليك الوزارة، فأعلم الحافظ بذلك فقبض عليه واعتقله.

وفي جمادى الآخرة قدم من دمشق إلى مصر الأمير مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ وإخوته وأولادهم، ونظام الدين أبو الكرام محسن، وزير صاحب دمشق، مغاضبين لصاحب دمشق.

سنة أربعين وخمسة

فيها أعيد نظر الدواوين والأترار والخزائن للقاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى.

سنة إحدى وأربعين وخمسة

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختيار طالبا للوزارة بأرض الصعيد، فندب إليه عسكريا عليه سلمان بن يونس اللواتي، فمضى إليه وحاربه، فانهزم فاتبعه حتى أخذه أسيرا وقتله وصلبه.

ولسبع بقين من جمادى الآخرة قدم إلى مصر صافي الخادم، أحد خدام المتقي من بغداد فارا فأكرمه الحافظ.

وفيهما منع الحافظ من التعرض لصرف شيء من المال الحاضر من الأعمال في جوارى المستخدمين وأن يكون مايسيب، منها على البواقي والفاضل في هذه السنة.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

في ربيع الآخر أعيد نظر الدواوين للقاضي المرتضى أبي عبد الله محمد ابن الحسين الطرابلسي المعروف بالمحنك، وصرف أبو الكرم التنيسي.

وفيهما بعث الحافظ لظهر الدين، صاحب دمشق هدايا وخلعا وتحفا.

وفي ليلة الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة خرج رضوان الوزير من نقب نقبه بالقصر، في الموضع الذي كان معتقلا فيه، وركب وحوله جماعة ممن كان يكاتبه، وسار إلى الجيزة فنزل بها، واستنجد بجماعة كثيرة من طوائف العربان، وسار إلى القاهرة، فخرج إليه عسكر الحافظ فحاربهم عند جامع ابن طولون، فانهزموا منه، ودخل إثرهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأحمر، فغلق الحافظ أبواب القصر في وجهه، فأحضر رضوان أرباب الدواوين وأرباب الدولة وأمر ديوان الجيش بعرض الجند، وأخذ أموالا كانت خارجة عن القصر في الدواوين وفي وظائف العسكر، وقيل أنه سير يطلب من الحافظ المال، فسير إليه عشرين ألف دينار، وبعث الحافظ خلف مقدمي السودان وأمرهم بالهجم على رضوان وقتله، فخرجوا إليه وهاجموه فلما رأهم هم بالركوب فبدره بعض السودان بسيفه، قتله به وقتل معه أخاه، وأخذ السودان رأسهما ودخلا بهما إلى الحافظ فسكنت الفتنة.

وبعث الحافظ رأس رضوان إلى زوجته، فلما وضعت في حجرها قالت: هكذا تكون الرجال.

وكان رضوان سنيا حسن الاعتقاد، شجاعا شديدا البأس، ثابت الجنان، ولد ليلة غدير خم من سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأول ولاية وليها قوص وإخميم في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

وفي يوم الأحد لعشر بقين من صفر توفي الشيخ الفاضل أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المنعوت بتاج الرئاسة، صاحب الرسائل، أخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج، صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسيني الزيندي، ثم تفرد بالديوان فصار فيه بمفرده، وكان أبوه صيرفيا وجده كاتباً، ومولده بمصر يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وله تصانيف عدة في الأدب والتاريخ والترسل، وله شعر.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

في ثالث صفر توجه العسكر لقتال لواته، وكان قد قام فيهم رجل قدم من الغرب ادعى أنه ابن نزار، فكانت بينهم وقعة على الحمامات انهزم فيها عسكر الحافظ، فسير إليهم عسكراً ثانياً ودس إلى مقدمي لواتة مالا جزيلاً ليقتلوا ابن نزار، فقبلوا المال وقتلوا المذكور وبعثوا برأسه إلى الحافظ، وذلك في صفر، وعادت العساكر في ثاني ربيع الأول.

ولسبع خلون من المحرم صرف عن قضاء القضاة أبو الطاهر اسماعيل ابن سلامة الأنصاري واستقر على الدعوة فقط، واستخدم في القضاء أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن القرشي القدسي.

وفي رجب قطعت أيدي بني الأنصاري وصلبوا على بابي زويلة الكبير والصغير.

وفيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعاً وأربعة أصابع، وبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع (الأعظم) خارج القاهرة، فكان الناس يتوجهون إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر، فلما بلغ الحافظ أن الماء

وصل إلى الباب الجديد أظهر الحزن والإنقطاع، فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن هذا السبب، فأخرج له كتابا وقال: انظر هذا السطر، فقرأه الرجل فإذا فيه «إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال هذا الكتاب الذي نعلم فيه أحوالنا وأحوال الدولة وما يأتي بعدها فاتفق بعد ذلك مرضى الحافظ إلى آخر السنة.

سنة أربع وأربعين وخمسة

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيوشية والطائفة السودانية الريحانية، فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها عدة من الطائفتين، وامتنع الناس من المضي للقاهرة والطلوع إلى مصر، وكان التقاؤهم أولا يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى، ثم في يوم السبت رابع جمادى الآخرة، فانهزمت الريحانية إلى الجيزة.

واشتغل الناس بوفاة الخليفة، وكان القصد القيام عليه وإزالته من الخلافة فمات في ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة، ومولده في المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وقيل ثمان وستين، ومدة خلافته من يوم بيعته عند قتل كتيفات ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

ولاقى في أول أيامه شدائد وحكم عليه، فما زال يسوس أمره حتى مسك رضوان الوزير واعتقله ولم يستوزر بعده أحدا، بل كانوا كتابا على سنة الوزراء أرباب العمام كأبي عبد الله محمد بن الأنصاري، والقاضي الموفق التنيسي، وصنيعة الخلافة أبي الكرم الأخرم النصراني.

وكان حازم الرأي جامعاً للأموال لا يجب أن يكون له وزير لما جرى عليه من وزرائه، ولم يل الخلافة أحد من أهل بيته من أبوه غير خليفة

غيره ثم العاضد، وكان عنده سبعة من المنجمين منهم المحقوق وابن الملاح وابن القلعي وابن موسى النصراني.

وفي أيامه عملت الطبلة التي كسرت في أيام السلطان صلاح الدين، وكانت إذا ضرب عليها من به قولنج تنفس عنه الريح.

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل، ويوسف، وأبا المنصور اسماعيل، وتولى الخلافة بعده ولقب بالظافر.

فاستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال ولقبه «بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش» وهو يومئذ من أكابر أمراء الدولة.

وفي رابع شعبان اجتمع بالبهنساوية جمع كبير من السودان والمفسدين، فخرج إليهم الوزير ابن مصال وحاربهم فكسرهم.

ففي أثناء ذلك ثار عليه الأمير المظفر أبو الحسن علي بن السلار والي الاسكندرية وعاجله إلى مصر فدخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع شعبان المذكور، ووقف على باب القصر وسير إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء فأعلم بحاله، وكانت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة آلت إلى أن فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة ولقب (بالعادل) فبلغ ذلك ابن مصال فجمع من العربان جمعا صالحا، وقصد ابن السلار ومعه بدر بن رافع، مقدم العربان في تلك البلاد، فندب ابن السلار ربيبه عباس بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس في عسكر فنزل بركة الحبش، وسير ابن مصال طائفة من عسكره مع الأمير الماجد فجد في السير وكبس عسكره عباس فأكثر من القتل والجراح فيهم، فانهزم عباس إلى القاهرة وعاد الأمير الماجد إلى ابن مصال فأجمع رأيهم على السير إلى بلاد الصعيد لجمع العربان والأجناد، فتوجه لذلك وأخذ ابن السلار في تجهيز عباس فجهزه في عسكر كثيف خوفا من اجتماع الناس

على ابن مصال، فلحقه عباس على دلاص وكان ممن معه طلائع بن رزيك، وكان مقدما في هذه النوبة، فكانت بينه وبين ابن مصال وقعة انجلت عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع في يوم الأحد تاسع عشر شوال، وعاد عباس بمن معه إلى ابن السلار برأس ابن مصال فطيف بها في القاهرة ومصر، وخلع على ابن السلار في ذلك اليوم.

وكان ابن مصال من برقة وتعاطى أولا البيزرة والصيد هو وأبوه من قبله، فقدم في الدولة حتى نال الوزارة فاتفق أن رآته في وزارته امرأة كانت تعرفه في حال فقره، فقالت له: سليم وزرت فقال لها: نعم، فقالت له: والله ماوزرت وبقي أحد، فضحك وأمر لها بصلة.

وفي السادس والعشرين من رمضان أغلق العادل بن السلار (أبواب) القاهرة والقصور، وأمسك صبيان الخاص وقتلهم عن آخرهم، وكانوا جمعا كبيرا.

وصبيان الخاص هم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة، فكان الرجل منهم إذا مات وله أولاد حملوا إلى حضرة الخلافة ويودعوا في أماكن مخصوصة، ويؤخذ في تعليمهم الفروسية ويقال لهؤلاء الأولاد صبيان الخاص، وسبب قتل (ابن) السلار لهم أنه بلغه عنهم أنهم تعاقدوا على أن يهجموا في داره بالليل ويقتلوه، فقبض عليهم وقتل أكثرهم وبعث بمن بقي منهم فركزهم في الثغور.

وفي يوم الجمعة رابع شوال قتل العادل بن السلار أبا الكرم محمد بن معصوم التنيسي، ناظر الدواوين، وذلك أنه كان قبل الوزارة من صبيان الحجر، وكان يعاود الدخول على الموفق في الرسائل ويكلمه بكلام غليظ، فكرهه الموفق لذلك، فاتفق أنه كتب لابن السلار منشورا بإقطاع فدخل به إلى الموفق فتغافل عنه وأهمل أمره، فقال له ابن السلار:

ما تسمع، فقال له الموفق: كلامك ما يدخل في أذني أصلا، فأخذ ابن السلار منشوره وخرج، وضرب الدهر ضرباته وصار ابن السلار ملكا فدخل عليه الموفق بن التنيسي وسلم فقال له: ما أظن كلامي يدخل في أذنك، فتلجلج الموفق وقال له: عفو السلطان، فقال: قد استعملت العفو من خروجي من عندك، وأشار لبعض خدمه فأحضر مسمارا من حديد عظيم الخلقة، فقال له: والله هذا أعددت لك من ذلك الوقت، وأمر به فجر وضرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى، فأمر به فحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة وعلق عليها ميتا ثم أنزل بعد ذلك.

وفي سابع عشر شوال رمي برأس سعيد السعداء من القصر، وصلب بباب زويلة من ناحية الخرق، وإليه نسب دويرة سعيد السعداء، وهي الآن خانقاه.

وفي رابع عشر صفر قتل تاج الرئاسة بن المأمون.

وفيها مات أبو الحسن علي بن الحسن البيساني، والد القاضي الفاضل بمصر، وكان قاضي عسقلان، والناظر فيها، ومولده ثامن عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة، وولد أبوه الحسن يوم غدیر خم سنة ستين وأربعمائة، ومات مستهل ربيع آخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

في رجب غار جمع كبير من الفرنج على الفرما وأحرقوها وأخربوها ونهبوا أهلها.

سنة ست وأربعين وخمسمائة

فيها جهز العادل بن السلار المراكب الحربية بالرجال والعدة فسارت في ربيع الأول إلى يافا، فأسرت عدة من مراكب الإفرنج، وأحرقت ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقا كثيرا من أهل يافا، ثم قصدوا ثغر عكا وفتكوا فيه، وساروا منه إلى صيدا وببيروت وطرابلس فأبلاوا بلاء حسنا وظفروا بجماعة من حجاج الأفرنج فقتلوهم عن آخرهم.

وبلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي، ملك الشام، فهم بقصد الفرنج في البر ليكون وهو في البر والأسطول المصري في البحر، فعاقه عن ذلك الشغل بإصلاح دمشق، ولو اتفق مسيره مع الأسطول كان يحصل الغرض من الفرنج.

وكان جملة ما أنفقه العادل بن السلار على هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار، وكان سبب تجهيزه مافعله، الفرنج في مدينة الفرما.

وفيها قطعت جميع الكسوات عن الناس من الأهراء والدواوين وغيرهم.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيها صرف العادل بن السلار عن القضاء أبا الفضائل يونس، واستخدم عبد المحسن بن محمد بن مكرم، ثم ولي بعده أبا النجم بدر ابن ثمال بن نصير، وقيل بل الذي ولي أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا الأرسوفي الشافعي.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

في سادس المحرم قتل أبو الحسن علي بن السلار، سلطان مصر، قتله ربيبه عباس، وذلك أن العادة كانت جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر مصر لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد نزلوا عليها وحاصروها في السنة الماضية، فلما قدم البدل في هذه السنة، وكانت النوبة لعباس، خرج ومعه من الأمراء، ملهم، والضرغام، وأسامة بن منقذ وغيره، وكان لأسامة بعباس خصوصية.

فلما برزوا من بليس تذاكر عباس وأسامة مصر وطبيها وماهم خارجون إليه من شدة السفر ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك وأخذ يلوم العادل ويعتب عليه وكونه جرده، فقال له أسامة: لو أردت كنت سلطان مصر، فقال: كيف الحيلة؟ فقال: هذا ولدك بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فخطبه على لسان ولدك أن تكون أنت السلطان موضع عمك فإنه يختارك ويكره عمك، فإن أجابك فاقتل عمك.

فأحضر عباس ابنه نصر وأسر إليه ماتقرر مع أسامة وسيره إلى مصر، فاتفق أنه وجد عند دخوله غفلة من العادل أمكنه فيها الاجتماع بالظافر، فأعلمه الحال فوافقه على ذلك، ومضى نصر إلى دار جدته، زوجة العادل، وأعلم العادل أن أباه سيره من بليس شفقة عليه من السفر.

فلما أصبح العادل مضى إلى مصر بكرة النهار وجهاز المراكب الحربية وأنفق في رجالها وعرضها لتلحق عباسا وأقام نهاره ثم عاد آخر النهار إلى القاهرة وقد لحقته شدة من التعب، فنام على فراشه، فقام إليه نصر بن عباس على حين غفلة واحتز رأسه ومضى بها إلى الظافر بالقصر.

فسرح الطائر من فوره إلى بليس، فقام عباس لوقته ودخل إلى القاهرة

صبيحة نهار الأحد ثاني عشر المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد نفروا واستوحشوا مما وقع، فأخذ في تسكينهم فلم يطمئئوا إليه وخرجوا على وجههم إلى دمشق.

وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصفاً، ولما حملت رأسه إلى القصر أشرف الظافر من باب الذهب، ورفعت الرأس ليراها الناس، ثم أمر فحملت إلى بيت المال فوضعت في خزانة الرؤوس، فأودعت بها.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

في ليلة الخميس سلخ محرم خرج الظافر متنكراً ومعه خادمان إلى دار نصر بن عباس، وهي الدار المعروفة بدار جبر بن القاسم، ثم عرفت بدار المأمون بن البطائحي، وهي الآن المدرسة السيوفية فاتفق أن نصرا قتل الظافر وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل معه أحد الخادمين وهرب الآخر.

وسبب ذلك أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن لعباس أن يقتل عمه العادل، وهموا بقتله، فبلغه ذلك فأخذ يقول لعباس: كيف تصبر على ما تقول الناس في ولدك، واتهامهم له بأن الخليفة يفعل به مايفعل مع النساء؟ فعظم ذلك على عباس، واتفق أن الظافر أنعم على نصر بقلوب، فحضر نصر إلى أبيه وأعلمه بذلك، فقال أسامة بن منقذ ماهي بمهر ك غالية، فقال عباس لابن منقذ: كيف تكون الحيلة في هذا الأمر؟ فقال له: الخليفة في كل وقت يأتي ولدك في هذه الدار خفية، فإذا أتاه مرة يقتله، فأحضر عباس ابنه وأمره بذلك، فلما أتاه الخليفة في ليلة الخميس قتله كما ذكرنا.

وركب يوم الخميس عباس الوزير في أوله إلى القصر على العادة، وقال

لبعض الخدم: أعلم مولانا لنجلس للاجتماع معه، فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من الاجتماع بالخليفة، فقبل إنه خرج البارحة ولم يعد، وحضر في أثناء القضية الخادم الذي كان معه وأعلمهم الحال، وشدد عباس في طلب الخليفة، وقام بنفسه ودخل القاعات ومعه كبار الخدم، وقال لهم: لا بد من مولانا الخليفة، فقبل له حينئذ أنت أعلم بحاله فأمر بإحضار أخويه: أبي الأمانة جبريل، ويوسف، وقال لهما: أنتما قتلتما الخليفة، فأنكرا ذلك وحلفا عليه، وهو يتماذى عليهم، فأحضر القاضي وداعي الدعاة أبا الظاهر بن اسماعيل بن عبد الغفار، والفقيه مجلي وعرفهم أنه صح عنده أن أخوة الظافر قتلوه، فأفتى الجماعة بقتلهم، فأمر حينئذ بهما فقتلا بين يديه، وقد أحضر عيسى بن الظافر، وهو طفل صغير، فبايعه بالخلافة وأخرجه للناس ونعته «بالفائز» فحصل له رجفة مما رأى من قتل عميه، فكان يصرع كل قليل.

وكان الظافر من أحسن خلق الله وجهاً، ولد يوم الأحد نصف ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وقتل ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين، فكانت مدة ملكه أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وعمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً.

وظن عباس أن الأمر استقام له، فكان الأمر بخلاف ذلك، وكثرت نياحة أهل القصر على الظافر وأخذوا في إعمال الحيلة على عباس، وكانت الأمراء والسودان قد نفروا عنه لإقدامه على القتل، فاختلفت الكلمة عليه وهاجت الفتنة بالقاهرة وتفرق العسكر فرقا ولبسوا السلاح، فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين عاشر ربيع الأول وحاربهم فكسروهم وقتل منهم جماعة، وبعثت عمه الفائز إلى طلائع بن رزيك، وهو على الأعمال الأسيوطية، بالكتب في طيها شعور النساء تستصرخ به على

عباس، فجمع العربان والأجناد ومقطعي البلاد، وحشد وسار من منية الخصيب يوم السبت لثمان خلون من ربيع الأول.

وبلغ عباس فجهز إليه عسكريا فصار من القاهرة عاشر ربيع الأول فوصل إطفيح بكرة الثلاثاء خامس عشره، وسارت عربان إطفيح إلى ابن رزيك فوافوه بأبويط، وسار فنزل دهشور من الجيزة، فوصلته الأخبار بخروج عباس من القاهرة فصار ونزل قبالة المقس عشية نهاره.

وخرج الناس للقاءه فبات في عشاري، وأصبح فأقام به إلى يوم الأربعاء تاسع عشره، فركب ليريد القصر، فخرج إليه الأمراء، فممنهم من قابله ومنهم من التحق به، وبعد ساعة انجلى الأمر عن فرار عباس وأسامة بن منقذ بما خف من المال والتحف إلى جهة أيلة ليصير إلى الشام، ونهب الناس دورهم.

ودخل طلائع القاهرة وشقها بعساكره وهو لابس ثيابا سوداء، وأعلامه وبنوده سود، وشعور نساء القصر على الرماح حزنا على الظافر، فكان ذلك من عجيب التفاؤل فإن الدولة انتقلت عما قليل إلى بني العباس، ودخلت أعلامهم السود إلى القاهرة.

ونزل طلائع دار المأمون التي كان يسكنها عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل فأعلمهم مكانه فأخرجوه وغسلوه وكفنه وعمله في تابوت مغشى، وحمله الأستاذون والأمراء، ومشى طلائع والناس حتى وصلوا به إلى القصر فصلى عليه ابنه الفائز، ودفن في تربة القصر.

وجلس الفائز بقية النهار، وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد، وعلى ولده وإخوته وحاشيته، وقرىء سجله بالوزارة ونعت

«بالمملك الصالح» وعلى طرة السجل بخط الفائز مانصه: «لوزيرنا السيد الأجل المملك الصالح» وتتممة النعوت والدعاء ، من «جلالة القدر، وعظم الأمر وفخامة الشأن وعلو المكان، واستحباب التفضيل، واستحقاق غايات المن الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه دون الخلائق إلى القيام بحق مشايعتنا وطاعتنا، مابعثنا على التبرع له ببذل كل مصون، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون»، والذي تضمنه هذا السجل من تقريره وأوصافه، «فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه، ولذلك شرفناه بجميع التدبير والإنالة، ورفعناه إلى أعل رتب الأصفياء بما جعلنا له من الكفالة، والله تعالى يعضد به دولتنا، ويحوط به حوزتنا، ويمده بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غايات الاستمرار والتأييد إن شاء الله تعالى»، وهو سجل كبير جدا من إنشاء الموفق أبي الحجاج يوسف بن علي بن الخلال.

ودخل الشعراء على الصالح فهنوه بالوزارة وذكروا هذه الحالة والواقعة، وكانوا جماعة منهم: أبو علي عبد الرحيم بن علي البيساني، والقاضي الأجل الرشيد أحمد بن الزبير، والقاضي الجليس عبد العزيز بن الحسين بن الجباب، والقاضي السعيد جلال الملك أبو الحسن علي بن الأشرف بن كاسيويه وأبو محمد يحيى بن خير الشاعر المسمى ديك الكرم.

وفيهما أرسلت عمة الظافر للفرنج بعسقلان رسلا على البريد تعلمهم بالحال، وتبذل لهم الأموال في الخروج على عباس وأخذ مامعه، فخرجوا إليه وحاربوه فخذله أصحابه ونجوا مع أسامة ابن منقذ إلى الشام، فوقع في قبضة الفرنج فنهبوا ماكان معه وحملوه إلى عسقلان.

وفيهما صرف عن قضاء القضاة أبو المعالي مجلي بن جميع الفقيه

الشافعي، واستقر مكانه القاضي المفضل أبو القاسم هبة الله عبد الله بن كامل بن عبد الكريم في العشر الأخير من شعبان.

وفي يوم الأحد ثالث عشر ربيع الأول قبض الصالح على جماعة من الأمراء وقتلهم، وعلى عدة من أرباب العمام منهم الخطير أبو الحسن علي بن سليم بن البواب، ناظر دواوين مصر، وكان عارفا بالهندسة والمنطق مليح الشعر حسن التسل.

وفيهما مات القاضي المرتضى أبو عبد الله محمد بن الحسن الأتربلسي المعروف بالحنك، وكان ممن ولي نظر الدواوين والخزائن وغيرها، وله «تاريخ خلفاء مصر» قطع فيه على الحافظ.

سنة خمسين وخمسة

فيها مضى الأسطول لميناء صور فملكها وقتل من فيها وأحرقها، وعاد وقد ظفر بمراكب حجاج النصاري وغيرهم وبعده أسرى وغنائم كثيرة.

وفيهما خرج على الصالح الأمير تميم، والي إخميم وأسيوط، وجمع جمعا موفورا، فأرسل إليه عسكريا فقتل في يوم الأربعاء سابع عشر رجب.

وفيهما قدم إلى مصر الفقيه عمارة بن علي بن زيدان الحكمي الشاعر، رسولا من أمير الحرمين، فمدح الفائز والصالح، ثم عاد بجواب رسالته في شوال، وقدم إلى مصر فاستقر بها وصار من جملة خدام الدولة.

وفيهما مات بمصر الفقيه أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا القرشي المخزومي الأرسوفي الشافعي، وله مصنفات منها كتابه الكبير المسمى «بالذخائر» في الفقه.

سنة إحدى وخمسين وخمسة

فيها كان الغلاء بمصر فلهق الناس منه شدة.

سنة اثنتين وخمسين وخمسة

فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج والصالح، فشرع في النفقة على العساكر وعربان البلاد للغارة على بلاد الفرنج، فأول سرية سيرها يوم السبت سابع عشرين جمادى الأولى فوصلت إلى غزة ونهبت أطرافها، وسارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بغنائم كثيرة إلى مصر في رابع عشر جمادى الآخرة، ثم سير عسكرا آخر فمضى إلى الشريعة فأبلى بلاء حسنا وعاد مؤيدا، وندب مراكب في البحر فسارت إلى بيروت وغيرها فأوقعت بمراكب الفرنج فأسرت منهم وغنمت، وسير عسكرا إلى بلاد الشوبك والطفيل فعاثوا في تلك البلاد وغاروا، ورجعوا بالغنائم في رجب ومعهم عدة أسرى، ثم سير الأسطول فمضى إلى عكا فأسروا من أهله نحو سبعمائة نفس بعد حروب وعاد في رمضان وجهاز سرية إلى بلاد الفرنج فغارت وعادت بغنائم في رمضان، وندب سرية وعادوا في سادس ذي الحجة.

وفيها قدم رسول محمود بن زنكي صاحب الشام.

وفيها كسر مركب فيه حجاج النصارى بثر الاسكندرية، فقبض عليهم نائب الثغر وبعث بهم إلى القاهرة.

وفي سلخ ذي الحجة قبض الصالح على الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم، بسبب أنه كاتب أخت الظافر، وقصد القيام على الصالح، وكان واليا على أعمال قوص وهو بالقاهرة وبقي حتى مات بالحبس في رجب سنة ثلاث وخمسين.

وفيهما أحضر إلى الصالح رجل كامل الأعضاء قويها سريع الحركة
ليس بضئيل الصوت، طوله من رأسه إلى قدمه أربعة أشر وله أولاد.

سنة ثلاث وخمسين وخمسة

في محرم جهز الصالح عسكرا عدته أربعة آلاف وعليه شمس الخلافة
أبو الأشبال ضرغام وجماعة من الأمراء للغارة على بلاد الفرنج، فساروا في
رابع صفر إلى تل العجول فكانت بينهم وبين الفرنج وقعة في نصف
صفر انهزم فيها الفرنج هزيمة قبيحة، وسير سرية واقعت الفرنج على
العريش في شعبان فكسرتهم وغنمت منهم خيولا وأموالا.

وفيهما قدم رسول محمود بن زنكي، ووصل رسول الفرنج يطلب
الصالح، ورسول من صاحب قسطنطينية يطلب مراكب نجدة له على
صاحب صقلية.

وفيهما سارت سرية من مصر إلى بيت جبرين فغنمت وعادت سالمة
بالغنائم.

وسار الأسطول يوم الجمعة ثالث عشرين ربيع الآخر فوصل إلى تنيس
في ثامن شعبان، ومنه سار إلى بلاد الفرنج.

وفي سادس عشر ربيع الآخر ورد أسطول الاسكندرية وقد امتلأت
أيديهم بالغنائم.

وفي ربيع الآخر سار عسكر إلى وادي موسى، فحاصر حصن الوعية
ثمانية أيام وعاد بعد ما توجه إلى الشوبك وغار عليها وترك هناك أميرين
على الحصار.

وفي تاسع جمادى الأولى سار عسكر إلى بيت المقدس فعاث وخرب وعاد بغنائم، وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية انكسر فيها الفرنج فشرع الصالح في النفقة على العساكر، فكانت جملة ما أنفق في مدة إلى عاشر شعبان في هذه السنة خاصة مائة ألف دينار.

فسار في خامس شعبان خمس شواني فدوخت ساحل الشام وظفرت بمراكب للفرنج وعادت بعدة غنائم وأسرى في ثاني عشرين رمضان.

وورد الخبر بحركة ملك العريش إلى مصر للغارة على أطرافها، فجهز الصالح عسكرا فعاد ولم يأت مصر.

وفيها مات بمصر القاضي المفضل كافي الكفاة أبو الفتح محمود ابن القاضي الموفق اسماعيل بن حميد الديماطي المعروف بابن قادوس في سبع المحرم، فحضر الصالح من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه ومشى في جنازته إلى تربته، عند مسجد الأقدام، وكان من أمثال المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكهم وله «ديوان شعر».

وفيها عاد رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار، وعينا سبعون ألف دينار توسعة له على الجهاد، وندب مع الهدية أميرا من أمرائه، وكتب الصالح كتابا على يده وضمنه قصائد يحرضه فيها على قتال الفرنج، فوصلت الهدية في حادي عشر شهر رمضان.

ومضت في هذه السنة عدة عساكر في البر والبحر وعادوا بكثير من الأسرى منهم أخو القمص صاحب جزيرة قبرص، فأكرمه الصالح وسيره إلى ملك القسطنطينية فامتألت الأيدي بالغنائم، وقال الصالح في ذلك عدة قصائد:

- ١١٥٥٠ -

«والله أعلم»

تم

وقد وجدنا هكذا مكتوبا في آخر النسخة: آخر المتقى

من اتعاط الحنفا للمقريري

المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله
أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي
ابن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور

ولد في ثامن عشر المحرم، وقيل في العشرين من المحرم، سنة ثمان وستين وأربعمائة، وبويع له في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، حين مات أبوه المستنصر، وذلك أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجلسه ولقبه بالمستعلي، وبعث فأحضر إليه نزارا وعبد الله وإسماعيل، أولاد المستنصر، فلما حضروا وشاهدوا أخاهم أحمد وكان أصغرهم، قد جلس على تخت الخلافة أنفوا من ذلك، فأمرهم الأفضل بتقيل الأرض وقال لهم: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله وبايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر، قبل وفاته، للخلافة من بعده. فامتنعوا من ذلك، وقال كل منهم إن والده وعده بالخلافة، وقال نزار: إن قطعت ما بايعت من هو أصغر سنا مني وخط والدي عندي بأني ولي عهده وأنا أحضره، وخرج مسرعا ليحضر الخط، فمضى من حيث لا يشعر به أحد وتوجه في خفية إلى الإسكندرية، فلما أبطأ أرسل الأفضل من يستعجله بالحضور، فلم يوجد، وفتش عليه في القصر فلم يوقف له على خبر ولا عرف كيف توجه. فاضطرب الأفضل لذلك، وانزعج انزعاجا شديدا.

وقوم يذكرون أن المستنصر كان قد أجلس ابنه أبا المنصور نزارا، لأنه أكبر أولاده، وجعل إليه ولاية العهد من بعده، فلما قربت وفاته أراد أن يأخذ له البيعة على رجال الدولة، فتقاعد له الأفضل ودافع حتى مات، وذلك أنه كانت بينه وبين نزار مباينة، وكان في نفس كل منهما مباينة من

الآخر لأمر، منها أن نزارا خرج ذات يوم من بعض أماكن القصر فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبواب القصر وهو راكب، فصاح به: « انزل يا أرمني يا نجس »، فحقدها الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما الآخر. ومنها أن الأفضل كان يعارض نزارا في أموره أيام حياة أبيه ويرد شفاعاته ويضع من قدره، ولا يرفع رأسا لأحد من غلمانه وحاشيته، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر، فلما عزم المستنصر على أخذ البيعة لنزار اجتمع الأفضل بالأمراء الجيوشية وخوفهم من نزار، وحذرهم من مبايعته، وأشار عليهم بولاية أخيه أحمد فإنه صغير لا يخاف منه، ويؤمن جانبه، فرضوا بذلك وتقرر أمرهم عليه بأجمعهم ما خلا محمود بن مصال اللكي، من قرية يقال لها لك^(١) برقة، فإنه لم يوافق لأنه كان قد وعده نزار بأن يوليه الوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما اطلع على ما قرره الأفضل من ولاية أبي القاسم أحمد مع الأمراء وأنهم قد وافقوه على ترك مبايعة نزار طالعه بجميع ذلك.

وبادر الأفضل فأجلس أبا القاسم ولقب بالمستعلي بالله. وأصبح في بكرة يوم الخميس لاثني عشرة بقيت من ذي الحجة فأخرجه إلى الإيوان، وأجلسه على سرير الملك، وجلس هو على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الإمام علي بن نافع بن الكحال، والشهود، فأخذ البيعة على مقدمي الدولة وأمرائها ورؤسائها وجميع الأعيان، ثم مضى إلى عبد الله وإسماعيل ولدي المستنصر، وكانا في مسجد من مساجد القصر وقد وكل بهما الأفضل جماعة يحفظونهما، فقال لهما: إن البيعة قد تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة، إن الله اختاره علينا، ووقفنا قائمين على أرجلها وبايعاه، وكتب كتاب البيعة وأخرج، فقرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء، على عادة الأمراء وجميع أهل الدولة.

وكانت الدعاء عندما بلغهم موت المستنصر اختلفوا فيمن يبايعونه من بعده، فدعا بركات، وهو أمين الدعاء، لعبد الله بن المستنصر ونعته بالموفق، فقبض الأفضل عليه وقتله هو وابن الكحال.

ووصل الخبر بلحاق نزار ومعه محمود بن مصال اللكي بنصر الدولة، وأن نصر الدولة أفتكين التركي، أحد مماليك أمير الجيوش، وكان على ولاية الإسكندرية، قد بايعه، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عمار، وأهل الاسكندرية، وأنه تلقب بالمصطفى لدين الله، فأهم الأفضل ذلك وأخذ في التأهب لمحاربتهم.

وفيها توفي أبو عبد الحسين بن سديد الدولة، ذي الكفایتين، محمد الماسكي، وكان ممن وزر للمستنصر في سنة أربع وخمسين، فلما صرف عن الوزارة سار إلى مدينة صور من الشام فأقام بها عدة سنين، ثم إنه رجع إلى مصر وخدم مشارفا^(٢) بالاسكندرية بعد الوزارة، ثم صرف عن المشاركة، وكان من أمثال الكتاب وأحد الأدباء الفضلاء. ومن شعره:

توصل إلى رديك العدو
توصل ذي الحيلة الحازم
وصانع بعض الذي حزته
تعش عيشة الأمن الغانم
ودع ما نعمت به في القديـ
م، واعمل لذل الزمن القادم
لعلك تسلم مم ما تخاف
ولست، إخالك، بالسالم

وله عدة مصنفات ورسائل.

سنة ثمان وثمانين وأربعمائة:

في آخر المحرم خرج الأفضل بعساكره من القاهرة فصار إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين، فخرجوا إليه في عدة كبيرة وحارباه، فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الإسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزما يريد القاهرة، فنهب نزار بمن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري .

ووصل الأفضل إلى القاهرة، وشرع يتجهز ثانيا لمسيره. ودس إلى أكابر من انتمى إلى نزار من العرب يدعوهم إلى التخلي عنه، واستمالهم بما حمله إليهم من الأموال وما وعدهم به من القطاعات وغيرها، وخرج وقد أعد واستعد، فصار إلى الإسكندرية وقد برزوا إليه، فكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة نزار والتجائه إلى المدينة، فنزل الأفضل عليها، وحاصرها، ونصب عليها المجانيق وألح عليها بالقتال، ومنع عنها الميرة.

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد الأمر على من بالإسكندرية جمع ابن مصال ماله وفر إلى جهة المغرب في ثلاثين قطعة، يريد بلده لك برقة من أجل رؤيا رآها، وهي أنه رأى في منامه كأنه قد ركب فرسا وسار والأفضل يمشي في ركابه، فقص هذه الرؤيا على عابر له فطانة وتمكن في علم التعبير، فقال له الماشي على الأرض أملك لها من الراكب وهذا يدل على أن الأفضل يملك البلاد.

وكانت الأنفس قد ملت طول الحصار ، فلما فر ابن مصال ضعفت نفس نزار وأفتكين وتخوفا ممن حولهما، فبعثا إلى الأفضل يسألان الأمان، فأمنهما، وتمكن من البلد، وقبض على نزار وأفتكين، وسير بهما مصر، فيقال إنه سلم نزارا لأهل القصر من أصحاب المستعلي، وأنه بني عليه حائط ومات، وقيل إنه قتل بالإسكندرية، والأول أصح.

وكان مولده يوم الخميس العاشر من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. والإسماعيلية وملاحدة العجم وملاحدة الشام تعتقد إمامته وتزعم أن المستنصر كان قد عهد إليه وكتب اسمه على الدينار والطرز، وأن المستنصر قال للحسن بن صباح إنه الخليفة من بعده.

وكان للمستنصر أولاد فروا إلى المغرب، منهم محمد وإسماعيل وطاهر، وعاد منهم في خلافة الحافظ واحد إلى مصر ولا عقب له.

وأما أفتكين فإنه قتل بعد قدوم الأفضل إلى مصر. أما ابن مصال فإنه وصل لك ولقيه أهلها، وكان قد خرج منها صبيا فقيرا، فأقام عندهم أياما. واتفق أن رأى عجوزا عرفته، فقالت له: كبرت يا محمود! فقال لها: نعم. فقالت له: لعلك جئت مع صاحب هذه المراكب؟ فقال: أنا صاحبها. فقالت: ماذا يعمل عدم الرجال! ولم يزل يبعث إليه الأفضل بالأمان حتى قدم عليه، فلزم داره مدة، ثم رضي عنه الأفضل وأكرمه.

وكان الأفضل لما قبض على نزار وتمكن من الإسكندرية تتبع جميع من كان معه ومن ماله أو أعانة، فقبض على كثير من وجوه البلد، منهم قاضي الثغر أبو عبد الله محمد بن عمار واعتقله مدة ثم قتله، وكان حسنة من حسنات الدهر ونخبة من نخب العصر، وحظي عنده بنو حارثة، وكانوا من عدول البلد، لأنهم لم يبايعوا نزارا ولم يدخلوا في شيء من ذلك، وكانوا يهادون الأفضل سرا، وولى قضاء الإسكندرية عوضا عنه القاضي أبا الحسن زيد بن الحسن بن حديد، وبالع في إكرامه وإكرام أهل بيته.

وكان الأفضل وهو على حصار الإسكندرية يخرج أمه فتطوف في كل يوم، وهي متنكرة بالأسواق، وتدخل يوم الجمعة إلى الجوامع وتزور المشاهد والمساجد والربط تستعلم خبر ولدها وتعرف من يحبه ومن

يبغضه، فدخلت يوما إلى مسجد أبي طاهر وجاءت إلى ابن سعد الإطفيحي وقالت له: يا سيدي، ولدي في العسكر مع الأفضل، الله تعالى يأخذني منه الحق، ما فعل خيرا، وأنا ما أنام خوفا على ابني، ادع الله أن يسلم ولدي، فقال لها: يا أمة الله، أما تستحين، تدعين على سلطان الله في أرضه، المجاهد عن دين الله تعالى، الله ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك، ما هو إن شاء الله إلا منصور مؤيد مظفر، كأنك به وقد فتح الإسكندرية وأسر أعداءه، وأتى على أحسن قضية وأجل طوية، فلا يشغل لك سر، فما يكون إلا الخير إن شاء الله.

ثم اجتازت بالفار الصيرفي بالسراجين من القاهرة، فوقفت عليه تصرف منه دينارا - وكان إسماعيليا متغاليا - فقالت له: ولدي مع الأفضل وما أدري ما خبره، فقال لها: لعن الله المذكور الأرمني الكلب العبد السوء بن العبد السوء، مضى يقاتل مولانا ومولى الخلق؟ كأنك والله يا عجوز برأسه جائزا من هنا على رمح قدام مولانا نزار ومولاي ناصر الدولة إن شاء الله تعالى^(٣)، والله يلطف بولدك، من قال لك تخليه يمضي مع هذا الكلب المنافق

ثم وقفت يوما آخر على ابن بابان الحلبي، وكان بزارا بسوق القاهرة، تشتري منه شيئا - وكان نزاريا - فقالت له كقولها للفار الصيرفي، فقال لها كما قال أيضا، وبالع في لعن الأفضل وسبه.

فلما أخذ الأفضل نزارا وناصر الدولة، وفتح الإسكندرية، وقدم إلى القاهرة في يوم^(٤).... حدثته أمه الحديث بنصه. فلما خلع عليه في القصر بين يدي الخليفة المستعلي في يوم^(٤) وعاد إلى مصر اجتاز بالبزازين وهو بالخلع، ونظر إلى ابن بابان الحلبي وقال: أنزلوا هذا، فنزلوا به، فضربت عنقه تحت دكانه، ثم قال لعبد علي، أحد مقدمي ركابه: قف هنا لا يضيع له شيء من دكانه إلى أن يأتي أهله فيتسلموا قماشه، ثم وصل إلى

السراجين، فلما تجاوز دكان الفار الصيرفي التفت إلى جهته وقال: انزلوا بهذا، فنزلوا به، فقال: رأسه، فضربت عنقه، وقال ليوسف الأصفر أحد مقدمي الركاب: احتط على حانوته إلى أن يأتي أهله ويتسلموا موجوده، وإياك ماله وصندوقه، وإن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه، كان لنا خصما أخذناه وفعلنا به ما نردع به غيره عن فعله، وما لنا في ماله ولا في فقر أهله حاجة.

ثم أتى إلى الشيخ أبي طاهر الإطفيحي، وقربه وتخصص به، وأطلعه على أغراضه وأكثر من التردد إليه، وأجرى الماء إلى مسجده، وبنى له فيه حماما وبستانا وغير ذلك من المباني. فعظم قدر الإطفيحي به، وكثر غشيان الناس مسجده، وطار ذكره، وشاع خبره، وكثرت حاشيته، وصار المشار إليه بالديار المصرية حتى مات.

وفيهما قام ببغداد تاجر يعرف بحامد الأصفهاني فتكلم بأن نسب الخلفاء الفاطميين صحيح، فقبض عليه واعتقل حتى مات.

وخرج الأمر بجمع الناس إلى بيت النوبة، ببغداد، فجمعوا في تاسع ربيع الآخر، وحضر بنو هاشم وغيرهم إلى الديوان، وقرئ توقيع أوله خطبة تشتمل على حمد الله تعالى والثناء عليه، وتذكر طاعة الأئمة وفضل العباس وما جاء فيه من الأخبار، ثم قال: « أما بعد، فإنه لم يخل وقت ولا زمان من مارق على الدين، وسارع في تفرق كلمة المسلمين ليلوالله المجاهدين فيهم والصابرين، ويصلى أكثر العاكفين نار جهنم التي أعدت للكافرين. وهذه الطائفة المارقة من الباطنية الملحدين، والكفرة المستسلمين، انتهكوا المحارم، واستحلوا الكبائر، وأراقوا الدماء، وكذبوا بالذكر، وأنكروا الآخرة، وجحدوا الحسنات والجزاء، وفصلوا أعضاء المسلمين، وسملوا أعين الموحدين، وأنكروا الآخرة، وجحدوا الدين وفقهاءه، وأعلنوا بالشرك ونداءه». ثم رماهم بالفسوق والإهمال

والانحلال، وقال: شاعرهم يقول: حل بـرقادة ^(٥) المسيح
حل بها آدم ونوح

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

فيها خرج خلف بن ملاعب من عند الأفضل لولاية فامية، فسار إليها وتسلمها.

وكان سبب ذلك أن أهلها كانوا إسماعيلية، فقدموا إلى القاهرة وسألوا أن يجهز إليهم من يلي أمرهم، فوقع الاختيار على خلف بن ملاعب، وكان قد ولي مدينة حمص وساءت سيرته في أهلها، فبعث إليه السلطان ملك شاه من العراق من قبض عليه وحمله إليه بأصفهان، فاعتقله بها إلى أن مات، فأطلق وسار إلى مصر فأقام بها حتى خرج إلى فامية

سنة تسعين وأربعمائة

فيها وقع بمصر غلاء ومجاعة.

في سادس عشر صفر قدم على الأفضل رسول فخر الدولة رضوان بن تتش صاحب حلب وأنطاكية وهم.... بن الحلال و ^(٦) ابن البوين كاتب عز الدولة ابن منقذ ^(٧)، صحبة رسول الأفضل الشريف شجاع الدولة ابن أبي سوية وقدم معهم شرف الدولة... الباهلي الشاعر، وكان قد قدم مصر ومدح أمير الجيوش بدر الجمالي، فأجيب بالشكر والثناء وخطب بها للمستعلي بالله في يوم الجمعة سابع عشر رمضان، وكان سبب هذا الفعل من رضوان أنه قصد أن يستعين بعساكر مصر على أخذ دمشق من أخيه دقاق. فاتفق أن الأمير سكيان بن أرتق أنكر على رضوان ذلك، فقطع خطبة المستعلي، وأعاد الخطبة لبني العباس، فكان

مدة الخطبة للمستعلي أربعة أشهر.

وفي ربيع الأول جهز الأفضل عسكريا عدة وافرة لأخذ صور فسار إليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذت بالسيف، فدخلها العسكر وقتلوا منها بالسيف خلقا كثيرا، وقبض على واليها وحمل إلى الأفضل فقتله لأنه كان قد خرج عن الطاعة وعصى على الأفضل.

وفيها كان ابتداء خروج الإفرنج من بلاد القسطنطينية لأخذ بلاد الساحل من أيدي المسلمين، فوصلوا إلى مدينة أنطاكية ونازلوها حتى ملكوها، ومنها دبوا إلى بلاد الساحل.

وفيها تجمع الرعاع والعامّة في يوم عاشوراء بمشهد السيدة نفيسة^(٨) وجهروا بسب الصحابة، وهدموا عدة قبور، فسير الأفضل إليهم ومنعهم من ذلك، وأدب ذخيرة الملك ابن علوان، والي القاهرة، جماعة وضربهم.

وفيها حرر الأفضل في المحرم عيار الدينار وزاد فيه.

[إعلم إن الفرنج من ولد ريغات بن كומר بن يافث بن نوح، فهم أخوة الصقالبة والخزر والترك، ويقال بل هم من ولد عطريا بن غومر وهو كومر بن يافث، ويسكنون شمالي البحر الرومي من خليج رومه إلى ما وراءه غربا وشمالا، وكانوا أولا تحت أيدي اليونان والروم، ثم استقلوا بعدهم بملكهم، وافترقوا، فكان منهم القوط والجلالقة بالأندلس حتى أخذها منهم المسلمون، وكان منهم اللمانيون بجزيرة انكلطرة بالبحر المحيط الغربي الشمالي، وما يقابله وما يجاذيه، وكان منهم افرنسة، وهم افرنجة فملكوا ما وراء خليج روما غربا إلى الثنايا التي تفضي إلى الأندلس في الجبل المحيط بها من شرقيها، وتسمى هذه الثنايا البرت، وعظمت دولتهم بعد الروم في أثناء الاسلام، وعرفوا بالأفرنسيس، وتغلبوا على جزائر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة، وكان ملكهم حينئذ

اسمه بردويل، فبعث رجار إلى صقلية وملكها من المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة، ثم ساروا في البحر على قسطنطينية وعبروا من الخليج سنة تسعين وأربعمائة، حتى نزلوا عواصم الروم، وحاربوا قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق، ملك قونية، فأخذوا منه أنطاكية، وهم خمسة ملوك: بردويل، وصنجيل، وكندفري، والقمص، وييمند وهو مقدمهم، فولوه أنطاكية، ثم ملكوه معرة النعمان، ونازلوا حمص، ثم عكا، ثم حصروا القدس حتى أخذت كما سيأتي إن شاء الله^(٩)

سنة احدى وتسعين وأربعمائة:

فيها خرج الأفضل في عساكر جمّة، ورحل من القاهرة في شعبان، وسار يريد أخذ بيت المقدس من الأمير سكيان وإيلغازي، ابني أرتق، وكانا به في كثير من أصحابهما، فبعث إليهما يلتمس منهما أن يسلماه البلد ولا يحوجاه إلى الحرب، فأبيا عليه، فنزل على البلد ونصب عليها من المجانيق نيفا وأربعين منجنيقا، وأقام عليها يحاصرها نيفا وأربعين يوما حتى هدم جانباً من السور، ولم يبق إلا أخذها، فسير إليه من بها ومكانه من البلد، فخلع على ولدي أرتق وأكرمهما، وأخلى عنهما، فمضيا بمن معهما، وملك البلد في شهر رمضان لخمس بقين منه، وولى فيه من قبله، ثم رحل إلى عسقلان، وكان فيها مكان قد دفن فيه رأس الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام، فأخرجه وعطره وحمله في سبط إلى أجل دار بها، وعمر مشهداً مليح البناء، فلما تكامل حمل الرأس في صدره وسعى به ماشياً من الموضع الذي كان فيه إلى أن أحله في مقره. ويقال إن أمير الجيوش هو الذي أنشأ المشهد على الرأس بثغر عسقلان، وأن ابنه الأفضل شاهنشاه كمله، ثم حمل هذا الرأس إلى القاهرة، فوصل إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسائة.

وفيها حدثت بمصر ظلمة عظيمة عشت أبصار الناس حتى لم يبق أحد يعرف أين يتوجه، ثم هبت ريح سوداء شديدة، فظن الناس أن الساعة قد قامت، واستمرت الريح سبع ساعات وانجلت الظلمة قليلا قليلا وسكنت الريح، ولم يصل في ذلك اليوم أحد صلاة الظهر ولا العصر، ولا أذن في القاهرة ولا مصر.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة:

فيها سار الفرنج لأخذ سواحل البلاد الشامية من أيدي المسلمين، فملكوا مدينة أنطاكية وساروا إلى المعرة فملكوها، ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان فقتلوا من به، ووصلوا عرقة فحاصروها أربعة أشهر فلم يقدروا عليها، ونزلوا على حمص، فهادنهم جناح الدولة حسين، وخرجوا على طريق النواقر إلى عكا، ثم أخذوا الرملة في ربيع الآخر، وزحفوا منها إلى بيت المقدس فحاصروا المدينة، وبلغ ذلك الأفضل فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم، فجدد الفرنج، عندما بلغهم مسيره إليها، في حصار المدينة، وكان نزولهم عليها في شهر ربيع الآخر، حتى ملكوها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان بعد أربعين يوما.

وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام، وقتلوا عامة من كان في البلد، وكان فيه من العباد والصلحاء والعلماء والقراء وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر، فوضعوا السيف فيهم وأفنوهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم إلا اليسير. وانحازت عدة من المسلمين إلى محراب داود عليه السلام فحاصروهم الفرنج نيفا وأربعين يوما حتى تسلموه بالأمان في يوم الجمعة ثاني عشره. وأحرقوا ما كان بيت المقدس من المصاحف والكتب، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات، وكان مبلغا عظيما. ويقال إنه قتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، وأنهم لحقوا من فر من المسلمين مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم.

ووصل الأفضل إلى عسقلان في الرابع عشر من شهر رمضان، فبعث إلى الفرنج فوبخهم على ما كان منهم، فردوا إليه الجواب، وركبوا في إثر الرسل فصيدفوه على غرة وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيرا. وانهزم منهم بمن خف معه فتحصن بعسقلان وتعلق أكثر أصحابه هنالك في شجر الجميز، فأضرموا فيها النار حتى احترقت بمن تعلق فيها، فهلك خلق كثير وحاز الفرنج من أموال المسلمين ما جل قدره، ولا يمكن لكثيرته حصره.

ونازلوا عسقلان، وحاصروا الأفضل فيها حتى كادوا يأخذونه، إلا أن الله سبحانه أوقع فيهم الخلف فاضطروا إلى الرحيل عن عسقلان، فاغتنم الأفضل رحيلهم عنه فركب البحر وقد ساءت حاله، وذهبت أمواله، وقتلت رجاله، وسار إلى القاهرة، ولم يعد بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه في حرب ألبته.

وكان ملك الفرنج بالقدس كندفري.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الموصلبي الحنفي المحدث في ثامن عشر ذي الحجة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة:

فيها (جفل) عالم لا يحصى عددهم من البلاد الشامية فرارا من الفرنج والغلاء.

وفيها عم الغلاء أكثر البلاد، ومات من أهل مصر خلق كثير.

وفيه مات قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن رجاء، وتولى بعده أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ومات علي بن محمد بن علي الصليحي، قتله سعد بن نجاح الأحول، وقتل أخاه عبدالله وجميع بني الصليحي بمكة من ذي القعدة.

وولي الحسن بن علي بن أحمد الكرخي الحكم شهرا واحدا وثلاثة أيام، وصرف وصدور من أجل أنه أخذ عصابة من القصر في أيام الشدة لها قيمة، فظهرت عليه.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة:

في شعبان جهز الأفضل عسكريا كثيفا لغزو الفرنج، فساروا إلى عسقلان، ووصلوا إليها في أول رمضان، فأقاموا بها إلى ذي الحجة، فنهض إليهم من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل، فخرج إليهم المسلمون وحاربوهم، فكانت بين الفريقين عدة وقائع آلت إلى كسر الميمنة والميسرة وثبات سعد الدولة الطواشي، مقدم العسكر، في القلب، وقاتل قتالا شديدا، فتراجع المسلمون عند ثبات المذكور وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم إلى يافا، وقتلوا منهم عدة وأسروا كثيرا، وقتل كندفري ملك الفرنج بالقدس، فجاء أخوه بغدوين من القدس وملك بعده، وسار بالفرنج إلى أرسوف.

وفيه مات القمص رجار بن تنقرد، صاحب جزيرة صقلية، فقام من بعده ابنه رجار بن رجار.

وفيه نزل الفرنج على حيفا وقتلوا أهلها، وتسلموا أرسوف بالأمان، وملكوا قيسارية عنوة في آخر شهر رجب وقتلوا من بها، وملكوا مع ذلك يافا، مع ما بأيديهم من أعمال الأردن وفلسطين.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة:

فيها مات الخليفة أبو القاسم أحمد المستعلي بالله بن المستنصر في ليلة السابع عشر من صفر، وعمره سبع وعشرون سنة وشهر واحد وتسعة وعشرون يوما، ومدة خلافته سبع سنين وشهر واحد وعشرون يوما.

نقش خاتمة «الإمام المستعلي بالله».

وفي أيامه اختلت دولتهم وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم، وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الفرنج، فإيهم، خذلهم الله، دخلوا بلاد الشام، ونزلوا على أنطاكية في ذي القعدة سنة تسعين وأربعمائة وتسلموها في سادس عشر رجب سنة إحدى وتسعين، وأخذوا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين، وأخذوا الرملة ثم بيت المقدس في شعبان، ثم استولوا على كثير من بلاد الساحل، فملكوا قيسارية في سنة أربع (وتسعين) بعدما ملكوا عدة بلاد

وفي أيامه فر أخوه نزار إلى الاسكندرية، وقتل في الحروب التي كانت بينه وبين الأفضل خلق كثير، وأخذ وقتل بعد ذلك.

وفي أيامه أيضا افتقت الإسماعيلية فصاروا فرقتين: نزارية، تعتقد إمامة نزار وتطعن في إمامة المستعلي، وترى أن ولد نزار هم الأئمة من بعده يتوارثونها بالنص، والفرقة المستعلوية، ويرون صحة إمامة المستعلي ومن قام بعده من الخلفاء بمصر، وبسبب ذلك حدثت فتن، وقتل الأفضل فيما يقال وقتل الأمر، كما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يكن للمستعلي سيرة فتذكر، فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة.

وخلف المستعلي من الأولاد ثلاثة، هم الأمير أبسو علي المنصور،
والأمير جعفر، والأمير عبد الصمد.

وكانت قضية مضر في خلافته: أبو الحسن ابن الكحال، ثم عزل بابن
عبد الحاكم المليجي، ثم ولي أبو الطاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج
محمد بن جوهر بن ذكا، ومات المستعلي وهو قاض.

وقيل إن المستعلي مات مسموما، وقيل بل قتل سرا.

وكان [المستعلي بن] المستنصر^(١٠) قد عقد نكاحه على ست الملك ابنة
أمير الجيوش بدر، فمات قبل أن يبنى عليها، وكان أمير الجيوش قد
جهزها جهازا عظيما^(١١) وأكثر من شراء الجواهر العظيمة القدر لها، فلما
مات انتهب أولاده ذلك وتفرقوه^(١٢)

وفيها أخذ صنجبيل، أحد ملوك الفرنج، طرابلس، فصار للفرنج
القدس وفلسطين إلا عسقلان، ولهم من بلاد الشام يافا، وأرسوف،
وقيسارية، وحيفا، وطبرية، والأردن، ولاذقية، وأنطاكية، ولهم من الجزيرة
الرهاء وسروج، ثم ملكوا جبيل، ومدينة عكا، وأفامية، وسمرين من أعمال
حلب، وبيروت، وصيدا، وبانياس، وحصن الأثارب

الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور بن المستعلي بالله

أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد

ولد ضحى يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة تسعين
وأربعمائة، وبويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبوه وهو طفل له
من العمر خمس سنين وشهر وأيام، في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة
خمس وتسعين. أحضره الأفضل وبايع له، ونصبه مكان أبيه، ونعته
بالآمر بأحكام الله.

وكتب ابن الصيرفي سجلا عظيما، أبدع فيه ما شاء، بانتقال الإمام المستعلي إلى رحمة الله وولاية ابنه الأمر، وقرىء على رؤوس الكافة من الأمراء والأجناد وغيرهم.

وأنشد ابن مؤمن الشاعر قصيدة طنانة يمدح الأمر. وركب الأفضل فرسا وجعل في السرج شيئا أركب الأمر عليه لينمو شخصه وصار ظهر الأمر في حجر الأفضل. (١٣)

سنة ست وتسعين وأربعمائة :

فيها ندب الأفضل مملوك أبيه سعد الدولة القواسي على عسكر لقتال الفرنج، فلقبهم بغدوين على بينا، فكسرت عساكر الأفضل وتقنطر سعد الدولة فمات، وأخذ الفرنج خيمه فانهزم أصحابه. وبلغ (الأفضل) ذلك فجرد في أول شهر رمضان عسكرا قدم عليه ابنه شرف المعالي سماء الملك حسينا، وسير الأسطول في البحر، فاجتمعت العساكر بيازور، من بلاد الرملة، وخرج إليهم الفرنج، فكانت بينهما حروب هزمهم الله فيها بعد مقتلة عظيمة، ونزل شرف المعالي على قصر كان قد بناه الأفشين قريبا من الرملة فيه سبعمائة قومص من وجوه الفرنج، فقاتلوه خمسة عشر يوما ثم ملكهم وضرب رقاب أربعمائة، وبعث إلى القاهرة ثلاثمائة.

وكان أصحاب شرف المعالي قد رأى بعضهم أن يمضوا إلى يافا ويملكوها، ورأى بعضهم أن يسيروا إلى القدس، فبينما هم في ذلك وصل مركب من الفرنج لزيارة قمامة، فندبهم بغدوين للغزو معه، فساروا إلى عسقلان وقد نزلها شرف المعالي وامتنع بها، وكانت حصينة، فتركها الفرنج ومضوا إلى يافا، وعاد شرف المعالي إلى القاهرة بعدما كتب إلى شمس الملوك دقاق، صاحب دمشق، يستنجد به لقتال الفرنج، فتقاعد عن المسير واعتذر.

فجرد الأفضل أربعة آلاف فارس وعليهم تاج العجم^(١٤)... بمن معه
عسقلان، ونزل ابن قادوس على يافا، وبعث يستدعي تاج العجم ليتفقا
على الحرب، فلم يجبه، وتنافرا، فلما بلغ ذلك الأفضل بعث يقبض على
تاج العجم، وولى الملك رضوان تقدمه العسكر وسيره إلى عسقلان،
فأقام عليها إلى آخر سنة سبع وتسعين حتى قدم شرف المعالي بعساكر
مصر.

وفيها مات تنكري ملك الفرنج بالساحل، فقام بعده سرجار ابن أخيه.

سنة سبع وتسعين وأربعمائة:

فيها نازل بغدوين، ملك الفرنج وصاحب القدس، ثغر عكا وحاصر
أهله، وألح عليهم حتى ملكه. وكان فيه من قبل الأفضل يومئذ زهر
الدولة نبا الجيوشي، ففر إلى دمشق، وصار إلى ظهير الدين^(١٥) أتابك،
فأكرمه وأحسن إليه، ثم جهز إلى الأفضل فأنكر عليه وهدده على تضييع
الثغر، ولم تعد بعدها عكا للمسلمين.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة:

فيها جمع الأفضل جموعا كثيرة من العربان وأنفق فيهم أموالا عظيمة،
وجهزهم صحبة العساكر مع ابنه شرف المعالي، وكتب لظهير الدين
أتابك، صاحب دمشق، بمعاونته ومعاضدته على محاربة الفرنج، فاعتذر
عن حضوره بما هو مشغول به من مضايقة بصرى، فإن أرتاش ابن تاج
الدولة صاحب بصرى كاتب الفرنج وأغراهم بقتال المسلمين وأطمعهم
في البلاد، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، وجهاز عسكرا إلى

شرف المعالي تقوية له على الفرنج، وقدم عليه إصبيهذ صباو بن
جهارتكين، وعدته ألف وثلاثمائة فارس من الأتراك، وعدة عسكر مصر
خمسة آلاف فارس.

وأتاهم بغدوين في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل.
فاجتمعت عساكر المسلمين بظاهر عسقلان، ودارت بينهم وبين الفرنج
حروب كان ابتداءؤها في الرابع عشر من ذي الحجة فيما بين عسقلان
ويافا، فانكسرت عساكر المسلمين واستشهد فوق الألف من المسلمين
منهم جمال الملك ربيع الإسلام والي عسقلان، وأخذ الفرنج رايته، وأسر
الفرنج زهر الدولة نبا الجيوشي، وقتل ألف ومائتان من الفرنج، ورجعوا
وقد كانت الكرة لهم على المسلمين، وعاد عسكر دمشق إلى أتابك وهو
على بصرى.

وفيه مات كنز الدولة ^(١٦) محمد في ثامن شعبان، وقام من بعده أخوه
فخر العرب

سنة تسع وتسعين وأربعمائة:

في سادس عشر رجب قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية، قتله
طائفة من الباطنية. وملك الفرنج عكا عنوة في سلخ شعبان من زهر
الدولة نبا الجيوشي، فسار إلى دمشق ثم قدم مصر.

سنة خمسائة

أهلت والخليفة بمصر الأمر بأحكام الله، ومدبر سلطنة مصر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وليس للأمر معه حل ولا ربط، وليس له من الأمر سوى اسم الخلافة، والذي في مملكته: ديار مصر، وغزة، وعسقلان، وصور، وطرابلس لاغير .

وفيهما بنى الأفضل دار الملك بشاطئ النيل من مدينة مصر.

وفيهما سار متولي صور فأوقع بالفرنج على تبين، فقتل وأسر جماعة، وعاد إلى صور، فسار بغدوين إليه من طبرية، فركب طغتكين من دمشق، وأخذ للفرنج حصنا بالقرب من طبرية وأسر من كان فيه منهم.

وفيهما ملك قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بيغو بن سلجوق، صاحب قونية، الموصل في شهر رجب، فقتل في ذي القعدة منها، وقام بعده بقونية وأقصر ابنه مسعود

سنة إحدى وخمسمائة:

ففيها نزل بغدوين على ثغر صور وعمر حصنا مقابل حصن صور على تل المعشوقة، وكان على ولاية صور من قبل الأفضل سعد الملك كمشتكين، أحد المماليك الأفضلية، فصانع بغدوين على سبعة آلاف دينار وخرج من صور.

وفيهما أحضر إلى القاهرة أهل فخر الدولة أبي علي عمار بن محمد بن ابن عمار من طرابلس، وكثير من أمواله وذخائره، وذلك أن فخر الدولة حاصره الفرنج وأطالوا منازلته حتى ضاق ذرعه وعجز عن مقاومتهم، فخرج من طرابلس في سنة خمسائة ومعه هدايا جليلة، فلقني ظهير

الدين طغتكين أتابك بدمشق، فأكرمه ووافقه على السير معه إلى بغداد ليستنجد بالسلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، فسارا، ثم إن أتابك تركه وعاد إلى دمشق، فثار في هذه المدة أبو المناقب ابن عمار على ابن عمه فخر الدولة، ونادى بشعار الأفضل وأرسل يطلب منه من يتسلم منه طرابلس، فبعث إليه الأفضل بالأمير شرف الدولة ابن أبي الطيب، فدخل إلى طرابلس ونقل منها حريم فخر الدولة وأمواله، ففت ذلك في عضد فخر الدولة وفيها اتصل أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبي الشجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار بن الأمير أمين الدولة أبي علي حسن بن تمام المستنصري الأحول الإمامي الشيعي المعروف بالمأمون ابن البطائحي، بخدمة الأفضل أبي القاسم شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر المستنصري، وسبب ذلك تغير الأفضل على تاج المعالي مختار الذي كان اصطنعه وفخم أمره وسلم إليه خزائن أمواله وكسواته، فسلم لأخويه ما يتولاه واستعان بهما فيه، فحصل لهم من الإدلال على الأفضل ما حملهم على مد أيديهم إلى أمواله وذخائره، وشاع أمرهم وكتب إلى الأفضل بسببهم، فتغير عليهم، وأخرج مختارا لولاية الغريبة، وخلع عليه، فلما انحدروا إليها سير صاحب بابه سيف الملك خطلخ، ويعرف بالبغل، وكان من غلمان أبيه، فقبض عليه وعلى أخوته من العشاري، وكبل بالحديد ورمي بالاعتقال، وأشيع أن مختارا كاتب الفرنج، وجعل هذا هو العذر في القبض عليه، وأنه كان أراد قتل الأفضل.

فلما جرى لمختار وإخوته ما جرى ألزم الأفضل أبا عبد الله بن فاتك بتسلم ما كان بيد مختار من الخدمة، فتصرف فيها، وقرر له الأفضل ما كان باسم مختار من العين خاصة دون الإقطاع، وهو مائة دينار في كل شهر وثلاثون دينارا عن جاري الخزائن، مضافا إلى الأصناف الراتبية مياومة ومشاهرة ومسانهة، وحسن عند الأفضل موقع خدمته، فسلم له جميع أموره، وصرفها في كل أحواله، ولما كثر الشغل عليه استعان

بأخويه: أبي تراب حيدرة، وأبي الفضل جعفر، فأطلق لهما الأفضل ما وسع به عليهما، ونعت الأفضل أبا محمد ابن فاتك بالقائد

فيها فتح ديوان سمي بديوان التحقيق، تولاه أبو البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وكان يتولى ديوان المجلس رجل يعرف بابن الأسقف، وكان قد كبر وضعف فتحدث ابن أبي الليث مع القائد أبي عبد الله في الدواوين والأموال والمصالح، وفاوض في ذلك الأفضل، واتفق موت ابن الأسقف، فتسلم ابن أبي الليث الدواوين واستمر فيها حتى قتل في سنة ثمان عشرة وخمسة.

وفيها تحدث ابن الليث في نقل السنة الشمسية إلى العربية، وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين، فأجاب الأفضل إليه، وخرج أمره إلى الشيخ أبي القاسم ابن الصيرفي بإنشاء سجل به، ثم رأى اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين، وتضررهم من حصة ارتفاع إقطاعاتهم وسوء حالهم، وصار في كل ناحية للديوان جملة تجبى بالعسف وتتردد الرسل من الديوان بسببها، فحملت الإقطاعات كلها على أملاك البلاد، وأمر ضعفاء الجند بالزيادة في الإقطاعات التي للأقوياء، فتزايدوا إلى أن انتهت الزيادة، فكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم مدة ثلاثين سنة ما يقبل منهم فيها زائد، وأمر الأقوياء أن يبذلوا في الإقطاعات التي كانت بيد الأجناد ما تحتمله كل ناحية، فتزايدوا فيها حتى بلغت إلى الحد الذي رغب كل منهم فيه، فكتبت لهم السجلات على الحكم المتقدم، فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم، وحصل للديوان بلاد مقورة^(١٦) بها كان مفرقا في الإقطاعات بها مبلغه خمسون ألف دينار.

وفيها فرغ بناء دار الملك، وكان الأفضل يسكن القاهرة فتحول إلى مصر، وسكن دار الملك على النيل واستقر بها، فقال الشعراء فيها عدة قصائد.

وفيهما بانت كراهة الأفضل لأولاده واحتجب عنهم أكثر الأوقات، فانقطعوا عنه واستقروا بالقاهرة في دار القباقب التي كانت سكن أبيهم الأفضل، وهي الدار التي عرفت بدار الوزارة، ولم يبق من أولاده من يتردد إليه سوى سماء الملك فإنه كان يؤثره ويميل إليه.

وأفرد الأفضل للقائد أبي عبد الله بن فاتك الموضع المعروف بالؤلؤة (١٧).

وفيهما وردت الأخبار بأن متملك النوبة، قد تجهز برا وبحرا وعول على قصد البلاد القبلية، فسير الأفضل عسكريا إلى قوص، وتقدم إلى والي قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة، فورد الخبر بوثوب أخي الملك عليه وقتله. واشتدت الفتنة بينهم حتى باد أهل بيت المملكة وأجلس صبي في الملك، فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضل وتسأله ألا يسير إليهم من يغزوهم، فكتب لوالي الصعيد الأعلى بأن يسير عسكريا إلى أطراف بلاد النوبة، ويبعث إليهم رسولا يجدد عليهم القطيعة الجاري بها العادة، وهي كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا رقيقا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم في السنين المتقدمة.

فلما رحلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة، وكتبوا المواصفات وسألوا في الإعفاء عما يخص السنين، وحملوا ما تيسر لهم، وعادت العساكر كاسبة.

وفيهما كثر خوض الناس في القرآن هل هو محدث أو قديم، وتفاقم الأمر فعرف الأفضل، فأمر بإنشاء سجل بالتحذير من الخوض في ذلك، وركب بنفسه إلى الجامع بمصر، وجلس في المحراب بجوار المنبر، وصعد الخطيب أربع درجات منه وقرأ السجل على الناس.

وفيهما مات مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان صاحب قونية

وأقصر، فقام بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، وقسم أعماله بين أولاده (١٨).

سنة اثنتين وخمسة:

في رمضان ورد الخبر بأن أهل مدينة طرابلس الشام نادوا بشعار الدولة عند خروج فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن ادريس بن أبي يوسف الطائي منها، وقصده بغداد لطلب النجدة، لما اشتد حصار الفرنج لها، وغلا السعر بها.

وكان سماء الملك حسين بن الأفضل عندما كان بالشام في السنة التي كسر الفرنج فيها قد سام ابن عمار تسليماً إليها، فامتنع وغلق الباب في وجهه، وأقام سماء الملك عليها مدة بالعساكر إلى أن نازها الفرنج ورحلوه عنها إلى عسقلان، فلما سمع الأفضل أن أهل الثغر نادوا بشعاره سير إليهم أميرين ومقدم الأسطول، وأمره بأخذ المراكب التي على دمياط وعسقلان وصور معه إلى الثغر المذكور نصرة للمسلمين

فلما وصل إليه وجد الفرنج قد ملكوا الحوش وأمهلوا المسلمين، فأنفذ من كان بها وحمل في المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم، وفيهم صالح بن علاق الطائي بعد هروبه من الأفضل، وحمل من دار ابن عمار ذخائره ومضاغيه، وكان بقيمة كبيرة (١٩).

وحمل أخا ابن عمار المعروف بفخر الدولة وأهله إلى مصر، فأكرمهم الأفضل، واعتقل صالح بن علاق بخزانة البنود.

وفي العشرين من شوال كانت ريح سوداء من صلاة العصر إلى المغرب .

وفيهما جدد حفر خليج القاهرة، فإن المراكب كانت لا تدخل فيه إلا بمشقة، وجعل حفره بأبقار البساتين التي عليه، فيحفر بأبقار كل بستان ما يحاذيه، فإن انتهى أمر البساتين عمل في البلاد كذلك، وأقيم له وإل مفرد بجامكية، ومنع الناس أن يطرحوا فيه شيئاً.

ولما تكاثرت الأموال عند ابن أبي الليث صاحب الديوان، رجية أن يتنجح على الأفضل بنهضته، وكان سبعمائة ألف دينار، خارجاً عما أنفق في الرجال، فجعل في صناديق بمجلس الجلوس، فلما شاهد الأفضل المال قال: يا شيخ تفرحني بالمال وتريه أمير الجيوش، إن بلغني بئراً معطلة، أو أرضاً بائرة أو بلداً خراباً، لأضربن رقبتك، فقال: وحق نعمتك لقد حاشى الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة، فتوسط القائد له بخلع، فقال: لا والله حتى أكشف عما ذكر.

وفيهما وصل بغدوين إلى صيدا ونصب عليها البرج الخشب، فوصل الأسطول من مصر للدفع عنهم، وقاتلوا الفرنج وقهروا على مراكب الجنوبية، فبلغهم أن عسكر دمشق خارج في نجدة صيدا، فرحل الأسطول عائداً إلى مصر.

وفي شعبان منها نزل الفرنج على طرابلس وقاتلوا أهلها من أول شعبان إلى حادى عشر ذي الحجة، ومقدمهم ريمند بن صنجيل^(٢٠)، واسندوا أبراجهم الى السور، فضعفت نفوس المسلمين لتأخر أسطول مصر عنهم، فكان قد سار من مصر اليها بالميرة والنجدة فردته الريح لأمر قدره الله، فشدد الفرنج في قتالهم وهجموا من الأبراج، فملكوها بالسيف في يوم الاثنين الحادى والعشرين من ذي الحجة، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، فحازوا من الأمتعة والذخائر ودفاتر دار العلم وما كان في خزائن أربابها

مالا يجد عدده ولا يحصى فيذكر، وسلم الوالي لها في جماعة من جندها كانوا قد طلبوا الأمان قبل ذلك، وعوقب أهلها واستصفيت أموالهم واستثبرت ذخائرهم، ونزل بهم أشد العذاب.

وتقرر بين الفرنج والجنويين الثلث من البلد وما نهب منه للجنونيين، والثلثان لريمند بن صنجيل، وأفردوا للملك بغدوين ما رضي به.

ثم وصل اسطول مصر ولم يكن خرج فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس فأرسي على صور في اليوم الثامن من أخذ طرابلس، وقد فات الأمر فيها، فأقام مدة، وفرقت الغلة في جهاتها، وتمسك أهل صوروصيدا، وبيروت به لضعفهم عن مقاومة الفرنج، فلم تمكنه الإقامة، وعاد إلى مصر.

سنة ثلاث وخمسة:

فيها سار الفرنج نحو بيروت، وعملوا عليها برجاً من الخشب، وزحفوا، فكسره أهل بيروت. وقدم الخبر بذلك على الأفضل، فجهز تسعة عشر مركباً حربية، فوصلت سائلة إلى بيروت، وقويت على مراكب الفرنج، وغنمت، ودخلت إلى بيروت بالميرة والنجدة، فقوي أهلها بذلك، وبلغ بغدوين الخبر، فاستنجد بالجنوية، فأتاه (٢١) منهم أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة، فزحف على بيروت في البر والبحر، ونصب عليها برجين، وقاتل أهلها في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال، فعظمت الحرب، وقتل مقدم الأسطول وكثير من المسلمين، ولم ير للفرنج فيما تقدم أشد من حرب هذا اليوم، فانخذل المسلمون في البلد، وهجم الفرنج من آخر النهار فملكوه بالسيف قهراً، وخرج متولي بيروت في أصحابه وحمل في الفرنج، فقتل من كان معه، وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد، وسبوا من فيه وأسروا، واستصفوا الأموال والذخائر،

فوصل عقب ذلك من مصر نجدة فيها ثلاثمائة فارس إلى الأردن تريد بيروت، فخرج عليها طائفة من الفرنج، فانهزموا إلى الجبال، فهلك منهم جماعة.

وفيهما سار الأسطول من مصر إلى صور ليقيم بها، فاتفق وصول ابن كند ملك الفرنج في عدة مراكب لزيارة القدس والجهاد في المسلمين، فزار القدس، وسار هو وبغدوين إلى صيدا، فنازلاها بجمعها وعملا عليها برجا من خشب، وزحفا عليها، فلم يتمكن الأسطول من الوصول إليها^(٢٢)

سنة أربع وخمسة : .

في ثالث ربيع الآخر اشتد الحصار على أهل صيدا ويئسوا من النجدة، فبعثوا قاضي البلد في عدة من شيوخها إلى بغدوين يطلبون الأمان، فأجابهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق، وحلف على ذلك، فخرج الوالي والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من الناس، وتوجهوا إلى دمشق، لعشر بقين من جمادى الآخرة. وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما.

وفيهما خرج جماعة من التجار والمسافرين من تنيس ودمياط ومصر وأقلعوا في البحر، فأخذهم الفرنج وغنموا منهم ما يزيد على مائة ألف دينار، وعاقبوهم حتى اشتروا أنفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق وغيرها.

وفيهما أغار بغدوين بعد عوده من صيدا على عسقلان، فراسله أميرها شمس الخلافة أسد حتى استقر الحال على مال يحمله إليه ويرحل عنه،

وقرر على أهل صور سبعة آلاف دينار تحمل إليه في مدة سنة وثلاثة أشهر، فقدم الخبر بذلك في شوال على الأفضل، فأنكر ذلك وكتبه عن كل أحد، وجهاز عسكريا كثيفا إلى عسقلان، وقدم إليه عز الملك الأعز ليكون مكان شمس الخلافة، وندب معه مؤيد الملك رزيق، وأظهر أن هذا العسكر سار بدلا. فسار إلى قريب عسقلان، وبلغ ذلك شمس الخلافة فأظهر الخلاف على الأفضل وكتب إلى بغدوين يطلب منه أن يمدّه بالرجال ويعدّه بتسليم عسقلان وأن يعوضه عنها.

فبلغ ذلك الأفضل. فكتب إليه يطيب قلبه ويغالطه، وأقطع عسقلان، وأقر عليه إقطاعه بمصر، وأزال الاعتراض عما له بمصر من خيل وتجارة وأثاث، فخاف شمس الخلافة على نفسه ولم يطمئن إلى أهل البلد، واستدعى جماعة من الأرمن وأقرهم عنده.

وفي يوم الأحد العشرين من شوال حدثت ريح حمراء بالقاهرة.

وفيها أمر أمير المؤمنين الأمر بأحكام الله أن ينعت جلسه أبو الفتح عبد الجبار بن اسماعيل، المعروف بابن عبد القوي بعماد الدولة زيادة على إخوته.

وفيها هبت بمصر وأعمالها في هذه الأيام ريح سوداء مظلمة، وطلع سحب أسود أظلمت منه الدنيا حتى لم يبصر أحد يده، وسفت رمادا حتى ظن الناس أنها القيامة، ويئسوا من الحياة وأيقنوا بالبوار لهول ما عاينوه، ولم يزل ذلك من وقت العصر إلى غروب الشمس. ثم انجلى ذلك السواد وعاد إلى الصفرة والريح بحالها، ثم انجلت الصفرة، وظهرت الكواكب وقد خرج الناس من الأسواق والدور إلى الصحراء، ثم ركبت الريح وأقلع السحاب، فعاد الناس إلى منازلهم.

سنة خمس وخمسمائة:

في يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر نزل بغدوين على صور وبها عز الملك أنوشتكين الأفضلي، وبني عليها أبرجة خشب، طول البرج سبعون ذراعاً، يسع كل برج ألف رجل، وهو موضوع على شيء يسمى اسقلوس وهو فخدان ملقيان على الأرض، وفي كل برج من أسفله عشرون فرنجياً يصيح أحدهم بالفرنجية: «صند ماريا»، فيصيح الباقيون كذلك، ويدفعونه بأجمعهم، فيسبح على ألواح عظيمة تجعل بين يديه، وكانت ستائر كل برج ومناجيقه كأنها بلد يزحف.

فخرج من أهل صور ألف رجل وحملوا على البرج وطرحوا فيه النار، فعلق بالخشب، فلم يتمكن الفرنج من إطفائه وهربوا منه، واحترق، فتناول المسلمون بالكلايب ما قدروا عليه من سلاحهم، فوصل إليهم ثلاثمائة درع، وكان على هذا البرج كبشا من حديد زنة رأسه مائة وخمسون رطلاً، فظفر به المسلمون، وكانت الريح على المسلمين ثم صارت معهم، وملأوا جراراً بالعذرة ورموها على الفرنج، فصاحوا وذلوا ورحلوا، فعاثوا، ثم عادوا وقد قطعوا النخل أنابيب ورموا بها في الخندق..

وسار طغتكين من دمشق لإعانة أهل صور، فنزل على يوم منهم بحولة بانياس، ونفذ إليهم مائتي غلام تركي عليهم جليل من الأتراك، فقاتل الفرنج وقتل منهم ألفاً وخمسمائة، وأكثر النكاية فيهم، وأغار طغتكين على بلاد الفرنج، فأخذ لهم موضعاً، فرجعوا عن صور بغير شيء. وخرج أهل صور إلى أصحاب طغتكين، فخلعوا عليهم وأعادوهم إليه في أحسن زي، وأخذ أهل صور في رم ماشعته الفرنج في البلد.

وفيها حدث بمصر وباء مفرط، هلك به تقديريستين ألف نفس.

سنة ست وخمسة:

فيها حفر البحر المعروف ببحر أبي المنجا، فابتدىء في حفره في يوم الثلاثاء السادس من شعبان، وأقام الحفر فيه سنتين، وكان أبو المنجا يهودياً وكان يشارف الأعمال الشرقية، فلما عرض على الأفضل ما أنفقه فيه استعظمه وقال: غررنا هذا المال جميعه والاسم لأبي المنجا. فغير اسمه ودعي بالبحر الأفضل، فلم يتم ذلك ولا عرف إلا بأبي المنجا (٢٣).

وفيها أعلن شمس الخلافة أسد، والي عسقلان، بالخلاف، فعمد الى صاحب الترتيب والقاضي فأخرجهما على أنه يرسلهما الى الباب في خدمة عرضت له، وإلى العسكر الذي كان يخاف شوكته، فأوهمهم انه يسيرهم إلى بلاد العدو، فلما حصلوا خارج الثغر امرهم بالمسير الى باب سلطانهم، وكان قد سير قبل ذلك العسكر من الباب على جهة البدل. فلما علم أسد المذكور بوصولهم الى مدينة الفرما أنفذ إليهم يخيفهم ويشعرهم أن العدو قد تعداهم فامتنعوا من التوجه الى عسقلان.

فلما بلغ الأفضل ذلك عزم على أن يسير بنفسه اليه، ثم رأى ان اعمال الحيلة أنجع، فخادعه وأنفذ الكتب إليه ويصوب رأيه فيما فعله في صاحب الترتيب والبدل، ولم يغير مكاتبتة عن حالها، ولا تعرض لاقطاعاته ورسومه واصحابه، وسير في الباطن من يستفسد الكنانية والرجال المركزة ويبدل لهم الأموال في أخذه، ولم يزل يدبر عليه حتى اقتنصت المنية مهجته، وذلك أن أهل بيروت أنكروا أمره، فوثب عليه طائفة وهو راكب، فجرحوه، وانهمزم الى داره فتبعوه واجهزوا عليه، ونهبوا داره وماله، وتخطفوا بعض دور الشهود والعامه، فبادر صاحب السيارة الى البلد وملكه، وبعث برأس شمس الخلافة الى الأفضل، فسر بذلك وأحسن الى القادمين به.

وكان قدوم الرأس في يوم الأربعاء رابع المحرم، صحبة ثلاثة من الكنانية، فخلع عليهم، وطيف بالرأس، وزينت البلد سبعة أيام.

وفيه خلع على ولده مختار ولقب شمس الخلافة، وأنعم عليه بجميع مال أبيه، وسير بدله مؤيد الملك خطلخ، المعروف برزيق، واليا على الثغر.

وفيه وصل يانس الناسخ من الشام، فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنائير في الشهر، وثلاث رزم كسوة في السنة، والهبات والرسوم.

وفيه كتب إلى عسقلان بمطالبة من نهب دار شمس الخلافة وماله بها أخذه، فقبض على جماعة وحملوا إلى مصر فاعتقلوا بها.

وفيه تسلم نواب طغتكين صور من عز الملك أنوشتكين الأفضلي خوفا من بغدوين أن يأخذها، وقام بأمرها مسعود، فاستقرت بيد الأتراك وأقروا بها الدعوة المصرية والسكة على حالها، وكتب طغتكين إلى الأفضل بأن بغدوين قد جمع لينزل على صور، وأن أهلها استنجدوني، فبادرت لحمايتها، ومتى وصل من مصر أحد سلمتها إليه. فكتب يشكره على ما فعل. وتقدم بتجهيز الأسطول إلى صور بالغلة معونة لها.

سنة سبع وخمسة

في أولها خرج الأسطول من مصر بالغلات والرجال إلى صور، وعليه شرف الدولة بدر (٢٤) بن أبي الطيب الدمشقي متولي طرابلس عند أخذ الفرنج لها، فوصل إلى صور سالما، ورخصت بها الأسعار، واستقام أمرها، وأنفذ معه بخلع جليلة إلى ظهير الدين طغتكين وولده تاج الملوك وخواصه، ولمسعود متولي صور، ثم أقلع في آخر شهر ربيع الأول. فبعث بغدوين يطلب المهادنة من مسعود، فأجابه، وانعقد الأمر بينهما.

سنة تسع وخمسة:

في ذي القعدة قفز على الأفضل عند باب الزهومة (٢٥) من دكان صيرفي يعرف بالفار وسلم، فأخرجت الصدقات بسبب سلامته، وقتل الصيرفي وصلب على دكانه.

وورد الخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل الفرما، فسير الراجل من العطوفية، وسير إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين إليها، ويتقدم إلى العربان بأسرهم أن يكونوا في الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفهم بالليل قبل وصول العساكر، وأن يسير بنفسه، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشي، فوصلت العربان والعساكر فطاردوا الفرنج، فخاف بغدوين من تلاحق العساكر، فنهب الفرما وأخرجها وألقى فيها النيران، وهدم المساجد، وعزم على الرجوع، فأدرسته المنية ومات، فأخفى أصحابه موته، وساروا وقد شقوا بطنه وحشوه ملحاً، وشنت العساكر الإسلامية الغارات على بلاد العدو، وخيموا على ظاهر عسقلان ثم عادوا.

وكانت الكتب قد نفذت من الأفضل إلى الأمير ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، يعتبه ويقول له: « لا في حق الإسلام ولا في حق الدولة التي ترغب في خدمتها والانحياز إليها تتوجه الفرنج بجملتها إلى الديار المصرية ولا يتبين لك فيها أثر ولا تتبعهم، ولو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد ». فلما وصل إليه الكتاب سار بعسكره إلى عسقلان، فتلقيه المقدمون، ونزل أعظم منزل، وحملت إليه الضيافات. وحمل إليه من مصر الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والأعلام، وسيف ذهب، ومنطقة ذهب، وطوق ذهب، وبدنة طميم، وخيمة كبيرة معلمة، ومرتبة ملوكية، وفرشها، وجميع آلاتها، وسائر ما تحتاج إليه من آلات الفضة، وجهاز لشمس الخواص، وهو

مقدم كبير كان معه على عدة كثيرة من العسكر: خلعه مذهب، ومنطقة ذهب، وسيف ذهب، وجهاز برسم المتميزين من الواصلين: خلع مذهبة وحريرية، وسيوف مغموسة بالذهب، فتواصلت الغارات على بلاد العدو، وقتل منهم وأسر عدد كبير.

فلما دخل الشتاء وتفرق العسكر والعربان، استأذن ظهير الدين على الإنصراف، فأذن له، وسيرت إليه وإلى من معه الخلع ثانيا، فحصل لشمس الخواص خاصة في هذه السفرة ما مقداره عشرة آلاف دينار، وتسلم الأمير ظهير الدين الخيمة الكبيرة بفرشها وجميع آلاتها، وكان مقدار ما حصل له ولأصحابه ثلاثين ألف دينار، وذكر أن المنفق في هذه الحركة على ركاب بغدوين مائة ألف دينار.

ورعشت يد الأفضل، وصعب عليه إمساك القلم والعلامة على الكتب، فأقر أخاه أبا محمد جعفر المظفر في العلامة، وجعل له خمسمائة دينار في الشهر مضافا إلى رسمه، فعلم عنه.

واستهل شهر رمضان، فجرى الأمر في نيابة الأجل سماء الملك، ولد الأفضل، عنه في جلوسه بمحل الشباك، وقرر له على هذه النيابة في هذا الشهر خمسمائة دينار، وبدلة مذهب، ورزمة كسوة فيها شقق حرير وغيرها، ولم يزل هذا الرسم مستقرا إلى أن أخذه عباس بن تميم في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عند توليته حجة بابه. والبدلة وحدها تساوي خمسمائة دينار.

وفيها استخدم ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة والحسبة، فظلم وعسف، وبنى مسجدا عرف بمسجد لا بالله (٢٦).

سنة عشر وخمسمائة:

سنة احدى عشرة وخمسمائة:

في ذي الحجة خرج أمر الأمر بأحكام الله بنفي بني عبد القوي،
فنفوا إلى الأندلس بأهاليهم.

وفيها وصل بغدوين إلى الفرما وأحرق جامعها وأبواب المدينة
ومساجدها، وقتل بها رجلا مقعدا وابنة له ذبحها على صدره، ورحل
وهو مشخن مرضا، فمات قبل العريش، فشق بطنه ورمي ما فيه هناك،
فهو يرجم إلى اليوم، ويعرف مكانه بسبخة بردويل ودفنت رمتة بقامة
من القدس.

وقام من بعده بملك القدس القمص صاحب الرها، بعهدة إليه.

ونزل الفرنج حوران، وملكوا من أعمال حلب بزاعة وخرتبرت،
وملكوا مدينة صور.

وفيها خرج محمد بن تومرت من مصر في زي الفقهاء ومضى إلى بجاية

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة:

فيها مات الأمير نور الدولة أبو شجاع فاتك، والد القائد أبي عبد
الله بن فاتك، فأخرج له الأفضل من ثيابه بذلة حريرية وقارورة كافور
وشققا مزيدي ديبقي، ونصافي، وطيبا وبخورا وشمعا، وحمل له من
القصر أضعاف ذلك، وأخرج الأفضل والأمراء، وجمع حاشية القصر، إلى
الإيوان، فخرج الخليفة وصلى عليه، ثم أخرج فدفن. وتردد الناس إلى
التربة، وفرقت الصدقات إلى تمام الشهر.

وكان بيد نور الدين: زمر الضاحكية، والفراشين، وصبيان الركاب،

والبسلاح الخاص بجار ثقليل، ورسوم كثيرة، وهؤلاء الضاحكية (كانوا) يعرفون بهذه الرسوم قديما عند وصولهم مع المعز إلى مصر، وهم يلبسون المناديل ويرخون العذب، ويلبسون الثياب بالأكمام الواسعة، وفي أرجلهم الصاجات، وفي الأعياد يشدون أوساطهم بالعراضي الديبقي، ولا يتقدمهم أحد إلى الخليفة على ما جرت به عادتهم في المغرب .

وفيهما قفز على الأفضل ثانيا، وخرج عليه ثلاثة نفر بالسكاكين، فقتلوا، وعاد سالما، فاتهم أولاده، وصرح بالقول فيهم، وأخذ دوابهم، وأبعد حواشيهم، ومنعهم من التصرف، وبالغ في الاحتراز والتحفظ.

وفيهما وردت التجار من عيذاب ذاكرين أنه خرج عليهم في مراكب شنها قاسم بن أبي هاشم، صاحب مكة، فقطعت عليهم الطريق وأخذ جميع ما كان معهم، فغضب الأفضل وقال: صاحب مكة يأخذ تجارا من بلادي، أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة، ثم تقرر الحال على مكاتبة الأشراف بمكة وإعلامهم ما فعله أمير مكة، وأقسم فيه أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدولة تاجر ولا حاج إلى أن يقوم بجميع ما أخذه من أموال التجار، وكتب إلى والي قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه، إلى عيذاب، ومهما وصل من جدة من الجلاب لا يمكن أحدا من الركوب فيها، وأن يتشوف ما يدخل عيذاب من الشواني والحراريق، فمهما كان يحتاج إلى إصلاح ومرممة ينجز الأمر فيه، ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية، وتقدم إلى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق وتكميلها ليسيروا إلى الحجاز

فلما وردت المكاتبة على الأشراف بمكة ولم يصل إليها أخذ اشتد الأمر

عندهم وتحرك السعر، فبعثوا رسولا من أميرهم، فلما وصل ساحل مصر لم يؤيد له ولا أجري عليه ضيافة وقيل له: ما يقرأ لك الكتاب ولا يسمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم، وشاهد مع ذلك الجد والاهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه، فالتزم بإحضار جميع أموال التجار، وسأل التوقف قبل الإسراع بما عول عليه من قصد صاحبه، وأجل لعوده أجلاً قريباً، فأجيب إلى ذلك، وسار فلم ينقض الأجل حتى عاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال، فحملت إلى الجامع العتيق بمصر بمحضر من الرعايا، وهم يعلنون بالشكر والدعاء، واحتاط متولي الحكم عليه إلى أن تحضر جماعة التجار، ويجري الأمر على ما توجبه الشريعة. وخلع على الرسول وأحسن إليه ووصل.

ومرض الأفضل بحمى حادة ثم عوفي، فدفع للطبيب ثلاثمائة دينار (٢٧)

سنة خمس عشرة وخمسمائة:

فيها قتل الأفضل بن أمير الجيوش يوم الأحد سلخ شهر رمضان وعمره سبع وخمسون سنة، لأن مولده بعكا سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان سبب ذلك أنه لما كان ليلة عيد الفطر جهز ما جرت العادة بتجهيزه من الدواب والآلات لركوب الخليفة، وجلس بين يديه إلى أن عرضت الطبول على العادة كل سنة، والدواب والسلاح، ثم عاد وأدى ما يجب من سلام الخليفة فتقدم إلى القائد أبي عبد الله بن فاتك بأن يأمر صاحب الباب أن يصف العساكر إلى صوب باب الخوخة (٢٨) وركب الأفضل من مكانه والناس على طبقاتهم، وخرج من باب الخوخة قاصداً دار الذهب (٢٩)، فلما حصل بها وقع التعجب من الناس في نزوله ليلة الموسم، ولم يعلم أحداً ما قصد، وكان قصده أن يكمل تعليق المجلس

الذي يجلس فيه، فصلى بدار الذهب الظهر، فلما قرب العصر ركب منها وقد انصرف أكثر المستخدمين ظنا منهم أنه يبيت فيها، فسار إلى الزهري فإذا الأمراء والأجناد والمستخدمون والرهجية قد اتجهوا لخدمته، وكان قد ضجر وتغير خلقه ولاسيما في الصيام. فلما رأى اجتماع الناس وكثرتهم أبعدهم، فتقدموا ووقفوا عند باب الساحل، فأنفذ أيضا يخرج من أبعدهم، وبقي في عدة يسيرة، وأبعد صبيان السلاح من ورائه، فوثب عليه من دكان دقاق بالملاحين أربعة نفر متتابعين كلما اشتغل من حوله بواحد خرج غيره، فرمى من الفرس إلى الأرض، وضربوه ثمان ضربات. وكان القائد^(٣٠) بعيدا منه لأخذ رقايع الناس، وسماح تظلمهم، وتفريق الصدقات على الفقراء بالطريق، فلما سمع الضوضاء أسرع إليه ورمى نفسه إلى الأرض عليه، فوجده قد قضى نحبه، وحمل على أيدي مقدمي ركابه والقائد راجل، وهم يبشرون الناس بالسلامة، وقتل من الذين خرجوا عليه ثلاثة وقطعوا وأحرقوا، وسلم الرابع، وكان اسمه سالما، ولم يعلم به إلا لما ظفر به مع غيره بعد مدة.

ولم يزل الأفضل محمولا ولا يمكن أحد من الوصول إليه إلى أن دخل به على مرتبته التي كان يجلس عليها أو يمطى. وقال (القائد): للخليفة أدركني وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه، وصار أي من لقيه يهتئ به سلامة السلطان ويوهم أهله أن الطبيب عنده، ويأمرهم بتهيئة الفراريج والفواكه، وعاد إلى قاعة الجلوس فوجدوها قد غصت بالناس، فرد عليهم السلام وهنأهم، وأظهر قوة عزم، ثم عاد إلى القاعة الكبيرة وقد حضر إليه متولي المائدة الأفضلية واستأذنه على السباط المختص بالعيد فقال له: اذبح ووسع، فالسلطان بكل نعمة وهو الذي يجلس على السباط في غد، ومع ذلك فكان في قلق وخوف شديد من أن يبلغ أولاد الأفضل فيجري منهم مالا يستدرك وتنهب الدار.

فلما أصبح الصباح وركب الخليفة ودخل إلى الدهليز الذي كان

يركب منه الأفضل ومعه الأستاذون المحنكون قال القائد أبو عبد الله للخليفة: عن إذن مولانا أفتح الباب، وكان قد منع من الدخول إلى الدار، فقال الخليفة: نعم ففتح على الأفضل وقال له القائد: الله يطيل عمر أمير المؤمنين ويفسح في مدته ويورثه أعمار ممالكه، هذا وزيره قد صار إلى الله تعالى، وهذا ملكه يتسلمه، ثم ضربت للوقت المقرمة (٣٦) على الأفضل، وأمر الخليفة بإحضار من بالقاعة من الأمراء والأجناد، فدخل الناس على غير طبقاتهم إلى أن مثلوا بين يدي الخليفة وهو قاعد على الحصير عند المقرمة، فقال الخليفة للأمراء: هذا وزيري قد صار إلى الله تعالى، ومنكم إلي ومني إليكم، وقد كان القائد واسطته إليكم، وهو اليوم واسطتي إليكم. فشكر الحاضرون ذلك، هذا والقائد وولده مشدود الأوساط بالمناطق، وصاحب الباب على ما كانوا عليه. وتقدم إلي الشيخ أبي الحسن بن أبي أسامة أن يكتب إلى الأعمال بذلك، وأمر الأمراء بالانصراف.

ثم قال القائد: يا مولانا، الأموال والجواهر على اختلافها في الخزائن الكبار عنده، وهي مقفلة ومفاتيحها عندي، وختم عليها وهي في بيت المال المصبون، وكذلك المفضض التي عند المستخدمين برسم الاستعمال والميناء الذهب المرصعة والتي بغير ترصيع، والبلور التي برسم استعماله، جميع ذلك مثبت عند متولي دفتر المجلس إلا خزانة الكسوة التي برسم ملبوسه ما عندي منها خبر، فأمر من يدخل ويختم عليها، فأمر متولي الخزائن الخاص، وكان سيف الأستاذين، ومتولي بيت المال ومتولي الدفتر، وهم كبار الأستاذين المحنكين بأن يدخلوا ويجمعوا، ولا يعترض غيرها لا لولده ولا لجهته ولا لبناته ولا لأحد من عياله.

فتوجهوا وقرعوا الباب، فلما شاهدتهم النساء تحققوا الوفاة، وقام الصراخ من جميع جوانب المواضع، وكانت ساعة أزعجت كل من بمصر والجزيرة والجزيرة، ثم أسكتوا. وأنفذت الرسل لختم الخزائن التي بمصر.

فبينما هم على ذلك في الليل إذ وصل إلى الخليفة رقعتان على يد أستاذ من القاهرة، من رجلين من جملة الحاشية، يذكران فيها أن أولاد الأفضل قد جمعوا عدة وشنعت حاشيتهم أن في بكرة هذه الليلة يستنصرون بالباطية والأرمن ويثورون في طلب الوزارة لأخيهم الأكبر، فامتعض الخليفة لذلك، وهم بالارسال إليهم وقتلهم، ثم تقرر الأمر على أن يودعوا الخزانة^(٣٢) من غير إهانة ولا قيود، فتوجه إليهم، فإذا جميع حاشيتهم وغيرها عندهم، والخيل قد شدت، فأودعوا الخزانة.

فلما أصبح الصباح كان قد حمل من القصر في الليل طيافير^(٣٣) فيها عدة موائد للفطر في يوم العيد، وحمل برسم فطر الخليفة الصواني الذهب، وعليها اللقائف الشرب المذهبة، وكان قد هيء للخليفة من الليل موضع للمبيت بحيث يبعد عن الأفضل، وعين من وقع الاختيار عليه لقراءة القرآن عند الأفضل.

فلما كان السحر من عيد الفطر جيء بين يدي الخليفة بما أحضر من قصوره في مواعينه الذهب المرصعة، وعليها المناديل المذهبة من التمر المحشوة والجوارشينات بأنواع الطيب وغير ذلك، فاستدعى الخليفة القائد وأمره بالمضي إلى باب الحرم لإحضار الأجل المرتضى ابن الأفضل، فمضى لذلك، فأبت أمه من تمكينهم منه، فما زال حتى أسلمته إليه بعد جهد، فأتى به الخليفة فسلم به، وضمه الخليفة إليه وقبله بين عينيه، وأجلسه عن يمينه والقائد عن شماله، وبقية الخواص على مراتبهم.

ثم كبر مؤذنو القصر، فسمى الخليفة وأخذ ثمرة وأكل بعضها وناولها للقائد، ثم ناول الثانية لولد الأفضل، فقام كل منهما وقبل الأرض ولم يجلس. وتقدم كل من الحاضرين فأخذ من يد الخليفة من التمر ووقف، فاستدعى القائد الفراش الذي معه الصينيتان النحاس، وأمر فراشي الأسمطة بنقل ما في الأواني التي بين يدي الخليفة في الصواني لتفرق في

الأمراء الذين بالقاعة والدهاليز، فنقلت إليها وحملت إلى المقرمة التي الأفضل وراءها وختم المقرئون.

ثم أظهر الخليفة الحزن على فقد وزيره، فتلثم وتلثم جميع المحنكين والحاشية، وجلس الخليفة على المخدة عند المقرمة، وأمر حسام الملك، حاجب الباب، بإحضار القاضي والداعي والأمراء، فدخل الناس على طبقاتهم. فلما رأوا زي الخليفة اشتد البكاء والعويل، وخرق كل أحد ما عليه، ورميت المناديل — يعني العمام — إلى الأرض، وبكى الخليفة وحاشيته ساعة، ثم سأل القائد الخليفة أن يفطر على تمره بحيث يشاهده جميع من حضر، ففعل ذلك.

ثم أشار الخليفة إلى القائد أن يكلم الناس عنه: فقال: أمير المؤمنين يرد السلام عليكم، وقد شاهدتم فعله وكونه لم يشغله مصابه بوزيره ومدبر دولته ودولة آبائه عن قضاء فرض هذا اليوم، وقد أفطر بمشاهدتكم، وأمركم بالإفطار، فمسح الخليفة بيده على الصواني، وتقدم القائد إلى الخليفة وصار يناوله من الصواني بيده، فأول ما بدأ بالقاضي ثم الداعي، وتزاحم الناس للأكل

ورفعت الصواني، فأخذ القائد بيد الداعي وقربه من الخليفة، فناوله الخليفة الخطبة، وكانت على يساره ملفوفة في منديل شرب بياض مذهب، فقبلها الداعي وجعلها على رأسه، وضمها إلى صدره، وتقدم القائد لحسام الملك بأن يأخذ الأمراء جميعهم ويطلعون إلى المصلى بالقاهرة لقضاء الصلاة، فتوجهوا في زي الحزن والمؤذنون بين أيديهم، فصلى الداعي بالناس، ثم صعد المنبر فوقف على الدرجة الثالثة منه، وخطب، وكانت الخطبة مبيتة فيها الدعاء للأفضل والترحم عليه.

وعندما توجه الناس إلى المصلى أمر ولد الأفضل بالمضي إلى إمامه وإخوته وجهات أبيه ليرد عليهم السلام من أمير المؤمنين ويفطروهم.

وخلا الخليفة بالقائد وأمره بإخراج جميع الجواهر، فقام إلى خزانة كانت عند بيت نوم الأفضل، فوجدها مختمة، ففتحها وأخرج قمطرين عليهما حلية ذهب مملوءين جواهر ما بين عقود مفصلة بياقوت وزمرد وسبح، وقمطرا فيه إحدى عشرة شرابة طوال كل شرابة شبران بجواهر ما تقع عليها قيمة، وصناديق فضة مملوءة مصاغيات ما بين عصابات وتيجان ذهب مرصعة بجواهر نفيسة، ففتحت كلها، فشاهد الخليفة منها ما لا يوصف، فسر بذلك سرورا كبيرا، وشكر القائد وقال: «والله إنك المأمون حقا، مالك في هذا النعت شريك». فقبل الأرض ويديه.

ولهذا النعت قضية، وذلك أنه لما كان في الأيام المستنصرية، وعمر القائد يومئذ اثنتا عشرة سنة، وكان من جملة خاصة المستنصر يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة في مهماته، فيجد منه النهضة والأمانة، فيقول هذا المأمون دون الجماعة، ودرجت السنون، فذكرها الخليفة الأمر في ذلك الوقت فقال له: أنت المأمون على الحقيقة، لأجل ذلك.

ثم عاد حسام الملك أفتكين صاحب الباب، والداعي وجميع الأمراء من المصلى، ومثلوا بين يدي الخليفة، ووقع حيثئذ الاهتمام بتجهيز الأفضل، وتقدم إلى زمام القصور بإخراج ما قد مزجه عرق الأئمة، وتقدم إلى ريجان متولي بيت المال بإخراج ما يجب إخراجه برسم المأتم، فمضيا، وتقدم إلى حسام الملك بإعلام الأمراء والأجناد والشهود والقضاة والمتصدرين والمقربين وبني الجوهري الوعاظ وغيرهم لحضور الجنازة وتلاوة القرآن. فعاد زمام القصور ومتولي بيت المال ومعهما عشرون صينية ملفوفة في عراضي دقيقي بياض مملوءة صندلا مطحونا، ومسكا وكافورا وحنوطا وقطنا، وفي صدر الآخر منديل ديباج فيه ما رسم بإحضاره من ملابس الخلفاء وطيا السهم، ووصلت أيضا الموائد على رؤوس الفراشين، وهي مائة شدة، صحبة متولي المائدة الأمرية، فمد السباط بين يدي الخليفة، ومد سباطان، أحدهما بالقاعة وهو برسم الأمراء، والآخر برسم

القاضي والداعي والشهود والمقربين والوعاظ والمؤمنين، وحمل إلى الجهات
الأفضليات شيء كثير.

فلما انقضى الأكل عاد الجميع بالقاعة، وذكر أنه ختم على الأفضل في
هاتين الليلتين واليوم نيف وخمسون ختمة، فلما انقضى معظم الليلة،
الثاني من شوال، تقدم الخليفة بإحضار داعي الدعاة، ولي الدولة ابن
عبد الحقيق، وأمره بغسل الأفضل على ما يقتضيه مذهبه، وكفن بما
حضر من القصر، وأخرج للداعي بذلتان مكملتان، مذهبة وحرير، عوضا
عما كان على الأفضل من ثياب الدم، فإنها لم تنزع عنه، وعند كمال غسله
دفع للداعي ألف دينار.

فلما كان في الثالثة من نهار يوم الثلاثاء ثاني شوال خرج التابوت
بالجمع الذي لا يحصى، والناس بأجمعهم رجالة، وليس وراءهم راكب إلا
الخليفة بمفرده وهو ملثم، فلما خرج التابوت من بلد مصر أمر الخليفة
بركوب القائد والمرتضى ولد الأفضل، وذكر أن الشيخ أبا الحسن بن أبي
أسامة ركب حمرا، فلما وصلت الجنازة إلى باب زويلة ترجل القائد
والمرتضى ومشيا، وبعث الخليفة خواصه إلى أخويه: أبي الفضل جعفر
وأبي القاسم عبد الصمد، وأمرهما إذا وصل التابوت إلى باب الزهومة:
يخرجا بغير مناديل، بعمائم صغار وطاليس، فإذا قضيا ما يجب من حق
سلام الخليفة يسلما على القائد أبي عبد الله بمثل ما كانا يسلمان على
الأفضل، ويمشيان معه وراء التابوت. فاعتمدا ذلك فاستعظم الناس
هذه الحالة والمكارمة، ولم يزالا مع الناس وراء التابوت إلى أن دخل من
باب العيد^(٢٤).

ورد على ورقة مفردة ما يلي:

....العنبر ومائة مسمار من ذهب زنة كل مسمار مائتا مثقال على كل

مسمار عمامة لون، وخلف عشرة صناديق فيها من نفيس الجواهر ومن
القضيب الزمرد الذي قصبه لا يوجد مثلها، وخلف خمسمائة صندوق من
دق تنيس ودمياط وثمان مائة من الزبادي الصيني والبلور والمحكم
وستمائة حمل وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية فضية كبار
وصغار، وأربع قدور ذهب وزن كل قدر مائة رطل بالمصري، وستة آلاف
خريطة ديباج، وثلاثة آلاف وسبعمائة خاتم ذهب بفصوص ياقوت وزمرد
والف خريطة مملوءة دراهم — خارجا عن الادب — في كل خريطة
عشرة آلاف درهم. ومن الخدم والرقيق والخيول والبغال والجمال والسروج
المحلاة، ومن حلي النساء ما لا يحصى عدده الا الله تعالى. واقام الأمر
بدار الملك طوال شهر ايلول يحمل في كل يوم على مائتي جمل الى
القاهرة من دار الملك دفعتين في النهار ودفعة في الليل طول الشهر،
مائتي جمل كل يوم. وخلف الف حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة فضة،
والف صدر ذهب والفي صدر فضة منقوشة، وثلاثمائة ثور ذهب
واربعة آلاف ثور فضة والف بوق كبير من ذهب، وخلف من المراكب،
يعني السروج، المرصعة مائة مركب، ومن الآلات والبسط الارمنية
والاندلسية والطبرستانية ما ملأ به خزائن الايوان، وداخل قصر الزمرد
من الجاموس وبقر الخيس والاغنام ما يباع لبنه في كل سنة بضمآن ابي
الحسين بن يزيد بثلاثين الف دينار، وفي حاصل الاهراء والمناخات ما
لا يحصى كثرة ولا يعرف مقداره.

وورد ايضا على طرف الورقة:

وعند قوله والافضل هو الذي انشأ بستان البعل ما مثاله بخط
المؤلف وعمل الافضل في داره... واقترح على الشعراء النظم فيها وانشد
لنفسه فيها:

نزهة عين الغاب والنظار

ومجلس للملك الناصر

كأنما الأفضل في أفقها

شمس الضحى في الفلك الدائر

ونزع السعر في أيامه بمصر، فأمر مشارف الاهراء بفتح المخازن وبيع القمح بثلاثين دينارا لكل مائة اردب. فقال يا سيدي: القمح كل اردب بدينار تباع انت بثلاثين دينارا المائة. فانتهره وقال : يا شيخ، تريد ان يسمع عن ايامي شدة تعرف بشدة ابن عرس — وكان هذا المشارف يعرف بابن عرس — بع كما امرتك فعندي من البذر ما يقوم بالناس عشر سنين لاسيما القمح، فامتثل ذلك وباع بثلاثين دينارا كل مائة اردب، وكان الناس يشترون ويبيعون على باب المخزن كل اردب بدينار، فحصل لهم من هذا المتجر مال عظيم وحسنت احوالهم، وكثرت الاموال في ايدي الرعية مدة ايامه. وكان لا يولي عملا من الاعمال الا لمن هو كفء له، ويضع الاشياء في مواضعها، مع كثرة موافاته بما يعمله الولاية.. واكثر رفاقة للرعية وتبسطه للعدل، فكان الولاية في ايامه لا تمد يد واحد منهم الى مظلمة خوفا منه فانه كان اذا بلغه عن احد منهم ميل عن سيرة العدل نكل به، فاستقامت لذلك الامور وحسنت الاحوال، ومات وامور الدولة قد اسندها الى عدة من رؤساء اصحابه، فاسند امور

العساكر جميعا وامارة الباب الى الامير حسام الدين افندي، ورد امور الرعية وشكاواهم وظلاماتهم والاخذ والعطاء والمجلس الى القائد ابي عبد الله ابن فاتك، ورد امر الدواوين والاموال والعمال الى ابن ابي الليث، ورد امور الأجر والصناعات الى ابن ابي البيان، ورد ديوان

المكاتبات والنظر في الاحكام والاعمال وما يخص الشريعة الى الشيخ ابي
الحسن بن ابي عثمان..

فلما صار التابوت في وسط الإيوان هم الخليفة بأن يترجل، فسارع إليه
القائد والمرتضى، وصاح الناس بأجمعهم: العفو يا أمير المؤمنين. عدة
مرار، فترجل الخليفة على الكرسي، وصلى عليه، ورفع التابوت فمشى

وراءه، وركب الخليفة الفرس على ما كان عليه، ونزل التربة ظاهر باب النصر ووقف على شفير القبر إلى أن حضر التابوت

واستفتح ابن القارح المغربي وقرأ: « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » (٣٥) الآية. فوقعت من الناس موقعا عظيما، وبكوا، وبكى الخليفة، وهم بنزل القبر ليلحده بيده، ثم أمر الداعي فنزل وألحده والخليفة قائم إلى أن كملت مواراته، ثم ركب من التربة والناس بأجمعهم بين يديه إلى قصره.

وأخرج من قاعة الفضة بالقصر ثلاثون حسكة، وثلاثون بخورا مكملة، وخمسون مثقال ند وعود، وشمع كثير، فأشعلت الشموع إلى أن صلى الصبح وأطلق البخور، واستقر جلوس الناس، فصلى القاضي بالناس، وفتح باب مجلس الأفضل المعلق بالستور القرقوبي الذي لم يكن حظه منه إلا جوازه عليه قتيلا، ورفعت الستور، وجلس الخليفة على المخاد الطبري التي عملت في وسطه، وسلم الناس على منازلهم، وتلى القرآن العظيم وتقدمت الشعراء في رثائه إلى أن استحق الختم فختم، ثم خرج القائد والأمراء إلى التربة فكان بها مثل ما كان بالدار من الآلات والبخور. وعمل في اليوم الثاني كذلك .

وكان عمر الأفضل يوم مات سبعا وخمسين سنة، ومدة ولايته ثمانية وعشرون عاما.

ويقال إن الأمر وافق المأمون على قتله، فرتب له من قتله.

ثم أمر أن يكتب سجل بتعزية الكافة في الأفضل والثناء على خصائصه ومساعدته، وإشعارهم بصرف العناية إليهم ومد رواق العدل عليهم، وتفريقه على نسخ تتلى على رؤوس الأشهاد وبسائر البلاد. فكتب ما مثاله:

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي، الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين بما رآه وأمر به من تلاوة على كافة من بمدينة مصر - حرسها الله تعالى - من الأشراف والأمراء ورجال العساكر المؤيدة على اختلاف طبقاتهم، فارسهم ومترجلهم وراجلهم، والقضاة والشهود والأمثال، وجميع الرعايا، بأنكم قد علمتم ما أحدثته الأيام بتصاريفها، وجرت به الأقدار على عاداتها ومألوفها من فقد السيد الأجل الأفضل ونعوته - قدس الله روحه، ونور ضريحه، وحشره مع مواليه الطاهرين الذين جعلهم أعلام الهدى ومصابيحهم، الذي كان عماد دولة أمير المؤمنين وجمال أثقالها، وعلى يديه وحسن سيرته اعتمادها ومعولها، وتخطي الحمام إليه، واخترام المنية إياه وتسليطها عليه، وما تدارك الله الدولة به من حفظ نظامها، واستتار أمورها بعد هذا الفادح العظيم والتألمها، وما رآه أمير المؤمنين من تهذيبه للأمور بنظره السعيد، ومباشرته إياها بعزمه السديد، واهتمامه بمصالح الكافة، وإسباغ ظل الإحسان عليهم والرفقة، حتى أصبحت الدولة الفاطمية بذلك ظلية المناكب، منيرة الكواكب، محروسة الأرجاء والجوانب.

ولما كانت همة أمير المؤمنين مصروفة إلى الاهتمام بكم، والنظر في مصالحكم، والإحسان إليكم، وتأمين سربكم، وإعذاب شربكم، ومد رواق العدل عليكم، وإنصاف مظلومكم من ظالمكم، وضعيفكم من قويكم، ومشروفكم من شريفكم، وكف عوادي المضار بأسرها عنكم، وتمكينكم من التصرف في أديانكم على ما يعتقده كل منكم، جارين على رسمكم وعاداتكم، من غير اعتراض عليكم - رأى ما خرج به على أمره من كتب هذا السجل وتلاوته على جميعكم، لتثقوا به، وتسكنوا إليه، وتحققوا جميل رأي أمير المؤمنين فيكم، وأنه لا يشغله عن مصالح الكافة شاغل، وأن باب رحمته مفتوح لمن قصده، وإحسانه عميم شامل، وله إلى تأمل أحوال الصغير والكبير منكم عين ناظرة، وفي إحسان

سياستكم عزيمة حاضرة وأفعال ظاهرة، والله تعالى يمدّه بحسن الإرشاد، ويبلغه المراد في مصالح العباد والبلاد، بمنه وعونه.

فاعلموا هذا من أمير المؤمنين ورسمه، وانتهوا إلى موجهه وحكمه وليعتمد الأمير متولي المعونة بمصر تلاوته على منبر الجامع العتيق بمصر ليعيه كل من سمعه، ويصل علم مضمونه إلى من لم يحضر قراءته، ليتحققوا ما ذكر فيه وأودعه، وليحمل الناس على ما أمر به فيه، وليحذر من مجاوزته وتعديده، وليقرأ بالجامع المذكور ليقع التصفح والتأمل في اليوم وما يليه، إن شاء الله تعالى.

ثم أمر الخليفة بإنشاء منشور يتلى، مضمونه:

« خرج أمر أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، بإنشاء هذا المنشور بأن يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة، قاصيها ودانيها، قريبها ونائيها، إمضاء ما كان السيد الأجل الأفضل قرره، وخرجت به توقيعاته الثابتة عليها علامته في الأحكام والأموال بتصاريف الأحوال، إذ أمر أمير المؤمنين راض بأفعاله، محقق لأقواله، حامد لمقاصده، ممض لأحكامه، عارف بسداد رأيه في نقضه وإبرامه، على أوضاعها وأحكامها، وتقريراته في كل منها، فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاة - نصرهم الله وأظفرهم - وجميع النواب والمستخدمين، والكتاب والمتصرفين بجميع الأعمال من تأول فيه، أو تعقب فغير شيئاً من أحكامها على ما قرره وأمر به. وليخلد هذا المنشور في ديوان التحقيق والمجلس بعد ثبوته في جميع الدواوين، وليصدر الإعلان به إلى كافة الجهات بهذا المرسوم، تثبيتاً لهذا الأمر المذكور المحتوم، إن شاء الله تعالى. »

وفي السادس والعشرين من شوال عمل تمام الشهر على تربية

الأفضل، كما عملت الصبحة والثالث. فلما انقضى الختم وانصرف الناس ركب الخليفة بموكبه، ونزل إلى التربة، وترحم عليه وعاد، ذكر هذا جمال الملك موسى بن المأمون البطائحي في تاريخه.

قال ابن ميسر: وأقام الخليفة في دور الأفضل، وفي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما مدة أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصور، فوجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.

فما وجد له ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار، ومائتين وخمسين إردبا دراهم ورقا، وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليها العمايم المختلفة الألوان، وتسعمائة ثوب ديباج ملونة، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتينيس برسم كسوة بدنه، ولعبة من عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه لتكتسب الرائحة، ومن الطيب والآلات ما لا يحصى عدده، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه ونتاجه في سنة نحو أربعين ألف دينار، ودواية يكتب منها مرصعة بالجواهر، قوم جواهرها باثني عشرة ألف دينار، وخمسمائة ألف مجلدة من الكتب العلمية.

قال: وأخذ الأمر في نقل ما بدار الأفضل إلى القصر، وهو يرتب ما يحمل بنفسه، هو وأصحابه، واستمر ذلك مدة شهرين وأيام، والأموال تحمل على بغال وجمال إلى القصر، والأمر يطلع إلى القصر ويعود كل غداة ويقوم حتى يرتفع النهار ويرتب ما يفعل.

وذكر متولي الخزانة بالقصر أن مما وجد في دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار،

وسبعمائة طوق ما بين ذهب وفضة، ومن الأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادي الذهب والفضة المختلفة الأجناس ما لا يحصى كثرة، ومن براني الصيني الكبار المملوءة بالجواهر التي بعضها منظوم كالسبح وبعضها منشور شيء كثير.

وكان الأفضل في أوقات الشرب يصف في مجلسه صواني الذهب، وبينها البراني المملوءة بالجواهر، فإذا أحب فرغت البرنية في الصينية فتكون ملئها.

ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتاي ونحوه تسعون ألف ثوب وثلاثة خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقي وشرب عمل تنيس ودمياط، على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه. وخزانة الطيب مملوءة أسفاطاً، فيها العود وغيره، مكتوب على كل سفت وزنه وجنسه، وبراني بها المسك والكافور وشيء كثير من العنبر، ووجد مجلس يجلس فيه للشرب فيه ثمان جوار متقابلات، أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي، بأيديهن مذايب من أعظم الجواهر، فإذا دخل من باب المجلس ووطيء العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له بحركات قد أحكمت، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات.

ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارج والمخاد والمساند الديباج والديبقي الحريري والذهب على اختلاف الأجناس أربع حجر، كل حجرة مملوءة من هذا الجنس. ووجد له عدة صناديق ملء خزانة فيها أحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال، ووجد له منقلات عدة تزيد على المائة، ملبسة بالذهب والفضة، مرصعة بالجواهر، وثمانمائة جارية منها خمسة وستون حظية لكل واحدة حجرة، وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات والذهب والفضة من كل صنف.

وكان في مخازنه تحت يد عماله والجباة وضمان النواحي من المال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ما يتعب شرحه.

وحمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حملا طنافس، وخمسمائة قطعة بلور، وخمسمائة قطعة محكم برسم النقل، وألف عدل من متاع اليمن والمغرب، وتسعة آلاف سرج.

قال ابن ميسر: وكان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ما سمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر ولا ضبط عليه.

ولما حصر الاسكندرية كان بها يهودي يبالغ في سبه وشتمه ولعنه، فلما دخل الأفضل البلد قبض عليه وقدمه للقتل وقد عدد عليه ذنوبه، فقال اليهودي: إن معي خمسة آلاف دينار، خذها مني وأعتقني واعف عني، فقال: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئا، وكان إذا غضب على أحد اعتقله ولم يقتله، فلما مات أطلق من سجنه عشرة آلاف إنسان، فإنه كان إذا اعتقل أحد نسيه ولا يرى بإخراجه.

وكانت محاسنه كثيرة. وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقه أمره في الحال بإطلاق ما ثبت له، واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث التي تنتظر وصول مستحقها من شرق الدنيا وغربها مائة ألف وثلاثون ألف دينار، فرفع إليه قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الرأس عيني لما ولي أن

« قد اعتبرت ما في مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار، ورفعها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع، فإن لها السنين الطويلة لم يطلب شيء منها ». فوقع رقعته: « إنما قلدناك الحكم ولا رأي لنا فيما لا نستحقه، فاتركه على حاله لمستحقه ولا تراجع فيه » فأخذها هذا القاضي عرفا.

وبلغ ارتفاع خراج مصر في أيامه لسنة خمسة آلاف ألف دينار، ومتحصل الأهراء ألف ألف إردب. وبنى في أيامه من المساجد والجوامع جامع الفيلة بالجرف المعروف بالرصد، والمسجد المعروف بالجيوشي على سطح الجبل، وبنى مئذنة جامع عمر بمصر الكبيرة والمئذنة السعيدة به أيضا والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة، وعمل خيمة الفرع التي سميت بالقاتول، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع من الثياب، وقائم ارتفاع العمود الذي لها خمسون ذراعا بذراع العمل^(٣٦)، وبلغت النفقة عليها عشرة آلاف ألف دينار. وللشعراء فيها عدة مدائح.

وكان الأفضل يقول الشعر. فمن شعره في غلامه تاج المعالي:
أقضيـبـيـميس، أمـهـوـقـد
أوشقيـقـيلـوح، أوـهـوـخـد
أنـامـثـلـالـهـلالـخـوـفـاعـلـيـه
وهـوـكـالـبـدرـحـينـوافـاهـسـعد

وكان شديد الغيرة على نسائه، اطلع من سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق، فأمر بضرب عنقها، فلما وضعت الرأس بين يديه أنشد:
نظرت إليها وهي تنظر ظلها
فنزعت نفسي عن شريك مقارب

أغار على أعطافها من ثيابها
حذارا ومن مسك لها في الذوائب
ولي غيرة لو كان للبدر مثلها
لما كان يرضى باجتماع الكواكب

قال: وكان عدة الوعاظ والقراء والمنشدين في عزاء الأفضل أربعمائة وعشرين شخصا فخرج أمر الخليفة أن يعطى كل واحد منهم ثمانين دينارا، الصغير مثل الكبير، فقال ابن قيراط: يا مولانا، هذا مال كثير، فقال: إنفاذ أمرنا هذا من بعض حقه علينا، فجاء مبلغ ما دفع نحو من أربعة وثلاثين ألف دينار.

قال: والأفضل هو الذي أنشأ بستان البعل، والمنتزه المعروف بالتاج، والخمس وجوه^(٣٧) والبستان الكبير، والبستان الخاص بقلوب^(٣٨)، وجدد بستان الأمير تميم ببركة الحبش، وأنشأ الروضة بحري الجزيرة، وكان يمضي إليها في العشاريات الموكية، رحمه الله.

في مستهل ذي القعدة خلع على القائد أبي عبد الله بن فاتك بذلة مذهبة بشدة الخليفة الداعية، وحلت المنطقة من وسطه، وخلع على ولده بذلة مذهبة، وحلت منطقته أيضا، وعلى جميع إخوته بمثل ذلك.

واستمر ينفذ الأمور لا يخرج شيء عن نظره إلى مستهل ذي الحجة، ففي يوم الجمعة ثانياه خلع عليه من ملابس الخاص الشريفة في فردكم مجلس العيد، وطوق بطوق ذهب مرصع، وسيف ذهب مرصع، وسلم على الخليفة، فأمر الخليفة الأمراء وكافة الأستاذين المحنكين^(٣٩) بالخروج بين يديه، وأن يركب من المكان الذي كان الأفضل يركب منه.

ومشى في ركابه القواد على عادة من تقدمه، وخرج بتشريف الوزارة، ودخل من باب العيد راكباً، ووصل الى داره، فضاعف الرسوم وأطلق الهبات.

وفي خامسه اجتمع الأمراء واستدعى الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة، فحضر بالسجل في لفافة خاص مذهبة فسلمه الخليفة إلى الأجل المأمون من يده، فقبله وسلمه لزمام القصر، وأمر الخليفة المأمون فجلس عن يمينه، وقرىء السجل على باب المجلس، وهو أول سجل قرىء بهذا المكان، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان، ورسم للشيخ أبي الحسن ان ينقل نسبة الأمراء والمحنكين والناس جميعهم من الأمري الى المأموني، ولم يكن أحد قبل ذلك يتسبب للأفضل ولا لأمير الجيوش، وقدمت للمأمون الدواة فعلم في مجلس الخليفة، وتقدم للأمراء والأجناد فقبلوا الارض وشكروا هذا الاحسان، واحضرت الخلع، فخلع على حاجب الحجاب حسام الملك، وطوق بطوق ذهب، وسيف ذهب ومنطقة ذهب، وخلع على الشيخ أبي الحسن بن أبي اسامة كاتب الدست، وعلى الشيخ أبي البركات بن أبي الليث، وعلى أبي الرضا سالم ابن الشيخ أبي الحسن، وعلى أبي المكارم أخيه، وعلى أبي محمد أخيهما، وعلى أبي الفضل أخيهما يحيى بن سعيد الميمذي^(٤٠) ووصل بدنانير كثيرة بحكم انه قرأ السجل.

وخلع على أبي الفضائل بن أبي الليث صاحب مغفر المجلس. ثم استدعى غذي الملك سعيد بن عمار الضيف متولي امور الضيافات والرسل الواصلين الحضرة من جميع الجهات وأخذ اقلامه على التوقيعات فخلع عليه. وفي الايام الافضلية لم يكن احد يدخل مجلسه ولا يصل لعنته لامن الحجاب ولاغيرهم سوى غذي الملك هذا فانه كان يقف من داخل العتبة، وكانت هذه الخدمة اذ ذاك من اجل الخدم واكبرها.

وقال أبو الفتح بن قادوس^(٤١) في مدح المأمون وقد زيد في نعوته:
قالوا اتاه النعت وهو السيد
مأمون حقاً والأجل الأشرف
ومغيث أمّة أحمد ونجيرها
ما زادنا شيئاً على ما نعرف

وذلك أنه نعت في سجله المقروء على الكافة «بالأجل المأمون، تاج
الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخّر أمير المؤمنين». ثم تجدد في
نعوته بعد ذلك «الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام،
نظام الدين والدنيا». ثم نعت بما كان ينعت به الأفضل وهو «السيد
الأجل المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة
المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين».

ولما استمر نظر المأمون للدولة بالغ الخليفة في شكره، فقال له المأمون:
ثم كلام يحتاج إلى خلوة. فأمر بخلو المجلس. فقال: يا مولانا امثال
الأمر متعب، ومخالفته أصعب، وما تتسع خلافة قدام أمر الدولة وهو في
دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده، وما في قواي ما يرومه مني،
ويكفيني هذا المقدار، وهيئات أن أقوم به والأمر كبير، فتغير الخليفة
وأقسم: أن كان لي وزير غيرك! فقال المأمون: لي شروط، وقد كنت مع
الأفضل وكان اجتهد في النعوت وحل المنطقة فلم أفعل، وكان أولاده
يكتبون إليه يكوّنون قد خنته في المال والأهل، وما كان والله العظيم ذلك
مني يوماً قط، ومع ذلك معاداة الأهل جميعهم، والأجناد، وأرباب
الطيالس والأقلام، وهو يعطيني كل ورقة تصل إليه منهم وما يسمع
كلامهم، فقال الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته، إيش
يكون فعلي أنا؟ فقال: يعرفني المولى ما يأمر به فأمثله بشرط ألا يكون
عليه زائد، فأول ما ابتداء به أن قال: أريد الأموال لا تبقى إلا بالقصر،
ولا تصل الكسوات من الطراز^(٤٢) والثغور إلا إليه ولا تفرق إلا منه،

وتكون أسمطة الأعياد فيه، وتوسع في رواتب القصور من كل صنف ، وزيادة رسم منديل الكم ، فقال المأمون: سمعا وطاعة، أما الكسوات والجبايات والأسمطة فما تكون إلا بالقصور، وأما توسعه الرواتب فما ثم من يخالف الأمر، وأما منديل الكم فقد كان الرسم في كل يوم ثلاثين ديناراً، يكون في كل يوم مائة دينار، ومولانا سلام الله عليه، يشاهد ما يعمل بعد ذلك في الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها، ففرح الخليفة. وقال المأمون: أريد بهذا مسطوراً بخط أمير المؤمنين، ويقسم لي فيه ألا يلتفت لحاسد ولا ينقبض، ومهما ذكر عني يطلعني عليه، ولا يأمر في بأمر سرا ولا جهرا يكون فيه ذهاب نفسي وانحطاط قدري، وتكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاتي، فإذا توفيت تكون لأولادي ولن أخلفه بعدي.

فحضرت الدواة، وكتب ذلك جميعه، وأشهد الله في آخرها على نفسه، فعندما حصل الخط بيد المأمون وقف وقبل الأرض وجعله على رأسه، وكان الخط نسختين، فلما قبض الخليفة على المأمون في رمضان سنة تسع عشرة وخمسة، كما سيأتي إن شاء الله، أنفذ الخليفة طلب الأمان ، فأنفذ إليه نسخة منها فحرقها وبقيت النسخة الأخرى فعدمت.

وفيها أنشأ المأمون الجامع الأقمر بالقاهرة^(٤١)، وكان مكانه دكاكين علافين.

في هذه السنة هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام، فأهلكت شيئا كثيرا من الناس والحيوان^(٤٢)

سنة ست عشرة وخمسة

في المحرم كان المولد الأمري، وتقرر السلام على الخليفة في يوم الاثنين والخميس فأما في يومي السبت والثلاثاء فيركب الوزير بالرهجية إلى

القصر، ويركب الخليفة إلى ضواحي القاهرة للنزهة، وأما الأحد والأربعاء فيجلس الوزير المأمون في داره على سبيل الراحة.

وفي صفر سب أحد صبيان الخاص الأمري صاحب الشرع وشهد عليه، فضربت عنقه وصلب.

فيه وصل فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار، صاحب طرابلس. وكانت الدولة، قد حولت الثغر في أيديهم على سبيل الولاية، فلما جاءت الشدائد تغلبوا عليه، ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه فلم يرموا أيديهم في يدها ولا وثقوا بها بذل لهم من الصفح عن ولائهم، ومضى ذلك السلف، وخلفهم القاضي فخر الملك هذا في الأيام الأفضلية فجرى في تلك الوتيرة، ودفع إلى محاصرة الفرنج مدة سبع سنين، فضاق خناقه، وأيس، فخرج من طرابلس إلى العراق مستنجدا فلم يجد ناصرا، واختلت أحواله، وعاد إلى دمشق وقد ملك الفرنج طرابلس فسار إلى مصر، وقال في كتابه: «والمملوك لم يصل إلى هذه الوجهة إلا وقد علم أن له من الذنوب السالفة ما يستحق به القتل، وقتله بسيف هذه الدولة عدل وإحياء له وتشريف، وفخر يكفر عنه بعض ذنوبه من كفر نعمتها، فإن خرج الأمر بذلك فمنة كريمة، وإن خفت عنه فتخليده في السجن أحب إليه من رجوعه إلى تأميل غير هذه الدولة».

فلما عرض هذا بالحضرة أدركته الرأفة بعد أن أستفزع كل من الحاضرين أمره، وأشير بإيقاع الحوطة عليه وإيداعه خزانة البنود، فقال المأمون للخليفة: «قد أجل الله عواطف مولانا ورحمته من أن يهاجر أحد إلى أبوابه ويلجأ إلى عفوه فيخيب أمله ويؤاخذ بذنبه، وما بعد استسلامه إلا الشكر لله والعفو عن جرمه، فإن العفو زكاة القدرة عليه، ويشمله ما شمل أمثاله»، فأعجب الخليفة الأمر ذلك، وخرج الأمر بأن تعدد على ابن عمار ذنوبه وذنوب أسلافه، ويقال له: «قد أذهبت

مهاجرتك ما كان يجب من عقوبتك». فإذا اعترف بذنوبه وذنوب أسلافه يقال له: «قد غفر ذنبك وأنت مخير بين أمرين: إما أن تعود فيصلى إليك من الإنعام ما يبلغك إلى حيث تريد، ويصحبك من يوصلك إلى مأمرك، وإما أن تؤثر الإقامة بفناء الدولة فتقيم على أنك تلزم ما يعينك وتقنع بما ينعم به عليك، وتقبل على شأنك، وتترك التعرض للمخالطات، وتتجنب جميع المكروهات».

فلما خوطب بذلك قبل الأرض وأبى أن يرفع رأسه ووجهه، وكلما خوطب في رفعه قال: «لست أرفعه حتى أتلقي كلمات العفو عن إمام زماني، وتمتلىء مسامعي بألفاظ مغفرته».

فبلغته الحضرة النبوية ما تمناه، وحصل له الأمن، وأمر به إلى دار أعدت له وجعل فيها شهوات السمع والبصر، وحملت إليه الضيافات الكثيرة، وجرد برسم خدمته حاجب معه عدة مستخدمين. فأقام أياما يسيرة ثم حملت إليه الكسوات التي لا نظر لها، ووصله من المواهب ما أربى على أمله. وقرر له، راتبا في كل شهر، ستون دينارا مع مياومة الدقيق واللحم والحيوان، وصار يتعهد ما يفتقد به أعيان الضيوف من بواكير الفاكهة المستغربة، وأنواع التحف المستظرفة ورسوم المواسم، ورفع عنه الحاجب والمستخدمون، وجعل له في المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميزه به عن أمثاله، ولزم طريقة جمدت منه، فاستمر إليه الإحسان، وصار يركب في يومي الركوب ويومي السلام وغيرهم.

فيه أفرج عن الأمير غضب الدولة عز الملك أبي منصور نبا، وكان له في الاعتقال ثلاث عشرة سنة، لأنه كان والي عكا وسلمها إلى الفرنج، فلما وصل رماء الأفضل في الاعتقال، فلما أفرج عنه أعيد عليه نظير ما كان قبض عنه للاضطرابات والخزائن، وولي البحيرة.

وأفرج عن جماعة أمراء كانوا معتقلين، منهم أبو المصطفى جوهر، ودخل السجن وهو شاب فخرج منه وهو شيخ، وكانت مدة اعتقاله خمس عشرة سنة.

فيه وصل رسول الشريف قاسم أمير مكة، الذي حضر في الأيام الأفضلية بسبب أموال التجار، ومعه كتاب بتهنئة المأمون، فجهز إلى الأعمال القوصية بالاهتمام بالجناب الديوانية وترميم ما يحتاج إلى المرممة، وتجديد عوض ما تلف، وأطلق له ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعون إردبا برسم مكة، وتحوت ثياب وخلع ومال ويخور.

وفيه غلا الزيت الطيب والسيرج، فكتب المستخدمون في الخزائن ومشارفة الجوامع بأن يكون المطلق برسم الوقود وفي المشاهد عوضا عن الزيت الطيب الزيت الحار، فخرج الجواب بالتحذير من ذلك وبألا يطلق إلا الزيت الطيب، ولا يلتفت إلى غلو السعر في الخدم التي هي من حق الله تعالى فلا يجب الرخصة فيه ولا ينقص من المطلق شيء. وبلغ المأمون أن مشارف الجوامع والمساجد اشترى من ماله صبرا وخلطه بالزيت لمنع القومة من التعرض لشيء منه، فأنكر ذلك وأمر بإحضاره وأن يقوم من ماله بثمان الزيت الذي فيه الصبر، ويطلق الزيت المستقر إطلاقه على تمامه. وقيل له: قومة الكنائس والمقيمون بها والطارقون لها لا يقتاتون إلا من فضلات وقود كنائسهم، ونحن نبيح لهؤلاء الأكل ونحرم عليهم البيع.

وتقدم الأمر بعمل حساب الدولة من الهلالي والخراجي على جملتين: إحداهما إلى سنة عشر وخمسمائة، والثانية إلى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة، فانعقدت على جملة كثيرة من عين وأصناف، وشرحت بأسماء أربابها وتعين بلادها، فلما حضرت أمر بكتابة سجل بالمساحة إلى آخر سنة عشر وخمسمائة، ومبلغ ما سومح به من البواقي ألفا ألف وسبعمائة

ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وستون ديناراً، ومن الورق سبعة وستون ألفاً وخمسة دراهم، ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون إردباً، ومن الأرز والكتان وورق الصباغ وزريعة الوسمة والصباغ والفوة والحديد والزفت والقطران والثياب والمآزر والغرابيل شيء كثير، ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وثلاثمائة وخمسة رؤوس، ومن البسر^(٤٣) والسحيل^(٤٤) والجريد والسلب^(٤٥) والأطراف والملح والأشنان والرمان وعسل النحل والشمع وعسل القصب شيء كثير، ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفاً ومائة وأربعة وستون رأساً، ومن الدواب والسمن والجبن والصوف والشعر شيء كثير.

وقد تقدم ذكر نسخة هذا السجل عند ذكر الخراج من هذا الكتاب.

وقرىء منشور بالجامع الأزهر وجامع عمرو بمصر بالمنع مما يعتمد في الدواوين من قبول الزيادة وفسخ عقود الضمانات، وإعفاء الكافة من المعاملين والضمناء من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم .

فيه تحول الخليفة الأمر إلى اللؤلؤة^(٤٦) وأقام فيها مدة النيل على الحكم الأول، وأزال ما أحدث من البناء بالقرب منها، وتحول معه الوزير المأمون بن البطائحي والشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست، وحاجب الحجاب حسام الملك، ورتبت الرهجية والحرس، وأطلق لهم ما يقوم بهم، وصار الخليفة يمضي في السرايب من اللؤلؤة إلى القصر في يومي السلام، فلا يراه أحد سوى الأستاذين والخواص، ويحضر الوزير على عادته ويعمل الأسمطة، ويحضر الناس على العادة، ويركب في يومي الثلاثاء والسبت إلى المنتزهات.

فيه تقدم الوزير بتجديد المشاهد التسعة التي بين القرافة والجبل^(٤٧)

وكانت العادة جارية من الأيام الأفضلية في آخر جمادى من كل سنة أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم، ويحذر من بيع الخمر، فرأى الوزير أن يكون ذلك في سائر الأعمال، فكتب إلى ولاية الأعمال وأن ينادى أن من تعرض لبيع شيء من هذين الصنفين أو لشرائهما سرا وجهرا فقد عرض نفسه لتلافها وبرئت الذمة من هلاكها (٤٨)

لما كان مستهل رجب عملت الأسمطة على العادة فقال الأمر لوزيره المأمون: قد أعدت لدولتي بهجتها، وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك، وبقيت الليالي وقد كان بها مواسم وقد زال حكمها، وهي ليالي الوقود الأربع (٤٩). فامثل الأمر، وعملت.

واستجد في كل ليلة على الاستمرار برسم الخاصين: الأمري، والمأموني قنطار سكر ومثقالا مسك، وديناران برسم المؤن ليعمل خشكان، وبستندود (٥٠) في قعاب وسلاسل صفصاف، وكان يسمى بالقبة، ويحمل ثلثا ذلك إلى القصر والثلث إلى دار المأمون.

ووصلت كسوة الشتاء، فكانت أربعة آلاف قطعة وثلاثمائة وخمس قطع، ووصلت كسوة عيد الفطر وتشتمل على نحو عشرين ألف دينار، وكان عندهم الموسم الكبير، ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجميع، وفي غيره للأعيان خاصة.

وعمل الختم في آخر شهر رمضان بالقصر، وعبىء سباط الفطرة في مجلس الملك بقاعة الذهب من القصر، فكان سباطا جميعه من حلاوة الموسم، وصلى الخليفة الأمر بالناس صلاة العيد في المصلى ظاهر باب النصر وخطب، وكان ذلك قد بطل في الأيام الجيوشية والأفضلية.

وكان الذي أنفق في أسمطة شهر رمضان عن تسع وعشرين ليلة،

خارجا عن التوسعة المطلقة أصنافا برسم الخليفة وجهاته، وخارجا عن العطية، وخارجا عن رسم القراء والمسحرين وخارجا عن الأشربة والحلاوات من العين ستة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وثلاثين دينارا. وجملة ما قدر على المنفق في شهر رمضان، بما تقدم شرحه، والتوسعة والصدقات والفطرة وكسوة الغرة والعيد، ومائة ألف دينار عينا، وضرب في خميس العدس ألف دينار عملت عشرين ألف خروبة، وكانت العادة أن يضرب في كل سنة خمسمائة دينارا^(٥١).

وفي شوال هذا وصل شاور من أسر الفرنج، وكان مأسورا من الأيام الأفضلية وطالت مدة أسره، وبذلت عشيرته في افتكاكه جملة كبيرة، فلم يقبل منهم، وطلب فيه أسير من الفرنج، فلم يجبهم الأفضل إليه لأنه كان لا يطلق أسيرا أبدا، فلما ولي المأمون الوزارة وميز ديني، مقدم العربان الجذاميين، وقبيلته - وشاور من بني سعد، فخذ من جذام - فوقف مجير، أخو شاور، وإخوته للمأمون، وما زالوا به حتى أطلق الأسر، فأطلق الفرنج شاور في شوال، وأثبت في الطائفة المأمونية، وكان هذا ابتداء حديث شاور

وفيه تنبه ذكر الطائفة النزارية، وقرر بين يدي الخليفة بأن يسير رسولا إلى صاحب الموت بعد أن جمعت فقهاء الإسماعيلية والإمامية، وهم: ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، وجميع دعاة الإسماعيلية، وأبو محمد بن آدم متولي دار العلم^(٥٢)، وأبو الثريا بن مختار فقيه الإسماعيلية، ورفيقه أبو الفخر، والشريف ابن عقيل، وشيوخ الشرفاء، وقاضي القضاة، وأولاد المستنصر، وجماعة بني عم الخليفة، وأبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست، وجماعة من الأمراء، وقال لهم المأمون: ما لكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية؟ فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة، ومن اعتقد هذا خرج عن المذهب وحل ووجب قتله، وإن كان والده المستنصر نعته ولي عهد المسلمين

ونعت إخوته، منهم أبو القاسم أحمد بولي عهد المؤمنين، وكل مؤمن مسلم وما كل مسلم مؤمن، وقد نطق بذلك الكتاب العزيز^(٥٣).

وذكر حسين بن محمد الموصلي أن اليازوري لم يزل يسأل المستنصر إلى أن كتب اسمه على الدينار وهو ما مثاله:
ضربت في دولــــة آل الهدى
ممن آل طــــه وآل ياسين
مستنصر بالله جل اسمه
وعبد الناصر للدين

في سنة كذا، ولم يقم بعد ذلك إلا دون الشهر، فاستعيدت وأمر ألا تسطر.

ودليل يعضد ذلك أنه لما جرت تلك الشدائد على الإمام المستنصر وسير أولاده، وهم: الأمير عبد الله إلى عكا إلى أمير الجيوش، ثم اتبعه بالأمير أبي علي والأمير أبي القاسم، والد الحافظ، إلى عسقلان، وسير نزارا إلى ثغر دمياط سير الأعلى إلى الأعلى ولم يسمح بسفر الإمام المستعلي ولا خروجه من القصر لما أهله له من الخلافة، ولا أبعده خوفا من حضور المنية، فلما وصل أمير الجيوش إلى البلاد بعد تهيئتها وتأمينها، ورغب الإمام المستنصر في عقد نكاح ولده الإمام المستعلي على ابنته، أخت الأفضل، وعقد النكاح بنفسه، سماه في كتاب الصداق مولى عهد أمير المؤمنين، وعلم عليه بخطه، ثم عند وفاة المستنصر بايع نزار الإمام المستعلي بما شاهده كل حاضر، وبما ذكرته السيدة ابنة الإمام الظاهر شقيقة الإمام المستنصر في صحة إمامته، فكتب الكتاب بجميع ذلك إلى صاحب الموت مضمنا بشهادة الجماعة بذلك.

ثم وصل في أثناء ذلك كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قد قويت شوكتهم، واشتدت في البلاد طمعتهم، وأنهم يسيرون المال مع

التجار إلى قوم يخبرون أسماءهم، وأنهم سيروا ثلاثة آلاف دينار برسم النجوى^(٥٢) وبرسم المؤمنين الذين ينزل الرسل عندهم ويختفون في محلهم، فتقدم المأمون بالفحص عنهم والاحتراز التام على الأمر في ركوبه ومنتزعاته، وحفظ الدور غيرها.

ولم يزل البحث التام في طلبهم إلى أن وجدوا عند قوم من أهل البلد، فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلين بالمال من البلاد الشرقية، فراموا قتلهم، فأشار المأمون بتركهم، وأحضر الشيخ أبو القاسم بن الصيرفي، وأمر بكتب سجل يقرأ على رؤوس الأشهاد وتفرغ منه النسخ إلى البلاد بمعنى ما ذكر من نفى نزار عن الإمامة وشهر الجماعة المقبوض عليهم وصلبوا، وامتنع الأمر من قبض الألفي دينار الواصلة للنجوى وأمر بحملها إلى بيت المال، وأن تنفق في السودان عبيد الشراء خاصة، وأمر بأن يحضر من بيت المال نظير المبلغ، وتقدم بأن يصاغ قنديلين ذهباً وقنديلين فضة، وأن يحمل قنديلان، ذهباً وفضة، إلى مشهد الحسين بعسقلان، وقنديلان كذلك إلى التربة، وأطلق المأمون من ماله ألفي دينار، وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسمه على قياس أحضر من عسقلان، وأن يصاغ على المصحف الذي بخط علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمصر من فوق الفضة ذهب

وأطلق من حاصل الصناديق التي تشتمل على مال النجاوي برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق في الجوامع الثلاثة الأزهر بالقاهرة، والعتيق بمصر، وجامع القرافة^(٥٣) وإلى فقراء المؤمنين وعلى أرباب القصور، وأطلق من الأهراء ألفاً إردب قمحا وتصدق عدة من الجهات بجملة كثيرة. واشترت عدة جوار من الحجر^(٥٤) وكتب عتقهن وأطلق سراحهن .

قال ابن ميسر، وقد ذكر هذا المجلس: وقد كانت أخت نزار في قاعة

بجانب الإيوان من القصر، وعلى الباب ستر، وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الأستاذين. فلما جرى هذا الفصل قام المأمون من مكانه ووقف بإزاء الستر وقال: من وراء هذا الستر؟ فعرف بها إخوتها وبنو عمها، وأنه ليس غيرها وراء الستر، فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا يا جماعة الحاضرين، وبلغوا عني جماعة المسلمين بأن أخي شقيقي نزارا لم يكن له إمامة، وأني بريئة من إمامته جاحدة لها لاعنة لمن يعتقدها، لما علمته من والدي وسمعته من والدتي، لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمة والددة عبد الله أخي إلى المنطرتين اللتين على القناطر المعروفتين بالحولا والبرياب للنزهة أيام النيل جرى بينهما مشاجرة في ولديهما، فأحضرهما المستنصر بين يديه وأنكر عليهما، وقال: ما يصل أحد من ولديكما إلى الأمر، صاحبه معروف في وقته، وشاهدت والدي المستنصر في مرضته التي توفي فيها وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبل بين عيني، وأسر إليه طويلا وتدمعت عيناه، وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليلته استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا، ومد يده إليها فقبلها وعاهدها، وأشهد الله تعالى معلنا ومظهرا، فلما انتقل في تلك الليلة حضر صبيحته الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد، ووقف بظاهر المقرمة، ثم جلس وكلهم قيام، وأخذ في التعزية، ثم قال: يا مولاتنا من ارتضاه للخلافة؟ فقالت: هي أمانة قد عاهدني عليها، وأوصاني بأن الخليفة من بعده ولده أبو القاسم أحمد، فحضر وبايعته عمتي، وبايعه أخوه الأكبر عبد الله فأشار الأفضل إلى نزار فبايعه، وأمر الأفضل بالتوكيل على نزار وتأخيره، فأخر إلى مكان لا يصلح له، واستدعى الأفضل الداعي وأمره بأخذ البيعة من نفسه ومن الموالي والأستاذين، وسألت عمتي الأفضل في نزار فرفع عنه التوكيل عليه بعد أن كلمه بكلام فيه غلظة، ووالله ما مضى أخي نزار إلى ناصر الدولة أفتكين بالاسكندرية لطلب إمامة ولا لإدعاء حق، ولكن طالبا لزوال الأفضل وإبطال أمره لما فعل معه، والله يلعن من يخالف ظاهره باطنه، فشكرها الناس على ذلك.

وكان سبب حضور أخت نزار في هذا المجلس أن المأمون قال للآمر: قد كشفت الغطاء وفعلت ما لا يقدر أحد على فعله، وأما القصر فما لي فيه حيلة، ولوح أن أخت نزار وأولاده لا يمكنني كشف أمرهم، فلما بلغ أخت نزار ذلك حضرت إلى الخليفة الأمر لتبريء نفسها، ورغبت أن تخرج للناس لتقول ما سمعته من والدها وشاهدته ليكون قولها حجة على من يدعي لأخيها ما ليس له، فاستحسن الأمر ذلك منها وأحضر المأمون وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلي، واتفقوا على يوم يجتمعون فيه، فلما كان في شوال عمل المجلس المذكور.

وأما النزارية فإنها تقول: إن المستنصر مات والأفضل صاحب الأمر والمستحوذ على المملكة، والجند جنده، وغلما ن أبيه لا يعرفون سواه، وكان نزارا، لما يرى من غلبة الأفضل على الدولة، يتكلم بما يبلغه، فينكره، فلما مات المستنصر والأفضل متخوف من شر نزار أقام أحمد^(٥٥) المستعلي، لأنه زوج أخته ولأنه صغير.

وفيها أراد الأمر أن يحضر إلى دار الملك في يوم النوروز الكائن في جمادى الآخرة، ويركب إليها في المراكب على ما كان عليه الأفضل، فمنعه المأمون من ذلك وقال: يا مولانا، الأفضل لا يجري مجرى أمير المؤمنين، وحمل إليه من الثياب الفاخرة برسم جهاته ماله قيمة جليلة^(٥٦)

وفي شوال بلغ المأمون أن جزيرة قويسنا^(٥٧) ومنية زفتي^(٥٨) ليس فيهما جامع، فتقدم إلى بعض خواصه وخلع عليه، فسار وبنى جامعا على شاطئ النيل بمنية زفتي، وقرر فيه خطيبا وإماما ومؤذنين، وفرش، وأطلق برسمه نظير ما للجوامع.

وفيه وصل الفقيه أبو بكر محمد بن محمد الفهري الطرطوشي من الإسكندرية بالكتاب الذي حمله: «سراج الملوك»، فأكرمه وأمر بإنزاله في

المجلس المهياً للأخوة، وتقدم برفع أدوية^(٦٠) الكتاب وأوطئة الحساب وسلام الأمراء، وعمل السباط، وسارع إلى البادهنج^(٦١)، واستدعى بالفقيه، فلما شاهده وقف، ونزل عن المرتبة، وجلس بين يديه، ثم انصرف، ومعه أخو المأمون، إلى مكان أعد له، وحمل إليه ما يحتاج له وأمر مشارف الجوالي^(٦٢) أن يحمل له في كل يوم خمسة دنائير بمقتضى توقيع مقتضب، فامتنع الفقيه وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له في الأيام الأفضلية. وصار المأمون يستدعيه في يومي راحته، ويبالغ في كرامته، ويقضي شفاعاته.

وكان السبب في حضوره أنه تكلم في الأيام الأفضلية في أمر المواريث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام، وهو ربع العشر، وأمر توريث الابنة النصف فلم يقبل ذلك، ففاوض المأمون فيه وقال: هذه قضية وجدتها وما أحدثتها وهي تسمى بالمذهب الدارج، ويقال إن أمير الجيوش بدر هو الذي استجدها، وهو أن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه، وقد مر على ذلك سنون وصار أمرا مشروعاً، فكيف يجوز تغييره. فقال له الفقيه: إذا علمت ما يخلصك من الله غيرها فلك أجرها. فقال أنا نائب الخليفة، ومذهبه ومذهب جميع الشيعة من الزيدي، والإمامي والإسماعيلي أن الإرث جميعه للابنة خاصة بلا عصبية ولا بيت مال، ويتمسكون بأنه من كتاب الله كما يتمسك غيرهم. وأبو حنيفة، رحمة الله، موافقهم في القضية. فقال الفقيه: أنا مع موجود العصبية فلا بد من عدتها. فقال المأمون أنا لا أقدر أن أرد على الجماعة مذهبهم، والخليفة لا يرى به وينقضه على من أمر به، بل أرى بشفاعة الفقيه أن أراد الجميع على رأي الدولة فيرجع كل أحد على حكم رأيه في مذهبه فيما يخلصه من الله، ويبطل حكم بيت المال الذي لم يذكره الله في كتابه، ولا أمر به الرسول عليه السلام، فأجاب إلى ذلك. وأمر الوزير أن يكتب به وأن يكتب بتعويض أمناء الحكم عما يقتضونه من ربع العشر بتقرير جار لهم في كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية^(٦٣).

وأخذ الفقيه في ذكر بقية حوائج أصحابه، وكتب منه توقيع فرغت منه نسخ، منها ما سير إلى الثغور وكبار الأعمال، وشملته العلامة الآمرية وبعدها العلامة المأمونية.. ونسخته بعد البسملة: «خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيد الأجل المأمون أمير الجيوش - ونعوته والدعاء - وهو الخالصة أفعاله في حياة المسلمين وذو المقاصد المصروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين، والهمة الموقوفة على الترتي إلى درجات المتقين، والعزائم الكافلة بتسديد أحوال الكافة أجمعين، شيمة خصه الله بفضيلتها جبلة أسعد بجلالها وشريف مزيتها، والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة وأنحاء للميامن كافلة ضامنة، من أمر الموارد وما أجراها عليه الحكام الدارجون بتغاير نظرهم، وقروره من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم، وما دخل عليها منهم من الفساد، والخروج بها عن المعهود المعتاد، وهو أن لكل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته، فيخلص لحرم ذوي التشيع الوارثات جميع موروثهم، وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه: «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم»^(٦٤). ويحمل من سواهن على مذهب مخلفيهم، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لهم بعدهم، عدولا عن محجة الدولة، وخروجا عما جاء به العباد بعدموت الأئمة الذين نزل في بيتهم الكتاب والحكمة، فهم قراء القرآن، وموضحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان، وإليهم سلم المؤمنون، وعلى هديهم وإرشادهم يعول الموقنون، فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الأصول، بعيدة من التحقيق خالية من المحصول، ولم ير إلا العود فيه إلى عادة آبائه المطهرين، وأسلافه العلماء المهديين، صلوات الله عليهم أجمعين، وخرج أمره إلى السيد الأجل المأمون بالإيعاز إلى القاضي ثقة

الملك النائب في الحكم عنه، بتحذيره، والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأعمال، دانيها وقاصيها، قريبتها ونائيتها، من الاستمرار على تلك السنة المتجددة، ورفض تلك القوانين التي كانت معتمدة واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة، وأسلافه الكرام البررة، وإعادة جميع موارد الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى المعهود من رأي الدولة فيها، والإفراج عنها برمتها لمستحقيها، من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها، وأن يضربوا عما تقدم صفحا، ويطووا دونه كشحا، منذ تاريخ هذا التوقيع، وفيما يأتي بعده مستمرا غير مستدرك لما فات ومضى، ولا متعقب لما ذهب وانقضى».

« وليوعز الأجل المأمون، عضد الله به الدين، بامثال هذا المأمور، والاعتماد على مضمون هذا المسطور، وليحذر كلا من القضاة والنواب، والمستخدمين في الباب، وسائر الأعمال، من اعتراض موجود أحد ممن يسقط بالوفاة وله وارث بالغ رشيد، حاضر أو غائب، ذكرا كان أو أنثى، من سائر الناس على اختلاف الأديان بشيء من التأويلات، أو تعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات، إلا ما أوجبه بينهم المحاكمات والقوانين الشرعية الواجبات، نظرا إلى مصالح الكافة، ومدأ لجناح العاطفة عليهم والرأفة، ومضاعفة للأنام وإبانة عن شريف القصد إليهم والاهتمام .

فأما من يموت حشريا ولا وارث له حاضر ولا غائب، فموجوده لبيت المال بأجمعه عن الأوضاع السليمة، والقوانين المعلومة القويمة، إلا ما يستحقه زوج إن كان له، أو دين عليه يثبت في جهته، وإن سقط متوفى وله وارث غائب فليحفظ الأحكام والمستخدمون على تركته احتياطا حكيميا، وقانونا شرعيا مصونا من الاصطلام، محروسا من التفريط

والاخترام، فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكم بالباب، على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتباب، طوع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد بقبضه عليه.

كذلك نمي إلى حضرة أمير المؤمنين أن شهود الحكم بالباب وجميع الأعمال إذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من الترك التي يتولاها الحكام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع، فيعود ذلك بالنقيصة في أموال الأيتام، والتعرض إلى الممنوع الحرام، اصطلاحاً استمروا على فعله، واعتماداً لم يجر الأمر فيه على حكمه، فكره ذلك وأنكره، واستفظعه وأكبره، واقتضى حسن نظره في الفريقين، ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام، وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جارياً يقام لكل منهم من الإنعام، وأمر بوضع هذا الرسم وتعفيته، وإبطاله وحسم مادته، فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك بالباب، وليصدر الإعلام على سائر النواب، سلوكاً لمحجة الدين، وعملاً بأعمال الفائزين السعداء المتقين، بعد تلاوة هذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد، ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيد وحاضر وباد، ولتفرغ منه النسخ إلى جميع النواب عنه في الأعمال، وليخلد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الأمري، وحيث يثبت مثله إن شاء الله تعالى حجة مودعة في اليوم وما بعده.

وكتب لليلتين بقيتا في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسةائة.

ثم حضر الفقيه أبو بكر لوداع الوزير، وعرفه ما عزم عليه من إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فكتب إلى ابن حديد بموافقة الفقيه على موضع يتخيره، وأن يبالغ في إتقانه وسرعة إنجازه، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة، وتوجه فبنى المسجد المذكور على باب البحر، وأما المسجد الذي بالمحجة فإن المؤمن عند مقامه بالثغر بناه.

وذكر للمأمون أيضا أن واحات البهنسا^(٦٥) ليس بها جمعة تقام، فأمر ببناء جامع بها، ففرغ منه وأقيم فيه خطيب وإمام وقومة ومؤذنون، وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم.

وقيل إن الذي أنشأه المأمون في وزارته وفي أيام الأفضل أحد وأربعون مسجدا، مع ما أمر بتجديده، بعد وزاراته، بالقاهرة ومصر وأعمالهما ما يناهز مائتي مسجد.

فيه بنيت دار ضرب بالقاهرة ودار وكالة^(٦٦).

وفي ذي القعدة مات الأمير السعيد محمود بن ظفر، والي قوص. وركب المأمون إلى الجامع الأزهر، فلما كان وقت صلاة الصبح تقدم قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الراسعيني وصلى، فلما قرأ الفاتحة لحقه زمع شديد وارتعد، فلحن في الفاتحة، وقرأ: «والشمس وضحاها»، فلما قال: «ناقة الله وسقياها» أرتج عليه، فرد المؤمن حيدرة. أخو المأمون، عليه، فاشتد زمعه فكرر عليه الرد، فلم يهتد وقال: «وسقناها» بالنون. فقرأ المأمون بقية السورة وسجد الناس. وقام في الركعة الثانية وقد دهش فلم يفتح عليه بشيء، فقرأ المأمون الفاتحة «وقل هو الله أحد»، وقنت وهو معه يلقيه. فلما انقضت الصلاة اشتد غضب المأمون وأمر متولي الباب بأن يختم المقرئون. وتخيل المقام وخرج من الجامع، فوكل بالقاضي من يمضي به إلى داره ويأمره بالمقام بها من غير تصرف حتى يحفظ القرآن، وقرر له راتبا فيما بعد، ولزم داره.

وأنفذ للوقت إلى القاضي أبي الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، من قضاة الغربية، فأحضره وخلع عليه في القصر بذلة مذهب، وسلم به على الخليفة، وسلم إليه السجل في لفافة مذهب بنيابته في الحكم العزيز، والخطابة، والصلاة وديوان الأحباس ودورالضرب بسائر أعمال المملكة،

ونعت فيه بالقاضي جلال الملك تاج الأحكام، فقبله ووضعه على رأسه. وتلى على منابر القاهرة ومصر.

وكان يحضر في يومي الاثنين، والخميس إلى مجلس المظالم بين يدي المأمون، ويستعرض القصص ويناقش فيها، ويبحث مباحثه الفقهاء العلماء، فزاد المأمون في إكرامه، ورد إليه وكالة الخليفة، وكتبت له الوكالة، وشرف بالخلع.

وتولى قوص الأمير مؤيد الملك وخلع عليه، وأمر أن يبني بقوص دار ضرب، وجهاز معه مهندسين وضرايين وسكك العين والورق، وعشرين ألف دينار وعشرين ألف درهم فضة، فضربت هناك دنانير ودراهم، وصار كل ما يصل من اليمن والجهاز من الدنانير العدنية وغيرها يضرب بها.

وصار ما يضرب باسم الأمر في ستة مواضع: القاهرة، ومصر، وقوص، وعسقلان، وصور، والإسكندرية.

وقرر للشيخ أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه بن يوسف، الإسرائيلي الأصل، لما قدم من الأندلس وصار ضيف الدولة، جار وكسوة شتوية وعيدية ورسوم^(٦٧) وأقطع دارا بالقاهرة، وكتب له منشورا نسخته بعد البسملة:

« ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره، وأنفس ما وشحت الدولة بجميل أثره، تخليد الفضائل وإبداء ذكرها، وإظهار المعارف وإيضاح سرها، لا سيما صناعة الطب التي هي غاية الجدوى والنفع، وورود الخبر بأنها قرينة إلى الشرع. لقوله صلى الله عليه وسلم: (العلم علما ن علم الأديان وعلم الأبدان) خرج أمر سيدنا ومولانا لما يؤثره بعلو

همته من إنماء العلوم وإشهارها، واختصاص الدولة الفاطمية بإحياء الفضائل وتجديد آثارها، ليبقى جمال ذلك شاهدا لها على مر الأيام، متسقا بما أفشاه لها من المآثر الجمّة والمفاخر الجسام، لشيخنا أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه، أيده الله، لصرف رعايته إلى شرح كتب أبقرط التي هي أشرف كتب الطب وأوفاهها، وأكثرها إغماضا وأبقاها، وإلى التصنيف في غير ذلك من أنحاء العلوم، مما يكون منسوبا إلى الأوامر العالية، ورسم التوفر على ذلك والانتصاب له، وحمل ما يكمل أولا أولا إلى خزائن الكتب، وإقراء جميع من يحضر إليه من أهل هذه الصناعة، وعرض من يدعيها واستشفافه فيما يعانيه، فمن كملت صناعته فليجره على رسمه، ومن كان مقصرا فليستنهضه، واعتمدنا عليه في ذلك لكونه مميزا في البراعة في العلوم متصرفا في فنونها، مقدما في بسطها وإظهار مكنونها، ولأنه يبلغ الغرض المقصود في شرح هذه الكتب ويوفي عليه، ويسلك أوضح السبل وأسدها إليه، وفي جميع ما شرع له، فليشرع في ذلك مستعينا بالله، منفسح الأمل بإنهاضنا له، وجميل رأينا فيه، بعد ثبوته في الدواوين إن شاء الله تعالى.

وكتب في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة فانتصب لطلبي علم الطب، وأقبل أطباء البلدين إليه، واجتمع في أيدي الناس من أماليه كثير، وجعل له يومين في الجمعة يشتغل فيهما، ويتوفر في بقية الأسبوع على التصنيف، وحمل ذلك إلى الخزائن، واستخدم كاتبين لتبويض ما يؤلفه.

ولما أهل ذو الحجة جرى الحال في الهناء ومدائح الشعراء في القصر بين يدي الخليفة وبالدار المأمونية على الحال المستقرة، واستقبله المأمون بالصيام، وأخرج من ماله ما زاد عن المستقر في كل عام، برسم الأطفال من الفقراء والأيتام، من أهل البلدين وغيرهم، ولم يتعرض لطلب ذلك

من المميزين بحكم ما يعملونه من السنين المتقادمة. ومما ابتكره ولم يسبقه إليه أحد استعمل ميقاظ حرير فيه ثلاث جلاجل، وفتح باب طاقة في الروشن من سور داره، فصار إذا مضى شطر الليل وانقطع المشي طرحت السلسلة ودلي الميقاظ من الطاق، وعلى هذا المكان جماعة مبيتون بحقه من المغاربة، فمن حضر من الرجال والنساء متظلمًا شد رقعته في الميقاظ بيده ويحركه بعد أن يقف من حضره على مضمون الرقعة، فإن كانت مرافعة لم يمكنوه من رفعها، وإن كانت ظلامه مكنوه من ذلك ويعوق صاحبها إلى أن يخرج الجواب.

وكان القصد بعمل ذلك أنه من حدث به ضرر من أهل الستر، أو كانت امرأة من غير ذات البروز ولا تحب أن تظهر، أو كانت مظلمة في الليل تتعجل مضرتها قبل النهار فلتأت لهذا الميقاظ.

وحضرت كسوة عيد النحر، وفرقت الرسوم على من جرت عادته بها، خارجا عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته، فكان منها سبعة عشر ألفا وستمائة دينار برسم القصور جميعها، وجملة ما نحر وذبح الخليفة خاصة، دون الوزير، في ثلاثة أيام النحر ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسا، منها نوق مائة وثلاثة عشر، وبقر ثمانية عشر رأسا، وجاموس خمسة عشر، والبقية كباش، ومبلغ المصروف على أسمطة الثلاثة أيام، خارجا عن أسمطة الوزير، ألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا، ومن السكر ثمانية وأربعون دينارا.

وعمل عيد الغدير^(٦٨) على رسمه. وركب الخليفة إلى قليب، ونزل بالبستان العزيزي لمشاهدة قصر الورود^(٦٩) على العادة المستقرة والسنة المتقدمة، وفرقت الصدقات في مسافة الطريق، وضربت الخيم، وقدمت الأسمطة. ثم عاد في آخر النهار إلى قصره.

في هذه السنة سير المأمون وحشي بن طلائع إلى صور، فقبض على مسعود بن سلا، واليها لمخالفته، وأحضره.

فيها تجهز الأسطول وسارت المراكب، فيها خمسة عشر ألف أردب قمحا وأقوات كثيرة، إلى صور، فلما وصل خرج إليه سيف الدولة مسعود واليها من جهة طغتكين، فلما سلم عليهم سألوه النزول إليهم، فلما حصل في المراكب اعتقل، وأقلع الأسطول به إلى مصر، فأكرم وأنزل في دار، وأطلق له ما يحتاج إليه، وسبب القبض عليه كثرة شكوى أهل صور منه.

وفيها وصل البدل من ثغر عسقلان على العادة.

سنة سبع عشرة وخمسة

في غرتها عمل برسم أول العام (٧٠)، ثم حزن عاشوراء (٧١)، فالمولد الأمري على ما جرى به الرسم. وخلع على المؤمن سلطان الملوك نظام الدين أبي تراب حيدرة، أخي الوزير المأمون، بدلة مذهب خاص من لباس الخليفة، وطوق ذهب، وسيف ذهب بغير منطقة، وشرف بتقبيل يد الخليفة في مجلسه، وسلم إليه تقليد في لفافة مذهب بولاية الإسكندرية والأعمال البحرية، وشدت له الأعلام القصب والفضة والعماريات (٧٢)، وحمل بين يديه الأكياس برسم التفرقة. وحجبه الأمراء والأستاذون، وقبل أبواب القصر، ومضى إلى داره، وأطلق له من ارتفاع ثغر الإسكندرية على الولايتين في الشهر خمسة دينار.

وثار اللواتيون وغيرهم بالصعيد الأدنى، وقتلوا زين الدولة علي بن أبي تراب الوالي، وعاثوا في البلاد وأفسدوا، فخرج إليهم المؤمن أخو الوزير وتاج الدولة بهرام زمان (٧٣) الأرمن في عدة وافرة، فانهزموا بين يديه، واحاط بما خلفوه من المواشي.

وبلغه نزول مراكب الروم والبنادقة، وهي بضع وعشرون مركبا، على الإسكندرية، فبادر إليها، فلما شاهده العدو أقلع، فأخذ منهم عدة قطع، وقدم على المؤتمن مشايخ اللواتيين والتزموا بحمل ثلاثين ألف دينار في نظير جنايتهم، وأن يعفى عنهم، فأجابهم الوزير الى ذلك، وحمل المال مع الرهائن.

وكان المؤتمن لما قدم إلى الثغر خيم بظاهره، وقبل من القاضي مكين الدولة أبي طالب أحمد بن الحسن بن حديد بن أحمد بن محمد بن حمدون، المعروف بابن حديد متولي الأحكام والإشراف بها، ما حمله إليه على حكم الضيافة ثلاثة أيام، ثم أمره بإيقافها بعد ذلك إلا ما يقتضيه رسمه خاصة، وأظهر كتاب أخيه الوزير بأن الغلال بالثغر وأعمال البحيرة كثيرة، وكذلك الأغنام مع قطيعة العربان، فمهما دعت الحاجة إليه برسم أسمطة العساكر يحمل ويساق، وتكتب به الوصول على ما جرت به العادة، وأمره ألا يقبل من أحد من التجار ضيافة ولاهدية .

وأظهر كتابا آخر إلى مكين الدولة بأن يطلق في كل يوم من ارتفاع الثغر من العين ما يتناع به جميع ما يحتاج إليه من الأصناف برسم الأسمطة للعساكر، وكان يستخدم عليها من يراه من الشهود.

وكان تجار الثغر قد حملوا ثلاثة آلاف دينار فأبى المؤتمن من قبولها، وأمر بإعادتها إلى أربابها، فأخذ مكين الدولة يتلطف في أن يكون عوض ذلك طرفا وطيبا، فأقسم أنه لا يقبل منهم شيئا، واستمرت الأسمطة في كل يوم، ولم يقبل لأحد هدية.

واتفق أن المؤتمن وصف له الطبيب دهن شمع والقاضي مكين الدولة حاضر، فأمر في الحال بعض غلمان به بالمضي إلى داره ليحضر الدهن المذكور، فلم يكن أكثر من مسافة الطريق حتى أحضر صرا مختوما فك

عنه، فوجد فيه منديل لطيف مجاوم مذهب^(٧٤) على مذاق بلور فيه ثلاث بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر، بيت دهن بمسك، وبيت دهن بكافور، وبيت دهن بغير طيب، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته. فلما رآه المؤمن والحاضرون (تعجبوا) من علو همة القاضي وجليل رئاسته وسعة نفسه، فحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، فقال المؤمن، قد قبلته منك ليس لحاجة إليه، ولا نظر في قيمته، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها، وذكر أن قيمة المذاق المذكور خمسمائة دينار.

وخلع المؤمن على القاضي بذلة مذهبة بطيلسان مقور وثياب حرير، وقدم له دابة بمركب حلي ثقل، ثم خلع عليه في اليوم الثاني والثالث كذلك، وخلع على أخيه حلتين مكللتين مذهبتين ورزمة فيها شقق حريرية مما يختص بالنساء، وأنعم على كل من حواشيه وأصحابه.

وعاد إلى القاهرة، فمدحه عدة من الشعراء.

وورد رسل ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، وأق سنقر، صاحب حلب، بالحث على غزو الفرنج، وكبيرهم علي بن حامد، الحاجب، فلما وصلا باب الفتوح ترجلا وقبلاه، ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك، وأوقفا عند باب البحر^(٧٥) قدر ما جلس الخليفة، فجهز عسكر في البر مقدمه حسام الملك النري، وسار الأسطول في أربعين شينيا فوصلوا إلى عسقلان، وخرجت للغارات وعادت بالغنيمة.

فاجتمعت طوائف الفرنج، وكتب إلى حسام الملك أن يقيم بالثغر، ويلقى الفرنج عليه ولا يتعداه، فخالف ذلك، وتوجه مخفياً بغير ثقل ونزل على يافا فقتل وأسر، فعندما قصده الفرنج رحل وهم يتبعونه حتى وافى بينا فلقاهم هناك، فانهزم العسكر من غير قتال، وقتل الراجل بأسره، وعاد من بقي مهزوماً إلى عسقلان.

ووصل الخبر بذلك فأهم الأمر والمأمون، واشتد الحنق على حسام الملك لسوء تدبيره قال أمره بعد أمور إلى أن قتل.

فيها خرج أمر المأمون إلى الواليين بمصر والقاهرة بإحضار عرفاء السقائين وإلزام المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلا ونهارا، بالطواري والمساحي، وأن يقوموا لهم بالعشاء من أموالها.

وعمل بعض التجار لابنته فرحا في إحدى الأدر المعروفة بالأفراح، فتسور ملاك الدار على النساء وأشرفوا عليهم والعروس في المجلى، فأنكر عليهم ذلك، فأساءوا وأفسدوا على الرجل ما صنعه، فخرج مستغيثا فخشوا عاقبة فعلهم، فما زالوا به حتى كف عن شكواهم. فلما حضر والي مصر بالمطالعة في الصباح إلى الوزير على عادته، قيل له: لم لا ذكرت في مطالعتك ما جرى للتاجر الذي عمل فرح ابنته؟ فاعتذر بأن المرسوم له ألا يذكر ما يخرج عن السلامة والعافية ولم يتصل به ماجرى في الفرح. فأسمعه ما أمضه، وبين عجزه وتقصيره، وقال له: والسلامة والعافية أن يخرج بالرجل ويهان وتنتهك حرمة ولا يجد ناصرا؟!.

فرسم بإحضار شاهدين ومهندسين، وتوجهوا إلى سائر الدور المختصة بالأفراح وإحضار ملاكها، فمن رغب في استمرار ملكه على حاله فليزل التطرق إليه ويكتب عليه حجة بالقسامة بذلك، ومن لم يرغب فلتؤخذ عليه الحجة ألا يؤجر ملكه للأفراح ويتصرف فيه على ما يريد، فامثل ذلك.

وجرى الرسم في عمل المولد الكريم النبوي في ربيع الأول على العادة.

وكتب لجميع الأعمال، خلا قوص، وعسقلان، بمطالعة كل وال منهم

في مستهل كل شهر بمن حواه السجن والموجب لاعتقاله، ويبين كل منهم ذلك ويعتمد فيه الحق، وسبب ذلك أنه رفع إلى المأمون أن بعض الولاة يعتقل من لا يجب عليه اعتقال، لطلب رشوة، فتطول مدته.

وفيه قرر برسم رش ما بين البلدين، مصر والقاهرة، في كل يوم من اليومين اللذين يركب فيهما الخليفة مما يصرف للسقائين دينار واحد، فاستمر ذلك يطلق لهم إلى الأيام الحافظية، وكان سبب إطلاق هذا القدر أنه رفع للوزير المأمون أن والي القاهرة ومصر يأخذان جميع السقائين أرباب الجمال والدواب لرش ما بين البلدين سخرة بغير أجر.

وفي جمادى الآخرة أعيد ثغر صور إلى ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، وكتب له بذلك، وفخم فيه وعظم، ونعت بسيف أمير المؤمنين، وجهزت إليه الخلعة، وهي بدلة طميم منديلها^(٧٦) طوله مائة ذراع شرب، فيه ثمانية وعشرون ذراعا مرقومة بذهب عراقي، وثوب طميم جميعه برقم ذهب عراقي، سلف المنديل والثوب ألف دينار، وثوب ديبقي وسمطاني، وثوب سقلاطون^(٧٧) داري، وثوب عتاي، وشاشية ديبقي، ولفافة، وجميع ذلك في تحت مبطن عليه لفاقة ديبقي، وغير ذلك من الكساوى برسم نسائه وأصحابه، وجهاز لأمين الدولة جمشتكين، صاحب صلخد، بدلة مذهبة ومنديلها، وعدة ثياب، وغيرها.

في شعبان وصلت الأساطيل بمن فيها سالمين، وقد غنموا شينيين من شواني الفرنج وبطسة كبرى، وعدة من النساء والرجال، وذكر للمأمون أن الأسرى المذكورين يؤخذ منهم في الفداء ما يزيد عن عشرين ألف دينار عينا، فقال: والله لا أبقي منهم أحدا، قد قتل لنا خمسمائة رجل يسوون مائة ألف، وقد أظفر الله بها يكون دية عنهم، لا إشاع عنا أنا بعنا الفرنج وربحنا أثمناهم عوضا عن رجالنا.

وركب الخليفة بما جرت به العادة، واصطفى العساكر بالعدد والأسلحة، وعاد، وخلع على الأمراء وعلى زمام الأسطول والرؤساء.

وحضرت الحجاب، المندوبين لقتل الفرنج، بأنهم لما شاهدوا الحال بذلوا في خلاص أنفسهم ثلاثين ألف دينار، وأنه يرجى منهم أكثر من ذلك، فكتب الجواب بالإنكار وإمضاء السيف فيهم، فقتل الرجال بأسرهم وقد اجتمع الناس وضجوا بالتهليل والتكبير عند قتلهم، فكان أمرا مهولا، وقد ذكر هذا اليوم عدة من الشعراء.

وجرى الرسم في أسمطة شهر رمضان، والركوب إلى الجمع، وفي كسوة غرة شهر رمضان على العادة.

وفيه سير هلال الدولة سوارا رسولا إلى حرة اليمن^(٧٨) وصحبته برسمها من التشريف مما لبسه الخليفة ومازج عرقه من الحلل المذهبات والملاءات الشرب المذهبة والشقق النفوسي والمغربي المقصور والإسكندراني المطرز جملة كثيرة في تحوت مدهونة مبطنة، وصال مملوءة من لحم الناقة التي نحرت بالمصلى، واثنى عشر مجلسا^(٧٩) من المساطير التي تقرأ كل خميس وعليها علامة الخليفة، وكثير من النحاس القضيب والمرجان، وكتب إليها كتابا في قطع الثلاثين أوله:

«من عبد الله ووليه المنصور أبي على الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين، ابن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين، صلى الله عليهما، إلى الحرة الملكة السيدة الرضية، الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن عدة الاسلام، خالصة الإمام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستجيرين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، أدام الله تمكينها ونعمتها، وأحسن توفيقها ومعونتها».

وفي آخره: «وأمر المؤمنين متطلع إلى علم أخبارك، ومعرفة أنبائك، فتواصل بإنهاء المتجدد منها إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»، ويطوى مدورا ويختتم بحرير وأشرطة ذهب وعنبر عجيب ويجعل في خريطة.

فيه قرىء بالجامع العتيق منشور، نسخته بعد التصدير:

«بأننا لم نزل منذ ناطت بنا الحضرة المطهرة، صلوات الله عليها، الأمور، وعولت على كفايتنا في سياسة الجمهور، وردت إلينا النظر فيما وراء سرير خلافتها، وفوضت إلى إيالتنا من مصالح دولتها، وعييدها ورعيته، في محاسن الأفعال ناظرين، وعلى بسط العدل والإحسان على الكافة متوفرين، وبحسن توفيق الله تعالى لنا واثقين، وبمراشده الهادية مسترشدين، فلا ندع وجهها من دعوة البر إلا قصدناه، ولا باباً من أبواب الخير إلا ولجناه، ولا نعلم أمراً فيه قربى إلى الله سبحانه ونفع للرعية إلا أتينا، ولا شيئاً يعود بثواب الله وحسن الأحدثه إلا اعتمدناه، شيمة خصنا الله تعالى بميزتها، وسجية أسبغ علينا جلاله يمنها وسعادتها، وعملاً في ذلك بشريف آراء الحضرة المطهرة، صلوات الله عليها، وجميل سيرتها، واستمراراً على منهج الدولة الزاهرة، خلد الله ملكها، وكريم عاداتها، وذهاباً في ذلك مع سجيتهما الحسنی، ونشراً لأرج ذكرها في الأبعد والأدنى، والله تعالى المسؤول أن يعيننا على مصالح الدنيا والدين، ويقضي لنا بالفوز المبين، ويصلح لنا وبنا كل فاسد، وينظم لنا عقود السعود والمحامد بمنه.

ولما كان أحسن ماتطرز به محاسن السير، وتتناقل ذكره السنة البدو والحضر، وتجنّي ثمرته في الدنيا والآخرة، وتحمّد مغبته في العاجلة والآجلة، التقرب إلى الله تعالى في كل أوان، وابتغاء ثوابه في كل زمان، لاسيما شهر رمضان، الذي تزكوا فيه أفعال البر والصلاح، وتتضاعف فيه

الحسنات في الغدو والرواح، رأينا ماخرج به أمرنا من كتب هذا المنشور بمساحة كافة سكان الرباع السلطانية^(٨٠) بالقاهرة ومصر من الأدر والحمامات والخوانيت والمعاصر والأفرنة والطواحين والعرص، وجميع مايجري في الرباع خارجا من ربع الأحباس وربع المواريث المنصرف مستخرج ارتفاعها فيما يجري هذا المجرى من وجوه البر، بأجرة شهر رمضان من كل سنة، لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسة مائة ومابعدھا، إحسانا يسير ذكره كل مسير، وتعظيما لحرمة هذا الشهر العظيم الخطير، الذي فضله الله على جميع الشهور، وأنزل فيه قرآنه المجيد، وفرض صيامه على أهل التوحيد، وحضهم فيه على الأفعال المزلفة لديه، ووعد من عمل فيه خيرا بمضاعفة الجزاء عليه، فليعتمد العمل بما تضمنه هذا المنشور، وحطية أجرة شهر رمضان عن جميع سكان الربع المذكور لاستقبال التاريخ المقدم منسوبا ذلك إلى القرب الصالحة والتجارة الرابحة، ويفسح في جميع الدواوين حجة بمودعه، وليخلد بالمسجد الجامع العتيق بمدينة مصر، منعاً لمن يروم التأويل فيه، أو نقض شيء من وضعه، إن شاء الله .

فلما قرىء هذا المنشور ضج العامة بالدعاء ونظم فيه عدة من الشعراء.

وجرى الرسم في وصول كسوة العيد، وهي العدة الكثيرة، وتفريقها على العادة، وعمل الختم في آخر الشهر بالقصر والجوامع والمساجد، وحصل الاهتمام بالعيد، وركب الخليفة إلى المصلى على العادة، وصلى بالناس صلاة العيد، وخطب، وحضر السباط.

وجرى الحال في يوم عاشوراء، وفي المولد الأمري، على المألوف.

فيه كان المولد العيسوي، ففرق ماجرت به العادة من الحمامات

القاهرية والجمامات السמיד، وقرابات الجلاب وطيافير الزلاية، والبوري،
على أصحاب الرسوم، وعمل في شهر ربيع الأول المولد الكريم وفرق
المال على الرسم.

وفيهما وصل رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور حسن بن علي بن
يحيى بن تميم بن معز بن باديس، صاحب المهدية، يخبر بانحيازه للدولة،
وأن رجار بن رجار صاحب صقلية تواصلت أذيته، وقد استعد لمحاربته،
وسأل أن يسير لرجار يمنعه من ذلك، فسير إليه مصطنع الدولة علي بن
أحمد بن زين الخند، فأصلح بينهما.

وفيهما نقل المأمون الرصد من الجبل المطل على راشدة إلى علو باب
النصر بالقاهرة.

وفيهما توفي ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة،
فاستقر عوضه أبو محمد حسن بن آدم، وكان يدعى بالقاضي لأبوته
وسنه واشتهاره بالعلم، فبعث الأمر بأحكام الله إلى الوزير المأمون أن
يستخدم أبا الفخر صالحا، فذكر المأمون أن أكثر المجالس التي كانت
تعمل في أيام النعمان بخط أبيه، وأن أبا الفخر حدث السن ولايائل
المذكور في العلم، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

وورد الخبر بأن الفرنج افتدوا بغدوين رويس الملك بثمانين ألف دينار
وثلاثين أسيرا من المسلمين، وكان صاحب حلب قد أسره في وقعة له مع
الفرنج.

وعمل ماجرى به الرسم في مواسم السنة.

وفيهما جرت عمارة سور الإسكندرية.

وفيهما حمل إلى عسقلان ثلاثة وعشرون ألفاً وستمائة وأحد وثلاثون إردبا من الغلال.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ملك الفرنج مدينة صور، واستمرت بأيديهم حتى زالت الدولة الفاطمية، وكان أخذهم إياها بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم، وأعانهم طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس وراسل الفرنج، فاستقر الأمر على أن الفرنج تستولي عليها بالأمان، فخرج أهلها بما خف حملهم، وتفرقوا في البلاد، وكان تملكهم لها في يوم الاثنين ثالث عشري جمادى الآخرة.

وفيهما أمر ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كسر خليج القاهرة بالكراء، وذلك أن الناس عند كسر الخليج^(٨١) كانوا يصنعون أخشاباً متراكبة بعضها على بعض، يجلسون فوقها للتفرج يوم كسر الخليج، ولم يكن هناك غير دار الأمير أبي عبد الله محمد بن المستنصر ودار ابن معشر، ولم تزل هذه الأدر الثلاثة إلى أن احترقت في نوبة شاور.

فيها مات بالموت الحسن بن صباح كبير الاسماعيلية، وقد تقدم أنه ورد مصر في أيام المستنصر وسار إلى المشرق بدعوته، واستولى على قلعة الموت واعتقد إمامه نزار بن المستنصر، وأنكر إمامة المستعلي وإمامة الأمر، وانتدب عدة لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش فلما تقلد المأمون البطائحي وزارة الأمر بعد قتل الأفضل بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا بموت الأفضل، وأنهم تناولوا لقتل الأمر والمأمون وأنهم بعثوا طائفة لأصحابهم بمصر بأموال، فتقدم المأمون إلى والي عسقلان بصرفه

وإقامة غيره، وأمره بعرض أرباب الخدم بها، وألا يترك فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد، وأكد عليه في الاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم، وأنه لا يثق بها يذكرونه، من أسمائهم وكنائهم وبلادهم، بل يكشف من بعضهم عن بعض ويفرق بينهم ويبالغ في الاستقصاء، ومن يصل ممن لم تجر عاداته بالمجيء إلى البلاد فليعوقه بالثغر ويطالع بحاله ومامعه من البضائع، ولا يمكن جمالا من دخول مصر إلا أن يكون معروفا مترددا إلى البلاد، ولا يسير قافلة إلا بعد أن يتقدم كتابه إلى الديوان بعدة من فيها وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين وذكر اصناف البضائع، ليقابل بها في مدينة بليس وعند وصولهم إلى الباب، وأنه يكرم التجار ويكف الأذى والضرر عنهم.

ثم تقدم المأمون إلى والي مصر ووالي القاهرة بأن يصقعا البلدين شارعا شارعا وحارة حارة وزقاقا زقاقا وخطا خطا، ويكتبأسماءسكانها، ولا يمكننا أحدا من النقلة من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره، بما يعتمد في ذلك، فمضيا لذلك، وحررا الأوراق بأسماء جميع سكان القاهرة ومصر وذكر خططهما، والتعريف بكنية كل واحد وشهرته وصناعته وبلده، ومن يصل إلى كل خط وحارة من الغرباء.

فلما عرف ذلك المأمون انتدب نساء من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعتهم بجميع ما يشاهدونه فيها، فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة تعرض عليه، ولا يكاد يخفى عنه منها شيء البتة، فامتنع لذلك الباطنية مما كانوا قد عزموا عليه من الفتك بالأمر والمأمون لكفهم عن دخول البلد

ثم إنه مع ذلك أركب العسكرية وفرقهم في جهات البلدين، وأمرهم بالقبض على جماعة عينهم، فقبض على جماعة كثيرة، منهم رجل كان

يقرىء أولاد الخليفة الأمر، ومنهم رسل كان ابن صباح قد سيرهم بهال لينفق على من بمصر ممن يرى رأيهم، فكان هذا معدودا من عظيم الحزم، وقوة التدبير، ومع ذلك كان له القصاد والجواسيس وأصحاب الخبر في كل قطر، فإذا خرج الباطني من قلاع الموت لاتزال أخباره ترد عليه شيئا بعد شيء منذ يخرج من مكانه حتى يرد بليس، فيسير إليه من يقبض عليه في مكانه الذي نزل فيه ويأتيه به فيقتله، وصار من أجل ذلك وبسببه يرد عليه أخبار كل جليل وحقير من سائر مملكته، حتى كان يرى ويسمع كل مايتفق في ليل أو نهار، وامتنع من الباطنية إلى أن مات رئيسهم الحسن بن صباح بعدما ملك من الشام جبل عاملة، وحصن العليقة والكهف، ومصيات، والخوابي، وحصن الأكمة، وقلعة العيدين، ثم امتدت مملكته بعد موته إلى حد شرقي أذربيجان، وبحر طبرستان، وجرجان.

سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها قبض الخليفة الأمر على وزيره المأمون في ليلة السبت لأربع خلون من شهر رمضان، وقبض على إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من أهله ونحواصه، واعتقله، فوجد له سبعون سرجا من ذهب مرصع، ومائتا صندوق مملوءة كسوة بدنه، ووجد لأخيه المؤمن أربعون سرجا بحلي ذهب وثلاثمائة صندوق فيها كسوة بدنه، ومائتا سلة ما بين بلور محكم وصيني لا يقدر على مثلها، ومائة برنية مملوءة كافور قنصوري، ومائة سبط مملوءة عودا، ومن ملابس النساء مالا يحد، حمل جميع ذلك إلى القصر، وصلبه مع إخوته في سنة اثنتين وعشرين.

ويقال إن سبب القبض عليه أنه بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلي، أخي الأمر، يغريه بقتل أخيه الخليفة ووعدته أنه يعتمد مكانه في الخلافة، فلما تقرر ذلك بينهما بلغ الشيخ الأجل، أبا الحسن علي بن أبي أسامة،

كاتب الدست الخبر، وكان خصيصا بالأمر قريبا منه، وكان المأمون يؤذيه كثيرا، فبلغ الخليفة الحال، وبلغه أيضا أنه بعث نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن، وأمره أن يضرب السكة ويكتب عليها: الإمام المختار محمد ابن نزار.

ويقال إنه سم مبضعا ودفعه لفصاد الخليفة، فأعلم الفصاد الخليفة بالمبضع.

ومولده في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة تسع، وكان من ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول، كريما واسع الصدر، سفاكا للدماء، شديد التحرز، كثير التطلع إلى أحوال الناس من الجند والعامه، فكثر الواشون والسعاة بالناس في أيامه.

ويقال إن أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، وأنه مات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا، فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق بمصر، وأنه دخل مع الحمالين يوما إلى دار الأفضل فرآه خفيفا رشيقا حسن الحركة حلو الكلام، فأعجب به، فاستخدمه مع الفراشين بعد ما عرف بأنه ابن فلان، فلم يزل يتقدم عنده حتى كبرت منزلته، وعلت درجته.

وهذا ليس بصحيح فإنه من أخبار المشاركة، وقد تقدم أن أباه مات في زمن الأفضل بعد ما ترقى أحوال ولده، وأنه كان ممن يعد من أمائل أهل الدولة، ورثي بعدة قصائد، وتقدم أن المأمون كان ممن يخدم المستنصر، وأنه الذي لقبه بالمأمون، على أن المشاركة زادوا في التشنيع وذكروا أنه كان يرش الماء بين القصرين، وكل ذلك غير صحيح.

وكان المأمون شديد المهابة في النفوس، وعنده فطنة تامة، وتحرز،

ويبحث عن أخبار الناس وأحوالهم، حتى إنه لا يتحدث أحد من سكان القاهرة ومصر بحديث في ليل أو نهار إلا ويبيت خبره عند المأمون، ولا سيما أخبار الولاة وعما لهم، ومشيت في أيامه أحوال البلاد وعمرت، وساس الرعايا والأجناد أحسن سياسة، إلا أنه اتهم بأنه هو أقام أولئك الذين قتلوا الأفضل وأعددهم له وأمرهم بقتله ليجعل له بذلك يدا عند الخليفة الأمر، ولأنه كان يخاف أن يموت الأفضل فيلقى من الأمر ما يكرهه لأنه كان أكبر الناس منزلة عند الأفضل ومتحكما في جميع أموره، وكان مع ذلك محببا إلى الناس لكثرة ما يقضيه من حوائجهم ويتقرب به من الإحسان إليهم، ويأخذ نفسه بالتدبير الجيد والسيرة الحسنة، بحيث لو قدر موته في حياة الأفضل لزار الناس قبره تبركا به.

واتهم أيضا بأنه هو الذي قتل أولاد الأفضل، وأولاد أخيه الأوحده، وأولاد أخيه المظفر، وكانوا نحو مائة ذكر ما بين كبير وصغير، فقتلوا بأجمعهم، ولم يبق منهم سوى صغير نحيف يسمى أحمد أبا علي، ويلقب بكتيفات، فيقال إنه احتقره لما كان يرى فيه من العي والانقطاع، فكان منه ما يأتي خبره إن شاء الله تعالى.

واتهم أيضا بقتل الأمير حسام الملك أفتكين، صاحب الباب، في أيام الأفضل لتخوفه منه، وذلك أن حسام الملك دخل مرة على الأمر للسلام، فلما خرج قال الأمر: والله إنك لأمر حسن، فإنه كان جميلا تام القامة وفيه عجب وتيه، فبلغ ذلك المأمون فقامت قيامته وأخذ في العمل عليه حتى أخرجه في العساكر التي يقال إن عدتها عشرون ألفا، فكان من خبره على عسقلان مع الفرنج ما كان، وقتل من أصحابه يومئذ ما يزيد على عشرة آلاف، وعاد حسام الملك فبعثه إلى الإسكندرية ودس عليه من قتله.

قال ابن الطوير: ولما دفن الأفضل استعمل الأمر هذا الرجل، وكان

يخاطب بالقائد حين خدمة الأفضل في الوساطة دون الوزارة، ونعته بجلال الاسلام واستمر على ذلك، ثم كمل له الوزارة وخلع عليه خلعة الوزارة إلا الطيلسان المقور، فباشرها، وكان متيقظا قد حذق الأمور ودبرها من صحبة الأفضل وطول خدمته إياه، وكان بالدار التي بالسيوفيين بالقاهرة، وهي اليوم مدرسة للحنفية، وأخذ يصب على قال الأفضل مع الأمر، فصار يتقلب على الأمر في واحدة بعد واحدة من الجفاء الإقدام، والأمر يملئ له ويحتمله، حتى استوحش كل منهما من الآخر.

وكان له أخ ينعت بالمؤتمن أبي تراب حيدرة، فرأى من الرأي أن يولى أخاه جانبا عظيما من ديار مصر، ويجعل معه عسكر النجدة رداء إذا قصده الخليفة بضره، فإنه مادام أخوه يكون حاميا له، فيكون هو من داخل وأخوه من خارج، وجرد معه مائة فارس من شدة الأجناد وكبرائهم، وأضاف إليهم أمثالهم، مثل: علي بن السلار، وتاج الملوك قايمز، وسيف الملك الجمل، ودري الحرون، وحسام الملك بسيل، وكل واحد من هؤلاء جيش بمفرده، والخليفة يعلم ذلك ولا يرده عليه، وزاد في معناه حتى قيل إن الخليفة اطلع على أنه ادعى الخلافة، وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل عندما خرج نزار إلى الإسكندرية فانزعج الخليفة لذلك، ثم إنه سير إلى اليمن الموفق في الدين علي بن نجيب الدولة^(٨٢) وكان من أهل الأدب فصيحاً داهي، ليحقق لنسبه هناك ويدعو الناس إلى بيعته، فلما قيل للأمر هذا، ما شك فيه، وأخذ يتحيل في الإيقاع به بعد عود أخيه من ولايات الاسكندرية والغربية والبحيرة والجزيرتين^(٨٣) والدقهلية والمرتاحي^(٨٤) فاخترق الأمر قضية يلتمسها من الاسكندرية وهو مقيم بها، فسير أستاذا من ثقافته، ظاهره فيما ندبه إليه وباطنه في العمل على المأمون وأخيه، وقال له: «أحرص على اجتماعك بعلي بن السلار في المسيرة وسلم عليه عنا، وقل

له: إننا مازلنا نلتفت إليه وندخره لمهماتنا ونتحقق فيه الموافاة لنا، وإننا بحمد الله قادرون على المكافأة بالخير أكثر من غيرنا، وقد تلونت أحوال المأمون وبالغ في عقوقنا بأشياء لا يتسع لنا ذكرنا ومقصودنا أن تكتم عنا مانقول لك».

فلما بلغه الأستاذ ذلك عن الأمر قال: «السمع والطاعة لمولانا، وأنا مملوكه وباذل نفسي في خدمته» فقال الأستاذ: «هكذا والله قال عنك» قال ابن السلار: «فما يأمر به؟» قال: «تحدث رفقتك بأجمعهم في الانفصال عن المؤمن، أنت ومن تثق به».

فلما تقرر ذلك اتفق علي بن السلار هو، وقايمان، ودري الحرون، وكانوا أمراء الجماعة فتفرقوا عنه وتبعهم الباقون، فانفرد المؤمن واستوحش وكاتب أخاه المأمون بذلك، فما اتسع له أن يتبع الأمراء، ولا ينكر عليهم ليرجعوا إلى أخيه، لعلمه بتغير الخليفة عليه، مخافة أن يفسد أمره ظاهرا وباطنا، فحضر إلى الخليفة يوم سلام، على عادة الوزراء، وتقدم وقال: «يامولانا، صلوات الله عليك، وصل كتاب أخي يتذمم من طول مقامه خارج القاهرة وأسفه على ما يفوته من خدمة مولانا بالمباشرة، ويسأل الفسحة له في العود إلى بابه الكريم» فقال: «مرحبا وأهلا، وهذا كان رأينا، ونحن مشتاقون إليه، وإنما قصدنا رضاك فيما رتبته له، يقدم على بركة الله»، فكوتب عن الخليفة بالعود وأن يرتب في ولاياته من يرضاه فامتثل ذلك.

ودخل القاهرة، فجلس الخليفة له في غير وقت الجلوس، فمثل بين يديه، وأكرمه وأدناه، وخلع عليه بالتشريف المفخم.

فلما دخل شهر رمضان، وفيه السباط كل ليلة بقاعة الذهب، ويحضر الوزير وإخوته وأصحابه، فحضر المأمون وأخوه المؤمن السباط أول ليلة،

فأكرمهما الأمر بما أخرجهما لهما مما كانت يده فيه، وأرسل رسالة إلى المؤمن ليستأنس بحضوره السباط مع أخيه، فلم يتسع لهما مع هذه المكارمة الانقطاع.

وحضرا ثاني ليلة فزاد في إكرامهما، ثم أمر بأن يدخل المأمون لمؤاكلته خاصة دون أخيه، فدخل إليه، ولم يتقدمه أحد من الوزراء بمثل ذلك، يعني بهذه المنزلة، وخرج هو وأخوه وأكد عليهما ألا ينقطعا، وخلع عليهما من داخل الدار من الثياب الدارية، ثم حضرا ثالث ليلة، فاستدعي المأمون إلى الخليفة، فلما جلس معه على المائدة قال قد جفونا المؤمن، واستدعاه، فدخل، وصارا في قبضته، وكان قد رتب لهما من يأخذهما، فعند خروجهما للمضي قبض عليهما واعتقلهما عنده في خزانة، وسير بالحوطة على دورهما، ثم أمر بإحضار الشيخ الأجل أبي الحسن بن أبي أسامة، كاتب الدست، لينشئ شيئا في معنهما يقرؤه على المنبر باكرا، فوجد الشيخ أبو الحسن بمصر لعيادة مريض، فتقدم إلى والي القاهرة في الليل بأن يمضي إلى مصر لإحضاره، فظن والي القاهرة أنه طلب لغير ذلك، وكان يقال له سعد الدولة الأحذب، فمضى إليه وأزعجه من مكانه، وسبه أقبح سب، وأراد إحضاره إلى القاهرة ماشيا، فأحضره إلى الخليفة وهو ميت لأحراك به، فقال له: ما هذا؟ فأخبره بقضيته مع الوالي، فغضب على الوالي وأمر بخلع أخفافه من رجله وصفعه بهما، حتى تقطعا على قفاه، وصرفه من الولاية، وأطلع الشيخ أبا الحسن على قضية المأمون وأخيه، فقال يامولانا: هما نشو أيامك وممالك دولتك، فقال لبعض الأستاذين خذ هذا الشيخ وصوبه إلى المذكورين لينظرهما في اعتقالهما وينقطع رجاؤه منهما، فأدخله إليهما، فرآهما مكبلين في الحديد، وعليهما احتياط عظيم، فأنشأ للوقت سجلا كان من استفتاحه:

«أما بعد، فإن محمد بن فاتك استنجح فما نجح، واستصلح فما

صلح، وجهل رفع قدره فغدا لهبوط، وقابل الإحسان إليه بدواعي القنوط» وكل ذلك في تلك الليلة.

فلما أصبح الصباح جلس الخليفة في الشباك بالإيوان، ونصب كرسي الدعوة أمامه، وطلع قاضي القضاة عليه وقرأه بعد اجتماع الأمراء وأرباب الرتب والعوام، فلم يتطع فيها عنزان.

ويقال إن الخليفة كان يقول: أعظم ذنوبه عندي ماجرى منه في حق صور وإخراجها من يد الاسلام إلى الكفر.

وبقيا في الاعتقال، هما وأميران اتهمتا، في خزانة البنود، وسير لإحضار الذي كان أنفذه المأمون إلى اليمن ليقتلهم جميعا، وتفرغ الأمر لنفسه، ولم يبق له ضد ولا مداج، وبقي بغير وزير^(٨٥).

وأقيم صاحب ديوان الاستخراج^(٨٦) بما يجب من زكاة ومكس، أحدهما مسلم يقال له جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط والآخر سامري يقال له أبو يعقوب ابراهيم، وأقيم معهما مستوف لهاتين المعاملتين وكان راهبا، فكانوا يستخرجون ذلك من أربابه، ويدخل صاحب الديوان إلى الأمر في كل وقت ومعهما المصحف والتوراة فيحلفان له أنها لا يتعرضان إلا لمن يجب عليه لبيت المال حق، فيحملهما في ذلك على الصدق، وربما اشتطا على الناس وزيدا عليهم ما لا يجب زيادته، فتأذى بسببها جماعة، والأمر لا يطلع على ذلك ولا أشار به، واستمر على ذلك مديدة.

سنة عشرين وخمسمائة

فيها جهز الأمر المنتضى بن مسافر الغنوي بخلع سنية وتحف مصرية وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقي، صاحب الموصل، فلما كان في أثناء الطريق سمع بموته، فرجع بها معه إلى الأمر.

وفيهما قدم الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم، مصنف «سيرة الفرنج الخارجين على بلاد الاسلام في هذه السنين» برسالة من صاحب حلب.

وفي شوال كان بدء أمر الراهب، وذلك أن راهبا من النصارى، يعرف بأبي نجاح بن متى كتب إلى الأمر رقعة في الكتاب النصارى من الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها، وضمن أنه يحقق في جهاتهم ما يملأ بيوت الأموال، فتقدم الخليفة بأن يمكن من الدواوين ويساعد على ما يخرج من الحسابات، ولقب بالأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء سيد الرؤساء مقدم دين النصرانية، وسيد البطركية، ثالث عشر الحوارين.

وكان الأمر لما انفرد بالأمر بعد القبض على وزيره المأمون، وبقي بغير وزير دانت له الدنيا، وكان معظما كثير الجود إلى الحد الذي لامزيد عليه، فكثر الخير في تلك الأيام، وفرح الناس بالفوائد، وتردد المسافرون والتجار، وجلبت البضائع، وزاد الحاصل في الخزائن من كل صنف مضافا إلى ما كان فيها، وحسنت السيرة في الرعية، وأباح للناس والجنود ما كان الأفضل حظره عليهم من الملبوس والتجمل، فما برح الناس في خيرات دارة ونعم متزايدة إلى أن تمكن الراهب من الدواوين واشتد في مطالبة النصارى وحقق في جهاتهم الأموال، وحملها أولا فأولا، وكان قد حصل لهم في أيام الأفضل والمأمون ما يزيد عن الوصف، فلما تمكن الراهب من النصارى واستطاب ما تحصل منهم ابتداء يعمل في المسلمين معاملي الديوان من المشارفين والضمنا والعمال.

فيها ركب الأمر لينظر جوسق البغدادي أبي الحسن علي بن محمد بن سعدون بالقرافة، فإنه كان من أحسن جواسق القرافة، وأفخرها بناء، فلما قرب منه سقط عن فرسه إلى الأرض فهنيء بالسلامة، وقيل في ذلك عدة أشعار.

سنة إحدى وعشرين وخمسة

فيها أحضر الموفق في الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة، داعي اليمن، الذي سيره الوزير المأمون بن البطائحي، فدخل في يوم عاشوراء على جمل بطرطور، ومعه مشاعلية تصكه بلا كلل وخلفه قرد يصفعه، وهو يقول بقوة نفس: والله ماباليت ولا ألتفت، فأدخل خزانة البنود وسجن مع المأمون.

فيها كثرت مصادرة الراهب للكتاب والعمال، وتسلسل الأمر إلى التجار وأرباب الأموال، وندب معه مقداد والي مصر وسعد الدولة والي القاهرة للشد منه، فتنكد الناس وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق، وأخذ الراهب يحسن للأمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم.

وفيها مات قاضي القضاة جلال الملك تاج الأحكام، أبو الحجاج يوسف بن أيوب بن اسماعيل المغربي الأندلسي، وكان أولاً قد أقرأ المؤمن أخا المأمون القرآن والنحو، فولاه قضاء الغربية، ثم نقل منها إلى قضاء القضاة بعد واقعة ابن الرسعني بوساطة المؤمن، واستقر بعد وفاته في قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن الميسر القيسراني.

وكان أبو الحجاج عاقلاً، عرض عليه الأمر أن يلي الدواوين مضافاً إلى ما يتولاه من قضاء القضاة والمظالم، فاستشار في ذلك بعض أصحابه فأشار بالقبول، فقال: إني لأحسن صنعة الكتابة، فقال له: تجعل بين

يديك من يوضح لك طرق التدبير ويدلك على سر الصناعة فقال: ألا ترى إلا أنا قد رضيت أن أكون من الأسماء النواقص التي لا تتم إلا بصلة وعائد، واستحضرت من يدلني على ما أجهل، فكيف أصنع بين يدي السلطان؟ لقد حكمت إذا على نفسي بحكم حيف وأوردتها خطة خسف. رحمه الله.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

فيها وصلت رأس بهرام الباطني، وكان طغتكين أتابك، الملقب بظهير الدين، قد وهب له بانياس خوفا من شره، فأفسد جماعة بالشام، وجرت له خطوب آلت إلى قتله، وحملت رأسه إلى الأمر.

وفيها رتب قاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر مشارفا على ثقة الدولة ابن أبي الرداد في قياس الماء وعمارة المقياس، وعمل مصالحة، فاستمر إلى أن قتل ابن ميسر ثم بطل، فلم ينظر أحد في هذه المشاركة.

وفي رجب عمل للأمر في الخاقانية^(٨٨)، وكانت من خاص الخليفة، قصر من ورد، فسار إليها وحده بضيافة عظيمة، فلما استقر هناك خرج إليه أمير يقال له حسام الملك — أحد الأمراء الذين كانوا مع المؤمنين، أخي المأمون، في سفره في البلاد التي كان يتولاها وتخاذل مع ابن السلار عنه — وهو لا بس لأمة حربه، والتمس المشول بين يدي الخليفة، فاستثقل ما جاء به في ذلك الوقت لأنه مناف لما فيه الخليفة من الراحة والنزهة، فمنع من ذلك وصد عنه، فقال لجماعة من حواشي الخليفة:

أنتم منافقون على الخليفة إن لم أصل إليه وهو يطالبكم بذلك ويعاقبكم عليه، فأطلعوا الخليفة على أمره، فأمر بإحضاره فقال: يامولانا، لمن تركت أعداءك — يعني المأمون وأخاه — هذا والعهد قريب، أأمنت الغدر؟ فما أجابه إلا وهو على ظهور الرهاويج من الخيل^(٨٩)، فلم تمض ساعة إلا وهو بالقصر يمضي إلى مكان إعتقال المأمون وأخيه، فوجدهما على حالهما، فزادهما وثاقا وحراسة.

فلما كان في ليلة العشرين منه قتل المأمون وصالح بن الضيف، وكان من نشو المأمون وقد سجن معه، وعلي بن إبراهيم بن نجيب الدولة، المحضر من اليمن، وأخرجوا إلى سقاية ريدان^(٩٠) في الرمل، قبالة البستان الكبير خارج باب الفتوح، فصلب أبدانهم بغير رؤوس وفي صدر كل واحد رقعة فيها اسمه، فبلغ الأمر الناس فشكوا فيهم، وقالوا: هم غير المذكورين، فأمر بإخراج رؤوسهم وأقيمت على أبدانهم.

فيها كانت ولاية ابن ميسر القضاء في ذي الحجة على ماذكر بعضهم، وقيل بل كانت كما تقدم، ولقب بثقة الدولة القاضي الأمين سناء الملك، شرف الأحكام، قاضي القضاة، عمدة أمير المؤمنين، أبي عبد الله محمد ابن القاضي أبي الفرج هبة الله بن ميسر، فلازم الانتصاب والجلوس، واعتمد التثبت في الأحكام، وعدل جماعة، فبلغت عدة الشهود في أيامه مائة وعشرين شاهدا، وكانوا دون الثلاثين.

ثم وردت إليه المظالم، فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بهم الأمر، وكان فيهم عدة قد يئسوا من الفرج، فاستأذن الخليفة وأفرج عنهم، وتكلم مع الأمر في أمر التجار ومانزل بهم من المصادرات، فأمر الخليفة بكتابة منشورهم في معناتهم قرىء على المنابر.

فيها كثرت وقائع أهل السر على الناس، وتقرب كثير من الكتاب

الظلمة بعورات الناس إلى الخليفة، فاشتدت مطالبات الناس بالأموال، وقبل قول كل رافع شيئاً على أحد، وأخذ الناس بما رموا به، وضمن عدة من الناس أشياء لم تجر عادة بضمائها، وأحدثت رسوم لم تكن فيما تقدم وذلك أنهم لم يقدرُوا على تصريح القول بالمصادرة، فعملوا ما ذكر، فحصلت الشناعة، وخرج من بالبلد من التجار.

وكثرت مصادرات القاطنين بمصر والقاهرة، وعظم قدر ما حمل من أموال هذه الجهات، فأتسع عطاء الخليفة حتى وهب يوماً لغلامه بزغش، المنعوت بالعدل ثمانين ألف دينار، ثم سأله بعد مدة يسيرة عما فعله فيما وهبه، فقال: يامولانا تصدقت ووهبت أكثر فأعجب ذلك الأمر، وفرح، وشكره على ما فعله، ووهب مرة لغلامه هزاز الملك جوامرد، المنعوت بالأفضل، مثل ذلك، وكانا أخص غلمان وأقربهم منه، وأشرفهم عنده منزلة، وكانا أسمح خلق الله، وكان الناس في أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر، لا بمصر ولا بالقاهرة، فإن هزاز الملوك كانت صدقته في كل يوم جمعة راتباً قد قرره بالقرافة أربعة آلاف درهم في ألف كاغدة، على يد الثقة ابن الصعيدي وغزال الوكيل، وكانت عطاياه من يده لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً، ولا يخلوا ركوبه إلى القصر وعوده من أحد يقف له ويطلب منه، وكان بزغش يعطي الجمل الكبار التي يغني بها الطالب، من المائة دينار إلى المائتين وأكثر.

وبلغ علم التي يقال لها جمعة، مكنون الأمرية، أن الأمر سيدها قد وهب لكل من غلاميه المذكورين ثمانين ألف دينار، وكان الأمر يجبها وأصدقها أربعة عشر ألف دينار، وولدت منه ابنة سماها ست القصور، فلما دخل عليها عشية اليوم الذي وهبها فيه هذا المال قامت وأغلقت عليها مقصورتها، وقالت: ما تدخل إلي أو تهب لي ما وهبت لكل منهما، فقال: الساعة، وأحضر الفراشين، وحمل كل عشرة كيساً فيه عشرة آلاف

دينار عينا، فلما صار إليها هذا المال، ومبلغه مائتا ألف دينار ذهباً،
فتحت الباب له ودخل^(٩١).

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها عم البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من
الراهب، بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه، إما من ضرب أو نهب
أو أخذ مال، وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص،
ويستدعي الناس للمصادرة، فطلب في بعض الأيام رجلاً يعرف بابن
العُرس من العدول المميزين المبجلين في الناس فأهانته وأخرق به، فخرج
إلى الجامع في يوم جمعة وقام على رجليه وقال: يا أهل مصر، انظروا عدل
مولانا الأمر في تمكينه النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه
وكادت تكون فتنة، فاتصل ذلك بخواص الخليفة، فأبلغوه إياه وخوفوه
عاقبة ذلك، وطالعوه بما حل بالخلق.

وكان الراهب قد أخذ من شخص خادم يقال له جدّ نحو سبعين
ألف دينار بخرج من مائة ألف دينار، فصار يشكو، وكان كثير البضائع
والتجارات والمقارضين، فتظلم واشتهر أمره إلى أن بلغ خبره إلى أستاذ
من أستاذي القصر له من العمر نحو مائة وعشرين سنة، يقال له لامع
— وكان قد انقطع في منزله بالقصر بعد حاج غير مرة، وأنشأ جلبة^(٩٢)
بعيذاب يقال لها اللامعية تحمل الحاج — فاتفق جواز الأمر على مكانه
فسأل عنه، فقليل له: إنه لا يستطيع النهوض إلى خدمتك، فدخل إليه
وسأله عن حاله، فقال: شغلي بسمعة مولانا أشد علي من نفسي، فقال
له الأمر: لأي شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد تم عليهم من
الشدة مالا أحسن أصفه وربما نسب ذلك إليك، وشرح له أمر الراهب
ابن أبي نجاح وصاحبي الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبي
قيراط، وأبي يعقوب ابراهيم السامري الكاتب، وما أخذوه من جد

الخادم، فحلف الأمر إنه ما علم أنهم بلغوا بالناس إلى هذا المبلغ، وأنه يستدعي صاحبي الديوان في كل وقت ويحلفهما على المصحف وعلى التوراة، وأن الراهب لم يجعل إلا مستوفيا لما يستخرج من المال وليس له معهما حديث ألبتة، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين، إنهم قد اتفقوا على أذى الناس، وقد جعلك الله خليفة في الأرض واسترعاك على عباده، وكل راع مسؤول عن رعيته، فشق على الخليفة، وعمل فيه كلام هذا الأستاذ؛ وخرج، فما بات حتى صرف صاحبي الديوان واعتقلهما، ليستعيد منهما مأخذه للناس ظلما، واستدعى الراهب، وكان بحضرته رجل من الأشراف، فلما حضر الراهب أنشد الشريف:

إن الذي شرفت من أجله
يزعم هذا أنه كاذب

فقال الأمر للراهب: يا راهب، ماذا تقول؟ فسكت فأمر حيثنذ والي مصر بأخذه إلى الشرطة وضربه بالنعال حتى يموت، فمضى به إلى شرطة مصر، وما زال يضرب بالنعال حتى مات، فجر بكعبه إلى عند كرسي الجسر^(٩٣) مسحوبا، وسمر على لوح، وطرح في بحر النيل، فكان كلما وصل إلى ساحل من سواحل مصر وهو منحدر دفعوه إلى البحر، فلم يزل حتى خرج إلى البحر الملح، واشتهر ذكره، وسارت الركبان بهلاكه.

وكان هذا الراهب أولا من أشمون طناح^(٩٤) وترهب على يد أبي إسحاق بن أبي اليمن، وزير ابن عبد المسيح متولي ديوان أسفل الأرض، ثم قدم إلى القاهرة واتصل بخدمة ولي الدولة أبي البركات يحنأ بن أبي الليث، كاتب المجلس، ولما قتل الوزير المأمون اتصل بالخليفة الأمر، وبذل له في مصادرة الكتاب النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، واسترسل أذاه حتى شملت مضرتة كل أحد.

وكان يعمل له في تنيس ودمياط ملابس مخصوصة من الصوف

الأبيض بالذهب، فيلبسها ومن فوقها غفارة^(٩٥) ديباج، ويتطيب بعدة مثاقيل مسك في كل يوم فكانت رائحته تشتم من مسافة بعيدة، وكان يركب الحمر الفارهة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس بقاعة الخطابة من جامع مصر.

ولما قتل وجد له في مقطع ثلاثمائة طراحة سامان محشوة جددا لم تستعمل، قد رصت إلى قرب السقف، وهذا من نوع واحد، فكيف ماعداه؟.

ولما قتل وعرف الأمر ماكان يعمل في الناس من أنواع الأذى خشي من الله واستحيا من الناس، وكره مساءلة الفقهاء من الاسماعيلية عن ذلك وعن كفارة هذا الذنب لأنه إمام، وشرط الإمام أن يكون معصوما، فسير إلى الفقيه سلطان بن رشا شيخ الفقيه مجلى، وكان خليفة الحكم، مع من يثق به يستفتيه في أمر الراهب ومايكفر عنه، فقال: يرد ما صار إليه من الأموال إلى أربابها، فرد عليه: إنى والله ما أعرفهم ولا أقدر على ذلك، ولكن أعتق الرقاب وأتصدق، فقال الفقيه: الخليفة قادر على أن يعتق ويتصدق ولا يتأثر لذلك، ولكن يصوم فإنه عبادة شاقة على مثله، فقال: أصوم الدهر؟، قال: لا، ولكن الصوم الذي وصفه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صوم يوم وفطر يوم، فقال: لا أقدر على ذلك، فقال: يصوم رجب وشعبان ورمضان، ففعل ذلك، وتخرج في صومه وبره هذه الأشهر من كل ما ينكر في الديانة.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

في ربيع الأول ولد للأمير ولد سماء أبا القاسم الطيب، فجعل ولي عهده، وأمر فزينت القاهرة ومصر، وعملت الملاهي في الإيوانات وأبواب القصور، وكسيت العساكر، وزينت القصور، وأخرج الأمر من خزائنه

وذخائره قماشاً ومصاعاً ما بين آلات وأواني من ذهب وفضة وجوهر، فزين بها، وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح، واستمر الحال على هذا أربعة عشر يوماً.

وأحضر الكباش الذي يعق به عن المولود، وعليه جل من ديباج، وفي عنقه قلائد الفضة، فذبح بحضرة الخليفة الأمر، وجيء بالمولود فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله، ونشرت الدنانير على رؤوس الناس، ومدت الأسمطة العظيمة بعد ما كتب إلى الفيوم والقليوبية، والشرقية فأحضرت منها الفواكه، وملئ القصر منها ومن غيرها من ملاذ النفوس، وبخر بالعنبر والعود والند حتى امتلأ الجو من دخانه.

فيها تواترت الأخبار بتخويف الأمر من اغتيال النزارية وتحذيره منهم، وإعلامه بأنه قد خرج منهم قوم من المشرق يريدون قتله، فتحرز احترازاً كبيراً بحيث إنه كان لا يصل أحد من قطر من الأقطار إلا ويفتش ويستقصى عنه، وأقام عدة من ثقاته يتلقون القوافل ليتعرفوا أحوال الواصلين ويكشفوا عنهم كسفاً جلياً، وكلما اشتد الأمر كثر الخوف، واتصل به أن جماعة من النزارية حصلوا بالقاهرة ومصر، فاحترز وتحيل في قبضهم فلم يقدر لما أراده الله، وفشا في الناس أمرهم، وكانوا عشرة فخافوا أن يظفر بهم، فاجتمعوا في بيت وقالوا إنه قد فشا أمرنا ولانأمن أن يظفر بنا، واشتوروا فقال احدهم: الرأي أن تقتلوا رجلاً منكم وتلقوا برأسه بين القصرين لتنظروا إن عرفها الأمر فتتيقنوا أن حلاككم قد ذكرت له، فتعملوا الحيلة في فراركم من مصر، وإن لم يعرفها فتطمئنوا حينئذ وتعرفوا أن القوم في غفلة، فقالوا: ما يتسع لنا قتل واحد منا ينقص عددنا وما بذاك أمرنا، فقال: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته، وما دلتكم إلا على نفسي، وشرع بسكين فذبح بها نفسه فمات، وأخذوا رأسه ورموها في الليل بين القصرين، وأصبحوا ينظرون ما يتفق فلما رثيت الرأس واجتمع الناس عليها لم يقل

أحد أنا أعرفها، فحملت إلى الوالي، فأحضر عرفاء الأسواق على أرباب المعاش وأوقفهم عليها فلم يعرفها أحد، فأحضر أصحاب الأرباع بالحارات، فلم يعرفوها، ففرح النزارية واطمأنوا بالإقامة في مصر لقضاء مرادهم.

وكان الأمر كثير الفرج محبا للهو، فركب في يوم الثلاثاء الرابع من ذي القعدة يريد المضي إلى الهودج، الذي بناه بجزيرة مصر لمحبوته البدوية، ومن العادة في الركوب أن يشاع في أرباب الخدم بالموكب جهة قصد الخليفة حتى لايتفرقوا عنه، فعلم النزارية أين يقصد فجاءوا إلى الجزيرة المذكورة ودخلوا فرنا قبالة الطالع من الجسر إلى البر، ودفعوا إلى الفران دراهم ليعمل لهم فطيرا بسمن وعسل، فبينما هم في أكله وإذا بالخليفة الأمر قد عبر من كرسي الجسر بمصر وجاز عليه وقد تفرق عنه الركابية ومن يصونه بسبب ضيق الجسر، فلما طلع من آخر الجسر يريد العبور إلى الجزيرة وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين، وواحد منهم صار خلفه على كفل الدابة وضربه عدة ضربات، فأدركهم الناس وقتلوهم، وكانوا تسعة، وحمل الأمر في عشاري إلى اللؤلؤة، وكانت أيام النيل، فمات من يومه، وحمل من اللؤلؤة وهو ميت إلى القصر.

وكان عمره يوم قتل أربعاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوماً، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوماً، ومازال محكوماً عليه حتى قتل الأفضل، فتزايد أمره عما كان عليه أيام الأفضل، فلما قبض على وزيره المأمون استبد بالأمور، وتصرف في سائر أحوال المملكة، وأكثر من الركوب، ورتب لركوبه ثلاثة أيام في كل اسبوع وهي: يوم الجمعة، ويوم السبت، ويوم الثلاثاء، فإذا لم يتهيا له الركوب في أحد هذه الأيام ركب في يوم غيره، فكان يمضي أبداً في يومي الثلاثاء والسبت إلى النزهة في بستان البعل، والتاج، والخمس وجوه، وقبة

الهواء، من ظاهر القاهرة، أو إلى دار الملك بمصر، أو بالهودج الذي أنشأه بجزيرة مصر التي يقال لها اليوم الروضة.

وكان يتحول في أيام النيل من القصر بخدمه ويسكن في اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة، وكان الناس يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعائشهم ويجلسون للنظر إليه، فيكون كيوم العيد، وصار الناس مدة أيامه التي استبد فيها في لهو وعيش رغد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه، لاسيما غلامه بزغش ورفيقه هزار الملوك جوامرد، حتى إنه لا يكاد يوجد في مصر والقاهرة من يشكو زمانه لبسطهم الرزق بين الناس وتوسعهم في العطاء ثم تنكد عيش الناس بقيام الراهب وكثرة مصادراته، وشره حيثئذ الأمر في أخذ أموال الناس، فقبحت سيرته، وكثر ظلمه واغتصابه لأملاك كثيرة من أملاك الناس، مع مافيه من التجرؤ على سفك الدماء وارتكاب المحذورات واستحسان القبائح.

وفي أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعازل والحصون بسواحل البلاد الشامية، فملك عكا في شعبان سنة سبع وتسعين، وعرة في رجب سنة اثنتين وخمسة، واستولوا على مدينة طرابلس الشام بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسة، وملكوا بانياس وجبيل بالأمان لثمان بقين من ذي الحجة منها، وملكوا قلعة تبين في سنة إحدى عشرة وخمسة، وتسلموا مدينة صور في سنة ثمان عشرة وخمسة.

وكرت المرافعات في أيامه، واستخدم عدة من الكتاب الظلمة الأشرار، وضمن أشياء لم تجر العادة بتضمينها، وأخذ رسوما لم تكن فيما تقدم.

وعمل دكة عليها خرقة في بركة الحبش، وعمر في بركة الحبش مكانا سماه تنيس وموضعا آخر سماه دمياط، وجدد قصر القرافة، وعمل تحته

دكة—مصطبة— للصوفية، فكان يجلس في أعلاه ويرقص أهل الطريقة قدامه، والشمع موقود والمجامر تعبق بالبخور، والأسمطة تمد بكل صنف لذيذ من الأطعمة والحلوى، وفرق في ليلة عند تواجد ابن الجوهري الواعظ وتمزيق رقعته على من حضر وعلى الفقراء ألف نصفية، ونشر عليهم من الطاق ألف دينار تخاطفوها.

وبنى الهودج لمحبوبته العالية البدوية في جزيرة الروضة، ولهذه البدوية وابن مياح، من بني عمها، مع الأمر أحاديث صارت كأحاديث البطال وشبهها قد ذكرتها عند جزيرة الروضة من هذا الكتاب.

وكان المنفق في مطابخه وأسمطته شيء كثير، فكان عدة ما يذبح له في كل شهر خمسة آلاف رأس من الضأن خاصة، سوى ما يذبح مما سوى ذلك، وثمان الرأس منها ثلاثة دنانير.

وكان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن، وخطه ضعيفا، وكانت نفسه تحدثه بالسفر إلى الشرق والغارة على بغداد، وأعد لذلك سروجاً مجوفة القراييص، وبطنها بصفائح من قصدير ليحمل فيها الماء، وعمل لها فما فيه صفارة فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منه الفارس، فكان في كل سرج منها سبعة أرطال من ماء، وعمل عدة من مخالي الخيل من الديباج، وقال في ذلك:

دع اللوم عني، لست مني بموثق
فلا تبدي من صدمة المتحقق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد التفرق

ومن شعره أيضا:
أما والذي حجت إلى ركن بيته
جراهم ركباً ان مقلدة شهباً

لأقتحم من الحرب حتى يقال لي
ملكتم زمام الحرب، فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم
فيرضى بنا صجبا ونرضى به صجبا

وكانت وزارة الأفضل ابن أمير الجيوش، وكان حاجرا عليه ليس له
معه أمر ولا نهي، ولا نفوذ كلمة إلى أن قتل، ثم وزر له المأمون محمد بن
فاتك البطائحي، فصار له في وزارته أمر ونهي، وعادت الأسمطة على
ما كانت عليه قديما، وكان الأفضل قد نقلها فصارت تعمل أيام الأعياد
والمواسم في دار الملك بمصر حيث كان يسكن، فلما قتل المأمون استبد
ولم يستوزر أحدا، ودانت له الدنيا.

قضاته: ابن ذكا النابلسي، ثم ولي نعمة بن بشير، فطلب الإقالة، فولى
بعده الرشيد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد الصقلي، ومات، فاستقر
بعده الجليس نعمة بن بشير النابلسي مرة ثانية، ثم صرف بأبي الفتح
مسلم بن الرسعني، وعزل بأبي الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، فلما
مات استقر من بعده أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني،
وقتل الأمر وهو قاض.

كتاب الإنشاء في أيامه: سناء الملك أبو محمد بن محمد الزيدي
الحسيني، والشيخ الأجل أبو الحسن بن أبي اسامة الحلبي، والشيخ تاج
الرئاسة أبو القاسم ابن الصيرفي، وابن أبي الدم اليهودي.

وكان نقش خاتمه «الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين».

وفي أيامه نزع السعر، فبلغ القمح كل أردب بدينار، وكان الناس قد
ألفوا الرخاء في أيام الأفضل والمأمون، وبعد عهدهم بالغلاء، فقلقوا
لذلك.

ومن نواذر الأمر أنه عاشر الخلفاء الفاطميين، وهو العاشر في النسب أيضا، ولم يل عشرة على نسق واحد ليس بينه أخ ولا عم ولا ابن عم غير الأمر.

وعرض عليه فصل في التوحيد من جملة: «وهو المحذر بقوارع التهديد، من يوم الوعد والوعيد» فقال: إذا حذر من الوعد كما يحذر من الوعيد، فما الفرق بينهما؟ وأمر أن يقال: «المحذر بقوارع التهديد ومن هول يوم الوعيد» واستدرك في فصل آخر في ذكر علي، رضي الله عنه، قوله: «وهو السابق إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجابته» فقال: إن قوله «السابق» غير مستقيم، لأنه إن أراد التخصيص فذلك غير صحيح، إذ كانت خديجة سبقت إلى الإسلام، والسابق منهم جائز أن يكون واحدا وأن يكون جماعة، والله تعالى يقول: «والسابقون السابقون (٩٧)» وليس في ذلك دليل على تخصيص واحد بالتقدم على الباقي، ثم ذكر مثالا فقال: خيل الحلبة إذا أقبلت منها عشرة لا يخرج فيها واحد عن واحد قيل لها «السبق» وقيل لكل واحد منها سابق، وأمر أن يقال: «أول سابق إلى دعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإجابته».

الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد

ولد بعسقلان في المحرم سنة سبع؛ وقيل سنة ثمان، وستين وأربعمائة لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده في أيام الشدة، فكان يقال له الأمير عبد المجيد العسقلاني، ابن عم مولانا.

ولما قتل النزارية الأمر كان كبار غلمانه العادل بزغش وهزار الملوك جوامرد، وينعت بالأفضل، فعمدا إلى الأمير أبي الميمون عبد المجيد، وكان أكبر الجماعة الأقارب سنا، وقالوا: إن الخليفة المنتقل قال قبل وفاته بأسبوع عن نفسه: «المسكين المقتول بالسكين، وأشار إلى أن الجهة الفلانية حامل منه، وأنه رأى رؤيا تدل أنها ستلد ولدا ذكرا وهو الخليفة من بعده وأن كفاله للأمير عبد المجيد أبي الميمون، فجلس المذكور كفيلا، ونعت بالحافظ لدين الله، في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسائة، يوم قتل الأمر بأحكام الله، وتقرر أن يكون هزار الملوك وزيرا، وأن يكون الأمير السعيد يانس متولي الباب أسفهلارا، وقرىء سجل في الإيوان بهذا التقرير والحافظ في الشباك جالس، تولى قراءته قاضي القضاة ابن ميسر على كرسي نصب له أمام الحافظ، بحضور أرباب الدولة.

وخلع على هزار الملوك خلع الوزارة، وقد اجتمع في «بين القصرين» خمسة آلاف فارس وراجل، وفيهم رضوان بن ولخشي، أحد الأمراء المميزين أرباب الشجاعة، وهو رأس الجمع، وفي داخل القاعة بالقصر أيضا جماعة فيهم بزغش وقد شق عليه تقدم هزار الملوك وتقلده الوزارة، فنظر إلى أبي علي أحمد بن الأفضل، الملقب كتيفات، وهو جالس، فقال: يامولاي الأجل، أنا أشح عليك أن تطيل الجلوس حتى يخرج هذا

الفاعل الصانع وزيرا فتخدمه ويسومك المشي في ركابه، اخرج إلى دارك، وإذا قضى الله مضيت منها لهناؤه.

وكان ظاهر هذا القول مكارمة أبي علي وباطنه أنه علم أن أكثر العسكر الواقفين بين القصرين لا يرغبون وزارة هزار الملوك، فدبر أنهم إذا وقعت أعينهم على أبي علي تعلقوا به وأقاموه وزيرا، فيفسد أمر هزار الملوك، فقام أبو علي ليخرج، فمنعه طنج أحد نواب الباب، وكان فطنا ذكيا، فقال له بزغش: لم تمنع هذا المولى من الخروج؟ فقال: كيف لأمنعه من الخروج إلى هذا الجمع، ولا يؤمن تعلق العسكارية فيقع له ماوقع للآخر، فنهره بزغش وقال له: دع عنك الفضول، وقام بنفسه وأخرجه إلى آخر دهايز القصر، فما هو إلا أن خرج من باب القصر ورآه رضوان بن ولخشي والجماعة، وقد علموا أن هزار الملوك قد خلع عليه للوزارة وأنه سيخرج إليهم، فتواثبوا إلى أبي علي وقالوا هو الوزير ابن الوزير ابن الوزير، وأراد أن ينفلت منهم، واعتذر أنه شرب دواء، فلم يقبل منه، وطلب له في الحال خيمة وبيت صدر، فضربت في جانب من بين القصرين، وأدخلوه فيها.

وقام الصائح وثار العسكر بموافقتهم على وزارته والرضا به، وصاحوا أن لاسبيل أن يلي علينا هذا الصانع الفاعل، وأعلنوا بشتمه، فغلقت أبواب القصر كلها واشتد الأمر، فأحضر ضرغام وأصحابه سلام وأقاموها إلى طاقات المنطرة، وأطلعوا عليها أميرا يقال له ابن شاهنشاه، فلما أشرف على طاق المنطرة جاء أستاذو الخليفة وأنكروا عليه فعله، فقال هذه فتنة تقوم مايسواها هذا الذي خلعتم عليه، ويحصل من ذلك على الخليفة من الغرامة وسوء أدب جهال العسكر مالايتلافى، وماهذا مني والله إلا نصيحة لمولانا، فإنني قد علمت من رأي القوم مالا علمتم، أخبروا مولانا عني بهذا.

فمضى الأستاذون إلى الحافظ وأبلغوه ما قال ابن شاهنشاه وهزار

الملك بين يديه بخلع الوزارة يسمع القول، فقال له الحافظ: هأنت تسمع ما يقال، فقال: يامولانا، أنا في محلك ووزارتي بوصية خليفة قبلك، فاتركني أخرج لهؤلاء الفعلة الصنعة، فقال: لاسبيل لفتح باب القصر في مثل هذا الوقت، وقد فعلنا في أمرك مارتب لك، وهذه الخلع عليك، ولكن قد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: لا رأي لمن لا يطاع.

واشتد الأمر وكثر تموير العسكر، فقبل لابن شاهشناه: قد أجبتهم إلى وزارة أبي علي ومانحن له كارهون، فأعاد ذلك على رضوان وأصحابه، فقالوا: قل له يسلم لنا هزار الملك، فامتنع من ذلك وقد تكاثر القوم على سور القصر وعزموا على طلب المذكور ولا بد، فقال الحافظ له: قم واحتجب في مكان عسى ندبر في قضيتك أمرا نصرف به هذا الجمع عنا وعنك.

فنزعت الخلع (التي) عليه وأحيط به، فصار إلى مكان قتل فيه قتلة مستورة وألقيت رأسه إلى القوم فسكنوا.

واستدعي بالخلع لأبي علي، فأفيضت عليه في يوم الأربعاء خامسه، وركب إلى دار الوزارة والجماعة مشاة في ركابه، فكانت وزارة هزار الملك نصف يوم بغير تصرف، وكان قد اصطفاه الأمر لنفسه هو وبزغش قبل موته بمدة، ورد له المظالم والنظر في أحوال الجند، وهو نوع من الوزارة، وكان ينعت بالأفضل.

ووقع النهب في القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة، ونهبت القيسارية وكان فيها أكثر ما يملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخزنهم ومذ بنيت لم يكن فيها أمر يكره، فكان هذا أول حادث حدث على القاهرة من النهب والطمع.

وطيف برأس هزار الملوك على رمح، واستقرت الوزارة لأبي علي أحمد ابن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وكان يلقب بكتيفات، في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة، فأول ما بدأ به أنه أحاط بالحافظ وسجنه في خزانة فيما بين الإيوان وباب العيد^(٩٩) ويقال إن رضوان بن ولخشي دخل إليه وقيده، فقال له الحافظ: أنت فحل الأمراء فنعت بذلك.

وتمكن أبو علي واستولى على جميع ما في القصر من الأموال والذخائر، وحمل الجميع إلى دار الوزارة بعد أن فرق أكثر ما كان الأمر جمعه من الغلال في الناس على سبيل الإنعام، وكان السعر غاليا، يباع القمح بنحو الدينار كل إردب، فأراد أبو علي أن يحسن سمعته، فأمر أن تفتح المخازن وأطلق أكثر ما كان فيها، وكانت مئین ألوف ارادب، ورد على الناس الأموال التي فضلت في بيت المال من مال المصادرة التي كان قد أخذها الأمر في أيام مباشرة الراهب وما كتبت به الخطوط قبل ذلك، وكان الذي وجد خمسين ألف دينار، فاستبشر الناس به، وفرحوا فرحا طاشت منه عقولهم، وضجوا بالدعاء له في سائر أعمال الديار المصرية، وأعلنوا بذكر معائب الأمر ومثالبه، وأقطع الحجرية البلاد، وظهر فرح الناس وابتهاجهم.

وأكرم بزغش العادل الذي أشار عليه بالخروج من القصر إكراما كثيرا، وكانت قد ضربت ألواح على عدة أملاك في أيام الأمر فأعيدت إلى أربابها.

وكان إماميا متشددا، فالتفت عليه الإمامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب الإمامي، وتزايد الأمر فيه إلى التأذين فانفعل بهم، وحسنوا له الدعوة للقائم المنتظر، ف ضرب الدراهم باسمه ونقش عليها: «الله الصمد الإمام محمد»، وخطب بنفسه في يوم الجمعة، وكان أكثر خلق الله تخلفا

وأقلهم علما، فغلط في الخطبة غلطة فاحشة صحفها فلم ينكر عليه أحد.

واشتد ضرره على أهل القصر من الإرعاد والإبراق، وأكثر من إزعاجهم والتفتيش على ولد الأمر وعلى يانس، صاحب الباب، وعلى صبيان الخاص الأمرية، وأراد أن يخلع الحافظ ويقتله بمن قتله الأمر من إخوته، وكان الأمر لما احتاط على موجود الأفضل بعد قتله بلغه عن أولاد الأفضل كلام في حقه يستقبح ذكره، فأقام عليهم الحجة عندما مثلوا بحضرته، وقال: أبوكم الأفضل غلامي ولا مال له، فسفه عليه أحدهم، فغضب وقتلهم، فأراد أبو علي بتفتيشه على الحمل الذي ذكر أنه من الأمر أن يظفر به ليقتله بإخوته، فلم يظهر الحمل، ولا قدر أيضا على قتل الحافظ ولاخلعه، فاعتقله كما تقدم، وخطب للقائم المنتظر تمويها، فنفرت قلوب أهل الدولة منه، وقامت نفوسهم منه، وتعصب قوم من الأجناد من خاص الخليفة، بترتيب يانس لهم، وتحالفوا سرا على قتله، وكانوا أربعين رجلا، وصاروا يرتقبون فرصة ينتهزونها.

فيها قبض على جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط وعلى أبي يعقوب ابراهيم السامري، ونهب الجند دورهما، وحبسا في حبس المعونة^(١٠١) ثم أخرجا ميتين.

سنة خمس وعشرين وخمسة

فيها رتب أبو علي بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة، فصار كل قاضي يحكم بمذهبه ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية سلطان بن ابراهيم بن المسلم بن رشا، وقاضي المالكية أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللبني المغربي، وقاضي الاسماعيلية أبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد القاضي فخر الأمناء الأنصاري الأوسي المعروف بابن الأزرق، وقاضي الإمامية

القاضي المفضل أبو القاسم بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد ابن أبي كامل، ولم يسمع بمثل هذا في الملة الإسلامية قبل ذلك.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

في يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم ركب أبو علي أحمد بن الأفضل إلى رأس الطابية ليعرق فرسا في الميدان بالبستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة، وللعب بالكرة على عادته، فجاء وهو هناك عشرة من صبيان الخاص الذين تحالفوا على قتله متى ظفروا به جميعا أو فرادى، فصاح أبو علي (على) عادة من يسابق بالخيول: راحت، فقال العشرة: عليك، وحملوا عليه وطعنوه حتى قتل، فأدركه أستاذ من أستاذه وألقى نفسه عليه فقتلوه معه.

واجتمع الأربعون عنانا واحدا وجاءوا إلى القصر وفيهم يانس، وكان مستوحشا من أبي علي، فأخرجوا الحافظ من الخزانة التي كان معتقلا بها، وفكوا عنه القيد وأجلسوه في الشباك على منصة الخلافة وقالوا، ماحركنا على هذا إلا الأمير يانس، فاجتمع الناس، وأخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه.

ونهب في هذا اليوم كثير من الأسواق والدور والخوانيت، وصار ذلك عادة مستقرة شيئا معهودا في كل فتنة.

وحملت رأس أبي علي إلى القصر، وكان قد أسقط منذ أقامه الجند ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الطائفة الاسماعيلية، وأزال من الأذان قولهم فيه: «حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر» وأسقط ذكر الحافظ من الخطبة، واخترع لنفسه دعاء يدعى به على المنابر وهو: «السيد الأجل الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، المحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين، الأقربين والأبعدين،

ناصر إمام الحق في حالي غيبته وحضوره، والقائم في نصرته، بهاضي سيفه وصائب رأيه وتديبره، أمين الله على عبادته، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين إلى واضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل أبي القاسم شاهنشاه أمير الجيوش».

وكانت مدة تحكمه سنة وشهرا وعشرة أيام، ثم حمل بعد قتله ودفن بترية أمير الجيوش^(١٠٢) ظاهر باب النصر.

وخلع على السعيد أبي الفتح يانس الأرمني، صاحب الباب، خلع الوزارة، وكان من غلمان الأفضل ابن أمير الجيوش العقلاء، وله هبة، وعنده تماسك في الأمور وحفظ للقوانين فهدأت الدهماء وصلحت الأحوال، واستقرت الخلافة للحافظ، وحمل جميع ما كان قد نقل إلى دار الوزارة من الأموال والآلات وأعيد إلى القصر.

ولم يحدث يانس شيئا إلا أنه تخوف من صبيان الخاص، وحدثته نفسه أنهم قد جسروا على الملوك، وأنه ربما غضبوا منه ففعلوا به ما فعلوا بغيره، وأحسوا منه بذلك ففارقوا عنه.

فلما تأكدت الوحشة بينهم وبينه ركب في خاصته وغلمانه وأركب العسكر، والتقوا قبالة باب التبانين^(١٠٣) بين القصرين، فقتل منهم ما يزيد عن ثلاثمائة فارس من أعيانهم، فيهم قتلة أبي علي أحمد بن الأفضل، وكانوا نحو خمسمائة فارس، فكسر شوكتهم وأضعفهم، فلم يبق منهم من يؤبه له ولا يعتد به، فقوي أمر يانس وعظم شأنه.

وكانت له في النفوس مكانة، فثقل على الحافظ وتخيل منه، فأحس بذلك، وصار كل منهما يدبر على الآخر، فبدأ الوزير يانس بحاشية الخليفة، فقبض على قاضي القضاة وداعي الدعاة أبي الفخر صالح بن

عبد الله بن رجاء، وأبي الفتوح بن قادوس فقتلها، وبلغه شيء يكرهه عن أستاذ من خاص الخليفة، فقبض عليه من غير مشاورة الحافظ، واعتقله بخزانة البنود، وضرب عنقه من ليلته، فاستبدت الوحشة بينه وبين الحافظ، وخشي من زيادة معناه، فقال لطيبه: إكفني أمره بمأكل أو مشرب، فأبى الطبيب ذلك خوفا من سوء العاقبة، ويقال إن الحافظ توصل إلى أن سم يانس في ماء المستراح، فانفتح دبره واتسع حتى مابقي يقدر على الجلوس، فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين، قد أمكنت الفرصة وبلغت مقصودك، فلو أن مولانا عاده في هذه المرضبة اكتسب حسن الأحدث، وهذا المرض ليس دواؤه إلا السكون ولا شيء أضر عليه من الحركة والانزعاج، وهو لما يسمع بقصد مولانا تحرك واهتم بلقائه وانزعج، وفي ذلك تلاف نفسه، فقبل ذلك وجاء لعيادته، فلما راه يانس قام للقاءه وخرج عن فراشه، فأطال الحافظ جلوسه عنده ومحادثته، فلم يقم حتى سقطت أمعاؤه، ومات من ليلته، في سادس عشرين ذي الحجة.

وكانت وزارته تسعة أشهر وأياما، وترك ولدين كفلهما الحافظ.

وكان يانس هذا قد أهده (ابن) باديس جد عباس الوزير—الآتي ذكره إن شاء الله تعالى— إلى الأفضل ابن أمير الجيوش فترقى في الخدم إلى أن تأمر وتقدم وولي الباب، وهي أعظم رتب الأمراء، وكنى بأبي الفتح ولقب بالسعيد، ثم نعت في وزارته بناصر الجيوش سيف الاسلام، وكان عظيم الهمة بعيد الغور، كثير الشر، شديد الهيبة.

وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله، وبويع له بيعة ثانية لما علم الحمل.

قال الشريف محمد بن أسعد الجواني: رأيت صغيرا في القرافة

الكبرى، ويسمى بقفيفة، سألت عنه، قيل هذا ولد الأمر: لما ولى الحافظ ولى عهده من يولد، استولى على الأمر، وولد هذا الولد فكتم حاله، وأخرج في قفة على وجهها سلق وكرات، وستر أمره إلى أن ركب بعد ذلك ووشي به فأخذ وقتل.

ولما تمكن الحافظ قرىء سجل بإمامته، وركب من باب العيد إلى باب الذهب بزي الخلفاء، في ثالث ربيع الأول، ورفع عن الناس بواقى مكس الغلة.

وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذا الدعاء، وهو: «اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأعززت الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا، وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين».

وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر عن قضاء القضاة، في أول ربيع الأول، وقرر مكانه سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر، وأضيفت إليه الدعوة، فقبل له قاضي القضاة وداعي الدعاة، وذلك وقت العشاء الآخرة من ليلة الخميس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة.

ولما مات يانس تولى الحافظ الأمر بنفسه ولم يستوزر أحدا وأحسن السيرة.

ويقال إن يانس لما قتل القاضي أبا الفخر سلم الحكم إلى سراج الدين أبي الثريا نجم بن جعفر.

وفيها جهز الحافظ الأمير المنتضى أبا الفوارس وثاب بن مسافر

الغنوي رسولا في الرابع من ذي القعدة بجواب شمس الملوك، صاحب دمشق، وأصبحه الخلع السنية وأسفاط الثياب والخيل المسومة، ومالا متوفرا، فوصل إلى دمشق وتلقي أحسن تلقي وقبلة الألفاف منه، وقرىء كتابه، وأقام إلى أن أعيد من القابلة.

وفىها خرج أبو عبد الله الحسين بن نزار بن المستنصر، وكان قد توجه إلى المغرب مستخفيا وجمع هناك جموعا كثيرة وعاد، فبعث الحافظ إلى مقدمي عسكره يستميلهم، فلما وصل دير الزجاج والحمام اغتالوه وقتلوه، فانفض جمعه.

سنة سبع وعشرين وخمسة

ففىها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية، فخرج إليهم عسكر كانت بينهم وبينه حروب.

وفىها سلم الحافظ أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة علي بن جعفر بن غسان، المعروف بابن العساف، وصرف يوحنا بن أبي الليث لأشياء نغمها عليه، وسعوا فيه عنده بأنه كان سببا فىما عمله أبو علي أحمد بن الأفضل من تفريق مافرقه من الأموال لأهله وأقاربه، واستخدم الحافظ أيضا أخا معتمد الدولة فى نقابه الأشراف وجعله جليسا، وكان عنده أدب ومعرفة بعلم الفلك، وكان الحافظ يحب هذا العلم.

وفىها قبض على ابن عبد الكريم، تربية الأمر، فوجد له ثلاثمائة وستون منديلا مذهبة، وعلى مثالها ثلاثمائة وستون بذلة مذهب، فكان يلبس كل يوم بذلة، وكل منديل، وهى العمامة، على مسمار فضة، ووجد له خمسمائة نرجسية ذهبيا وفضة، ومائتا صندوق فىها ثياب ملونات، ومائة حسكة ذهبيا وفضة، ومن الجواهر ما يعجز عن وصفه.

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

فيها عهد الحافظ إلى ولده سليمان، وكان أسن أولاده وأحبهم إليه، وأقامه ليسد مكان الوزير ويستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقتهم إياه في أوامره ونواهيه، فمات بعد ولاية العهد بشهرين، فحزن عليه مدة، ثم جعل ابنه حيدرة ولي عهده ونصبه للنظر في المظالم، فشق ذلك على أخيه حسن لأنه كان يروم ذلك لكثرة أمواله وتلاده وحواشيه ومركبه، بحيث كان له ديوان مفرد، وما زالت عقارب العداوة تدب بينها حتى وقعت الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية^(١٠٤) وكانت شوكة الريحانية قوية والجند يشنونهم خوفا منهم فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، وصاح الجند: يا حسن يا منصور، يا للحسنية.

والتقى العسكران، فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف راجل، فكانت أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها، ولم يسلم من الريحانية إلا من ألقى نفسه في بحر النيل من ناحية المقس، واستظهر حسن وصار الأمر إليه، فانضم له أوباش العسكر وزغارهم، وفرق فيهم الزرد وسماهم صبيان الزرد، وصاروا لا يفارقونه ويحفون به إذا ركب، ويلازمون داره إذا نزل.

فقامت قيامة الناس، وقبض على ابن العساف وقتله واختفى منه الحافظ وحيدرة، وجد في طلب حيدرة، وهتك بالأوباش الذين اختارهم حرمة القصر، وخرق ناموسه من كونه نغص على أبيه وأخيه، وصاروا يحسنون له كل رذيلة ويجروه على أذى الناس.

فأخذ الحافظ في تلافي الأمر مع حسن لينصلح، وعهد إليه بالخلافة في يوم الخميس لأربع بقين من شهر رمضان، وأركبه بالشعار، ونعت بولي

عهد المؤمنين وكتب له بذلك سجلا قرىء على المنابر، فكان يقال على المنابر: «اللهم شيد ببقاء ولي عهد المؤمنين أركان خلافته، وذلل سيوف الاقتدار في نصره وكفايته، وأعنه على مصالح بلاده ورعيته، واجمع شمله به وبكافة السادة إخوته، الذين أطلعتهم في سماء مملكته بدورا لا يغيرها المحاق، وقمعت ببأسهم كل مرتد من أهل الشقاق والنفاق، وشددت بهم أزر الإمامة، وجعلت الخلافة فيهم إلى يوم القيامة».

فلم يزد ذلك إلا شرا وتعديا، فضيق على أبيه وبالع في مضرته، فسير الحافظ وفي الدولة إسحاق، أحد الأستاذين المحنكين، إلى الصعيد ليجمع ما قدر عليه من الريحانية فمضى واستصرخ على حسن، وجمع من الأمم ما لا يعلمه إلا الله، وسار بهم، فبلغ ذلك حسنا، فجهز إليه عسكريا عرمرما وخرج، فالتقى الجمعان، وهبت ريح سوداء في وجوه الواصلين، وركبهم عسكري حسن، فلم يفلت منهم إلا القليل، وغرق أكثرهم في البحر وقتلوا، وأخذ الأستاذ إسحاق وأدخل إلى القاهرة على جمل برأسه طرطور لبد أحمر، فلما وصل بين القصرين رشق بالنشاب، حتى مات، ورمي إليهم من القصر الغربي أستاذ آخر فقتلوه، وقتل الأمير شرف الأمراء.

فلما اشتد الأمر على الحافظ عمل حيلة وكتب ورقة ورمها إلى ولده حسن، فيها: «يا ولدي أنت على كل حال ولدي، ولو عمل كل منا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه، ولا يحملني قلبي، وقد انتهى الأمر إلي أن أمراء الدولة فلانا وفلانا — وسماهم له — وأنت قد شددت وطأتك عليهم وخافوك، وأنهم معولون على الفتك بك، فخذ حذرك يا ولدي».

فلما وقف حسن على الورقة قامت قيامته، فلما اجتمع أولئك الأمراء في داره للسلام عليه أمر صبيان الزرد الذين اختارهم وصار يثق بهم

فقتلوهم بأجمعهم، وأخذ ما في دورهم، فاشتدت مصيبة الدولة بفقد من قتل من الأمراء الذين كانوا أركان الدولة، وهم أصحاب الرأي والمعرفة، فوهت واختلت لقلة الرجال وعدم الكفاة.

ومن حين قتل حسن الأمراء تخوفه باقي الجند، ونفرت نفوسهم منه فإنه كان جريئاً عنيفاً بحاثاً عن الناس يريد إقلاب الدولة وتغييرها لتقدم أصحابه، وأكثر من مضادة الناس، وقتل سراج الدين أبا الثريا نجماً في يوم الخميس ثامن شوال، وكان أبو الثريا في أول أمره خاملاً في الناس، ثم سمع قوله في العدالة أيام الأمر، فلما قبض أحمد بن الأفضل على أبي الفخر وسجنه عنده بدار الوزارة، لأنه كان الداعي أيام الأمر، طلب من يكون داعياً، فاستخدم نجماً هذا ولم يقف على ما كان عنده من الدهاء، فلما كان في وزارة يانس جمع إليه الحكم مع الدعوة، وصار يدبر الدولة، وحسن عنده نصرة طائفة الاسماعيلية والانتقام ممن كان يؤذيهم وجعل لهم زمماً قتله حسن بن الحافظ لما قتل الشريف بن العباس، وأخذ نجم يعادي أمراء الدولة ورؤساءها ولا ينظر في عاقبة — وكانوا قد حسدوه على قربه من الحافظ وتمكنه منه ومطاوعته له بحيث لا يعمل شيئاً إلا برأيه — فلما تمكن حسن بن الحافظ أغروه به فقتله وقتل معه جماعة، ورد القضاء لابن ميسر وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

وفيها مات القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد بن حمدون الكناني قاضي الاسكندرية بشعر رشيد، وقد عاد من القاهرة في جمادى الآخرة، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وكانت له مدة في القضاء، وهو الذي كان سبياً في اعتقال أبي الصلت أمية الأندلسي، وقد ذكره السلفي^(١٠٥) وأثنى عليه، ورثي بعدة قصائد.

وفيها مات أبو عبد الله الحسين بن أبي الفضل بن الحسين الزاهد

الناطق بالحكم، المعروف بابن بشرى الجوهري، الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ، في جمادى الأولى، وكان حلو الوعظ، إلا أنه تعرض في آخر عمره لما لا يعنيه، فنفاه الحافظ إلى دمياط، وذلك أن الأمر لما مات ترك جارية حاملا، فقام الحافظ بعده في الخلافة على أن يكون كفيلًا للحمل حتى يكبر، فاتفق أنه ولد وخافت أمه عليه من الحافظ، فجعلته في قفة من خوص وجعلت فوقه بصلا وكرثا وجزرا حتى لا يفتن به، وبعثته في قباطة تحت الحوائج في القفة إلى القرافة، وأدخل به إلى مسجد أبي تراب الصواف، وأرضعته المرضعة، وخفي أمره عن الحافظ حتى كبر، وكان يعرف بين الصبيان بقفيفة، فلما حان نفعه نم عليه ابن الجوهري هذا إلى الحافظ، فأخذ الصبي وفصده، فمات، وخلع على ابن الجوهري ثم نفاه إلى دمياط فمات بها.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها عظم أمر حسن بن الحافظ وقويت شوكته، وتأكدت العداوة بينه وبين من بقي من الأمراء والأجناد واشتد خوفهم منه، وعزموا على خلع الحافظ من الخلافة وخلع ابنه حسن من ولاية العهد، وعزله عن الأمر، فاجتمعوا بين القصرين، وهم نحو العشرة آلاف مابين فارس وراجل، وبعثوا إلى الحافظ فشكوا ما فيه ابنه حسن وأرادوا إزالته عنهم، فعجز حسن عن مقاومتهم ولم يبق بدا من الفرار منهم إلى أبيه، فصار إليه، وكان قد نزل بالقصر الغربي، ففتح سردابا بين القصرين ووصل إلى أبيه بالقصر الشرقي من تحت الأرض، وتحصن بالقصر، فبادر الحافظ بالقبض عليه وقيده، وأرسل إلى الأمراء يخبرهم بالقبض على حسن، فأجمعوا على طلبه ليقتلوه، فبعث إليهم يقبح مرادهم منه أن يقتل ولده، وأنه قد أزال عنهم أمره، وضمن لهم أنه لا يتصرف أبدا، ووعدهم بالزيادة في الأرزاق والاقطاعات، فلم يقبلوا ذلك، وقالوا: إما نحن وإما هو، وأحضروا الأحطاب والنيران لإحراق القصر، وبالغوا في الجرأة على الحافظ، فلم يجد

من ينتصر به عليهم لأنهم أنصاره وجنده الذين يستطيعون بهم على غيرهم، فألجأته الضرورة إلى أن استمهلهم ثلاثة أيام ليتروى فيما يعمل.

فرأى أنه لا ينفك من هذه النازلة العظيمة إلا بقتل ابنه لتنحسم مادة المباينة بينه وبين العسكر التي لا يأمن إن استمرت أن تأتي على نفسه هو، فإنهم لم يبرحوا من بين القصرين، فاستدعى طبيبه: أبا منصور وابن قرقة، فبدأ بأبي منصور اليهودي وفاوضه في عمل سقية قاتلة فتخرج من ذلك وأنكر معرفته كل الإنكار، وحلف برأس الخليفة وعلى التوراة أنه لم يقف قط على شيء من هذا، فتركه وأحضر ابن قرقة، وكان يلي الاستعمالات بدار الديباج، وخزائن السلاح والسروج، وفاوضه في ذلك، فقال: الساعة، ولا يتقطع منها الجسد بل تفيض النفس لا غير، فأحضرها من يومه، وألزم الحافظ ابنه حسنا بمن ندبه من الصقالبة، فأكرهوه على شربها، فمات في يوم الثلاثاء عشرين جمادى الآخرة.

وقيل للقوم سرا: قد كان ما أردتم فامضوا إلى دوركم، فلم يثقوا بذلك، وقالوا لا بد أن يشاهده منا من نثق به، وندبوا منهم أميرا يعرف بالجرأة والشر يقال له المعظم جلال الدولة محمد، ويعرف بجلب راغب الأمري، فدخل إلى حيث حسن بن الحافظ فإذا هو مسجى بشوب ملاءة، فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكيناً وغرزه في عدة مواضع من بدنه حتى تيقن أنه ميت، وانصرف إلى أصحابه ففترقوا^(١٠٦).

وكان تاج الدولة بهرام الأرمني قد انفلت من حسن بن الحافظ وولي الغربية، فلما علم أن النفوس جميعها من البدو والحضر قد انحرفت عن حسن، جمع مقطعي الغربية والأرمن والعربان وطلب القاهرة، ويقال كان ذلك بمباطنة من الحافظ، فما وصل إلى القاهرة حتى عابت حشوده في القرى والضياع ونهبوها.

وعندما وصل إلى القاهرة، يوم الخميس وقت العصر، الحادي عشر من جمادى الآخرة التف عليه من بها من الأمراء والأجناد وأبادوا أكثر الجيوشية والاسكندرانية والفرجية ومن يقول بقولهم من الغز الغرباء، ونهب أبواش الناس ماقدروا عليه.

ولما قتل حسن وسكنت الدهماء قبض الحافظ على الطبيب ابن قرقة وقتله بخزانة البنود، وارتجع جميع أملاكه وموجوده، وكان يلي الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح والسروج، وأنعم على أبي منصور الطبيب وجعله رئيسا على اليهود وصارت له نعم جليلة.

وفيها كانت وزارة بهرام الأرمني النصراني الملقب تاج الدولة، وكان السبب في ولايته الوزارة أنه جرت فتنة بين الأجناد والسودان عندما قتل حسن بن الحافظ قوى فيها السودان على الأجناد وأخرجوهم من القاهرة، فإن السودان كانوا مع حسن دون الأجناد، فإنهم الذين حملوا أباه الحافظ على قتله، وقدم بهرام بالحشد كما تقدم، فوجد حسنا قد مات، فمسكه الأجناد بظاهر القاهرة وأدخلوه على الحافظ لدين الله في يوم الخميس، بعد العصر، الحادي عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة، فخلع عليه في يوم الأحد، رابع عشرة، ثم خلع عليه ثانيا يوم الخميس ثامن عشرة، خلع الوزارة، ونعت بسيف الاسلام تاج الخلافة، وهو نصراني، مع كراهة الحافظ لذلك، لتسكن الفتنة، ولم يرد إليه شيئا من الأمور الشرعية، فلم يدخل في مشكل لأنه كان عاقلا سيوسا حسن التدبير.

وتقدم كثير من حواشي الحافظ إليه ينكرون عليه ولاية بهرام مع كونه نصرانيا، وقالوا: لا يرضى المسلمون بهذا، ومن شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزررة الحاجزة بينه وبين الناس، والقضاة نواب الوزير من زمن أمير الجيوش، ويذكرون دائما النيابة عنه في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة فقال: إذا رضينا

نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف، وأما صعود المنبر فيستنيب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك ويفعل فيها ما كان يفعل قبل أمير الجيوش.

فشق على الناس وزارته، وتطاول النصارى في أيامه على المسلمين، وكان هو قد أحسن السيرة وساس الرعية، وأدى الطاعة للخليفة، وأنفق في الجند جملة من الأموال، ودبر الأمور فاستقامت له الأحوال، وراسله الملوك، وزال ما كان في البلد من الفتن، فلم ينكر عليه سوى أنه نصراني.

وكان يقعد يوم الجمعة عن الصلاة فلا يحضر، بل يعدل إلى مكان بمفرده حتى يصلي الخليفة بالناس، وأقبل الأرمن يردون إلى القاهرة ومصر من كل جهة حتى صار بها منهم عالم عظيم، ووصل إليه ابن أخيه، وكان يعرف بالسبع الأحمر، فكثر القيل والقال، وأطلق أسيرا من الفرنج كان من أكابرهم، فأنكر الناس ذلك ورفعوا فيه النصائح للحافظ، وأكثروا من الإنكار.

وكان رضوان بن ولخشي حينئذ صاحب الباب، وهو شجاع كاتب، فبلغ بهرام أنه يهزأ به في قوله وفعله، فثقل عليه وأخذ يعمل على إخراجه من القاهرة، وولى أخاه الباساك قوص^(١٠٧).

وفيهما توفي الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الجذامي الاسكندراني المعروف بالحداد^(١٠٨) بمصر.

سنة ثلاثين وخمسة

فيها أخرج بهرام الأمير رضوان بن ولخشي من القاهرة لولاية عسقلان، وقيل بل كان خروجه في سلخ رجب من السنة الماضية، فلما وصل إليها وجد فيها جماعة من الأرمن قد وصلوا في البحر يريدون القاهرة،

فناكدهم ومنع كثيرا منهم، فبلغ ذلك الوزير بهرام، فشق عليه، وصرفه عن عسقلان، واستدعاه، فقدم إلى القاهرة، وشكره الناس على منعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة، فلم يطق بهرام إقامته معه، فولاه الغربية في صفر إبعادا له عنه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية جربة^(١٠٩)، ونازل طرابلس الغرب فانهزم عنها^(١١٠).

سنة إحدى وثلاثين وخمسة

فيها تكاثر حضور أقارب بهرام وإخوته، وأهله وقومه، ومجيئهم من ناحية تل باشر وكانوا مقيمين بها، ولهم فيها كبير منهم يتولى أمرهم، وقدموا أيضا من بلاد الأرمن، حتى صار منهم بديار مصر نحو الثلاثين ألف إنسان، فعظم ضررهم بالمسلمين وكثرت استطالتهم، واشتد جورهم، وتظاهروا بدين النصرانية، وأكثروا من بناء الكنائس والديارات، وصار كل رئيس منهم يبني له كنيسة بجوار داره.

وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يغيروا الملة الإسلامية، ويغلبوا على البلاد فيردوها دار كفر، فتتابعوا في الشكاية من أهل بهرام وأقاربه.

ووردت الأخبار من قوص بأن الباساك، أخا بهرام قد جار على الناس واستباح أموالهم، وبالغ في أذيتهم وظلمهم، فاشتد ذلك على الناس، وعظم على الأمراء مائزل بالمسلمين، فبعثوا إلى أبي الفتح رضوان بن ولخشي — وكان مقدما (يعرف) فيهم لكثرة نعوته بفحل الأمراء، وهو يومئذ يتولى الغربية — يشكون إليه ما حل بالمسلمين ويستحثونه على المصير وإنقاذهم مما نزل بهم.

فلما وصلت إليه كتب الأمراء تشمر لطلب الوزارة، ورقى المنبر خطيبا

بنفسه فخطب خطبة بليغة حرض فيها الناس على الجهاد في سبيل الله، والاجتماع لقتال بهرام وشيعته النصارى من الأرمن، وكان حينئذ بمدينة سخا^(١١١) ثم نزل وحشد الناس من العربان وغيرهم حتى استجاب له نحو من ثلاثين ألفاً، فأخرج لهم كتب الخليفة الحافظ إليه بالتقدم بالمسير ونزع الوزارة من يد بهرام إذ تبين أنه ليس من أهل الملة، وسار بهم إلى دجوة^(١١٢)، وبهرام لا ينزعج.

فلما قرب رضوان جمع بهرام الأرمن إليه وقال لهم: اعلموا أننا قوم غرباء لم نزل نخدم هذه الدولة، والآن فقد كثر بغضهم لأيماننا، وما كنت بالذي أكون عبد قوم وأخدمهم من حال الصبا، فلما بلغني الكبر أقاتلهم، لا ضربت في وجوههم بسيف أبداً، سيروا وأخذ امراء الدولة وعساكرها يخرجون شيئاً بعد شيء إلى رضوان.

واجتمع بهرام بالخليفة وفاوضه في أمره، فقال: تغلبني الاسلام عليك فأيس حينئذ، وجمع الأرمن، وكانوا كلهم منقادين إليه لا يخالفونه في شيء من الأشياء، وسار بهم نحو بلاد الصعيد يريد أخاه الباساك بقوص، قاصداً أنه يجتمع به ويمضون إلى أسوان فيتملكونها ويتقوون بالنوبة أهل دينهم، وقد ذكر أن بهرام خرج يريد محاربة رضوان في عساكر مصر.

فلما وصل بعسكر القاهرة إلى رضوان رأوا المصاحف قد رفعها رضوان فوق الرماح، فصاروا بأجمعهم إلى رضوان باتفاق كان بينهم وبينه من قبل ذلك، فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ ماخف حمله، وخرج من باب البرقية^(١١٣) يوم الأربعاء، وقت العصر، حادى عشر جمادى الأولى، وسار يريد الصعيد وقد أوسق المراكب بما يحتاج إليه فعندما رحل اقتحم رعاك الناس وأوباشهم إلى دار الوزارة فنهبوها وهتكوا حرمتها، وعملوا كل مكروه، فكان هذا أول نهب وقع في دار الوزارة، وامتدت الأيدي إلى دور الأرمن التي كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح^(١١٤)، فنهبوها، ونهبوا كنيسة الزهري^(١١٥) ونبشوا قبر البطرك، أخي بهرام.

وطار خبر انهزام بهرام في سائر إقليم مصر، فوصل الخبر بذلك إلى قوص قبل وصول بهرام، فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه ومثلوا به، وجعلوا في رجله كلبا ميتا، وألقوه على مزبلة، فلما كان بعد قتله بيومين قدم بهرام في طائفة الأرمن، وهم نحو الألفي فارس، رماة، فرأى أخاه على المزبلة كما ذكر، فقتل جماعة من أهل قوص ونهبها، وسار عنها إلى اسوان، فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة في غربي أخميم، ففرق عنه عدة من الأرمن وساروا يريدون بلادهم.

وأما رضوان فإنه لما وصل إلى القاهرة وقف بين القصرين، واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله في دار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى، ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل، فاستدعى بالأموال من الخليفة، وأنفق في الجند، ومهد الأمر، ورضوان أول وزير لقب بالملك.

فلما كان في اليوم الثالث من استقراره في الوزارة سير أخاه الأوحى إبراهيم ومعه العسكر شرقا وغربا، والأسطول بحرا، في طلب بهرام، وبيده أمان له ليعود مكرما وطائفته على إقطاعاتهم، فسار إلى الأديرة، وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها، وذلك أن أسوان امتنعت عليه بكنز الدولة وأهلها، فاضطر إلى الإقامة بالأديرة وقد فارقه أكثر الأرمن، فمنهم من سار إلى بلاده ومنهم من أقام بأرض مصر ليكونوا فلاحين، فسأل لهم مواضع يسكنونها فأفردت لهم جهات، منها سملوط^(١١٦) وإبوان^(١١٧) وأقلوسنا^(١١٨) والبرجين^(١١٩) في صعيد مصر، وضيعة أخرى بأعمال المحلة، وأقام بهرام بالأديرة البيض ومعه أهله وولده.

وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن ميسر عن قضاء القضاة في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم، والوزير إذ ذاك بهرام، ونفي إلى تنيس،

فأقام بها إلى يوم الاثنين ثاني ربيع الأول، وقتل، وهو من قيسارية، وقدم منها مع ابنه وهو صغير في وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي عند حضوره إلى المستنصر في سني الشدة، وبعثه إلى البلاد الشامية لإحضار أرباب الأموال واليسار، وكان من جملة من أحضر والد القاضي، وكان له مال جزيل، ففوض إليه خطابة الجامع بمصر، وفتح دار وكالة وأقام بها مدة حتى مات، فترقى ولده إلى أن ولي القضاء عدة مرار، وكان له أفضال ومكارم، وحصلت له وجاهة ورتبة جلية، وضرب دنانير كثيرة كان اقترحها على الخليفة الأمر^(١٢٠) وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى، فإنه بلغه أن أبا بكر محمد بن علي المادرائي عمل الكعك الذي قال له «افطن له» وعمل عوضا من حشو السكر دنانير، فلما مد السماط في يوم العيد قال أحد الخدام لصديق له كان على السماط: افطن له، ففهم عنه وتناول من ذلك، وصار يخرج الذهب من فمه ويخفيه حتى تنبه الناس لذلك، فتناولوا بأجمعهم منه، فأراد القاضي ابن ميسر أن يشبه بأبي بكر المادرائي في ذلك، فعمل صحنا منه لكن جعل فستقا قد لبس حلوى وذلك الفستق من ذهب، وأباحه أهل مجلسه، ولم يقدر على عمل ذلك سوى مرة واحدة.

ثم إنه لما تناهت مدته عاداه رجل يعرف بابن الزعفراني، فتم عليه عند الحافظ بأن أحمد بن الأفضل لما كان قد اعتقل الحافظ وجلس للهناء ودخل عليه الشعراء كان فيهم علي بن عباد الإسكندري، وأنه أنشد قصيدة يذم فيه خلفاء مصر ويذكر سوء اعتقادهم، منها في ذم الحافظ:

هذا سليمانكم قد رد خاتمه
واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فعندما قال هذا البيت قام ابن ميسر وألقى عرضيته طربا بهذا البيت،

فأمر الحافظ بإحضار هذا الشاعر، وقال: أنشدني قصيدتك: فأنشدها إلى أن بلغ فيها إلى قوله:

«ولا ترضو عن الخمس المناحيس» يعني الحافظ وابنيه وأباه وجده، فأمر الغلمان بلكمه، فلكموه حتى مات بين يديه، وقبض على ابن ميسر ونفي ثم قتل، وكان ينعت بجلال الملك، وكانت علامته «الحمد لله على نعمه». وفيها مات أبو البركات بن بشرى الواعظ المعروف بابن الجوهري في جمادى الأولى عن إحدى وتسعين سنة.

وفيها ولي قضاء القضاة أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل، ونعت بقاضي القضاة الأعز أبي المكارم.

وفيها ثار بناحية برقة رجل من بني سليم وادعى النبوة، فاستجاب له خلق كثير، وأملى عليهم قرآنا منه: إنما الناس بالناس، ولولا الناس لم يكن الناس، والجميع رب الناس، ثم تلاشى أمره وانحل عنه الناس.

وفيها جلس الوزير رضوان في ذي القعدة لاستخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصاري، واستجد ديوان الجهاد^(١٢١) واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عسقلان بالعدد والآلات، وأشاع الخروج إلى الشام لغزو الفرنج، وأظهر من الاعتناء بذلك ما لا يوصف، وكان قد مهد الأمور، وأعاد الناس إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة بحسن سيرته، وكثرة عدله وعمارته البلاد، وقوة نفسه وشجاعته، وأحضر الدواوين وكتبها ورتبها، ودبر الأمور احسن تدبير.

وكان من جملة الضمان في أموال الدولة هبة الله بن عبد المحسن الشاعر، فلما عرض حسابه وجد قد انكسر عليه مال في ضمانه، فكتب له في المجلس:

أناشأ عروصنعتي الأدب
وضمان مثلي المال لا يجب
أنا مستمىحكم وليس على
من جاء يطلب رفقكم طلب
وإذا تأخر الباقي علي فما
من حاصل ورق ولا ذهب

فسامحه فيما عليه من الباقي.

وفيهما أحضر من الصعيد الأعلى في رمضان جماعة تقدمهم رجل
بجاوي يدعى فيه أصحابه أنه إله فصلبوا.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسة

فيها أفرج الوزير رضوان عن شمس الخلافة مختار الأفضلي، صاحب
باب بهرام، من الاعتقال وولاه الاسكندرية.

فيها تشدد رضوان على النصارى من أصحاب بهرام وصادرهم،
وقتلهم بالسيف، وأباد أكثرهم وتطلع إلى تقديم أرباب المعارف من
أرباب السيوف والأقلام، وأحسن إليهم، وزاد في أرزاقهم.

ووجد نصرانيا قد توصل في أيام بهرام إلى ديوان النظر، يعرف بالأخرم،
وبذل في كل يوم ألف دينار سوى المؤن والغرامات، فأذى المسلمين
وشق عليهم، فصرفه رضوان واستخدم بدله رجلا يقال له المرتضى
المحنك بغير ضمان.

وتقدم إلى ديوان الإنشاء بإنشاء سجل في الوضع من النصارى
واليهود، فأنشأه أبو القاسم ابن الصيرفي، منعوا فيه من إرخاء الذوائب
وركوب البغلات ولبس الطيالة، وأمر النصارى بشد الزناير المخالفة

لألوان ثيابهم، وألا يجوزوا على معابد المسلمين ركباناً، فما رئي في أيامه يهودي ولا نصراني يجوز على الجامع راكباً، لكنه ينزل ويقود دابته، وأمر أن تؤخذ الجزية من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها، ومنعهم من التكني بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر، وأن يبيضوا قبورهم وضمن ذلك كله السجل، فعمل به.

وفيها نزع السعر لتوقف النيل، فقال الناس مجاعة، فأمر الحافظ بفتح الأهراء، والبيع منها على الناس بأوسط الأثمان، فلم يمض الوزير بذلك، وأخذ يهين حواشي الخليفة إذا حضروا إليه ويقدح في مذهبه، لأنه كان سنياً، وكان أخوه الأوحى إبراهيم إمامياً.

فلما كثر ذلك منه انزعج الخليفة ولم يظهر تغيراً ويعمل في الخلاص منه، فتنافر كل منهما من الآخر.

وكان رضوان خفيفاً طائشاً لا يثبت، فهم بخلع الحافظ وقال ماهو بخليفة ولا إمام، وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح، وأحضر الفقيه أبا الطاهر بن عوف، وابن أبي كامل فقيه الإمامية، وابن سلامة داعي الدعاة، وفاوضهم في الخلع واستخلاف شخص عينه لهم، وألزم كلا منهم أن يقول ما عنده فقال ابن عوف: الخلع لا يجوز إلا بشروط تثبت شرعاً، وقال ابن أبي كامل: السلطان، أبقاه الله، يحملني على أن أتكلم على غير مذهبي في الإمامة، قال: لا بل عمل مذهبك؟ فقال: مذهبي معلوم، يعني أن الإمامية لا يعتقدون حق الخلافة في بني إسرائيل ابن جعفر، لموته في حياة أبيه وانتقال الإمامة للحاضر من إخوته، ولأنه لا ينبغي لمن لم تكن له إمامة أن يخلع، فخلص من هذا وقال الداعي: أنا داعي القوم ومولى لهم، وما يصح لي خلعه، فإني أصير فيما مضى كأني أدعو لغير مستحق، فأكون قد كذبت نفسي فلا أقبل الآن، وأستخصم

بذلك، ولا يؤثر قولي فيما تريدون، ولم تجر العادة على الفاطميين بخلع حتى ناتي به.

فقابله على هذا القول بالسب واقامه أقبح قيام، فقال الفقيه النحاس — وكان حاضرا — كل عزيمة، وحمله على خلع الحافظ، فبلغ ذلك المجلس الحافظ.

وفيهما أحضرت من تنيس امرأة بغير ثديين وفي موضع ثدييها مثل الحلمتين، فصارت إلى مجلس الوزير رضوان وأخبرته أنها تصنع برجليها جميع ما يعمل باليدين من رقم وخط وغير ذلك، فجاء لها في المجلس بدواة فتناولت برجلها اليسرى الأقلام قلما قلما، ثم تناولت السكين برجليها وبرت قلما، واستدعت ورقة وأمسكتها برجلها اليمنى وكتبت بالرجل اليسرى رقعة بأحسن خط تكتبه النساء، وحمدت الله في آخرها، وناولتها الوزير، فإذا فيها سؤال بأن يزداد في راتبها، فوقع لها خلف الرقعة بها سألت وأعادها إلى بلدها.

وفيهما بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة (به) في ثغر الاسكندرية، وجعل في تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسة

فيها زاد السعر وبلغ القمح ثلاثة دنانير للإردب، فبيعت الغلال التي كان الأفضل خزنها، وقد تغيرت وأرادوا رميها في النيل، فكانت تقطع بالفؤوس وتباع بأربعين دينارا كل مائة إردب، وكذلك الأرز الذي كان مخزونا بمصر فإنه أبيع بعشرة دنانير المائة، فوجد الناس بذلك رفقا.

فيها كثر سعي الوشاة بين الحافظ والوزير فتحوف كل منهما من

الآخر، وقبض الوزير على عدة من خواص الحافظ، منهم أبو المعالي بن قادوس، وابن شيبان المنجم، ورئيس اليهود، وجماعة، فقتلهم، فسير الحافظ من أحضر إليه بهرام في رمضان، فلما حضر أسكنه عنده بالقصر وأكرمه، وشق ذلك على رضوان، وكان الحافظ قد تطف برضوان في أمر بهرام وقرر معه أن يستدعيه وينزله في القصر، وحلف له أنه لا يوليه أمرا ولا يمكنه من تصرف، فتسامح رضوان في أمره واستدعي فحضر بأهله وأنزل في دار بالقصر قريبة من المحول^(١٢٣) وهو قريب من سكن الحافظ، فكان يسحتضره في غالب الليالي ويستشيريه ويعمل برأيه.

ولما كان يوم عيد الفطر ركب الوزير مع الحافظ وعليه من الملابس ما لم يلبسه أحد من الوزراء في مثل ذلك اليوم، وعاد إلى القصر وفي نفس الحافظ منه أشياء تبينها رضوان في وجه الحافظ وعلمها منه، فاشمأزت نفسه مع ما كان فيه من الطيش، فركب في تاسع شوال وزحف إلى القصر، فكلمه الخليفة من بعض طاقات النظرة التي تطل على باب الذهب، وجرى بينهما كلام اجترأ فيه على الخليفة، وعاد إلى داره بعد أن احتاط بالقصر واحتفظ بالأبواب فامتعض الناس لذلك بالقاهرة ومصر، وكثرت الأراجيف.

وفي تلك الحالة نزل بعض أولاد الحافظ من القصر هاربا إلى رضوان، وكان شيخا ومعه ولد له، ليقمه خليفة، فلم يكثر به، وأحضر اسماعيل بن سلامة الداعي، وقال له: ماتقول في هذا الرجل، هل يصلح لما التمسه؟ فقال: الخلافة لها شروط ونواميس مافي هذا منها شيء، وتحتاج إلى نصوص، ولولا أن مولانا الأمر نص على مولانا الحافظ وأودعه سر الخلافة لما ثبتت فيه ولا استجاب له الناس، فلم يحصل سوى أنه كان مشؤوما على نفسه وأهله، فإن الحافظ لما بلغه ذلك قتله وقتل جماعة منهم كثيرة.

ثم إن الحافظ لما رأى فعل رضوان وتعديه وكثرة من انضم إليه من العسكر عمل في التدبير عليه وأرسل إلى صبي من الجند يعرف بشومان، وكانت فيه شهامة وجرأة وهومن صبيان الخاص، فأحضره إليه من أحد السراذيب سرا وأرسله إلى علي بن السلار، أحد أمراء الدولة، يأمره بالتدبير على رضوان، وأنفذ معه مالا إليه، ليستعين به على ذلك، وكان علي بن السلار عاقلا صاحب حزم ويقظة وحسن تأت مع قوة وصرامة.

فلما جاءه القاصد بالمال وبلغه عن الخليفة ما قال، انتهز الفرصة وأرسل إلى جماعة من صبيان الخاص وقرر معهم أن يجتمعوا ويدخلوا من باب زويلة كردوسا واحداً وهم يصيحون: الحافظ يامنصور، وفرق فيهم ما أرسله إليه الخليفة.

فلما كان يوم الاثنين، الثالث عشر من شوال، اجتمع بظاهر القاهرة منهم نحو العشرين وأقبلوا من باب زويلة يصيحون: يالللحافظ، الحافظ يامنصور، فما وصلوا إلى السراجين الذي يعرف اليوم بالشوائين، حتى صاروا نحو الخمسمائة، وماوصلوا بين القصرين إلا والعسكر جميعه من فارس وراجل معهم، ولم يبق من الصبيان والعوام أحد حتى خرج بالنساء، وأشرف النساء من الطاقات، وصاروا بأجمعهم يصيحون: يالللحافظية.

فلما سمع رضوان الضجيج أراد أن يركب، فمنعه بعض غلمانه، فأبى عليه لأنه كان واثقا بنفسه وبمن معه، وخرج وحده بغير سلاح ليس معه سوى سيف، فلقى الناس بنفسه وطردهم يمينا وشمالا، وظهر منه شجاعة تعجب منه من شاهدها، فإنه لقي ألوا من الناس بمفرده ولم يزل يحمل عليهم حملة بعد حملة إلى أن قتل منهم عدة، وكان أخوه ابراهيم قد بلغه الخبر، فركب من داره وأمسك عنه من يجيئه من ناحية قصر الشوك، وشدت الريحانية ورجعوا إليه من ناحية زيادة الجامع الحاكمي ودرب الفرنجية.

فلما طال عليه وتيقن أن القوم بأجمعهم قد تمالتوا على حربه، وكان قد انقضى من النهار أربع ساعات، وأشرف عليه الأستاذون من ناحية باب الريح من أعالي القصر يرشقونه بالنشاب ويرمونهم بالطوب، تحير، وكان ابن أخته والي مصر، فبلغه الخبر، فقام بجميع غلمانة وسار لنجدة خاله، فوجد عند باب زويلة من بلغه الخبر بأنه لا يقدر على الوصول إليه، فسار من ناحية باب البرقية ومعه بوقات وطبول، فسمع إبراهيم، أخو رضوان، أصوات البوقات والطبول من جهة باب البرقية، فأنفذ إلى أخيه رضوان يقول له: قد تفرق علينا العسكر وجاء من ناحية قصر الشوك، وقد قاطع الراجل علينا من ناحية باب النصر.

فلما بلغ رضوان ذلك أيقن بالهلاك إن وقف، فما زال يتأخر قليلا قليلا، حتى صار في رحبة باب العيد عند دار سعيد السعداء، وبعث إلى داره، التي هي دار الوزارة من أخذ له شيئا منها على سبيل الخطف، وأوصى إلى أخيه، فانضم إليه هو ومن معه من أصحابه وفيهم أبو الفوارس وفزارة بن أبي غرة، وشاور بن مجير السعدي، وجماعة من خواصه، وخرجوا من باب النصر، فما هو إلا أن صار بظاهر القاهرة اقتحم الناس دار الوزارة ونهبوها حتى لم يتركوا فيها شيئا.

وما وصل رضوان إلى تربة أمير الجيوش، إلا وقد تلاحق كثير من المغافرة، وكان قد أسلف عند العرب أيادي وأفاض عليهم نعما وأحسن إليهم إحسانا كثيرا في مدة وزارته، فأدركه رجل من العرب يقال له سالم ابن المحجل، أحد شياطين الإنس، وحسن له المسير إلى الشام.

واشتغل الناس بنهب دار الوزارة، وكان قد جمع فيها رضوان أكثر أموال ديار مصر وشحنها بالذخائر وأنواع السلاح والعدد والآلات والغلال، فانتهب جميع ذلك، وأحرقت أخشاب تعب الملوك في تحصيلها، وكان نهب دار الوزارة أول ضرر دخل على الدولة.

وطلب رضوان الشام، فدخل عسقلان وملكها وجعلها معقلة، وتوجه أخوه إلى الحجاز وأقام بها حتى مات، وسار ابن أخته إلى بغداد فأكرمه أصحاب الخليفة هناك، ولم يزل عندهم إلى أن مات.

وخرج رضوان من عسقلان ولحق بصلخد، فنزل على أمين الدولة كمشتكين، صاحبها فأكرمه وأبره وأقام عنده ثلاثة أشهر، ثم أنفذ إلى دمشق، واستفسد من الأتراك بها من قدر عليه.

وفيها خربت الأتارب من زلزلة، وزلزلت دمشق أيضا.

وفيها مات الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل، في شعبان، فأقام منصب القضاء بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم اختير الفقيه أبو العباس أحمد بن الخطيئة في ذي القعدة، فاشترط ألا يحكم بمذهب الدولة، فلم يمكن من ذلك، وكان الوزير رضوان قد تقدم إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عقبة اللخمي، المعروف بابن اللبني^(١٢٤)، المغربي المالكي، أن يعقد الأنكحة، فلما كان في الحادي عشر من ذي القعدة قرر الحافظ في قضاء القضاة القاضي فخر الأمناء أبا الفضائل هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابن محمد الأنصاري الأوسي، المعروف بابن الأزرق.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيها عاد الأفضل رضوان بن ولخي من صلخد في جمع فيه نحو الألف فارس، وكان الناس في مدة غيبته يهتفون بعوده، فبرزت له العساكر ودافعوه عند باب الفتوح، فلم يطق مغالبتهم، فمضى إلى مصر ونزل على سطح الجرف المعروف اليوم بالرصد، وذلك يوم الثلاثاء مستهل صفر، فاهتم الحافظ بأمره، وبعث إليه بعسكر من الحافظية

والأمرية وصبيان الخاص، عدتهم خمسة عشر ألف فارس، مقدم القلب تاج الملوك قايماز، ومقدم الأمرية فرج غلام الحافظ، فلقبهم رضوان في قريب ثلاثمائة فارس، فانكسروا، وقتل كثير منهم، وغنم معظمهم، وركب أقفيتهم إلى قريب القاهرة، وعاد شاور إلى موضعه فلم يثبت، وأراد العود إلى صلخد فلم يقدر، لقلة الزاد وتعذر الطريق، فتوجه بمن معه من العربان إلى الصعيد، فأنفذ إليه الحافظ الأمير المفضل أبا الفتح نجم الدين سليم بن مصال في عسكر ومعه أمان، فسار خلفه، وما زال به حتى أخذه وأحضره إلى القصر آخر نهار الاثنين رابع ربيع الآخر، فعفا عنه الحافظ، ولم يؤاخذ أحدا من الأتراك الذين حضروا معه من الشام، واعتقله عنده بالقصر قريبا من الدار التي بها بهرام.

فيها أضيف لقاضي القضاة هبة الله بن حسن الأنصاري، في سابع عشر جمادى الآخرة تدريس دار العلم بالقاهرة، فمضى إليها، وكان مدرسها أبو الحسن علي بن اسماعيل، فجرت بينهما مفاوضات جرت إلى الخصام الشنيع، فخرج القاضي إلى القصر ماشيا وقد تخرقت ثيابه وسقطت عمامته، فعظم على الحافظ خروجه في الأسواق على هذه الهيئة، وغضب لذلك، فصرفه ورسم عليه، وغرمه مائتي دينار، وألزمه داره، وأمر بطلب أبي الطاهر اسماعيل بن سلامة الأنصاري، فخلع عليه وقرره مكانه، ونعته بالموفق في الدين، ولم يكتب له سجل، فأقام إلى آخر ذي الحجة، ولم يتناول على القضاء معلوما، وكان جاري الحكم في كل شهر أربعين دينارا، وقنع بجاري التقدمة على الدعاة وهو ثلاثون دينارا في الشهر.

فيها ولي الحافظ لدين الله الأمير المفضل نجم الدين أبا الفتح سليم ابن مصال اللكي تدبير الأمور.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها هلك بهرام الأرمني بالقصر، وكان الحافظ لما أقدمه من الصعيد إلى عنده أنزله في القصر ولم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره في تدبير أمور الدولة فيعجبه رأيه وحزمه وعقله، فلما مات في العشرين من ربيع الآخر حزن عليه حزنا كثيرا ظهر بسببه على القصر غمة، وهم أن يغلق الدواوين ولا يفتحها ثلاثة أيام، وأحضر بطرك الملكية وأمره أن يجهز بهرام، فقام يتجهيزه، وأخرج نصف النهار في تابوت وعليه ثوب ديباج أحمر، ومن حوله النصاري يبخرون باللبان والصندروس والعود، وجميع الناس مشاة، فلم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته.

وخرج الخليفة على بغلة شهباء وعليه عمامة خضراء، وثوب أخضر بغير طيلسان، فسار خلف التابوت، وسار والناس تبكي والأقساء يعلنون بقراءتهم، والخليفة سائر، إلى دير الخندق من ظاهر القاهرة (١٢٥) فنزل الخليفة عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديدا.

وكان عاقلا مقداما في الحرب، حسن السياسة، جيد التدبير، وكان أولا يقوم بأمر الأرمن، وسكناهم يومئذ في ناحية تل باشر، فتعصب عليه جماعة منهم وولوا غيره، فخرج مغضبا وقدم إلى القاهرة، فترقى في الخدم إلى أن ولي المحلة، فقام بولايتها، ومنها سار في نوبة حسن إلى القاهرة ومعه من الأرمن نحو الألفين يقولون بقوله، فاستوزره الحافظ.

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان بن ابراهيم بن رشا المقدسي في آخر جمادى الآخرة.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

في ليلة الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول سقطت صاعقة أحرقت
ركن منارة الجامع العتيق.

في شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير، فبلغ القمح كل
إردب إلى تسعين درهما والدقيق إلى مائة وخمسين الحملة^(١٢٦)، والخبز إلى
ثلاثة أرطال بدرهم، والويرة من الشعير إلى سبعة دراهم المائة، والزيت
الحار إلى درهم ونصف الرطل، والقلقاس كل رطلين بدرهم، وعدم
الفروج والدجاج فلم يقدر على شيء منه، وعم الوباء وكثر الموتان.

وفيهما مات أحمد بن مفرج بن أحمد بن أبي الخليل الصقلي^(١٢٧) الشاعر،
المعروف بتلميذ ابن سابق، وكان فاضلا ذكيا يتصرف في عدة فنون، وله
رسائل حسنة وشعر جيد.

وكان الشعراء في أيام الحافظ قد أطبوا في المديح وتناهوا في إطالة
القصائد حتى صار الإنشاد يؤدي إلى قصر الوقت الذي جرت العادة
باستماع أشعارهم فيه، لطول مثولهم بالخدمة، فخرج الأمر إليهم
بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار، فقال أحمد بن مفرج يخاطب
الخليفة:

أمرت أن نصوغ المدح مختصرا
لم لأمرت ندي كفيك يختصر
والله لا بد أن تجري سوابقنا
حتى يبين لنا في مدحك الأثر

فأمروا بالاستمرار على ما هم عليه من الإطالة في الإنشاد.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها عظم الوباء بديار مصر، فهلك فيه عالم لا يحصى عدده كثرة.

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولا إلى رجار ملك صقلية لمحاربته أهل صقلية، وكان رجار فيه فضيلة، وأمر فصنفت له تصانيف، وكان عنده محبة للأدب، ومدحه ابن قلاقس الشاعر^(١٢٨) وغيره.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها خرج محمد بن رافع اللواتي بنواحي البحيرة، فاجتمع له عدد كثير من الناس، فخرج إليه طلائع بن رزيك، وهو يومئذ والي البحيرة، فكانت بينهما حروب قتل فيها.

فيها غلت الأسعار بمصر.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها سير الحافظ الرشيد أبا الحسين أحمد بن الزبير^(١٢٩) رسولا إلى اليمن بسجل يقرؤه عليهم، فخرج في ربيع الأول.

وفيها خرج أبو الحسين بن المستنصر إلى الأمير خمارتاش الحافظي صاحب الباب وقال له: اجعلني خليفة، وأنا أوليك الوزارة، فطالع الحافظ بذلك، فأمر بالقبض عليه، فقبض واعتقل.

وفيها قدم، في جمادى الآخرة، من دمشق الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وإخوته وأهله، ومعهم نظام الدين أبو الكرام محسن وزير أنر

صاحب دمشق، معاضدين له، فأكرم مثواهم وأنزلوا، وأفيضت عليهم العطايا، وتواترت عليهم الإنعامات.

سنة أربعين وخمسة

فيها أعيد نظر الدواوين والأترار والخزائن إلى القاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى.

سنة إحدى وأربعين وخمسة

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختيار، يطلب الوزارة، بأرض الصعيد، فندب إليه عسكريا عليه سلمان بن يونس اللواتي، فمضى إليه وحاربه، فانهزم وهو من ورائه، حتى أدركه وأخذه أسيرا وقتله.

وفيها قدم صافي الخادم، أحد خدام المتقي، من بغداد فارا، في ثالث عشرين جمادى الأولى، خوفا، فأكرمه الحافظ.

وفيها منع من التعرض لصرف شيء من المال الحاضر من الأعمال في جرائد المستخدمين، وأن يكون مايسب منها على البواقي والفاضل في هذه السنة.

وفيها ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر حلب بعد أبيه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية مدينة طرابلس الغرب وولى عليها.....ابن مطروح.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فيها صرف أبو الكرم التنيسي في ربيع الآخر، وأعيد نظر الدواوين للقاضي المرتضى المحنك.

وفيها سير الحافظ لظهر الدين صاحب دمشق هدايا وخلعا وتحفا.

وفيها خرج رضوان من نقب نقبه بالقصر، وذلك أن الحافظ لما اعتقله بالقصر أرسل يسأله في أشياء، من جعلتها زيارة نجم الدين بن مصال له في الوقت بعد الوقت، فأجابه إلى ذلك لثقتة بابن مصال، فحضر في يوم من الأيام ابن مصال لخدمة الخليفة، وبدأ بزيارة رضوان، فدخل إليه ومعه مشدة فيها رقاع بحوائج الناس ليعرضها على الحافظ، وكانت عادته ذلك، فاحتاج إلى الخلاء، فترك مشدته عند رضوان ودخل الخلاء، فأخذ رضوان الرقاع ووقع بخطه عليها كلها بما يسوغ التوقيع به، وأثرها وطواها في المشدة، وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ، وقد علم أنه كان عند رضوان فقال له: كيف ضيفنا؟ فقال: على غاية من الشكر لنعمة مولانا وجواره، وأخرج رقعة من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة فوجد عليها التوقيع بخط رضوان، فأمسكها وأخرج غيرها، فإذا هي موقع عليها أيضا، وكان الحافظ يراه، فقال: ما هذا؟ فاستحيا ابن مصال عندما تداول الخليفة الرقاع وعليها توقيع رضوان، فقال له الحافظ: يانجم الدين، مازلت مباركنا والله يشكر لك ذلك، لقد فرجت عنا غمة، فقال: كيف يامولانا؟ قال: رأيت البارحة رؤيا مقتضاها أنه ربما يشركنا في كثير من أمرنا، فالحمد لله إذ كان هذا وكتب على الرقاع أمضاها بخطه، وخلع على ابن مصال.

فلما طال اعتقال رضوان أخذ ينقب بحيث لا يعلم به إلى أن انتهى النقب من موضعه الذي هو فيه إلى تجاه فندق أبي الهيجاء، وخرج

النقب عن سور القصر، وكان قياس مانقبه خمسة وثلاثين ذراعاً، فظهر منه بكرة يوم الثلاثاء، ثالث عشرين ذي القعدة، في الجيزة، فالتف عليه جماعة من لواته وعدة من الأجناد، وسمع به الطماعون، وكان للناس فيه أهوية، فندم الحافظ على تركه بغير حارس، وأخذ في العمل.

فلما كان ثالث يوم عدى رضوان من اللوق وسار إلى القاهرة، فخرج إليه عسكر الحافظ وتحاربوا معه عند جامع ابن طولون، فهزمهم، وسار في إثرهم إلى القاهرة، فدخلها في الرابعة من نهار الجمعة سادس عشرية، ونزل بالجامع الأقمر، فغلق الحافظ أبواب القصر وامتنع به، فأحضر رضوان أرباب الدولة والدواوين، وأمر ديوان الجيش بعرض الأجناد وأخذ أموالاً كانت خارجة من القصر، وأنفق في طوائف العسكر، وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالا، فسير إليه صندوقاً فيه مال وقال له: هذا الحد الذي أراده الله، فاسترض على نفسك.

وأنت ضيافات الناس إلى رضوان، فاستعدى الحافظ أحد مقدمي السودان سرا وقال له: إني بكم واثق، فقال: ما ادخرنا هذا إلا لمولانا، فقال: كم أصحابك؟ قال: عشرة، قال: لكم عشرة آلاف دينار واقتلوا هذا الخارجي علينا وعليكم، فأنتم تعلمون إحساننا إليه وإساءته إلينا، فقالوا: يامولانا السمع والطاعة، ورتبوا أنهم يصيحون حول الجامع الأقمر: الحافظ يامنصور، فلما فعلوا ذلك قلق وقال لمن حوله: ما كل مرة يصح لهؤلاء الكلاب مرادهم، فحسنوا له الركوب ظناً منهم أنه إذا ركب إلى بين القصرين لم يجسر أحد عليه، فعندما ركب ضربه واحد من السودان في فخذه ضربة شديدة، وتداركه آخر بضربة، وتوالت عليه الضربات، فقتل في الساعة الحادية عشرة من نهار الجمعة المذكور، وقطعت رأسه وحملت إلى الخليفة الحافظ، فسكنت الفتنة، وهدأت الغوغاء.

ثم إن الحافظ بعث بالرأس إلى امرأة رضوان، فلما وضعت في حجرتها قالت: هكذا يكون الرجال.

وكان رضوان سنيا حسن الاعتقاد، شجاعا، مقداما، قوي القلب، شديد البأس، ولد ليلة عيد الغدير من ذي الحجة، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وترقى في الخدم إلى أن ولي قوص وإخميم في سنة ثمان وعشرين وخمسائة، إلا أنه كان مع حسن عبارته وغيرة أدبه طائش العقل قليل الثبات، لا يحسن التدبير، ولا يتأتى له سياسة الأمور لعجلته وجرأته، وكان أخوه الأوحى إبراهيم أثبت عقلا منه.

ومن جملة ما كتب له في تقليد الوزارة بعد بهرام من إنشاء أبي القاسم ابن الصيرفي: «...لأنك أذهبت عن الدولة عارها، وأمطت من طرق الهداية أوعارها، واستعدت ملابس سيادة كان قد دنسها من استعارها».

ولم يستوزر الحافظ بعد رضوان أحدا، وأعاد النصراني المعروف بالأخرم إلى ضمان الدولة، على ماتقدم، ثم نقم عليه لكثرة المرافعين واعتقله، وطلب منه المال فلم يسمح بشيء، فركب الحافظ يوما ووقف على باب السجن الذي هو فيه من القصر، وأمر به، فأحضر إليه، وقال له: كم تتجالد؟ أريد منك مالي على لسان صاحب الست، فبينما الخليفة يخاطبه إذ أخذ كفا من تراب وجعله في فيه، فقال له الحافظ: ما هذا؟ فقال: ما لا ينبغي نقله إلى مولانا، صلوات الله عليه، فغضب عليه، وأمر بإحضار أبيه وأخيه، وكانا معتقلين، فأخرجاه، وقتل الأخرم وأخاه، وأبوهما ينظر قتلتهما، ثم قتل الأب، وأحاط بأموالهم فحصل منهم ما يزيد على عشرين ألف دينار عينا.

فيها مات الشيخ تاج الرياسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان، المعروف بابن الصيرفي الكاتب، في يوم الأحد لعشر بقين من صفر،

ومولده في يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وكان أبوه صيرفيا وجده كاتباً، وأخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج، وتنقل حتى صار صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل معه إلى ديوان الإنشاء، ومات الشريف سناء الملك أبو محمد الزيدي الحسيني، ثم تفرد بالديوان فصار فيه بمفرده، وله الإنشاء البديع والشعر الرائع، والتصانيف المفيدة في التاريخ والأدب.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها توجه العسكر، في ثالث صفر، لقتال لواتة وقد تجمعوا وعقدوا الأمر لرجل قدم من المغرب وادعى أنه ولد نزار بن المستنصر، فسار إليهم العسكر وواقعهم على الحامات وانهزم منهم العسكر، فجهز الحافظ عسكراً آخر، ودس إلى مقدمي لواتة مالا جزيلاً، ووعدهم بالإقطاعات، فغدروا بابن نزار وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الحافظ، ورجعت العساكر في ربيع الأول.

وفيها صرف القاضي المكين الموفق في الدين أبو الطاهر اسماعيل بن سلامة الأنصاري عن القضاء، لسبع خلون من المحرم، واستقر على الدعوة الموفق الأمين، كمال الدين، واستخدم في وظيفة القضاء، وكان كريم الأخلاق، حليماً، عليه سكينه ووقار، مليح الشبهة، ظريف الهيئة.

(وفيها توفي) أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المقدسي القرشي، المعروف بجوامرد، خطيب القدس.

وفيها بلغ النيل تسعة عشر ذراعاً وأربعة أصابع، ففاض الماء حتى بلغ إلى الباب الجديد أول الشارع، خارج باب زويلة، فكان الناس يتوجهون من مصر إلى القاهرة على ناحية المقابر لامتلاء الطريق بالمياه، فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر له الحزن والانقطاع، فسأله خواصه عن

ذلك، فأخرج له كتابا وقال: انظر هذا السطر، فإذا فيه: «إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا، وما يأتي بعدها، فاتفق أنه لم تنسلخ هذه السنة حتى مرض الحافظ مرضة الموت.

وفيهما انقضت دولة بني باديس، وذلك أن الغلاء اشتد بإفريقية من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة اثنتين وأربعين حتى أكل الناس بعضهم بعضا، وخلت القرى، ولحق كثير من الناس بجزيرة صقلية، فاغتنم رجار متملكها الفرصة وبعث جرج، مقدم أسطوله، على نحو مائتين وخمسين شينيا، فنزل على المهديّة ثامن صفر سنة اثنتين وأربعين، وبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، ففر بأخف حمله وتبعه الناس، فدخل جرج المهديّة بغير مانع، واستولى على قصر الأمير حسن، وأخذ منه ذخائر نفيسة وحظايا بديعات.

وعزم حسن على المجيء إلى مصر، فقبض عليه يحيى بن العزيز، صاحب بجاية، ووكل به وبأولاده، وأنزله في بعض الجزائر، فبقي حتى ملك عبد المؤمن بن علي بجاية في سنة سبع وأربعين، فأحسن إلى الأمير حسن وأقره في خدمته، فلما ملك المهديّة تقدم إلى نائبه بها أن يقتدي برأي حسن ويرجع إلى قوله.

فكانت عدة من ملك من بني باديس بن زيري بن مناد تسعة، ومدتهم، من سنة إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة مائة واثنان وثمانون سنة.

وفيهما بعث رجار بن رجار ملك جزيرة صقلية إلى المهديّة أسطوله، مائتين وخمسين من الشواني، مع جرجي بن ميخائيل، فجدد في حصارها حتى أخذها في صفر منها، وملك سوسة وصفاقس وملك رجار بونة.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية، فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها عدة من الفريقين، وامتنع الناس من المضي إلى القاهرة ومن الذهاب إلى مصر، وابتدأت الحرب بينهم في يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى، وتوالت إلى يوم السبت رابع جمادى الآخرة، فانهزمت الريحانية إلى الجيزة.

وهم العسكر بخلع الحافظ من الخلافة، فمات بقصر اللؤلؤة، وقد نقل إليه وهو مريض، بكرة يوم الأحد، وقيل ليلة الاثنين، لخمس خلون من جمادى الآخرة، واشتغل الناس بموته.

وكان له من العمر يوم مات ست وسبعون سنة وثلاثة أشهر وأيام، منها مدة خلافته من يوم بويغ بعد أحمد بن الأفضل ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

وأصابته في ولايته شدائد، واعتقل، ثم لما أعيد تحكم عليه الوزراء حتى قبض على رضوان فلم يستوزر بعده أحدا، وإنما أقام كتابا على سنة الوزراء أرباب عمام ولم يسم أحدا منهم وزيرا، وهم: أبو عبد الله محمد بن الأنصاري، وخلع عليه بالحنك والدواة، فتصرف تصرف وزراء الأقاليم، وصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد والجمع، والقاضي الموفق محمد بن معصوم التنيسي، وصنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم النصراني.

وكان الحافظ حازم الرأي، جماعا للأموال، كثير المداراة، سيوسا عارفا، ولم يكن أحد ممن ولي قبله أبوه غير خليفة سواه، وكان يميل إلى علم النجوم، وكان له من المنجمين سبعة، منهم: المحقوف، وابن الملاح، وأبو محمد بن القلعي، وابن موسى النصراني.

وفي أيامه عملت الطبلبة التي كانت إذا ضرب بها من به قولنج خرج عنه الريح، وما زالت بالقصر إلى أن كسرت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل، ويوسف، وأبا المنصور، اسماعيل، وكان مطعوناً عليه، فإنه ولي بغير عهد وإنما أقيم كفيلاً عن منتظر في بطن أمه، فلم يظهر للحمل خبر.

ومن محاسن ما يحكى عنه أنه كان يخرج في كل ستة أشهر عسكر من القاهرة إلى عسقلان لأجل الفرنج تقوية لمن بها من المركزية الكنانية وغيرهم، ويقدم على العسكر عدة، فيجعل على كل مائة فارس أمير، ويقدم على الجميع أمير تسلم إليه الخريطة فيكون أمير المقدمين، وتشتمل الخريطة على أوراق العرض من الديوان بالحضرة ليتفق مع والي عسقلان على عرض العسكر بمقتضاها، ويصدر التعريف من كاتب الجيش هناك إلى الديوان بالحضرة بذلك، ويسلم إليه مبلغ من المال لنفقته معونة لمن فاتته النفقة من العسكر، فإن النقباء الذين للطوائف يجردون من كان من الطوائف حاضراً ومن كان مسافراً في إقطاعه، فيأخذ صاحب الخريطة أوراقاً بمن سافر وهو في إقطاعه ليوصل إليه نفقته.

وكانت نفقة الأمراء مائة دينار لكل أمير، وللأجناد ثلاثون ديناراً لكل جندي.

واتفق مرة خروج العسكر إلى عسقلان وفيهم خمسة أمراء من جملتهم جلب راغب، الذي اتفق في حسن ابن الحافظ بعد موته ماتقدم ذكره، فلما سير إليه مائة دينار، نفقته، تجهز للسفر في جملة الناس، وسلمت الخريطة لأمرهم، فلما دخلوا على الحافظ ليودعوه ويدعو لهم بالنصر والسلامة على العادة، قضوا حق الخلافة وانصرفوا إلا جلب راغب فإنه

وقف، فقال الحافظ: قولوا للأمير ماوقوفك دون أصحابك، ألك حاجة؟ فقال: يأمرني مولانا بالكلام، قال: قل، فقال: يامولانا ليس على وجه الأرض خليفة ابن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غيرك، وقد كان السلطان استزلني فسفهمت نفسي وأذنبت ذنبا عظيما عفو مولانا أوسع منه وأعظم فقال له الحافظ: قل ماتريد غير هذا فإننا غير مؤاخذيك به، فقال: يامولانا قد توهمت أنك تحققت أني ماض في حالة السخط، علي، فقال له الحافظ: أنت غني عن هذا الكلام، وقد قلنا لك إنا ماواخذناك، فأني شيء تقصد؟ فقال: لايسيرني مولانا تبعا لغيري، فقد صرت مرارا كثيرة مقديما، وأخشى أن يظن أن هذا التأخير للذنب الذي أنا معترف قال: لا، بل مقديما وصاحب الخريطة، وأمر بتقل الحال عن المقدم الذي تقرر للتقدمة والخريطة إلى جلب راغب، وأعطي مائتي دينار وقال: له استعن بهذه فعد هذا من الحلم الذي قلما سمع بمثله.

وكان الغالب على أخلاقه الحلم، وكان مقدم المطالبية يجيء إلى الخليفة الحافظ ويخبره بغرائب مآظهم، فجاء يوما وأخبر أنه وجد حوضا لطيفا قريبا من معلف الحمار، فلم يتعرض له، فندب الخليفة معه شاهدين حتى أتوا به، فإذا حوض مطبق بغطاء ففك عنه فإذا فيه صنم من رخام أبيض على هيئة الإنسان وهو واضع أصبعي في فيه وأصبعي أخرى في دبره فأمر الحافظ أحد الشاهدين أن يناوله ذلك، فلما أخذ الصنم اضطرب اضطرابا عظيما، فألقاه من يده وقد اشتد خجله، فقام موفق، أحد الأستاذين المحنكين، ليناوله إياه فاضطرب أيضا، فأمر الحافظ بتركه وعلم أنه طلسم للقولنج.

ووجد في مقطع الرخام سرب تحت الأرض فيه جرة مسدودة أحضرت إلى الأستاذ مفضل، المعروف بصدر الباز، فإذا فيها حنش من ذهب زنته ستة مثاقيل ونصف مثقال، وعيناه من ياقوت أحمر، وفي فمه جرس من ذهب، فأعلم به الحافظ، فلم يزل يبحث عن خبره حتى أحضرت له

عدة أحناش كبار، وأخرج ذلك الحنش المذكور فجعلت الأحناش الكبار تخرج رؤوسها ثم تحركها مرة أو مرتين وتسقط ميتة.

وكان الحافظ حريصا على علم السيمياء، فظهر في أيامه الشيخ أبو عبد الله الأندلسي، شيخ بني الأنصاري أوحّد زمانه في علم السيمياء فسأله الحافظ أن يريه شيئا من ذلك، فأراه ساحة القصر قد صارت لجة ماء، فيها سفينة متعلقة وشواني حربيات قد خرجت على تلك السفينة وقاتلت أهلها، والحافظ يرى لمعان السيوف ومرور السهام وخفقان البنود، ورؤوس الرجال وهي تسقط عن كواهلها، والدماء تسيل، حتى سلم أصحاب السفينة لأصحاب الشواني فساروا بها والأبواق تزعق والطبول تضرب، إلى أن غابت عن الأبصار في لجج البحار، ثم كشف عن الحافظ فإذا هو قصره، ثم أمره أن يريه شيئا آخر: فقال: ليخرج من في مجلس أمير المؤمنين إلى منزله، فأمرهم، فخرجوا حتى صاروا إلى حيث خيولهم واقفة بباب القصر، فلما قدمت إليهم ليركبوا فما منهم إلا من رأى فرسه كأنه ثور وقرناه كأعظم مايكون من القرون، فعادوا إلى الحافظ وأعلموه بما رأوا، فضحك وقال: أفدوا دوابكم منه، فقطع كل واحد منهم على نفسه شيئا فأمر له به ومازال مقيما بمصر حتى مات.

وكان في أيام الحافظ أيضا ابن محفوظ، سأله أن يريه شيئا من أعماله، فأمر بأربعة أطباق فضة أن تحضر، فلما وضعت بين يديه امتلأت باسمينا في غير أوانه، وصار يعلو على كل طبق وهو مرصوص متماسك بعضه فوق بعض، إلى أن صار كأربعة أعمدة من رخام متقابلة.

الظافر بأمر الله أبو المنصور اسماعيل بن الحافظ

لدين الله

أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد

ابن المستنصر بالله

ولد يوم الأحد، النصف من ربيع الآخر، سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وبويع في اليوم الذي مات فيه الحافظ لدين الله، وهو كما تقدم يوم الأحد الخامس من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وعمره سبع عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام، بوصية من أبيه له بالخلافة، وكان أصغر أولادهم أبو الحجاج يوسف وأبو الأمانة جبريل، وهما أسن منه، وركب بزي الخلافة واستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم ابن محمد بن مصال، بوصية الحافظ بذلك أيضا، ونعت بالسيد الأجل الأفضل أمير الجيوش وخلع عليه خلع الوزارة، وهو يومئذ من أكابر الأمراء، وهو شيخ لين متواضع، فسكن دار المأمون البطائحي، وصار أبو الكرم التنيسي من ذوي رأيه.

وأول ما بدأ به الظافر أنه ركب بعد صلاة العشاء الآخرة، بالشمع في القصر، ووقف بباب الملك بالإيوان المجاور للشباك، وأحضر ابني الأنصاري، وهما أبو عبد الله وأبو... واستدعى متولي الستر، وهو صاحب العذاب، وأحضرت آلات العقوبة، وضرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك، وثنى بأخيه كذلك، ثم أخرجها وقطعت أيديهما وسلت ألسنتهما من أفقيتهما، وصلبا على بابي زويلة الأول والثاني، فأقاما زمانا ثم وضعوا.

وكان سبب قتلها أنها كانا من الكتاب فنبغا وتوصلا بالحافظ،

فاستخدمهما في ديوان الجيش، فوثبا على رؤساء الدولة وأعيان كتابها وخواص الخليفة من الأستاذين المحنكين، مثل الأجل الموفق كاتب الدست — وكان موضع سر الخليفة ومحل مشورته في الأمور العظام، من أحوال الممالك — ومن يليه، كالقاضي المرتضى المحنك، والخطير ابن البواب، وتجرآ على المذكورين وغيرهم مع قلة دربة، فكثرت حسادهما وعمل عليهما فيما يخرج للأمرء والمقطعين من الخراجات في كل سنة، ويشتمل الخرج على نعوت ذلك الأمير، فيصير ذلك الخرج إلى عامل الإقطاعات، وهو تحته، فذكر في أحد الخراجات كلاماً ظريفاً ليؤخذ عليه خطهما ليوقف عليه الخليفة حتى يتبين له جهلهما، وهو: «حبطت حبطت، وفي النهر قد غطت، بغلالة أرجوان، صفراء بزعفران»، فمشى عليهما ذلك وترجما الخرج بخطهما، وخرج من أيديهما، فأحضر إلى الأجل الموفق ابن الحجاج، كاتب الدست، فأخذه ودخل به إلى الخليفة الحافظ، وقال: يامولانا، الأمثال مضروبة بحفظ ديوان هذه الدولة ومن يتولاها، فكيف لو ظفر بهذا الخرج مخالف لها، يقصد التشنيع عليهما، فقال له الحافظ: يامولاي الموفق، هبهما لي، فقال: يامولانا، كلنا ممالكك وخرج، ولم يبلغ الأعداء منهما ما أرادوا، فزاد أمرهما في الدولة على الخليفة والاستعلاء على الناس.

وأراد الأكبر منهما أن يدخل على الخليفة ويخرج ظاهراً ليراه الناس، فجدد له ديواناً سماه ديوان الترتيب، وجمع فيه من يخدم في ترتيب الأعمال صفقة صفقة، وأن يكون أميرهم بجار يقرر له — وهذا الترتيب يقال له في غير هذه الدولة صاحب البريد — فكان يكتب متولي هذا الديوان بالأخبار بمطالعات تصل إليه مترجمة بمقام الخليفة فيعرضها من يده ويجاوب عنها بخطه، فورد كتاب بعض أصحاب الترتيب بقضية، فأجابه بكلام، وأراد الاستشهاد بآية من كتاب الله تعالى، فحرفها وقالها على غير ما أنزلت، ووقع الجواب للموفق، فأخذ في كفه مصحفاً ودخل إلى الخليفة ومعه جواب ابن الأنصاري، وقال: يامولانا، هذا

كتاب الله تعالى قد حضر إلى مقامك، وهو المنزل على جدك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يشكو إليك جناية ابن الأنصاري عليه، فخذ بحقه فإن هذا (من) الجنایات، والحمد لله إذ وقع هذا الكتاب إلى المملوك دون غيره، فإن المملوك لم يزل يتتبع هذه الأمور لئلا يقع عليها أعداء الدولة فيشيّعوا ذلك في الدول المخالفة لها، فقال له الحافظ: أنا أعلم منك هذا وأعلم من المذكورين مذكرت، وقد كنت سألتك فيها مرة، وهذه الثانية، فإن لهما علينا خدمة، فقال: العفو يا مولانا، وانصرف ولم ينل منها غرضاً، فأمر الحافظ ابن الأنصاري الأكبر أن يمضي إلى الأجل الموفق ويخدمه في داره.

وكان يومئذ ديوان المكاتبات مقسوما بين أبي المكارم ابن أسامة وبين الموفق، إلا أن ابن أسامة لا يلتفت لأمر الديوان لكثرة شغله بدنياء، فاستتاب ابنه أبا المنصور عنه، وكان يلحق بأبيه في الاشتغال بأمر دنياه عن النيابة، فصار اعتماد الخليفة في الديوان بأجمعه على الأجل الموفق، وكان ينفذه ولا يشق على ابن أسامة لما أسلفه من الخدم السابقة، ثم لما مات أبو المكارم أسامة، وكان في الظن أن ابنه أبا المنصور يستخدم مكانه، سبق ابن الأنصاري وسأل الحافظ فاستخدمه في النصف من ديوان المكاتبات فقط شريكاً للموفق فيه، وانفرد الموفق بالإنشاء، ونعت ابن الأنصاري بالقاضي الأجل سناء الملك، وأمره الحافظ بخدمة الموفق وأن يقنع معه بمجرد الرتبة، فشق ذلك على الموفق وصبر على ضره وقرر أبو المنصور بن أسامة في ديوان الترتيب مكان ابن الأنصاري

وتجند ابن الأنصاري الأصغر وتأمر في يوم واحد، وخلع عليه بالطوق، ورتب في زم الإمريّة، وهي طوائف الأجناد، فكثر الأعداء وتعددت الحساد، واشتغل الناس بهما وأطلقوا الألسنة بدمهما، فكان يقال: هذا الأمير الطاري، ابن الأنصاري، ولج الناس بالكلام فيهم وهم عاجزون عنهم، حتى مات الحافظ فكان من أمرهما مع ابنه الظافر ما تقدم ذكره.

وفي يوم الثلاثاء رابع شعبان اجتمع كثير من السودان وعدة من
المفسدين ببعض القرى، فخرج إليهم الوزير ابن مصال وحاربهم حتى
كسرهم.

وكان الأمير المظفر سيف الدين معد الملك ليث الدولة علي بن
اسحاق بن السلار واليا على البحيرة والاسكندرية وكان ابن زوجة ركن
الاسلام عباس والي الغربية، فلم يرض ابن السلار بوزارة ابن مصال،
وخرج من الاسكندرية إلى ربيعة بالغربية واتفقا على القيام وإزالة ابن
مصال، فبلغه ذلك، فأعلم به الخليفة الظافر، فجمع الأمراء في مجلس
الوزارة وبعث إليهم زمام القصور يقول: هذا نجم الدين وزيري ونائبي
فمن كان يطيعني فليطعه، ويمثل أمره، فقال الأمراء: نحن ممالك
مولانا سامعون مطيعون فرجع الزمام بهذا الجواب، فقال أمير من الأمراء،
شيخ يقال له دري الحرون، وهو أحد أشرار القوم ومن رفقة ابن السلار:
إن سمع مني ما أقول قلت، فقال له الوزير: قل، قال: مولانا، صلوات
الله عليه، يعلم وأنت تعلم أن مافي الجماعة من يضرب في وجه ابن
السلار بسيف، وأولهم أنا، فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه وأجناده
فالأمر لله وله، فلما سمع الجماعة ذلك قاموا وخرجوا من القصر، وشدوا
على خيولهم، وساروا يريدون ابن السلار.

فلما غلب الظافر عن دفعه أعطى ابن مصال مالا كثيرا، وأمره أن
يعمل لنفسه ما يرى في الخيرة وهو يساعده، وسار ابن السلار فرأى ابن
مصال أنه لا طاقة له به، فخرج إلى جهة الصعيد، وعدى إلى الجيزة ليلة
الثلاثاء رابع عشر شعبان، عندما سمع بوصول المظفر، وقدم ابن السلار
إلى القاهرة في يوم الأربعاء خامس عشر شعبان، فوقف على القصر وسير
إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء يعلم بحاله، فجرت بينه وبين أهل
القصر مراجعات كثيرة آخرها أنه فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع
الوزارة، ونعت «بالسيد الأجل أمير الجيوش، شرف الاسلام، كافل قضاة
المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين».

وهو يحقد على الظافر ميلا مع ابن مصال، وفي نفس الخليفة نفور منه أيضا وسكن دار الوزارة.

وجمع ابن مصال كثيرا من السودان ومن العربان ولواته وغيرهم، وانضم إليه بدر بن رافع، مقدم العربان وسار بهم، فندب ابن السلار ربيبه المظفر أبا المنصور ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس في عسكر، فنزل بركة الحبش، وقدم ابن مصال أمامه الأمير الماجد في عسكر، فطرق عباسا على حين غفلة وقتل من عسكره كثيرا، وانهزم جماعة، وثبت عباس حتى أتته النجدة من الغدفر على أصحاب ابن مصال وقتلهم، فلم يفلت منهم إلا من سبحت به فرسه في النيل، وأخذ الأمير الماجد نسيب ابن مصال ضرب عنقه، فسار ابن مصال إلى بلاد الصعيد يجمع الأجناد والعربان.

وشرع ابن السلار يجهز عباسا فجهزه في جيش كثيف وبادر بالخروج خوفا من الاجتماع على ابن مصال، فسار إلى دلاص ومعه طلائع بن رزيك، وهو أحد المقدمين، فبرز إليه ابن مصال، وواقعه عدة وجوه، فانجلت الوقائع عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع مقدم العربان في يوم الأحد التاسع عشر من شوال، ويقال إنه بلغت عدة القتلى سبعة عشر ألفا، فعاد عباس وقد قوي ومعه رأس ابن مصال إلى القاهرة، فطيف بها على قناة القاهرة ومصر يوم الخميس ثالث عشرين ذي القعدة، وحمل أهله وولده إلى القصر وأخلت لهم قاعة، وخلع على ابن السلار.

وكان ابن مصال من أهل برقة، وخدم أولا في البيزرة والصيد هو وأبوه، فتقدم في الخدم حتى نال الوزارة، واتفق أنه مر في وزارته مرة فقالت له امرأة كانت تعرفه في حال فقره: سليم وزرت؟ فقال لها: نعم، قالت: والله ماوزرت وبقي أحد، فضحك وأمر لها بصلة.

وكان العادل ابن السلار منذ استقر في الوزارة أخذ ينظر في أمر الأجناد المعروفين بالنهضة والعزم في أرزاقهم، وتفقد خزائن السلاح، وحفظ النواميس، وشد من مذهب أهل السنة، فقدم عليه الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، فأكرمه وبنى له مدرسة بالاسكندرية.

وقدم عليه مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، فأكرمه، إلا أنه كان يستوحش من الظافر وخائفا على نفسه فاحترز بأن انتدب رجالا يمشون في ركابه بالزرد والخوذ نحو الستائة ويجعلهم نوبتين بزمامين في كل يوم نوبة، وتوهم أن الخليفة خبأ له قوما يغتالونه بالقصر، فنقل جلوس الخليفة من القاعة التي يدخل إليها من الدهاليز المظلمة إلى الإيوان في البراح والسعة، فكان إذا دخل إلى الخليفة يدخل ومعه أولئك الذين انتدبهم كلهم، فيجلس الخليفة في الشباك بالإيوان ويجلس هو من خارجه، ومع هذا يبالغ في الخدمة ويظهر الطاعة، ولا يخل بها في قول ولا فعل.

وكان للخليفة غلمان نحو الخمسمائة رجل يقال لهم صبيان الخاص وفيهم من هو أمير، فبلغ ابن السلار أنهم قد تحالفوا وتعاهدوا على أن يهجموا عليه وهو في داره ليلا ويقتلوه، فلما كان في سادس عشري رمضان أغلق القاهرة والقصور وأحاط بصبيان الخاص وقتلهم، وفر منهم عدة، فكتب إلى الولاة بقتل من ظفر به منهم، وأخذ يتبعهم حتى أتى على أكثرهم.

وأصل هذه الطائفة التي كانت تعرف بصبيان الخاص أن من مات من الأمراء والأجناد وعبيد الدولة وله ولد فإنه يحمل إلى حضرة الخليفة ويودع في أماكن مخصوصة، ويؤخذ في تعليمه أنواع الفروسية من الرمي وغيره، ويقال لهم صبيان الخاص.

وأخذ ابن السلار في الاحتفال بأمر عسقلان وسد خللها، وحمل إليها من الغلال والأسلحة شيئاً كثيراً.

وولى عضد الخلافة ناصر الدين نصر بن عباس ربيبه مصر بشفاعة جدته أم عباس، وكان فيه جرأة، فاستدعاه الخليفة الظافر وقربه واختص به.

وفيها قتل الموفق أبو الكرم محمد بن معصوم التنيسي في يوم الجمعة الرابع من شوال، وكان يتولى نظر الديوان، وذلك أن ابن السلار لما كان في بداية أمره من جملة الصبيان الحجرية دخل يوماً على الموفق ابن معصوم برسالة وأعادها عليه مراراً وأغلظ له في القول فنفرت منه نفس ابن معصوم، فكتب له مرة منشور بإقطاع وجاء به إلى ابن معصوم ليثبته، فلما رآه تغافل عنه وأهمل أمره إهانة له وكراهة فيه، فقال له ابن السلار وقد تكرر سؤاله وهو يعرض عنه: ماتسمع؟ فقال له الموفق: كلامك ما يدخل في أذني أصلاً، فولى ابن السلار وخرج من غير أن يكتب له، وصرف الدهر ضرباته، وصار ابن السلار وزيراً وابن معصوم ناظر الدواوين، فلما دخل عليه قال له: يا قاضي، ما أظن كلامي يدخل أذنك، فتلجلج وقال: عفو السلطان، فقال: قد استعملت العفو بخروجي من عندك وأشار لبعض خدمه فأحضر مسماراً حديداً عظيم الخلق، وقال: والله هذا أعددته لك من ذلك الوقت، وأمر به فجر وضرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة وعلق عليها ميتاً، ثم أنزل بعد أيام.

وفيها رمي برأس سعيد السعداء الخادم من القصر في سابع عشر شعبان، ثم أخرج وصلب بباب زويلة من ناحية الخرق، وهو هذا الذي تنسب إليه دويرة سعيد السعداء التي هي اليوم خانقاه برحبة باب العيد.

وفيها قتل تاج الرئاسة ابن المأمون البطائحي في رابع عشر صفر.

وفيها مات أبو الحسن علي بن الحسن البيساني، والد القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي، وكان قاضي بيسان والناظر فيها، ومولده في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسة، ومولد أبيه الحسن يوم عيد الغدير من ذي الحجة سنة ستين وأربعمائة (١٣٠).

سنة خمس وأربعين وخمسة

فيها أغار جمع كثير من الفرنج على الفرما ونهبوها، وحرقوها وأخربوها، في رجب.

سنة ست وأربعين وخمسة

فيها جهز أبو منصور علي بن إسحاق، المعروف بالعاذل ابن السلار، المراكب الحربية بالرجال والعدد، وسيرها في ربيع الأول إلى يافا، فأسرت عدة من مراكب الفرنج، وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقا كثيرا من الفرنج بها، ثم توجهوا إلى ثغر عكا فأنكروا فيه، وساروا منه إلى صيدا وببيروت وطرابلس فأبلوا بلاء حسنا، وظفروا بجماعة من حجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم.

وبلغ ذلك الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، ملك الشام، فعزم على قصد الفرنج ومحاربتهم في البر، ولو قدر ذلك لقطع الله دابر الفرنج، لكنه اشتغل بإصلاح أمور دمشق.

وعاد الأسطول مظفرا بعدما انفق عليه العادل ثلاثمائة ألف دينار، وسبب مسير الأسطول تخريب الفرنج للفرما.

وفيها قطع العادل بن السلار جميع الكسوات المقررة للناس في الدولة فعم ذلك الأمراء والدواوين وغيرهم.

سنة سبع وأربعين وخمسة

فيها صرف ابن السلار أبا الفضائل يونس عن القضاء، وكان من الأعيان النزهين الأنفس، الكبيرين الهمم، العظيمين القدر، لم يشرب قط ماء النيل بل ماء الآبار، ولم يأكل خبز السلطان، وقرر عبد المحسن بن محمد بن مكرم من بعده؛ ثم صرفه وولى بعده بدر بن ثمال بن نصير، وقيل بل الذي تولى بعده أبو المعالي محمد بن جميع بن نجا الأرسوفي الشافعي.

سنة ثمان وأربعين وخمسة

فيها خرج العسكر من القاهرة لحفظ ثغر عسقلان من الفرنج، وكانوا قد نزلوا عليها في السنة الخالية، وكانت العادة أن يخرج في كل ستة أشهر عسكر بدلاً من العسكر الذي بالثغر. فلما قدم البدل كانت النوبة لركن الدين المظفر أبي منصور عباس بن تميم ربيب العادل، فخرج ومعه من الأمراء ابنه نصر بن عباس، والأمير ملهم، والضرغام، وأسامة ابن منقذ وغيره، وكان لأسامة بعباس اختصاص كبير.

فلما نزلوا بعد رحيلهم من القاهرة على بليس تذكر عباس وأسامة مصر وطيبها وما هم خارجون إليه من مقاساة السفر ولقاء العدو، فتأوه عباس أسفاً على مفارقتة لذاته بمصر، وأخذ يلوم العادل ويشرب عليه من أجل كونه أخرجته. فقال له أسامة: لو أردت كنت أنت سلطان مصر، فقال: وكيف لي بذلك؟ فقال: هذا ولدك ناصر الدين بينه وبين الخليفة مودة عظيمة، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك، فإنه يحبك ويكره عمك؛ فإذا أجابك فاقتل عمك، فوقع هذا الكلام

من عباس بموقع وقبله، فاستدعى ابنه وأسر إليه بما تقرر بينه وبين أسامة وسيره سراً إلى القاهرة.

وكان العادل قد كره تخصيص نصر بن عباس بالخليفة الظافر، وقال لعباس (وأمه): والله ما ينبغي اجتماع نصر بالخليفة؛ قولاً له يقصر من اجتماعه فربما نتج من شاين ما لا ينبغي، وقال لأم عباس: لا يدخل ابنك داري إلا بإذني. فكأنه يوحى بأنه قاتله.

فلما سار نصر من عند أبيه ودخل إلى القاهرة كان وقت غفلة من العادل أمكنته فيها الفرصة، فاجتمع بالظافر وأعلمه بالحال التي قدم من أجلها، فأعجبه ذلك وأذن فيه، لما كان في نفسه من قتل ابن السلار لصبيان الخاص وغير ذلك. ففارق نصر الخليفة وقد قوي عزمه، وأتى إلى دار جدته السيدة بلارة بنت القاسم زوجة العادل، وأخبر العادل بأن أباه سمح له بالعود إلى القاهرة شفقة عليه وخوفاً من وعشاء السفر، فقبل ذلك ومشى عليه، فلما أصبح العادل يوم الخميس سادس محرم مضى من أول النهار إلى مصر لتجهيز المراكب الحربية والنفقة في رجاها وعرضها؛ فظل نهاره في تهيئة ذلك ليلحق عباساً، وعاد في أثناء النهار إلى داره بالقاهرة وقد لحقته مشقة وتعب تعباً كثيراً. فلما استلقى على الفراش لينام، وكانت امرأته جدة نصر قد توجهت إلى الحمام وخلا له البيت؛ فجاء إلى بيت السر ودخل منه ومعه سيف، فإذا العادل قد نام وقت القائلة، فاخترط سيفه وضربه وهو خائف، فوقعت الضربة على رجله، فثار من فراشه وأبصره، فقال: إلى أين يا كليب! وخرج نصر يعدو، وكان قد أعد ستة من أصحابه، فلما صار إليهم وأعلمهم بما وقع قالوا له: قد قتلت نفسك وقتلتنا ودخلوا وهو معهم، فإذا به قد جاء أستاذ من خدامه وهو يحدثه فقتلوه وأخذوا رأسه، فطلع بها نصر إلى الظافر. وماج الناس في القاهرة.

وسرح الطائر للوقت بطلب عباس من بلبس، فقام من فوره وصار إلى القاهرة، فدخلها بكرة يوم الجمعة سادس محرم، ثاني يوم قتله العادل؛ فوجد جماعة من الأتراك كان العادل اصطفاهم واختصهم قد نفروا وتوحشت قلوبهم مما وقع؛ فأخذ يسكن أمرهم، فلم يثقوا به ولا اطمأنوا إليه، وخرجوا يداً واحدة فساروا إلى دمشق.

وكانت قتلة العادل في يوم الخميس وقت الظهر السادس من المحرم، وله في الوزارة ثلاث سنين وستة أشهر.

ولما حملت رأسه إلى الظافر أشرف من باب الذهب، ونصبت الرأس ليراها الناس، ثم حملت إلى خزانة الرؤوس من بيت المال فأودعت فيها مع الرؤوس، وما تحرك لها ساكن، ولا تكلم أحد. إلا أن نائحة كانت تسمى خسروان كانت قد مهتت في صناعة النياحة على الأموات، وصارت تنشئ في نواحيها الوقائع، فقالت فيه ترثيه سطرين أعجب بهما أدباء العصر من جملة قطعة:

ماتقبل الغفلة

يا شهيد السدار

يا شبيه ذي النورين

صاحب المختار

وبطل مسير العساكر إلى عسقلان، فسر الفرنج ما جرى، وكانوا محاصرين لعسقلان فقالوا لأهلها: سلطانكم قتله ابنه وأنتم تقتلون لمن؟ فلما صح الخبر لهم وهنوا لانقطاع المدد عنهم حتى أخذها الفرنج وقوا بأخذها. واستعرضوا كل جارية ومملوك بدمشق من النصارى، وأطلقوا قهراً من أراد منهم الخروج من دمشق إلى وطنه شاء صاحبه أو أبى.

ولما وصل عباس خلع عليه الظافر خلع الوزارة في يوم الجمعة المذكور،

ونعت بالأفضل ركن الإسلام، فباشر وضبط الأمور ، وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسيهم العادل.

واستمر ولده نصر على مخالطة الخليفة، فاشتغل به عن كل أحد، وأبوه لا يعجبه ذلك، وواصل الخليفة الظافر نصر بن عباس بن تميم بالعطاء الجزيل، فأرسل إليه في يوم عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار، ثم أغفله أياماً وحمل إليه كسوة من كل نوع؛ وأغفله أياماً وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار؛ وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغل رحل وأربعين جملاً بعددها وغرائرها وحبالها. وكان يتردد بينهما مرتفع بن فحل في قتل نصر لاييه عباس كما قتل زوج جدته العادل ابن السلار، فبلغ ذلك أباه على لسان أسامة بن منقذ فلاطفه واستماله. وزاد الأمر حتى كان الخليفة يخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس، التي هي اليوم المدرسة المعروفة بالسيوفية، فخاف عباس من جرأة ابنه وخشي أن يحمل الخليفة على قتله فيقتله كما قتل ابن السلار، فعتبه سرا ونهاه عن ملازمة الخليفة وأتبه ، فلم يفد فيه القول.

وفيهما وصلت مراكب من صقلية، فملكوا مدينة تنيس.

وفيهما مات رجار بن رجار صاحب جزيرة صقلية، وقام من بعده ابنه وليالم بن رجار بن رجار، فاسترد المسلمون سواحل إفريقية والمهدية (١٣١)

(١٣١) - في هذا الموضع بنسخة الأصل ، عقب نهاية أحداث سنة ٥٤٨، طيارة جاء فيها: « بخطه : وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ورد الخبر أن الفرنج أشرفوا على أخذ عسقلان فأمر بحمل رأس الحسين بن علي بن أبي طالب إلى القاهرة، فأخرج وله رائحة كالمسك ولم يجف دمه، ثم حمل في عشاري من عشاريات الخدمة مع مكنون الخادم وخرج معه

الأمير سيف المملكة متولي عسقلان، والقاضي المؤتمن ابن مسكين، فسارا بها حتى وضعوه في الكافور، فأدخل به من السرداب إلى قصر الزمرد.

وكان الإمام الظافر بأمر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ قد بنى المسجد المعروف اليوم بجامع الفكاكين ليضعه فيه، فجمع الظافر أهل بيته واستشارهم فأشاروا بأن يجعل الرأس عندهم في القصر، فدفن عند قبة الديلم من القصر بدهليز الخدمة، وصار كل من يدخل منه للخدمة يقبل الأرض أمام القبر، وكانوا ينحرون عنده كل يوم عاشوراء الإبل والبقر والغنم ويكثرون البكاء والنوح ويسبون من قتله، ولم يزالوا كذلك حتى زالت دولتهم، وكان وصول الرأس في يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة منها وحصل في القصر يوم الثلاثاء عاشره وأنشد القاضي ابن الزبير في دخول الرأس أبياتا نونية، منها:
مالنا نطلب ما بيننا ولا
نطلب إلا من الذي يبقى لنا
لهف قلبي على رؤوس نقلت
بعد سواها هنا بعد هنا

سنة تسع وأربعين وخمسة

فيها استدعى الظافر ناصر الدولة نصر بن عباس وأخرج له صينية من ذهب فيها ألف حبة ما بين لؤلؤ وياقوت أحمر وأصفر وزمرد أخضر ذباني، وأمر له من بيت المال عشرة آلاف دينار مصرية، فقتله بعد هذه الهدية بستة أيام، وذلك أنه خرج الخليفة الظافر متنكراً من قصره في ليلة الخميس سلخ المحرم ومعه خادمان، وسار على عادته إلى دار نصر بن عباس، فقتله نصر، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل سعد الدولة، أحد الخادمين اللذين خرجا معه من القصر، وفر الآخر.

وكان سبب قتله أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ عندما علموا أنه هو الذي حسن لعباس قتل ابن السلار وتحذثوا بقتله، وقيل للظافر عنه إنه غريب ومن دولة أخرى وإن في تركه وقوع ما لا يمكن تداركه، فلما بلغ أسامة ذلك أخذ يغري عباساً بابنه نصر ويبالغ في القصة حتى قال له يوماً: كيف تصبر على ما يقول الناس في حق ولدك واتهامهم الخليفة أنه يفعل به ما يفعل بالنساء. فشق على عباس ولام ابنه، فلم يصغ إلى لومه. فلما أنعم الظافر على نصر بناحية قليوب وحضر إلى أبيه ليعلمه بذلك قال أسامة، وكان حاضراً: ماهي بمهرك غالية، فامتعض لذلك عباس وقال لأسامة: كيف الحيلة في الخلاص مما بلينا به؟! فقال: هين؛ هذا الخليفة في كل وقت يأتي إلى عند ولدك في داره خفية، فمره إذا جاء أن يقتله، فاستدعى عباس ابنه وقال: يا بني قد أكثرت من ملازمة الخليفة وتحذث الناس في حقك بما أوجع باطني، وقد يصل من هذا إلى أعدائنا ما لا يزول، فاحتد نصر وقال له: أيرضيك قتله؟ فقال: أزل التهمة عنك كيف شئت. فأخذ حيثنذ نصر يعمل الحيلة في قتل الظافر وسأله أن يخرج إلى داره ليلاً في سر من الخدم ليتفصحا في منزله ليلة واحدة؛ وكان منزله دار المأمون البطائحي. فخرج إليه في عدة يسيرة من الخدم؛ فلما تحصل عنده اغتاله، وقتل الخدم الذين معه بالجماعة الذين قتل بهم العادل ابن السلار، ورمى بهم في جب عنده، وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء فصارت من جملة رخام المجلس، فخفي أمره، ثم مضى نصر إلى أبيه وعرفه قتل الظافر.

وكان الظافر من أحسن الناس صورة، وقتل وله من العمر إحدى وعشرون سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً، منها مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأربعة عشر يوماً. وكان محكوماً عليه من الوزراء.

وفي أيامه أخذ الفرنج عسقلان واستولوا عليها، وظهر الوهن والخلل في الدولة، فإنه كان كثير اللهو واللعب مع جواريه، مقبلاً على سماع

المغنى، وهو الذي أنشأ الجامع المعروف الآن بجامع الفكاهين في خط
الشوائين من القاهرة.

وفيها ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر
دمشق من مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، فسار أبق
إلى بغداد، ومات بها.

وكان عند الإمام الظافر ببغاء بيضاء تقرأ المعوذتين وتستدعي كثيراً
من الأستاذين بأسمائهم ونعوتهم.

الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله
أبي المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد
المجيد

يقال في اسم أمه ست الكمال، ويقال إحسان، ولد يوم الجمعة حادي
عشر المحرم، وقيل لتسع بقين من المحرم، سنة أربع وأربعين وخمسمائة؛
وبويع له عند قتل أبيه يوم الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين
 وخمسمائة، وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يوماً وكان من خبره أنه لما
قتل نصر بن عباس الخليفة الظافر في ليلة الخميس أصبح الوزير عباس
متوجهاً إلى القصر في يوم الخميس على العادة، فلما صار إلى مقطع
الوزارة، وطال جلوسه والخليفة لم يجلس استدعى زمام القصر مفلحاً
وقال له: إن كان لمولانا ما يشغله عنا في هذا اليوم عدنا إليه في الغد،
فمضى الزمام وهو حائر لا يدري ما يعمل وأعلم أخوي الظافر: يوسف،
وجبريل، وكانا رجلين وأحدهما مكتهل، فأخبرهما بالقصة، ولم يكن
عندهما من خروج أخيهما إلى دار نصر بن عباس خبر ولا علماً إلا في
تلك الساعة؛ فلم يشكا حينئذ أنه قتل، وقالاً للزمام: هبك اعتذرت
اليوم هل يتم لك هذا مع الزمان؟ فقال: فما تأمراني؟ فقالا: اصدقه
وحاqqه. فعاد إليه وقال: ثم سر ألقه إليك بحضور الأمراء الأستاذين.
فقال: ما ثم إلا الجهر، فقال: إن الخليفة خرج البارحة لزيارة ولد لك
فلم يعد بغير العادة. فقال: تكذب يا عبد سوء، وإنما أنت مبائع أخويه
يوسف وجبريل اللذين حسداه على الخلافة واغتالاه فاتفقتما على هذا
القول. فقال: معاذ الله. قال: فأين هما؟ فخرجا إليه ومعهما ابن عم لهما
يقال له أبو التقى صالح بن حسن بن (عبد المجيد بن محمد بن
المستنصر)، فقال: حضرا. فقال لهما: أين الخليفة؟ فقال الثلاثة: هو
بحيث يعلم ابنك ناصر الدين، قال: لا، وإنما أنتما قتلتماه حسداً له.
قالا: هذا بهتان منك لأن بيعة أخينا في أعناقنا وهؤلاء الأمراء الحاضرون

يعلمون ذلك، وإننا لفي طاعته بوصية أئينا، فكذبهما، وأمر غلمانہ فقتلوهم، الثلاثة.

وكان في القصر ألف سيف مجردة، فشوهد أمر قبيح لم ير أشنع منه لما جرى فيه من البغي الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق.

وقال لزمام القصر: أين ابن مولانا؟ فقال: حاضر . قال: قدامي إلى مكانه. فدخل بنفسه إليه، وكان عند جدته لأمه، فحمله على كتفه وأخرجه للناس قبل أن يرفع القتلى، وبويع بالخلافة، ولقب بالفائز بنصر الله؛ وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يوماً؛ وصار يشاهد القتلى فحصل له فزع واضطراب، وما زال مدة خلافته لم يطب له عيش لأنه كان يصرع كل قليل (١٣٢).

١٣٢ - في مقابلة هذا الوجه ورقة مفردة كتب عليها:

« بخط المصنف في نصف ورقة ملفوفة بهذا المحل: ولما فعل عباس بأولاد الخافظ ما فعل حنقت عليه قلوب الناس وأضمروا العداوة والبغضاء. وكاتب من في القصر من بنات الخافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك يستصرخون به، فحشد وخرج من البهنسا يريد القاهرة، وبلغ ذلك عباساً، فخرج في العساكر يوم الخامس عشر من صفر وجعل ابنه ناصر الدين نصراً على القاهرة، فلما خرج قام عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال في الشوارع، فأسرع الناس وفتحوا أبواب القاهرة. فلما جاءهم واستدناهم انهزموا، فلما تحقق عداوة الجند والأمراء علم أنه لا مقام له بينهم وعزم على قصد الشام واللحاق بنور الدين الشهيد ليستنجد به، هذا والرسل تتردد بين القصر وبين طلائع وهو يستهبل الأمراء إليه ويبعث إليهم، فلما بلغ ذلك عباساً استحلف

الأمراء أنهم لا يخونونه ولا يخامرون عليه، وأحضر مقدمي العرب من رؤساء رزيق وحزام وسنبس وطلحة ولواتة وحلفهم بالمصحف وبالطلاق على مثل ذلك، واهتم بأمر سفره بخيله وجماله، وكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجالة كعادة الوزراء بمصر ومائتا بغل للرحلة وأربعمائة جمل لحمل أثقاله، وله بالنجوم يريد أن يخرج في يوم السبت خامس عشر ربيع الأول بطالع أخباره، فما راعه بكرة الجمعة رابع عشره إلا والناس قد لبسوا السلاح وزحفوا إلى داره ورؤوسهم الأمراء الذين استحلفهم بألا يخونوه، فأمر فشدت دوابه وأوقفت على باب داره وصارت سدا بينه وبين المصريين بحيث لا يصلون إليه لزدحام الدروب، فخرج إليهم غلامه عنبر الكبير، وهو زمامهم، وصاح عليهم وسبهم وقال: روحوا إلى بيوتكم وبيتوا الدواب، ومضى الركابية والمكارية والحمالون وبقيت الدواب مهملة فوقع فيها النهب. وكانت الأتراك عند باب النصر والكتاب تنفق فيهم، فبعث إليهم عباس الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ليحضرهم، وهم ثمانمائة فارس، فركبوا كلهم وخرجوا من باب القاهرة منهزمين عن القتال، وركب المماليك، وهم أكثر من الأتراك، وخرجوا أيضا من باب النصر وعاد أسامة إلى عباس وعرفه ذلك، فاشتغل كل أحد بإخراج أهله، وخرجت خدم عباس وقد نهبت تلك الدواب بأجمعها وخلت الطريق ورجعت عساكر المصريين وأخرجوا عباساً ومن معه وهم في قلة والمصريون في كثرة. فلما خرج عباس من باب النصر أغلق المصريون أبواب القاهرة وعادوا إلى دور عباس وأصحابه فنهبوها، وتجمعت قبائل العربان الذين استحلفهم عباس وقتلوا عباساً خارج باب النصر من ضحى يوم الجمعة المذكور إلى يوم الخميس العشرين منه وسار، وهم يقاتلونه النهار كله فإذا جن الليل اغفلوا حتى ينام - يركبون في مائة فارس ويرفعون أصواتهم بالصياح فيأخذون الخيل ويأسرون الرجال، فلما كان يوم الأحد ثالث عشر صبحهم الفرنج في جمعهم على المويلح فقتلوا عباساً وابنه حسام الملك وأسروا ابنه ناصر الدين وأخذوا خدامه وحریمه

وقتلوا من ظفروا به ، وأسروا نجم الدولة أبا عبدالله محمد بن منقذ، وفر أسامة في طائفة إلى دمشق وهم في أسوأ حال، ودخلوها يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من سنة خمس وأربعين وخمسمائة »

ومن طريف ما وقع في هذا اليوم أن الوزير عباساً لما أراد الدخول إلى المجلس وجد بابه قد قفل من داخل، وكان متولى فتح المجلس وغلقه أستاذ شيخ يقال له أمين الملك، فاحتالوا في الباب حتى فتحوه ودخلوه، فإذا أمين الملك خلف الباب وهو ميت وفي يده المفتاح.

وفي أثناء ذلك حضر الخادم الذي أفلت من نصر إلى القصر وحدثهم بكيفية قتله الظافر، فكثرت النياحة عليه بالقصور ، وظن عباس أن الأمر قد استقام له، فجاء خلاف ما أمل، وأخذ أهل القصور في أعمال الخيلة عليه؛ وكان الأمراء والسودان قد نافروه واستوحشوا منه لما فعله بأولاد الحافظ، وأضمروا له العداوة والبغضاء ، فاختلفت عليه الكلمة ، وهاجت الفتنة، وصار العسكر أحزاباً ولبسوا السلاح، فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول، فكانت بينه وبينهم محاربة انكسروا فيها منه ، وقتل منهم جماعة. هذا وأهل القصر في تدبير العمل عليه، فبعثت عمة الفائز إلى فارس المسلمين أبي الغارات طلائع بن رزيك، وكان والياً على الأشمونين والبهنساء، بالكتب وفي طيها شعور النساء تستصرخ به على عباس؛ وكتب إليه أيضاً الجليس بن الحباب فامتعض عند وقوفه على الكتب ورؤية شعور النساء، وجمع العربان والأجناد مقطعي البلاد.

وبلغ ذلك عباساً، فخرج من القاهرة بالعساكر في عاشر صفر، وجعل ابنه ناصر بالقاهرة، وأنفذ إلى طلائع بحسين بن أبي الهيجاء، زوج ابنته، ليرده عما عزم عليه . فلما خلا به قال له : تقاتل عباساً وله خمسة

آلاف مملوك؟! قال: أقاتله بنفسي ونفسي. قال: أما الآن فنعم، وصار معه ففت ذلك في عضد عباس لشهرة حسين وشجاعته.

وعندما نزل عباس إلى إطفيح في بكرة يوم الثلاثاء، خامس عشره، لحق أعراب إطفيح بابن رزيك، فوافوه على أبويط^(١٣٣) فسار بهم ونزل دهشور^(١٣٤) فاضطرب عباس ورجع إلى القاهرة، وتفرق عنه الناس إلى طلائع بن رزيك، وصار من أهل البلد في مناكدة. وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال في الشوارع، فاستظهر عليهم عباس وفتحوا الأبواب وقد تحقق عداوة الأمراء والجند له.

واتفق أنه مر يوماً فرمي من طاقٍ ببعض الشوارع بهاون، ورمي مرة بقدرٍ مملوءة طعاماً حاراً؛ فقال: ما بقي بعد هذا شيء، وعزم على الفرار فلم يقدر، وغلقت أبواب القاهرة.

واشتغل الناس بهذا الحادث وهو يدبر في الخروج من القاهرة، فأشار عليه بعض خواصه بتحريق القاهرة فأبى وقال: يكفي ما جرى، فلما عدى طلائع بن رزيك إلى صول^(١٣٥) عول عباس وولده نصر على المسير من مصر بكل ما يملكه من مال وسلاح وما قدرا عليه من حواصل الدولة - وكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجال، ومائتا بغل رحل، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله - في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول بعد ما حلف الأمراء ألا يخونوه. وأحضر مقدمي العرب من رزيق وجذام وسنيس وطلحة وجعفر ولواته، وحلفهم.

فلما كان يوم الجمعة ركبوا عليه بكرة وتبعها أسامة بن منقذ وجماعة؛ وبلغ ذلك طلائع فسار ونزل قبالة المقس في عشية نهاره، وخرج الناس إلى المقابر، وبات في عشاري، وأصبح، فأقام إلى يوم الأربعاء تاسع عشره، فركب يريد القصر وقد خرج الأمراء إليه، منهم من قاتله ومنهم

من انضم إليه، فلم يكن غير ساعة حتى انجلى الأمر عن فرار عباس وولده وابن منقذ، فذهب الناس دورهم.

ودخل طلائع إلى القاهرة وشقها بعساكره في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول، وهو لابس ثياباً سوداء، وأعلامه وبنوده كلها سود، وشعور النساء التي أرسلت إليه من القصر على رؤوس الرماح، فكان هذا من الفأل العجيب، فإن الأعلام العباسية السود دخلت القاهرة وأزالت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة.

ونزل طلائع بدار المأمون التي كان يسكنها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل، فأعلمه بالحال، فمضى راجلاً من القصر إلى دار نصر بن عباس، واستخرج الظافر والأستاذ الذي كان معه، وغسلهما وكفنهما؛ وحمل الظافر في تابوت مغشى الأستاذون والأمراء ومشى طلائع وهو حاف قد شق ثيابه ومعه الناس بأجمعهم حتى وصل إلى القصر، فصلى عليه الخليفة الفائز، ودفن في تربة القصر مع آبائه.

وجلس الفائز بقية النهار وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد والجوهر، وخلع على ولديه، ونعت بالأجل الناصر، سند الإمام، زعيم الأنعام، مجير الإسلام، خدن أمير المؤمنين، وخلع على أخيه ونعت بنعوت الصالح قبل الوزارة؛ وخلع على حواشيه. وأجرى في الخلع مجرى الأفضل بالطيلسان المقور، وأنشئ له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح، ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك^(١٣٦)، وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر.

وكتب في سجله، على طرته، بخط الفائز: «لوزيرنا السيد الأجل الملك الصالح، ناصر الأئمة، كاشف الغمة، أمير الجيوش، سيف الإسلام، غياث الأنعام، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين، أبي

الغارات طلائع بن رزيك الفائزي؛ عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى أبدأً من كلمته، من جلالة القدر، وعظيم الأمر، وفخامة الشان، وعلو المكان، واستيجاب التفضيل، واستحقاق غايات المن الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه دون الخلائق إلى القيام بحق مشايعتنا وطاعتنا، مما يبعثنا على التبرع له ببذل كل مصون، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون؛ والذي يضمه هذا السجل من تقرّظه وأوصافه، فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعاف؛ ولذلك شرفناه بجميع التدبير والإنالة، ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة، والله تعالى يعضد به دولتنا، ويحوط به حوزتنا، ويمده بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غاية الاستمرار والتأييد إن شاء الله تعالى».

وكان سجلاً في غاية الطول والكبر، من إنشاء الأجل الموفق أبي الحجاج يوسف بن علي بن الخلال.

ونزل الملك الصالح بالخلع والأمراء وغيرهم من أهل الدولة مشاة في ركابه إلى دار الوزارة، فجلس للهناء، وتقدم الشعراء فأنشدوا عدة مدائح ذكروا فيها هذه الحالة والواقعة. وكانوا عدة، منهم عبد الرحيم بن علي البيساني، والقاضي الأجل الرشيد أحمد بن الزبير، والقاضي الجليس عبد العزيز بن الحسين بن الحباب، والقاضي السعيد جلال الملك الأشرف ضياء الدين أبو علي الحسن بن محمد بن محمد بن إسماعيل بن كاسيويه، وأبو محمد يحيى بن خير، الملقب ديك الكرم الشاعر، وغيرهم.

وأما عباس فإنه سار بمن معه يريد أيلة ليسير منها إلى بلاد الشام، فأرسلت أخت الظافر إلى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم

الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج إلى عباس، وأباحتهم جميع ما معه، وأن يبعثوا به إلى القاهرة، فأجابوها إلى ذلك، وخرجوا إليه، فلما أدركوه ثبت لهم ودافعهم عن نفسه، فخذله أصحابه وفروا عنه مع أسامة بن منقذ إلى الشام، فقاتل الفرنج حتى قتل؛ وأسر ابنه نصر فجعل في قفص حديد وحمل إلى القاهرة، فدخل به إلى القصر يوم الاثنين سابع عشرين ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وأخرج منه يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الآخر قتيلاً مقطوع اليد اليمنى، وصلب سحراً على باب زويلة، فكان يوماً عظيماً عند الناس. واستولى الفرنج على جميع ما كان معهم.

ولما سير الفرنج بنصر بن عباس إلى القاهرة أنشد عندما عاين البلد:
بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

وخرج الناس عند قدومه إلى القاهرة ليروه فبالغوا في سبه ولعنه، وبصقوا عليه، حتى دخل القصر وهو في القفص وقتل؛ قتله الجوّاري نخساً بالمسال وصفعاً بالنعال وقطعوا لحمه واشتروه وأطعموه إياه حتى مات، ثم خرج وصلب على باب زويلة، وأحرق بعد ذلك.

وتتبع الصالح من كان مع نصر بن عباس في قتل الظافر، فقتل قايماز وفتوح الأخرس وابن غالب صبراً بين يديه في جماعة معهم، وثبتت أموره فنعت نفسه بفارس المسلمين نصير الدين، الصالح؛ ومدحه الشعراء بذلك.

وشرع الصالح في الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم؛ وتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم نعمهم. وقبض على عدة من الأمراء وقتلهم في ثالث عشر ربيع الأول، وعلى عدة من أرباب العمام، منهم أبو الحسن علي بن سليم بن البواب ناظر الدواوين، وكان عارفاً بالحساب والمنطق والهندسة، مليح الشعر والترسل، جيد الكتابة.

وأخذ يعمل على الأمراء المتقدمين في الدولة ، مثل ناصر الدين ياقوت، صاحب الباب، وكان قد ناب عن الحافظ مرة في مرضة مرضها مدة ثلاثة أشهر وكاد يوليه الوزارة؛ ومثل الأوحى بن تميم، والى دمياط وتنيس، فإنه كان قد تحرك لما سمع قضية عباس وسار يريد القاهرة ، فسبقه طلائع بن رزيك بيوم، فصار يحقد عليه كونه همّ بأمرٍ ربما نال به الوزارة، غير أنه لم يسعه إلا إعادته إلى ولايته وأضاف إليها الدقهلية والمرتاحية وهو يسر له المكر.

وكان من أمراء الدولة تاج الملوك قايمان، وهو من أكابر الأمراء، ويليّه ابن غالب؛ فحمل الأجناد عليها حتى قتلا ونهبت دورهما.

ثم إنه قلق من قرب الأوحى منه وأراد إبعاده عنه، فنقله من ولاية دمياط وتنيس إلى ولاية سيوط وأخميم؛ فخلت له القاهرة، وأظهر مذهب الإمامية وباع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سعراً ومدة ستة أشهر فقط؛ فتضرر الناس من كثرة ترداد الولاة عليهم.

وضيق مع ذلك على أهل القصر طمعا في صغر سن الخليفة ، وجعل له مجلساً يحضره أهل الأدب في الليل وطارحهم فيه الشعر، فهرع إليه الناس ودوّنوا ما ينظمه من الشعر، وكان ابن الزبير يعينه على إصلاحه وتنميته.

فيها صرف الصالح عن قضاء القضاة أبا المعالي مجلي بن جميع، الفقيه الشافعي، وولى القاضي المفضل أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم في أخريات شعبان.

فيها بلغ التليس ستة دنانير.

فيها مات القاضي المرتضى أبو عبد الله محمد بن الحسين الاطرابلسي،

المعروف بالمحنك، وكان قد ولي نظر الدواوين والخزائن ؛ وله تاريخ خلفاء مصر قطع فيه على الحافظ.

ومات ركن الخلافة أبو الفضل جعفر فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، أخو الوزير المأمون ابن البطائحي، وصلى عليه الصالح.

وفيهما كتب المقتفي لأمر الله العباسي عهداً لنور الدين محمود بن زنكي، صاحب دمشق بولاية مصر والساحل، وبعث إليه بمراكب وتحف وأمره بالمسير إليها لما بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده وهو صغير، وقيل له قد اختلت أحوال الدولة بمصر.

سنة خمسين وخمسمائة

فيها مضى الأسطول إلى ميناء صور فملكها وقتل من فيها وأخربها وأحرقها، وعاد مظفراً بعدة مراكب فيها حجاج من النصارى وغيرهم، وبعده كبيرة من الأسرى وبغنائم جزيلة.

وفيهما خرج علي الصالح الأمير الأوحى بن تميم، والي إخميم وأسيوط، وجمع جمعاً موفوراً، فسير إليه الصالح عدة من العسكر، فكانت بينهما عدة رنائع أُنفرت عن قتله الأوحى في يوم الأربعاء سابع عشر رجب.

وفيهما قدم الفقيه نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي اليماني الحكمي في شهر ربيع الأول، برسالة قاسم بن فليته أمير الحرمين؛ فأحضر في قاعة الذهب من القصر يوم السلام، وقد جلس الخليفة الفائز وحضر الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك والأمراء، على العادة؛ فأدى الرسالة وأنشد:

الحمد للئيس بعد العزم والهمم
حمد أيقوم بما أولت من النعم

لا أجد الحق، عندي للركاب يدٌ
تمنت اللحم فيها رؤية الخطم
قربن بُعد مزار العز من نظري
حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم
وفداً إلى كعبة المعروف والنعم
فهل درى البيت أني بعد فرقته
ماسرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها
بين النقيضين من عفو ومن نقم
ولإمامة أنوار مقدسة
تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا
على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم أعلا تعلمنا
مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلا السن تشي محامدها
على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها
يبد الرفيعين: من مجد ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقدمي الدين والدين وأهلها
وزيره الصالح الفراج للغم
اللابس الفخر لم تنسج غائله
إلا يد الصنعين: السيف والقلم
وجوده أوجد الأيام ما اقترحت
وجوده أعدم الشاكين للعم

قد ملكته العوالي رق مملكة
تغير أنف الثريا عزة الشمم
أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني
في يقظتي أنها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أمني
ولا ترقى إليّ رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنولي فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
تري الوزارة فيه وهي باذلة
عند الخلافة نصحاً غير متهم
عواطف علمتنا أن بينهما
قربة من جميل الرأي لا الرحم
خليفة ووزير مدد عدلها
ظلاً على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضها
فما عسى يتعاطى منة الدائم

فكان الصالح يستعيد أبياتها في حال الإنشاد مراراً، والأمراء
والأستاذون يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ثم أفيضت عليه خلع
الخليفة المذهبة، ومنح له الصالح خمسمائة دينار، وأخرجت إليه السيدة
الشريفة بنت الحافظ مع الأستاذين خمسمائة دينار أخرى؛ وحمل المال معه
إلى منزله، وأطلقت له من دار الضيافة رسوم جليلة؛ وتهادته أمراء الدولة
إلى منازلهم للولائم.

واستحضره الصالح للمجالسة، ونظمه في سلك أهل الموانسة،
وانثالت عليه صلواته، وغمره ببره. وصار يحضر في الليل عنده مع الشيخ
الجليل أبي المعالي ابن الحباب، والشيخ الموفق ابن الخلال، وأبي الفتح
محمود بن قادوس، والمهذب أبي محمد الحسن بن الزبير، وولد الصالح مجد

الإسلام (رزيك) ، وصهره الأجل المظفر الأمين ، سيف الدين حصن المسلمين، ذي الفضائل والمناقب، يمين أمير المؤمنين، أبي عبد الله الحسين بن الأمير فارس الدولة أبي الهيجاء الفائزي الصالح، وأخيه فارس المسلمين بدر بن رزيك؛ وقريبه عز الدين حسام، وضرغام، وعلي ابن الزبد، ويحيى بن الخياط، ورضوان بن جلب راغب، وعلي هوشات، ومحمد بن شمس الخلافة ، وهؤلاء أهل مجلس الليل.

وأنشده يوما وهو في القبو من دار الوزارة قصيدة منها:
دعوا كل برقٍ شمتهم غير براق
يلوح على الفسطاط صادق نشره
وزوروا المقام الصالح، فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العال تظفروا بها
فكل امرئ يرجى على قدر قدره

فرمى إليه الخريطة فوجد فيها خمسمائة وخمسين ربا عيا، ومدحه في شعبان بقصيدة فدفع إليه الخريطة ، فإذا فيها ثلاثة وسبعون دينارا.

ثم لما عزم على الرجوع ودع الخليفة والصالح بن رزيك بقصيدة، فأوسعاه إكراماً وإنعاماً، ورسم أن يكون تسفيره خمسمائة دينار كما كانت وفادته، وبعثت إليه السيدة مثل ذلك؛ وخلع عليه للسفر، ودفع له الصالح مائتا دينار. وكتب له إلى ناصر الدولة والي قوص بمائة إردب من القمح وحملها من مال الديوان إلى مكة، وكتب له كتاب إلى محمد بن عمران، صاحب عدن، ببراءته من ثلاثة آلاف دينار وإسقاطها عنه.

وسار في شوال إلى مكة فتسلم القمح من قوص وحمل معه إلى مكة

من مال الديوان . ولما وقف صاحب عدن على الكتاب أبرأه من الثلاثة آلاف دينار وأسقطها عنه، فسير إلى الصالح بقصيدة من عدن يشكره على ذلك؛ فلما وقف عليها قال: قد فرطنا فيه حين تركناه يخرج من عندنا، ولقد كان إمساكه للخدمة والصحبة أولى.

ثم عاد بعد ذلك بمدة، واستقر بعد ذلك من جملة خدام الدولة وخواصها.

فيها مات الفقيه أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا المخزومي القرشي الأرسوفي الشافعي، صاحب كتاب الذخيرة في الفقه.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها نزع السعر ووقع الغلاء بديار مصر، فلاحق الناس منه شدة.

سنة اثنين وخمسين وخمسمائة

فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج وبين المصريين، فشرع الصالح في النفقة على العساكر وعربان البلاد للغارة على بلاد الفرنج. فأخرج سرية في سابع عشر جمادى الأولى وأتبعها بأخرى في رابع عشر جمادى الآخرة؛ فوصلت الأولى إلى غزة ونهبت أطرافها، ثم سارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت مظفرة غانمة، ثم ندب سرية ثالثة، فمضت إلى الشريعة^(١٣٧) فأبليت بلاءً حسناً وعادت مؤيدة، وسير المراكب الحربية فانتهدت إلى بيروت وأوقعت بمراكب الفرنج وأسرت منهم وغنمت، وسير عسكرياً في البر إلى بلاد الشوبك فعاثوا فيها وغاروا ورجعوا بالغنائم في رجب ومعهم كثير من الأسرى، ثم سير الأسطول إلى عكا فأسروا نحواً من سبعمائة نفس بعد حروب كثيرة، وعاد الأسطول في رمضان. وجهاز سرية فغارت على بلاد الفرنج وعادت بالغنائم في

رمضان، ثم ندب سرية في أول ذي القعدة وأردفها بأخرى في خامسه فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق وعادوا غانمين.

وفيهما قدم رسول نور الدين محمود صاحب دمشق.

وفيهما كسرت مراكب للفرنج فيها حجاج منهم على ثغر الإسكندرية، فقبض عليهم نائب الثغر وجهزهم.

وفي سلخ ذي الحجة قبض الصالح على الأمير ناصر الدولة ياقوت والي قوص وعلى أولاده واعتقلهم من أجل أنه بلغه عنه أنه كاتب أخت الظافر وقصد القيام على الصالح وأخذ الوزارة، وكان ناصر الدولة في ولاية قوص من أيام عباس، ولما استدعى أهل القصر طلائع من الأشمونين لم يجسر على الحركة حتى كتب إلى ناصر الدولة يعلمه بذلك ويستدعيه ليكون له الأمر، فأعاد جوابه يظهر الزهد في ذلك وأنه تركه من أيام الخليفة عن قدرة، ظناً منه أن طلائع لا يصلح ولا يتم له ما يريد من مقاومة عباس؛ فخاب رجاءه، ولم يزل به الصالح حتى أودعه السجن، ولم يزل به حتى مات فيه في رجب من الآتية.

وفيهما أحضر إلى القاهرة رجل كامل الأعضاء سريع الحركة، طوله من رأسه إلى قدمه أربعة أشبار، وله عدة أولاد؛ فدخل على الصالح حتى رآه.

في هذه السنة زلزلت الشام زلازل عظيمة أخرجت حصن شيزر، وأكثر حماة وبعض كفر طاب وأفامية؛ وزلزلت في حلب وغيرها من البلاد؛ وكانت بدمشق خفيفة لم تخرب شيئاً، ودامت مدةً بأرض الشمال.

وفيهما سقطت دار بخط سوق وردان من مدينة مصر هلك بها جماعة من سكانها، من جملتهم امرأة ترضع ولداً أخرجت من تحت الردم ميتة،

وأخرج الطفل ابنها في ثاني يوم وهو حي، فسلم إلى من ترضعه، وعاش حتى بلغ مبالغ الرجال.

واتفق أيضاً في هذه السنة أن السيد أبا النقاء صالحاً كان يخدم في عمالة الرباع السلطانية بمصر، ومما يجري فيها دار ابن معشر عند فم السد الذي يفتح كل سنة عند كسر الخليج إذا كان وفاء النيل، فإذا كان قرب الوفاء رسم بمرمة هذا الدار، فرمت وأسكنت في موسم الخليج، فيتحصل من أجرتها في يوم وليلة ما يتحصل من أجرة سنة كاملة، فرمها في هذه السنة وأسكنها على العادة، وسكن في بيت تحتاني منها، فامتألت جميعها حتى لم يبق فيها ما يسع أحداً، فسقطت وهلك جميع من فيها إلا هو، فإنه أخرج بعد يومين من تحت الردم فيه رمق فبرأ وعاش مدة طويلة، ثم طلع يوماً وهو عجل إلى منزل سكناه بحارة الروم من القاهرة فاندق ساقه في درجة حدث بها خدش يسير فمات منه.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

في المحرم جهز الصالح أربعة آلاف وأمر عليهم شمس الخلافة أبا الأشبال ضرغاماً للغارة على بلاد الفرنج، فساروا في صفر إلى تل العجول (١٣٨) وحاربوا الفرنج في النصف منه، فانهزموا من المسلمين هزيمة قبيحة عليهم، وسير عسكرياً آخر في شعبان، فواقعوا الفرنج على العريش وعادوا ظافرين بعدة غنائم ما بين خيول وأموال.

وفيهما قدم رسول الملك العادل محمود بن زنكي؛ وقدمت رسل الفرنج يسألون في الصلح؛ ورسول صاحب قسطنطينة يسأل إسعافه بمراكب نجدة له من صاحب صقلية.

وفيهما خرجت من القاهرة سرية إلى بيت جبريل وعادت غانمة،

وسار الأسطول في يوم الجمعة ثالث عشري ربيع الآخر فانشئ إلى تنيس في الثامن من شعبان وأقلع منها إلى بلاد الفرنج.

وفي سادس عشري ربيع الآخر قدم أسطول الاسكندرية وقد امتلأت أيدي الغزاة بالغنائم. وفي ربيع الآخر سار عسكر إلى وادي موسى فنزل على حصن الوعيرة وحاصره ثمانية أيام ، وتوجه إلى الشوبك وأغار على ما هنالك؛ وأقام أميران على الحصار وعاد بقية العسكر.

وفي التاسع من جمادى الأولى سار عسكر إلى القدس فخرّب وعاد بالغنائم. وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية كسر فيها الفرنج وانهزموا، فأخذ الصالح في النفقة على طوائف العسكر، وكان جملة ما أنفقه فيها مائة ألف دينار، فلما تكامل تجهيزهم سير خمس شوانٍ في الخامس من شعبان، ودوخت سواحل الشام، وظفرت بمراكب من مراكب الفرنج وعادت بكثير من الغنائم والأسرى في الثاني والعشرين من رمضان، وخرج العسكر في البر وقد ورد الخبر بحركة متملك العريش يريد الغارة على أطراف البلاد. فلما بلغه سير العسكر لم يتحرك ، ورجع العسكر.

وجّهز رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج، وكتب إليه الصالح كتاباً ضمنه قصيدة يحرضه فيها على قتال الفرنج، فوصلت إليه في سادس عشر من شهر رمضان، فلبس نور الدين خلعة الملك الصالح طلائع، وانقضت السنة في تجهيز العساكر في البر والبحر ومسيرها وعودها بالغنائم الكثيرة والأسارى العديدة، منهم القمص صاحب قبرص ، فأكرمه الصالح وبعث به إلى ملك القسطنطينية. وكثرت الغنائم من الفرنج بالقاهرة حتى امتلأت الأيدي بها.

وقال الصالح في هذه الغزوات عدة قصائد مطوّلة.

وفيهما مات القاضي المفضل كافي الكفاة محمود بن القاضي الموفق
إسماعيل بن حميد القاضي، المعروف بابن قادوس، في سابع المحرم؛
فحضر الصالح إلى داره بمصر ومشى في جنازته حتى صلى عليه،
ومضى إلى تربته عند مسجد الأقدام^(١٣٨) بالقرافة، وكان من أمثال
المصريين وأعيان كتابهم، مقدماً عند الملوك . وله ديوان شعر.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

في شهر ربيع الأول ، في خامسه، قدم رسول الفرنج بهدية لطلب
الهدنة.

وقدم رسول نور الدين يخبر بأنه متوجه نحو بلاد الفرنج، وأشار
بإخراج عسكر نحوهم؛ فخرجت سرية إلى غزة، وعاد رسول نور الدين ،
وهو الحاجب محمود المسترشدي، وصحبته الأمير عز الدين أبو الفضل
غسان بن محمد بن جلب راغب الأمري؛ وكانا قد توجهها إلى نور الدين
في السنة الخالية وخرجا من دمشق في نصف صفر، فندب الصالح
العساكر للغارة، وأنفق في ستة آلاف وخمسمائة فارس، فساروا في سادس
جمادى الأولى، وتوجه الأسطول في البحر، وذلك أن ملك القسطنطينية
أراد غزو بلاد ابن لاون، صاحب أرمينية فبعث يعلم نور الدين بذلك،
فكتب نور الدين يستنجد الملك الصالح على الفرنج، فأنجده بذلك.
وفي سلخ جمادى الآخرة عاد العسكر غانها.

وفي (هذه السنة) خرج الأمير عز الدين أبو المهند حسام ابن الأمير
الأسد جلال الدين فضة، وهو ابن أخت الملك الصالح، على عسكر
لقتال طرخان بن سليط بن طريف والي الإسكندرية وقد جمع العربان
وغيرهم وخلع طاعة الصالح.

وفيهما بنى الصالح على بلبس حصناً من لبن.

فيها توفي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الفضل بن منصور بن أحمد بن يونس بن عبد الرحمن بن الليث بن المغيرة بن عبد الرحمن بن العلاء بن الحضرمي في شهر رمضان بالإسكندرية. وقد حدث فسمع منه السلفي؛ وهو آخر من حدث عن الحبال. ومولده لست بقين من ربيع الآخر سنة ست وستين وأربعمائة.

وتوفي الفقيه أبو الحسن وحشي بن عبد الغالب العادلي السعدي بمنية زفتي؛ وأخذ عن الطرطوشي وغيره.

وتوفي بمصر أبو القاسم عبد السلام بن مختار اللغوي؛ وسمع من بركات وغيره؛ وقرأ على العقبى. وله مدائح في الصالح بن رزيك وكان متصداً بالجامع العتيق.

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

فيها خرج إسماعيل، المعروف بروق، من القاهرة في ليلة الخميس حادي عشر المحرم، ولحق بأخيه طرخان والي الإسكندرية وقد جمع لحرب الصالح، فخرج إليه المظفر عز الدين حسام والأمير مجد الخلافة أسد الدين ورد على عسكر، ولحقهم المظفر سيف الدين حسين.

وقد برز إسماعيل من الإسكندرية في جموعه وخيم على دمنهور، وتلقب بالملك الهادي؛ فطرقه العسكر، فهرب واختفى بالجيزة، فقبض عليه في سابع عشره. وعاد العسكر في ثالث عشره، فهرب طرخان من معتقله في رابع ربيع الآخر، وظفر به في سادسه، فصلب على باب زويلة، ثم ضربت رقبة إسماعيل في ثامنه، وصلب إلى جانب أخيه.

وكان أبو طرخان قرّانا، فترقى طرخان في أيام الفتن حتى ولاه الصالح الإسكندرية في سنة ثلاث وخمسين . وقال الشعراء في صلبه عدة قصائد.

وفيهما مات الخليفة الفائز بنصر الله ليلة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رجب؛ ومولده يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وستة أيام، منها مدة خلافته ست سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوماً ولم يلتذ بالخلافة ولا رأى فيها خيراً، فإن أباه لما قتل وبكر عباس إلى القصر وفحص عن الخليفة الظافر وقتل أخويه وابن عمه لينفي عن نفسه وابنه التهمة، ودعى إلى القصر واستدعى ابن الظافر هذا وحمله على كتفه وله من العمر نحو الخمس سنين، ووقف به في صحن القاعة وأمر الأمراء فدخلوا عليه، فلما مثلوا بالقاعة قال لهم: هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه، والواجب إخلاص الطاعة لهذا الطفل، فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة اضطرب منها الطفل وداخله من تلك الصيحة، مع ما شاهده من رؤية عمه والخدام وهم في دمائهم، ما خبل عقله، وبال على كتف عباس، فسيروه إلى أمه؛ وأقام مختلاً يصرع وجدته تكفله.

وركب في الأعياد مغرراً به؛ وخطب عنه قاضي القضاة وهو معه على المنبر. وفتح الخليج في أيامه في الليل واعتذر عن ذلك بأن النيل عدا وقطع الجسر، إلى غير ذلك من التجاوزات.

ثم وزر الصالح بعد عباس واستبد بجميع الأمور وليس له معه أمر ولا نهي، ولا نفوذ كلمة. فدبرت عمه الفائز في قتل الصالح، وفرقت في ذلك نحو خمسين ألف دينار. فبلغ ذلك الصالح، فأمسكها وقتلها بالأستاذين والصقالبه سراً، والفائز في وادٍ آخر من الاضطراب والاختلال. ونقل كفاله إلى عمته الصغرى، وطيب قلبها، وراسلها.

العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد

ولد يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة؛
وبويع عند انتقال الفائز يوم الجمعة قبل الصلاة لثلاث عشرة بقيت من
رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وعمره يومئذ تسع سنين وستة أشهر
وسبعة أيام.

وذلك أنه لما مات الخليفة الفائز ركب الصالح بن رزيك إلى القصر
بثياب الحزن، واستدعى زمام القصر، وسأله عما يصلح في القصر
للخلافة؛ فقال: ههنا جماعة. فقال: عرفني بأكبرهم. فسمى له واحداً،
فأمر بإحضاره. فتقدم إليه أمير يقال له علي بن الزبد وقال له سرّاً:
لا يكن عباس أحزم منك رأياً حيث اختار الصغير وترك الكبير واستبد
بالأمر، فمال إلى قوله، وقال للزمام: أريد منك صغيراً، فقال: عندي ولد
الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ، فقال: علي
به، فأحضر إليه بعمامة لطيفة وثوب مقوط، وهو مثل الوحش، أسمر،
كبير العينين، عريض الحاجبين أخنس الأنف، منتشر المنخرين، كبير
الشفتين، فأجلسه الصالح في البادهنج، وكان عمره إحدى عشرة سنة،
ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء، وهي
لبس ولي العهد إذا حزن على من تقدمه، وقام وألبسه إياها.

وأخذوا في تجهيز الفائز: فلما أخرج تابوته صلى عليه وحمل إلى التربة،
وأخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه، وأمر أن تحمل إليه ثياب
الخلافة، فألبسها؛ وبايعه، ثم بايعه الناس؛ ونعته بالعاضد لدين الله،
وذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين. وأبوه
أحد الأخوين اللذين قتلها الوزير عباس.

ولما بويغ العاضد ركب وحملت على رأسه المظلة؛ وركب الصالح بين يديه، وخرج من التربة قاصداً قصره، وكانت عادة الخلفاء أنه إذا ورد البشير إلى أخص أهل من يبايع يعطى ألف دينار، فلما بويغ العاضد حضر المبشر إلى عمته فأعطته نزرًا، فلما راجعها في الزيادة أبت عليه، فسئلت في السبب فقالت : هذا قاطع الخلفاء، وهكذا كان.

واستقر العاضد اسماً والصالح معناه، فتمكن وقويت حرمة، واستولى على الدولة وتمكن منها، ونقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة ، وأساء السيرة باحتكار الغلات، فوقع الغلاء وارتفعت الأسعار؛ وأكثر من قتل أمراء الدولة.

وفيها ولي الصالح شاور بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس السعدي الصعيد، فظهرت كفايته واستمال الرعية.

وفيها بعث العاضد بالخلع إلى نور الدين محمود صاحب دمشق، فلبسها.

وفيها توفي بمصر أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن عمر بن قاسم، المعروف بنفطوية الحضرمي، المقرئ الأديب؛ رحل فسمع ببغداد وميفارقين وبمصر.

وتوفي بعيذاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب السعدي، أخو القاضي الجليس، رحل فسمع ببغداد وغيرها، وصنف كتاب مساوىء الخمر، وكتاب الحجة لسلف هذه الأمة في تسمية الصديق والرد على من أنكر ذلك، وكتاب تهذيب المقتبس في أنباء أهل الأندلس. وكان من الصالحين.

وتوفي أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوار بن المختار بن الغرناطي

بمصر، وكان من أعيان غرناطة، وله معرفة جيدة بالنحو، وكتب عن السلفي.

سنة ست وخمسين وخمسمائة

فيها عقد العاضد على ابنة الصالح ابن رزيك في مستهله بعدما امتنع من ذلك فحبسه الصالح حتى أجاب، وقصد الصالح بزواجه ابنته أن يرزق منه ولداً فيجتمع لبني رزيك الخلافة مع الملك.

وفيها قدم محمد بن حسين بن نزار بن المستنصر إلى برقة من بلاد المغرب، ودعا إلى نفسه، فاجتمع عليه قوم كثير وتلقب بالمستنصر؛ وعزم على المسير إلى أخذ القاهرة، فخدعه الأمير حسام ابن فضة ووعدته بالقيام بدعوته، وما زال يتلطف به حتى صار عنده في خيمته، فقبض عليه وحمله إلى القاهرة، فقتل في شهر رمضان.

وفيها قتل الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، أبو الغارات طلائع بن رزيك، وذلك أنه لما ثقلت وطأته وكثرت مضايقته لأهل القصر، أخذت السيدة العمة ست القصور، وهي أخت الظافر الصغرى، في العمل على قتله، ورتبت مع قوم من السودان الأقوياء أن يقيموا منهم في باب السرداب من الدهليز المظلم الذي يدخل منه إلى القاعة جماعة، ويقيموا آخرين في خزانة هناك وأرسلت إلى ابن الراعي، وإلى الأمير (المعظم) بن قوام الدولة صاحب الباب وقررت معه أن يخلي الدهاليز من الناس حتى لا يبقى بها أحد. فأعدوا في حجرة في دهليز القصر، وردوا عليهم طرف الضبة .

فلما كان في يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رمضان ركب الصالح على عادته للسلام على الخليفة، فلما انفصل من خدمة السلام بقاعة

الذهب وخرج إلى الدهاليز عرض له أستاذ يقال له عنبر الريفى، وأوقفه، وذكر له حديثاً طويلاً؛ فتقدم رزيك ابن الصالح، فخرج رجلان وثبا على الصالح، ووقعت الصيحة، فعثر الصالح بأذياله، فتقدم إليه ابن الراعى وطعنه بسيف قطع أحد وريديه، وضربه العبيد بالسيوف فقطعوا عذبتة ونزلت في لحمه وشلت سلسلة ظهره. فوضع يده على جرحه وأنشد:

إن كان عندك زمان بقيّة

مما تهن به الكرام فهاتها

وضرب رزيك في عضده الأيمن. وتكاثروا على الصالح فسقط على وجهه منكباً وتقياً بالدم فأدركه الأمير ابن الزبد وألبسه منديل ضرغام ابن سوار، وكان قد نزع منديله عن رأسه، وحمل حتى أركب على فرسه، وهو لا يفيق، وبقي حسين ابن أبي الهيجاء في القصر يقاتل السودان حتى قتل منهم خمسين رجلاً.

ولما ركب الصالح وشدوا جرحه تطلعت السيدة العمة من القصور فرأته راكباً، فقالت: رحنا والله، فلما صار إلى داره كان إذا أفاق يقول: رحمك الله يا عباس، وبعث إلى العاضد يعتب عليه كيف رضي بقتله مع حسن أثره في إقامته خليفة؛ فأقسم أنه لم يعلم بذلك ولا رضي به. وأنشد عند موته:

وما ظفروا لما قتلت بطائل

فحشت سعي دأثم مت شهيداً

فلما كان ثلث ليلة الثلاثاء، العشرين من شهر رمضان، مات ودفن بالقاهرة، ثم نقل منها بعد ذلك إلى القرافة، والعاضد راكب والجند يمشون خلف تابوته.

ومولده في سنة خمس وتسعين، وكانت وزارته سبع سنين وستة أشهر

تنقص أياماً، وكان فاضلاً، سمحاً في العطاء، سهلاً في اللقاء، محباً لأهل الفضائل، جيد الشعر وخطه دون شعره. يقال إنه من المغرب، وقد قصد أبوه زيارة قبر علي بن أبي طالب بالنجف فرأى أمام المشهد علياً وأخبره عن طلائع أنه يلي مصر، فقدمها، وما يزال يترقى في الخدم حتى نال مانال.

وأنشد له ابن خلكان:
كم ذا يرينا الدهر من أحداثه
غيراً وفينا الصدد والإعراض
نسئى الممات وليس يجري ذكره
فينا، فتذكرنا به الأمراض

وكان لأهل العلم عنده نفاق، ويرسل إليهم العطايا الكثيرة. بلغه أن أبا محمد ابن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتاً من شعره وهو :
تجنب سمعي ما يقول العواذل
وأصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز له هدية سنوية ليرسلها إليه، فقتل قبل إرسالها، وبلغه أن إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه فأرسل كتاباً يشكره، ومعه هدية.

وكان وافر العقل رضي النفس، بصيراً بالتجارب عالماً بأيام الناس، بصيراً بالعلوم الأدبية، محبباً إلى الناس لإظهاره الفضل والدين وإنكاره الظلم والفساد. إلا أنه كان من غلاة الإمامية مخالفاً لما عليه مذهب العاضد وأهل الدولة. فلما بايع للعاضد وركب من القصر سمع ضجة عظيمة، فقال: ما الخبر؟ ف قيل إنهم يفرحون بالخليفة، فقال: كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا؛ وما علموا أنني كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم.

وجرى من بعض الأمراء في مجلس السمر عنده انتقاص بعض السلف، وكان الفقيه عمارة جالساً فقام وخرج معتذراً بحصاة تعتاده، وانقطع في منزله ثلاثة أيام، ورسول الصالح يرد إليه كل يوم بالطبيب، ثم ركب إليه بعد ذلك وهو في البستان مع جلسائه في خلوة، فاستوحش من غييته، فأعلمه أنه لم يكن به وجع ولكنه كره ما جرى في حق السلف، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت وإلا كان في الأرض سعة وفي الملوك كثرة. فعجب الصالح من ذلك، وقال: سألتك بالله ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ فقال: أعتقد أنه لولاها لم تبق للإسلام حرمة ولا علا له راية، وما من مسلم إلا ومحبتها واجبة عليه. ثم قرأ: « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه (١٣٩) » فضحك الصالح، وكان هذا من رياضته، فإنه مخالف لمذهبه مخالفة لا يحتملها مثله إلا كان مرتاضاً حصيفاً قد لقي الفقهاء وسمع كلامهم.

وبعث يوماً إلى عمارة ثلاثة أكياس من مال ورقعة بخطه فيها هذه الأبيات يدعوها فيها إلى مذهبه:

قل للفقيه عمارة: يا خير من
أضحى يؤلف خطبة وكتاباً
اسمع نصيحة من دعاك إلى الهدى
قل حطة، وادخل إلينا الباباً
تلق الأئمة شافعين، ولا تجدد
إلا ديناً سنة وكتاباً
وعلي أن يعلى ومحلوك في الورى
وإذا شفعت إلى كنت مجاباً
وتعجل الآلاف، وهي ثلاثة
صلة، وحققك لا تعد ثواباً (١٤٠)

فأجابه عمارة:

حاشاك من هذا الخطاب خطابا
ياخير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم
مغمور معتقدي وصار خرابا
ودعوتكم فكري إلى أقوالكم
من بعد ذاك، أطاعكم وأجابا
فاشدد يديك على صفاء محبتي
وامنن علي، وسد هذا البابا.

وهو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة؛ ووقف ثلثي المقس على
الأشراف، وتسعة قراريط على أشراف المدينة، وقيراطاً على بني معصوم
إمام مشهد علي الذي بشره بالمنام. ويقال إنه من ولد جبلة بن الأيهم
الغساني.

وكان أبوه يسمى رزيك وقدم مع أمير الجيوش بدر إلى مصر؛ وتوفي
سنة إحدى وثلاثين وخمسة.

ومن العجب أنه ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر،
وزالت دولتهم في التاسع عشر. وهو أول من خطب بالملك في ديار
مصر ونعت به.

ومن عجيب الاتفاق أن عمارة أنشد مجد الإسلام رزيك بن الصالح
بدار سعيد السعداء في ليلة السادس عشر من شهر رمضان أبياتاً منها:
أبوك الذي تسطو الليالي بحده
وأنت يمين إن سطا، وشمال
لرتبته العظمى، وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل
تحال لك اللحظ المصون، ودونها
حجاب شريف لا انقضى وحجال

فانتقل الملك إليه بعد ثلاثة أيام.

قال عمارة: ودخلت على الصالح قبل قتله بثلاثة أيام، فناولني رقعة فيها بيتان من شعره وهما:
نحنن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لاتنام
قد رحلنا إلى الحمام سنيناً
ليت شعري، متى يكون الحمام (١٤١)

فكان آخر عهدي به.

ومما رثاه عمارة به قوله:
أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني، لما بي، ذاهب العقل ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه، ويخرس قائله
فقد رايتني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوباً وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولم لا نبكيه وننذب فقده
وأولادنا أيتامه وأرامله
أيكرم مشوى ضيفكم وغريبكم
فيسكن، أم تطوى بين مراحله
فيا ليت شعري بعد حسن فعاله
وقد غاب عنا، ما بنا الدهر فاعله

قال عمارة: وكانت أحوال الصالح تارة له وتارة عليه؛ فما هو عليه فرط العصبية في المذهب، وجمع المال واحتجانه، والميل على الجند

وإضعافهم والقص من أطرافهم. وأما التي له فلم تكن مجالس أنسه تنقضي إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. وكان مرتاضاً قد سمر أطراف المعالي وتميز عن أخلاق الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة.

وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، ويكثر من جلسه، ويبسط من أنيسه. وكان كرمه أقرب من الجزيل منه إلى الهزيل وصنف كتاباً سماه: «الاعتماد في الرد على أهل العناد». وله قصيدة سماها: الجوهريّة في الرد على القدرية.

ولما مات الصالح خرج ولده الناصر وهو مجروح وجلس في مرتبة أبيه، وبعث إلى العمة ست القصور من أهل القصور، فسلمت إليه، فخنقها بمنديل ورميت قدامه، فبعثت السيدة العمة أختها إلى سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء، صهر الصالح، وحلفت له أنها لم تدر بما جرى على الصالح وأن فاعل ذلك أصحاب أختها المقتولة، وحضر إليها مجد الإسلام أبو شجاع رزيك بن الصالح فخلع عليه للوزارة، فإن الصالح أوصى بها إليه وجعل من حسين بن أبي الهيجاء الكردي مدبر أمره، ونعت بالسيد الأجل مجد الإسلام الملك العادل الناصر أمير الجيوش؛ وفسح له في أخذ من ارتاب به في قتل أبيه، فأخذ ابن قوام الدولة وقتله وولده والأستاذ الذي شغل الصالح بالحديث.

واستحسن الناس سيرته، وسامح الناس بما عليهم من البواقي الثابتة في الدواوين. وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة، وقام عن الحاج بما يستأديه منهم أمير الحرمين؛ وسير على يد الأمير محمد بن شمس الخلافة نحواً من خمسة عشر ألف دينار إلى قاسم بن هاشم، أمير الحرمين، برسم إطلاق الحاج. وظفر بقتلة أبيه ظفراً عجباً بعد تشتتهم في البلاد.

وكان زفاف أخته إلى العاضد في وزارته فحمل معها بيوت الأموال.
ونقل تابوت أبيه إلى القرافة.

وسير إلى والي الإسكندرية بحمل عبد الرحيم بن علي البيساني،
الملقب بالقاضي الفاضل، واستخدمه بين يديه في ديوان الجيش.

وترامت الحال في أيامه بالأمير عز الدين حسام، قريبه، وعظم صيته،
واستولى على تدبير كثير من أموره، وعظم غلمان أبيه. وكان فارساً
شجاعاً، له مواقف معروفة.

وكان أبوه الصالح قد ولي شاور بن مجير بن نزار السعدي قوص، ثم
ندم على ولايته وأراد عوده من الطريق، ففاته، وحصل بها؛ وطلب منه
في كل شهر أربعمئة دينار، وقال لابد لقوص من والٍ، وأنا والله لا
أدخل القاهرة، ومتى صرفني دخلت النوبة. فتركه. ولما جرح وأشرف على
الوفاة كان يعد لنفسه ثلاث غلطات: إحداها ولاية شاور الصعيد الأعلى
والثانية بناء الجامع على باب زويلة، فإنه مضرة على القاهرة، والثالثة
خروجي بالعساكر إلى بليس وتأخيري إرسالها إلى بلاد الفرنج؛ وكان قد
أنفق على هذه العساكر مائتي ألف دينار.

وأوصى ابنه رزيك ألا يتعرض لشاور بمساءة، ولا يغير عليه حاله
فإنه « لا تأمن عصيانه والخروج عليك. » فلما استمر رزيك بن الصالح
في الوزارة حسنت له بطانته صرف شاور عن قوص ليتم الأمر له، وأشار
عليه سيف الدين حسين أبي الهيجاء بإبقائه، فقال: ما أنا أبي ولا لي
طمع فيما أخذه منه ولكن أريده يطأ بساطي. فقبل له: ما يدخل أبداً
فلم يقبل، وخلع على الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة بولاية
قوص.

فيها خرج ملك النوبة إلى أسوان في اثني عشر ألف فارس وقتل من المسلمين عالماً عظيماً.

فيها مات بالقاهرة ، في يوم الأربعاء لاثني عشرة خلت من رجب ، القاضي أبو الحجاج يوسف بن عبد الجبار بن شبل بن علي الصويبي ، وصويب قبيلة من جذام . ولد بالقدس يوم الجمعة تاسع ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وقدم مصر بعد أخذ الفرنج القدس فنشأ بها واشتغل بالعلم ، وتولى خزانة الكتب في سنة أربع وعشرين وخمسائة ، وولي قضاء فوة وعملها في محرم سنة سبع وأربعين .

ومات بالصعيد كنز الدولة أبو الطليق يوسف ، وولي بعده رئاسة قبائله أخوه أبو العز فتوح في حادي عشر محرم .

سنة سبع وخمسين وخمسائة

في عاشر المحرم أفرج العادل رزيك عن الأمراء الذين اعتقلهم أبوه الصالح بن رزيك في ثالث عشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين ، وهم صبح بن شاهنشاه ، وأسد الغاوى ومرتفع الطواس .

وفيها شاد الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية فعرف ببرج ضرغام .

وفي آخر ذي القعدة ورد الخبر بخروج شاور عن طاعة العادل رزيك ، وذلك أن الأمير نصير الدين لما خلع عليه بولاية قوص كتب على يده كتاباً إلى شاور بتسليم البلاد إليه وحضوره إلى القاهرة ، فلما وصل إلى إخميم كتب كتاباً إلى شاور وفي طيه كتاب رزيك ، فلما وقف عليه بعث إليه أن أرجع ولا تحضر ، قولاً واحداً ، فرجع إلى القاهرة وجهر شاور بالعصيان (١٤٢) .

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها زالت دولة بني رزيك. وذلك أن ممالك الصالح وغلما نه، مثل
يانس وورد وسعادة الأسود وبختيار، اشتد ظلمهم؛ وكان الصالح قد
قدمهم حتى صار لكل منهم نحو المائتي مملوك، وطغوا في أيام رزيك
حتى ضج الناس منهم. وقال بعضهم:
أمتهم يابني رزيك جهلا
فذاك الأمر يربعه الأمان
أباد الله دولتهم سريعاً
فقد ثقلت على كتف الزمان

وكان شاور بن مجير السعدي لما بلغه أن الناصر رزيك بن الصالح
طلّاع بن رزيك عزله عن ولاية قوص وولى غيره اضطرب وخرج من
قوص في جماعة قليلة، فسار على طريق الواحات في البراري حتى صار
في تروجة، فاجتمع عليه الناس وقوي أمره وتزايد. فاهتم لذلك رزيك
ورأى في منامه وكأنه قد صار رواساً في حانوت؛ فلما قص هذه الرؤيا
على حسين بن أبي الهيجاء نظر عابراً، كان بمصر حاذقاً، يعرف بابن
الأرتاحي، وأخبره بما رأى، فغالطه في التفسير، وفهم ذلك حسين، فلما
خرج ألزمه أن يصدقه بتأويل ما رآه رزيك، فقال يامولاي القمر عندنا
هو الوزير كما أن الشمس الخليفة، والحنش المستدير عليه حبس
مصحف، وكونه رواساً أقلبها تجدها شاوراً مصحفاً؛ وما وقع لي غير
هذا، فقال: اكتم هذا عن الناس، وأخذ حسين يحتاط لنفسه، وتجهز إلى
الحجاز.

فكثرت الإرجاف بمسير شاور إلى أن قرب من القاهرة. فوقع الصائح
في بني رزيك، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس، فأسرع ضرغام ونظراؤه
من وجوه الأمراء، وهم إخوته: ملهم وحسام وهمام، ويحيى بن الخياط

وبنو الحاجب ونظراؤهم، وصاروا إلى شاور فأسقط في أيدي العسكر الباقي مع بني رزيك.

وكان أول من نجا بنفسه حسين بن أبي الهيجاء، خرج فاراً ومعه حسام إلى الخوف واستجار بطريف بن مكنون أحد أمراء جذام، فأجاره وحمله من أيلة في البحر إلى المدينة النبوية، فجاور بها مدة ومات ، فدفن بالبقيع.

ولما فر حسين فت ذلك في عضد رزيك ولم يثبت ، وخرج رزيك من القاهرة في نصف المحرم ومعه جماعة من غلمانہ وعدة بغال موقرة من المال والجواهر والثياب الخاص. وتحير فلم يدر أين يذهب، فوقع بظاهر إطفيح عند مقدم العرب سليمان بن الفيض، فأخذه وكل ما معه.

ودخل أبو شجاع شاور إلى القاهرة ومعه خلق كثير، ومعه أولاده: طي: وشجاع، والطاري، فنزل دار سعيد السعداء، وأحضر إليه ابن الفيض رزيك مكبلاً، فاعتقله وأخاه جلال الإسلام. فبعث جلال الإسلام إلى من أعلم شاوراً أن أخاه طلب مبرداً من بعض غلمان أبيه وبرد القيد الذي في رجله ليهرب، فدخلوا إليه وقتلوه. ومولده في ذي القعدة سنة ثلاث، أو اثنتين، وخمسائة. وأنفقوا على أخيه لهذه النصيحة، وبقي من جملة أرباب الإقطاع إلى أن مات، وقيل إن هذا كان من فعلات طي بن شاور ونميته حتى قتل العادل.

وكان سليمان بن الفيض من لخم، وهو ممن أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك وخوله في نعم جمة ، فلم يرع عهده ، وقبض على ابنه العادل وأسلمه لشاور، ونهب أصحابه ماله، فلما قدم به عليه قال: ياسليمان ، لقد خباك الصالح ذخيرةً لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا الآخر أخبتك ذخيرة لولدي . ثم أمر به فشقق.

وانقطع بنو رزيك ، وبزواهم زالت الدولة، فكانت مدة بني رزيك في الوزارة تسع سنين وشهراً وأياماً.

وكان دخول شاور إلى القاهرة ووزارته في يوم الأحد ثاني عشري المحرم، ولما استقر في الوزارة تلقب بأمر الجيوش. وانتالت عليه وعلى ولده طي أموال بني رزيك وودائعهم من عند الناس ، حتى كان في الناس من يتبرع بما عنده، فظفر هو من أموالهم - سوى السلاح والكراع وغيره، وسوى ما أخذه أولاده - بما ينيف عن خمسمائة ألف دينار عينا. فبعث بذلك كله مع جميع ما أدخل إليه إلى العربان، وأودعه عندهم وأنعم عليهم حتى كثرت أموالهم وصاروا يكيلونها كيلاً ويقولون: لفلان قدحان ذهباً ولفلان ثلاثة أقداح. وزاد تمكنهم له حتى لم يكونوا يفارقون باب الفتوح وباب النصر؛ ونهبوا غلات الخوف، واستخفوا بالمقطعين؛ فلم ينكر عليهم وأراد أن يكونوا له عضداً ورداً.

وكان الصالح بن رزيك قد قرر للفرنج في كل سنة على مصر ثلاثة وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم، فوافت رسلهم تطلب ذلك، ولما قتل رزيك بن الصالح في رمضان قدمت رأسه في طشت إلى شاور وهو بدار الوزارة، فقال في ذلك الفقيه عمارة:

أعز زعلي أبشجاع أن أرى

ذاك الجبين مضر جابدمائه

ما قلبته سوى رجال قلبوا

أيديهم من قبل في نعمائه

وجلس شاور بعد قتل الناصر رزيك بن الصالح بدار الذهب، وقام الشعراء والخطباء ولفيف الناس إلا الأقل ينالون من بني رزيك، وفيهم ضرغام نائب الباب، ويحيى بن الخياط أسفسهلار العسكر، وغيره؛ فقال عمارة:

زالت ليالي بني رزيك وانصرفت
والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوماً وعادهم
في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
هم حركوها عليهم وهي ساكنة
والسلم قد تنبت الأوراق في السلم
كناظن، وبعض الظن مأثمة
بأن ذلك جمع غير منهم - زم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم
من كان مجتمعاً في ذلك السرخم
ولم يكونوا أعدوا ذل جانبه
وإنما غرقوا من سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
تعظيم شأنك، فاعذرنى ولا تلم
ولو شكرت لياليهم محافظةً
لعهدهم لم تكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوماً بدمهم
لم يرض فضلك إلا أن يسد فمي
والله يأمر بالإخسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

فشكر شاور عمارة على الوفاء لبني رزيك، ونقم عليه ضرغام قوله: «
فمذ وقعت البيت، وكان يقول له: نحن عندك من الرخم.

ثم أن شاور جهز الخلع إلى العادل نور الدين بالشام، فلبسها يوم الاثنين ثاني عشرين رمضان، وقبض المال المسير إليه.

وكتب للأجناد والعرب وحواشي القصر من الرواتب والزيادات نظير ما لهم عشر مرات، وهو غير ظاهر للناس والأبواب مغلقة عليه خيفة. وذلك أن الصالح بن رزيك كان قد أنشأ أمراء يقال لهم البرقية، وجعل ضرغام بن عامر بن سوار المذكور الملقب أبا الأشبال فارس المسلمين مقدمهم، ثم صار صاحب الباب، فطمع في شاور، وكان فارساً كاتباً، فجمع رفقته، وتخوف منه شاور، وصار العسكر فرقتين: ضرغام ومن معه فرقة، وحرب ومن معه حزب. فأما ضرغام فأظهر المباينة، وأما نظراؤه فاختصوا بطي بن شاور وكاثروه ولازموه. فلما كان بعد تسعة أشهر من وزارته ثار به ضرغام يوم الجمعة ثامن عشرين رمضان وقد جمع له، وكانت بينهما وقعة قتل فيها طي بن شاور، وهو أكبر أولاده، وقتل أخوه سليمان الطاري وهو الأصغر، وأسر الكامل فاعتقله ملهم ومنع منه أخاه ضرغاماً ليدي كانت له عنده. وكان بين قتل طي بن شاور وقتل العادل رزيك نيف وثلاثون يوماً.

وخرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل رضوان بن ولخشي، وقد كان رفيقاً له إذ ذاك، وذلك أول شوال، فنهبت داره ودور أولاده وحواشيه، وذهب جميع ما نالوه من مال بني رزيك. وقتل الكامل علي بن القصرين وترك جثته يومين ملقاة ومعه ابن أخته وحسان تربية شاور. فكانت وزارته تسعة أشهر.

وكانت أخلاق شاور في وزارته هذه مستورة باستمرار العافية والسلامة، ولم يكن فيها أقبح من قتل رزيك بن الصالح فإنها أعربت عن ضيق عطنه وخرج صدره. وكان كرمه إليه المنتهى، وشدة بأسه في مواطن الحرب شهيرة، وكان شديد الثبات كثير الوثبات. ومما نقم عليه

أن ابنه الكامل عمل مظلة كانت تحمل على رأسه، وتحكم على أبيه، وترفع على الأمراء وعسفهم.

ولما فر شاور ونزل بفاقوس عند بني منصور استولى ضرغام على الوزارة وتلقب بالملك المنصور، في سابع عشرين رمضان، فشكر الناس سيرته، فإنه كان فارس عصره، كاتباً، جميل الصورة، فكه المحاضرة، عاقلاً كريماً، لا يضع كرمه إلا في سمعة ترفعه أو مداراة تتبعه. إلا أنه كان أذنأ متخيلاً على أصحابه، وإذا ظن بإنسان شراً جعل الشك يقيناً. وكان في وزارته مغلوباً مع أخويه: ناصر الدين همام وفخر الدين حسام.

وقيل إن ملهماً وضرغاماً لما علما تغير الناس على شاور وأولاده أخذاً في مراسلة رزيك في سجنه وإفساد الناس له ؛ فبلغ الخبر طي بن شاور، فدخل إليه وقال: بلغني أن ملهماً وضرغاماً قد تحدثا لرزيك في الأمر وقد حلفاً له جماعة من الأمراء ، وأنت غافل عن هذا الأمر. فقال له شاور: اسكن ولا تعجل؛ أنا أكشف عن هذا ، فإذا تحققت حسمته. فقال: لا غنى بي عن قتل رزيك فإني إذا قتله أمنت. فقال له شاور: لا يمكن قتله فإنه أولاني جميلاً بسببه صرت في هذا المحل، فمضى طي إلى رزيك وقتله، فقامت قيامة شاور، وبلغ ذلك ضرغاماً فثار وأثار من خلفه وقرر معهم أمر رزيك وزحف بهم، فانهزم شاور. فكان في هذه السنة ثلاثة من الوزراء هم: رزيك بن الصالح بن رزيك، وأمير الجيوش شاور، والمنصور ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي أبو الأشبال.

وفيها اختلت الدولة وضعفت بذهاب أمرائها وأولي الرأي فيها.

فيها سار الفرنج إلى ديار مصر فوصلوا إلى السدير، وورد الخبر في ثاني شوال بوصولهم إلى فاقوس، فأخرج إليهم ضرغام أخاه ناصر المسلمين هماماً، وكان شجاعاً، فالتقى معهم وحاربهم، فهزموه بعد أن قتل منهم خلقاً، وكان شاور قد انضم إلى بني منصور لأنه من فخذهم، وكان

قائماً على كوم عال. ثم إن الفرنج صاروا إلى حصن بليس في شوال وملكوا بعض السور، فردهم عنه همام وبنو كنانة. وتفرق العسكر إلى الخوف فقال العرب: هؤلاء وقد انهزموا من الفرنج فقتلوا كل من ظفروا به. وعاد العسكر وقد قتل منهم العرب عدة، ورجع الفرنج إلى بلاد الساحل بمن أسروه من المسلمين وفيهم القطوري من أكابر الأمراء.

فلما صار همام بالقاهرة صار كأنه مشارك لأخيه في الوزارة، كل منهما يوقع ويقطع، ولم يظفر ضرغام من المال بكبير شيء فإنه نهب.

وفيه ولي الوزير ضرغام الأمير مرتفع الخلوأص الإسكندرية برجاء إبعاده عنه، فلما صار إليها ظفر بقوم رتبهم ضرغام لقتاله، فتأكدت الوحشة بينهما، وجمع لمحاربة ضرغام وخرج من الإسكندرية فكتم ذلك.

وفيه قدم شاور دمشق في ذي القعدة وترامى على نور الدين، فبعث الوزير ضرغام إليه بعلم الملك ابن النحاس بأن يقبض على شاور، فأجاب في الظاهر وأضمر غير ذلك.

وفيه قتل ضرغام عدة من الأمراء في دعوة جمعهم فيها، وأعد لهم من خرج على الجميع وقتلهم في داره.

وكان قاع النيل خمس أذرع وثلاث عشرة إصبعاً، وبلغ أربع عشرة ذراعاً وثمانى أصابع.

سنة تسع وخمسين وخمسة

ففيها وصل رسل الفرنج في طلب مال المدينة فمأطلمهم به ضرغام ودافعهم حتى شغل عنهم بقدم شاور.

وفي ثامن عشر ربيع الأول قبض ضرغام على صبح بن شاهنشاه عين الزمان وأسد الغالي وعلي بن الزبد في عدة تبلغ نحو السبعين من الأمراء سوى أتباعهم؛ وذلك أنه بلغه عنهم أنهم قد حسدوه واحتقروه وكاتبوا شاوراً ووعدوه القيام معه. ثم أخرجهم ليلاً وضرب أعناقهم؛ فاختلفت الدولة بقتل رجالها وذهاب فرسانها.

وفيها وجه ضرغام بأخيه ناصر الدين همام على طائفة من العسكر لقتال الأمير مرتفع بن غلى المعروف بالخلواص، متولي الإسكندرية، وقد جمع وسار، فعندما بلغ من معه من العربان قتل الأمراء البرقية فتراوا عن القيام معه وطمعوا فيه، ووثب به قوم من بني سنابس وقبضوا عليه، وأتوا به إلى همام، فقدم به إلى القاهرة، فضرب ضرغام عنقه يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر، وصلبه على باب زويلة؛ فنفرت القلوب من ضرغام وكان شاور قد وصل في ثالث عشرين ذي القعدة من السنة الماضية إلى دمشق مترامياً على السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، مستجيراً به على ضرغام، فأكرم مثواه وأحسن إليه، فتحدث مع السلطان في أن يرسل معه العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر، ويتصرف هو بأوامر نور الدين واختياره، فبقي نور الدين يقدم إلى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يقصد رعاية شاور كونه التجأ إليه وكون ما قاله زيادة ملكه وتقوية له على الفرنج، وتارة يخشى خطر الطريق وكون الفرنج فيه ويخاف من شاور أنه إذا استقرت قدمه في مصر خاس في قوله ويخلف بما وعد. ثم قوي عزمه على إرسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها.

واتفق أن الواعظ زين الدين بن نجا الأنصاري، سمع بسعة أرزاق مصر فقدم إليها في وزارة الصالح بن رزيك، فأقبل عليه وحصل له من إنعامه ومما أخذه له من العاضد في ثلاث سنين ما يناهز عشرين ألف

دينار، وسوغه عدة دور بتوقيع . فسمع بالزاهد أبي عمرو بن مرزوق يتحدث الناس عنه بأنه مهما قاله لهم وقع، وأنه يركب كل سنة في نصف شعبان حماراً له ويأتي معه جماعة إلى ذيل الجبل ويودعونه ويمضون، فيطلع أبو عمرو إلى الجبل، ويلقاه الناس في الليلة الثانية ويجمعون كاجتماعهم للعيد، ويركب حماره، والناس تحته، ويتنظر، وينزل بعد صلاة المغرب إلى مسجده فقصده زيارته وقد تجمع الناس في الأسطحة والدكاكين والطرقات، والشيخ يعمل الميعاد، فوصل إليه وأقام حتى انفض الناس، فخلا به وتعرف إليه، فكان مما قال له: أتعرف بالشام أحداً يقال له شيركوه، فقال: نعم، أمير من أمراء نور الدين، فقال: هذا يأتي إلى هذه البلاد ويملكها، وكل ما تراه من هذه الدولة يزول حتى لا يبقى له أثر عن قريب. وانصرف ابن نجا عن الشيخ أبي عمرو وقد تعجب من قوله.

فلما قضى أربه من القاهرة وعاد إلى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين وحكى له قول الشيخ أبي عمرو؛ فقال له: لا تخبر أحداً بذلك. ومضى اليوم وما بعده، إلى أن قدم شاور على السلطان نور الدين وقوى عزمه على تجهيز العساكر معه، فوقع اختيار السلطان على الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان، أحد أمرائه، فاستدعاه من حلب، فوصل إلى دمشق مستهل رجب منها، وأمره بالمسير إلى مصر مع العساكر صحبة شاور، فامتنع وقال: لأمشي بألف فارس، إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة شيني فيها عشرة آلاف مقاتل وعندهم أربعون ألف عبد لخمس خلفاء، وهم مستوطنون في أوطانهم قريبة منهم خزائنهم، ونأتي نحن من تعب السفر بهذه العدة القليلة، فتركه وأرسل إلى ابن نجا، فلما جاء قال له: حديث الرجل الزاهد الذي بمصر أخبرت به أحداً؟ فقال: معاذ الله؛ والله ما سمعه مني أحد سوى السلطان. فقال: امض إلى أسد الدين شيركوه واحك له الخبر، فمضى إلى شيركوه وقص عليه الحديث بنصه، فطابت نفسه للسفر.

وسار العسكر وصحبته شاور يوم الاثنين خامس عشر جمادى الأولى ،
وقد أمر نور الدين شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه
فيه، وخرج نور الدين إلى أطراف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكر
ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين، فكان قصارى أمر الفرنج أن
يمتنعوا من نور الدين ويحفظوا بلادهم.

وأخذ شيركوه في سيره إلى مصر على شرقي الشوبك حتى نزل أيلة،
وسار منها إلى السويس، فلم يدر ضرغام، وقد وصل إليه رسل الفرنج
في طلب مال الهدنة المقرر لهم في كل سنة على أهل مصر وهو ثلاثة
وثلاثون ألف دينار وهو يدافعهم ويياطلون، إلا بطيور البطائق قد
سقطت من عند أخيه الأمير حسام الدين، متولي بلبيس، في يوم الأحد
خامس عشرين جمادى الأولى، يخبر فيها بوصول شاور وأسد الدين
شيركوه ومعهما من الأتراك خلق كثير، فانزعج وتأهب لتسيير العسكر،
وأصبح الناس يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الأولى وقد
شاع ذلك بينهم، فخافوا على أنفسهم وأموالهم وانتقلوا من مكان إلى
مكان على عادتهم، وجمعوا عندهم الأقوات والماء.

وخرج الأمير ناصر المسلمين همام بالعساكر أول يوم من جمادى
الآخرة، وهم نحو ستة آلاف فارس بالخيول المسومة والدروع الثمينة
والسلاح العجيب، وقد أعجبوا بأنفسهم واطمأنوا بأنهم ظافرون،
فوصلوا إلى بلبيس يوم الأحد ثانيه، فوافاهم شاور بالعسكر الشامي يوم
الاثنين، فباتوا ليلة الثلاثاء، وأصبحوا وقد توهم منهم أسد الدين شيركوه
وقال لشاور: يا هذا لقد غررتنا وقلت إنه ليس بمصر عساكر حتى جئنا
بهذه الشرذمة؟ فقال: لايهولنك ما تشاهد من هذه الجموع فأكثرها حاكّة
وفلاحون يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمى الوطيس
وكلبت الحرب، وأما الأمراء فإن كتبهم وعهودهم معي، وسترى إذا
التقينا، لكنني أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد.

فلما ترتبوا نهاهم عن القتال، فتحرك المصريون وتأهبوا وأقاموا حتى حمي النهار، فسخن عليهم الحديد ولم يروا أحداً يسير إليهم فنزلوا عن خيولهم وأقاموا الخيم، وألقى بعضهم السلاح، فلما عاين ذلك شاور أمر بالحملة عليهم، فثار المصريون وحمل ناصر المسلمين همام والأمير فارس المسلمين حسام على العسكر الشامي، فجرح همام والتفت فلم ير أحداً من عسكره، فكان أشجعهم من يصير على ظهر فرسه، وانهزموا بأجمعهم إلى بليس، وغنم العسكر الشامي جميع ما كان معهم، فقبضوا به، وتبعوهم وأسروا منهم جماعة الأمراء وغيرهم، ثم منوا عليهم وصيروهم في جملتهم.

ولحق الأمير همام بالقاهرة سحر يوم الأربعاء خامسه وهو مجروح، واختفى الأمير حسام في مدينة بليس فدل عليه بعض الكنانية فأسر وقيد.

وسار العسكر فوصلوا إلى القاهرة بكرة يوم الخميس سادسه، فنزلوا عند التاج بظاهر القاهرة، وانتشر العسكر في البلاد يريدون الأكل والعلف

وكان ضرغام قد كاتب أهل الأعمال فوصلوا إليه لخوفهم من الترك، فضمهم إليه ومعهم الريحانية والجوشية وجعلهم في داخل القاهرة، فأقام شاور بمن معه على التاج حتى استراحت خيولهم، ثم إنه استحلف شيركوه ومن معه أنهم لا يغدرون به ولا يسلمونه، ولا ينهزمون إلا عن غلبة. ومع هذا فإن طوائف من العربان كانت تطارد عسكر ضرغام بأرض الطبالة، وخرج أهل منية السيرج فقتلوا من الترك جماعة، فمالوا عليهم وانتهبوا المنية وأذاقوا أهلها نكالا شديداً، وأقام شاور بمن معه في ناحية الخرقانية وشبرا دمنهور، ثم سار من ناحية المقس يريد القاهرة، فخرج إليه عسكر ضرغام وحملوا عليه، فخاف من كان معه من الأمراء

الذين كانوا مع همام أخي ضرغام ولحقوا بالقاهرة فانهزم هزيمة قبيحة،
فسر بذلك ضرغام، وأحضر قاضي القضاة وأمره بحمل ما في مودع
الحكم من مال الأيتام، فحملها إليه.

وكان شاور لما انهزم سار إلى بركة الحبش وصار إلى الرصد فملك ما
هنالك، وأخذ مدينة مصر وأقام بها أياماً، ولم يبق مع شاور وشركوه من
الأمراء الذين كانوا مع همام سوى شمس الخلافة محمد وأولاد سيف
الملك الجمل وابن ناصر الدولة وأولاد حسن، فقيدهم وشركوه ابن شمس
الخلافة دون الناس كلهم.

وكره الناس من ضرغام أخذه أموال الأيتام مع ما سبق منه من قتل
الأمراء وغيرهم، وعلموا عجزه عن شاور.

وكان شاور يركب كل يوم في مصر ويؤمن أهلها ويمنع الأتراك من
التعرض إليهم، فمال الناس إليه، وبلغهم عن ضرغام أنه يتوعددهم إذا
ظفر بشاور أنه يحرق مصر على أهلها من أجل أنهم أمكنوا شاوراً من
دخول البلد وباعوا عليه وعلى من معه، فتحول شاور عن مصر ونزل
اللق، وطارد خيل ضرغام وقد خلت المنصورة والهلالية وثبت أهل
اليانسية فقاتل الناس قتالاً خفيفاً. وصار شاور وشركوه إلى باب سعادة
وباب القنطرة من أبواب القاهرة، وطرحوا النار في اللؤلؤة وما حولها من
الدور. وكانت وقعة عظيمة بين الفريقين قتل فيها من العسكرين خلق
كثير.

فلما كان الليل اجتمع مقدمو الریحانية وقد فني منهم كثير، وأرسلوا
إلى شاور يطلبون الأمان - وكان قبل ذلك يبعث إليهم ويستميلهم -
فأمنهم.

ولما رأى الخليفة العاضد انحلال أمر ضرغام بعث يأمر الرماة بالكف

عن الرمي، فخرج الرجال إلى شاور في الصباح، فسر بهم، وفترت همه أهل القاهرة، وأعمل كل منهم الحيلة في الخروج، وخرج ضرغام ومعه جماعة إلى خارج القاهرة، وجعلوا يترددون من باب إلى باب، وفيهم ابن ملهم وابن فرج الله وحازم بن أبي الخليل وجماعة مذكورون، فكانوا يطاردون من طاردهم، وأمر ضرغام بضرب البوقات والطبل على الأسوار ليجتمع الناس، فلم يخرج إليه أحد وانفل الناس عنه. فعاد إلى القاهرة وصار إلى باب الرحبة من أبواب القصر، ولم يبق معه سوى خمسمائة فارس، فوقف وطلب الخليفة أن يشرف عليهم من الطاق، فبلغ ذلك شاوراً فسرّح في الحال ابنه سليمان الطاري إلى باب القنطرة ليملكه ويقف.

فلما طال وقوف ضرغام نادى: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد. فصاح: يامولانا كلمني، يامولانا أرني وجهك الكريم، يامولانا بحرمة أجدادك على الله، وهو يبكي فلم يجبه أحد، وقويت الشمس فصار إلى الظل حتى قرب الظهر، فأمر بعض غلمانه أن يركض في قسبة القاهرة ويقول بصوت عال: ما كانت إلا مكيدة على الرجال، قد قتل الترك أصحاب شاور الريحانية. فما هو إلا أن سمع الناس ذلك - وكانوا قد صاروا إلى بيوتهم - فأسرعوا إلى خيولهم وعادوا من كل جانب مثل السيل، فرأوا ضرغاماً على تلك الهيئة، والطاق لم يفتح له والخليفة لم يكلمه، فسقط في أيديهم وقالوا: ارجعوا فهي كذابة والغلبة لشاور، ورجعوا من حيث أتوا.

فوقف ضرغام إلى العصر ولم يبق معه غير ثلاثين فارساً، ووردت إليه رقعة فيها: خذ لنفسك وانج بها. فأيس من الظفر.

وبعث شاور إلى الخليفة العاضد يستأذنه في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، فبعث شاور يأمر ابنه أن يدخل القاهرة، وهو عند باب

القنطرة، فدخل وضربت أبواقه، وكانت من أبواق الترك التي لم تعهد بمصر، فما هو إلا أن علم به ضرغام، فمر على وجهه إلى باب زويلة، فتخطف الناس من معه، وعططوا عليه ولعنوه، فأدركه بعض الشاميين في غلمان شاور وطعنه فأرداه، ونزل إليه واحتز رأسه بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، وذلك قريباً من الجسر الأعظم، في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، وفر ملهم إلى مسجد تبر، فقتل هناك وترك مطروحاً، وأتى برأسه إلى عند شاور، وقتل ناصر الدين أخو ضرغام عند بركة الفيل، وقتل فارس المسلمين. وبقي جسد ضرغام ملقى هناك يومين ثم حمل إلى القرافة فدفن بها.

وكان من الاتفاق العجيب أن ابن شاور قتل في يوم الجمعة حادي عشرين رمضان سنة ثمان وخمسين، فقتل ضرغام يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الآخرة سنة تسع، وقتل مع ابن شاور حسان ابن عمته فقتل مع ضرغام..... وكانت وزارة شاور الأولى تسعة أشهر ووزارة ضرغام بعده تسعة أشهر.

وكان من أعيان الأمراء وأحلى الفرسان، يجيد اللعب بالكرة والرمي بالسهام، ويكتب كتابة ابن مقله، وينظم الموشحات الجيدة، كريماً عاقلاً يحب العلماء والأدباء ويقربهم، إلا أنه سريع الاستمالة يميل مع من يستميله ولا يكذب خبراً عن عدو بل يعاقب سريعاً.

ولما جيء برأسه إلى شاور رفعت على قناة وطيف بها، فقال الفقيه عمارة:

أرى حنك الوزارة صار سيفاً
يحب حده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى، وإلا
بشير بالمنية والمصائب

فكان كما قال عمارة.

وأقام شاور وشيركوه بعد قتل ضرغام في مخيمهما بناحية المقس يومي السبت والأحد، فلما كان يوم الاثنين طلع الوزارة في ثالث شهر رجب، وخرج الكامل بن شاور من دار ملهم، أخي ضرغام، وكان معتقلاً بها، وخرج معه القاضي الفاضل، وكان معه في الاعتقال، وقد تأكدت بينهما مودة، فأدخله إلى أبيه ومدحه عنده وأثنى عليه، فسماه حينئذ بالقاضي الفاضل، وكان قبل ذلك ينعت بالقاضي الأسعد.

وفرّج العاضد بدخول شاور، ولما خلع عليه سار من القصر إلى باب زويلة، وخرج منه إلى باب القنطرة فنزل بدار الوزارة. وركب شيركوه إلى مصر ورآها، وقصد الفقهاء مثل الكيزاني وابن حيطه، واجتمع بالشيخ أبي عمرو بن مرزوق وأخبره كما أخبر ابن نجا أنه يملك الديار المصرية ويزيل هذه الدولة، لكنه لا يملكها إلا بعد أن يرجع إلى الشام ويأتيها ثانياً، ثم يرجع ويعود إليها ثالث مرة وحينئذ يملكها، وسأله عن بيت المقدس فقال: لا يكون فتحه على يدك وإنما يكون فتحه على يد بعض من في خدمتك من أقاربك، وهكذا جرى، فإن شيركوه لم يملك مصر إلا في مجيئه إلى القاهرة المرة الثالثة، ولم يفتح بيت المقدس إلا على يد صلاح الدين يوسف بن أخي شيركوه. (١٤٤)

وفي رابع رجب قرىء سجل شاور بالوزارة.

واستمر شيركوه في مخيمه ويخرج إليه في كل يوم عشرون طبقاً من سائر الأطعمة ومائتا قنطار خبزاً ومائتا إردب شعيراً، وأعد له العاضد ملبوساً وسريراً مرصعاً بالجوهر له قيمة عظيمة كان الأمر قد عمله، وأمره بالدخول ليخلع عليه، فامتنع، وأرسل إلى شاور يقول: « قد طال مقامنا في الخيم وضجر العسكر من الحر والغبار »، ويستنجز منه ما وعد به السلطان نور الدين. فأرسل إليه ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله وحفظه، فبعث يقول له: إن الملك العادل نور الدين أوصاني

عند انفصالي عنه: « إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور والعسكر، والثلث الثالث لصاحب القصر يصرفه في مصالحه ». فأنكر شاور ذلك وقال: إنها طلبت نجدة وإذا انقضى شغلي عادوا، وقد سیرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا أرضي نور الدين، فقال شيركوه: لا يمكنني مخالفة نور الدين ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره.

فأخذ شاور عند ذلك يستعد لمحاربة شيركوه، واستعد أيضاً شيركوه، وبعث بابن أخيه صلاح الدين بطائفة من الجيش يجمع الغلال والأتبان وغير ذلك ببلييس، فغلق شاور أبواب القاهرة، وتغلب صلاح الدين على الحوف، وبعث خيله، وحاز الأموال والغلال، وتقدم إلى جزيرة قويسنا، فخرج ثلاثة من الأستاذين بأمر الخليفة إلى استنفار الناس من الصعيد، وثار ابن شاس، والي جزيرة قويسنا، على الترك وقاتلهم حتى هزمهم وغرق منهم جماعة، فعاد صلاح الدين إلى عمه شيركوه، فتجهز ونزل بحري التاج.

وأخرج شاور خيمه وضربها في أرض الطبالة، فلما كان يوم الأربعاء الثالث والعشرون من شعبان التقى شاور وشيركوه في كوم الريش، فانكسر شاور إلى باب القنطرة ونهبت خيمه، وأسر أخوه صبح وجوهر المأموني، ودخل القاهرة فرمي بحجر من باب القنطرة فدخل الكافوري مغشياً عليه.

وفي ذلك اليوم أحرق صف الخليج، وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة، وبقي الحصار إلى يوم الخميس تاسع رمضان، وورد الخبر إلى شاور بأن الفرنج قاربوا مدينة بلييس يوم السبت حادي عشر رمضان فأقام عليها وشيركوه بها، ولما كان في خامس عشر ذي الحجة تقرر الحال مع شيركوه على أن يدفع إليه شاور خمسين ألف دينار ورهائن على صبح، أخيه

شاور، وعاد إلى دمشق. ورجع الفرنج.

وقدم شاور إلى القاهرة في سادس عشر ذي الحجة، فكان مقامه على بلبس نيفاً وتسعين يوماً.

وأخرج شاور العساكر والحشود مما يلي البستان الكبير خارج باب الفتوح، وزحف شاور، فخرج إليه شيركوه وحاربه، فجرح أكثر عسكر شاور وغورت أعينهم، ووقعت نشابة في عين الطاري بن شاور، اليمنى، فبقي معه النصل مدة إلى أن قلعت وخرج منها بكلفة. فانهزم شاور ودخل القاهرة وأغلق أبوابها، وحاصره شيركوه طول النهار.

فلما كان الليل أحرق من باب سعادة إلى ناحية اللؤلؤة، كما فعل أولاً، واشتد الأمر، وصار كل من يخرج من عسكر مصر يقتل، فركب شاور وخرج ثم عاد وقد ازدحم الناس على السور لتنظر إلى الحرب، فسقطت شرفة من شرفات السور على رأس شاور وغشي عليه، ودخلوا به إلى الكافوري وقد أيس منه، فجاء رئيس الأطباء وعصر في أنفه حصرماً فأفاق. وأتاه الشراب من عند الخليفة فشربه وركب إلى داره وقد ورم وجهه.

واشتد قتال شيركوه على باب القنطرة وأحرق وجه الخليج جميعه، واحترقت الدور التي بجانبه من حارة زويلة، وانضم إليه بنو كنانة وكثير من عسكر المصريين، وبعث طائفة إلى حارة الريحانية وفتحوا ثغرة، فكان هناك قتال شديد. فجلس العاضد على باب الذهب وأمر بالخروج، فتسارع الصبيان وغيرهم إلى الثغرة وقاتلوا الترك والكنانية حتى أوصلوهم إلى منازلهم، وسدوا الثغرة.

وكان ضرغام عند قدوم شاور وشيركوه أرسل إلى الفرنج يستنجد بهم ويعددهم بزيادة القطيعة التي لهم، فامتنع ملكهم وقال: لانأتي إلا بأمر

الخليفة وأما من الوزراء فلا نقبل، فلما تحقق شاور أنه لا قبل له بشيركوه كتب إلى مري ملك الفرنج بالساحل يستنجده ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين من مصر، ويقول له: متى استقروا في البلاد قلعوك كما يريدون أن يفعلوا بي، وضمن له مالا وعلفاً، ويقال إنه جعل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار، وسير إليه بذلك مع ظهير الدين بدران. فسر الفرنج بذلك وطمعوا في ملك مصر.

وخرج مري من عسقلان بجموعه فقبض عن مسيره سبعة وعشرين ألف دينار.

فلما بلغ ذلك شيركوه ارتحل عن القاهرة إلى بلبس وبها ما أعد له ابن أخيه من الغلال وغيرها، وانضم معه الكنانية، فخرج شاور في عسكر مصر، فاجتمع بالفرنج وخيم على بلبس وأحاط بها، فكانوا يغادون القتال ويرأوحوه ثلاثة أشهر، وانقطعت الأخبار عن نور الدين، وبلغه مسير الفرنج إلى مصر.

وسار ملك القدس بجمع كثير ممن وصل لزيارة القدس مستعيناً بهم، فبينا الفرنج في محاصرة شيركوه إذ ورد عليهم أخذ نور الدين لحارم ومسيره إلى بانياس، فسقط في أيديهم وعولوا على الرجوع إلى بلادهم، فراسلوا شيركوه في طلب الصلح وعوده إلى الشام وتسليم ما بيده إلى المصريين. فأجاب إلى ذلك. وندب شاور الأمير شمس الخلافة محمد ابن مختار إلى شيركوه، فقرر معه الصلح على ثلاثين ألفاً أخرى فحملها إليه، وكانت الأقوات قد قلت عنده، وقتل من أصحابه جماعة، وأبطأت نجدة نور الدين فلم يأت منه أحد، وخرج من بلبس أول ذي الحجة.

وممن قتل معه من أصحابه على بلبس سيف الدين محمد بن برجوان، صاحب صرخد، بسهم أصابه، فأنشد وهو يجود بنفسه:

يامصر، ماكنت في بالي ولا خلدي
ولا خطرت بأوهامي وأفكاري
لكن إذا قالت الأقدار كان لها
قوى تـؤلف بين الماء والنار

وقتل من الكنانية عالم عظيم، وحصل للفرنج من شاور أموال جمّة،
فإنه كان يعطيهم عن كل يوم ألف دينار.

وأقام شيركوه بظاهر بليس ثلاثة أيام وسار إلى دمشق، فدخلها يوم
الأربعاء ثالث عشرين ذي الحجة.

فيها عزل شاور أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد
ابن أبي كامل، المعروف بالقاضي المفضل ضياء الدين بن كامل الصوري،
عن قضاء القضاة، وولى مكانه القاضي الأعز أبا محمد الحسن بن علي بن
سلامة، المعروف بالعوريس. (١٤٥)

سنة ستين وخمسة

فيها ركب البرنس أرناط، صاحب الكرك والشوبك، البحر إلى
عسقلان وخرج منها إلى الكرك، وجمع عسكره وأقام ينتظر شيركوه، فعلم
بذلك شيركوه، فمر من خلف الموضع الذي فيه أرناط، فلم يعلم به
ونجاه الله منه، ووصل إلى دمشق فضعف أمر عسكر مصر عند نور
الدين وهون عليه أمرهم، وحرّضه على قصدهم، وأكثر من التحدث في
أمر مصر.

وفيها عاد شاور إلى القاهرة، وخرج يحيى بن الخياط على شاور وحشد
ونزل الجيزة يوم الأربعاء بعد أن حاصر الكامل بن شاور في طنبدى (١٤٦)
ورحل عن الجيزة، فكسروا يوم السبت سابع عشر صفر، وقبض شاور

على ابن فحل وابن أبي كامل وقتلا ليلة الاثنين تاسع عشره، وتتبع من كان يكاتب شيركوه أو يوادّه، وتشدد في طلب أصحاب ضرغام. وكان قد استفسد جماعة من أصحاب شيركوه، منهم خشتين الكردي فأقطعه شطنوف (١٤٧).

وفيهما فر الشريف... المحنك من شاور ولحق بنور الدين. وذلك أنه كان بعثه ضرغام إلى نور الدين في صرف رأيه عن نجدة شاور فوجد نور الدين مائلاً معه لأمره، منها: أنه تقرب إليه بدم مذهب الفاطميين، ووعدته ملك مصر، وعرض له الأموال الكثيرة، فبالغ الشريف في الخط على شاور مع نور الدين، فأنفذه إليه، فلما اجتمع عتبه شاور على ما كان منه، وقال له: أنت تعلم أيها الشريف أن سبب قيامي على آل رزيك إنما كان لأجل ضرغام وإخوته من الأمراء البرقية واتبعت غرضهم فيما نقموه على ابن الصالح، ولما حصلت بالقاهرة رفعت من أقدارهم وزدت في أرزاقهم، وبلغتهم أمانيتهم، فلم يكن لهم إلا إزالتي ثم قتلهم أولادي ونهب أموالي وتشتت جماعتي، وبذل السيف في خاصتي وغلماي، فهل تعلم لي ذنباً إليهم؟ فقال له الشريف: أنت تعلم أيها الأمير أن ابنك طياً كان قد تعدى طوره وتجاوز حده حتى تعاظم عليك ونفذ أمره دون أمرك، وأنه بعد قتل رزيك بن الصالح أطلق لسانه في الأمراء ومد يده إلى أموالهم ونسائهم، وبيتهم في المجالس، وصاح عليهم في المواكب حتى حقدوا عليه، وشكوه إليك فلم تشكهم، وعامل أصحابك وغلماك الناس بكل قبيح فمالت عنك الخاصة والعامة. فسكت عنه، وما زال في نفسه منه حتى تمكن من البلاد فأخذ يتطلبه، ففر منه (١٤٨).

سنة احدى وستين وخمسة

في أول المحرم مات الأمير هوشات. وفي ثلثه مات القاضي المجلس عبد العزيز بن الحباب (١٤٩).

سنة اثنتين وستين وخمسة

فيها جهز الملك العادل نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه من دمشق لقصد ديار مصر في جيش قوي، ومعه جماعة من الأمراء ، وكان كارهاً لمسير شيركوه لكثرة ما رأى من حرصه على السفر، فرحل يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول، وشيعة السلطان إلى أطراف البلاد خوفاً من معرة الفرنج، فسار على ميمنة بلاد الفرنج. وبعث مري ملك الفرنج إلى شاور يخبره بمسير شيركوه بالعسكر إلى مصر، فأجابه يلتمس منه نجده وأأن المقرر من المال يحمل إليه على ما كان يحمل في السنة الماضية.

فسار مري بعساكره، وقد طمع في البلاد، على الساحل حتى نزل بلبس، فخرج إليه شاور، وأقاموا في انتظار شيركوه. فبلغه ذلك، فنكب عن الطريق وهبط في يوم السبت خامس ربيع الآخر من وادي الغزلان إلى أسكر^(١٥٠) وخرج إلى إطفيح قبلي مصر فشن الغارة هناك.

واتصل الخبر بشاور، فرحل هو والفرنج يريدونه، ونزل شاور والفرنج بركة الحبش في يوم الأحد سادس جمادى الآخرة ، وتوجه في يوم الثلاثاء منه إلى دير الجميزة^(١٥١) ، فاندفع سائراً في بلاد الصعيد حتى بلغ شرونه^(١٥٢) وعدى منها إلى البر الغربي، وأدرك شاور ساقته فأوقع بهم، وعدى بعساكره وجموع الفرنج، ونزل شيركوه بالجيزة في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة تجاه مدينة مصر وأقام بها بضعا وخمسين يوماً، وبعث الشريف أبا عبد الله الملقب بالرضي، ابن الشريف المحنك إلى الطلحين والقرشيين يستفزهم ويدعوهم إليه، وكان قد بلغه أن شاور أساء إليهم ، فأتوه مسرعين.

وبعث إلى شاور بأني أحلف لك أني لا أقيم ببلاد مصر ولا يؤذيك

أحد من أصحابي، وأكون أنا وأنت على الفرنج وننتهز فيهم فرصة قد أمكنت وما أظن أن يتفق للإسلام مثلها أبداً. فأبى شاور من قبول ذلك، والثجأ شيركوه إلى دلجة^(١٥٣) ونزل شاور في اللوق والمقس ظاهر القاهرة، وأنشأ الجسر بين الجزيرة والجزيرة، وشحن المراكب والرجال لتسير من خلف عسكر شيركوه.

وكتب شيركوه إلى الإسكندرية يستنجد بأهلها على الفرنج وشاور، فقاموا معه وأمروا عليهم رجلاً يعرف بنجم الدين بن مصال، من ولد الوزير، فكتبوا إليه أنهم يمدونه بالسلاح والحديد، وجهزوا إليه خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه ابن عوف، فأتاه الخبر بقرب شاور فلم يثبت، وترك خيامه وأثقاله، وسار سيراً حثيثاً ونزل قدر ما أطعم دوابه، ورحل من الليل فسار غير بعيد، ثم نادى في عسكره بالرجوع، فعاد إلى دلجة.

وسار شاور والفرنج في طلب شيركوه، فنزلوا الأشمونين وتبعوا شيركوه، فأمر شيركوه أصحابه بالتعبئة. فما طلع ضوء الصباح حتى أشرفت عساكر شاور وجموع الفرنج في عدد كبير، فقدم شاور فحملت على أصحاب شيركوه، فانهزم منها عز الدين الجاولي من أصحابه فلم يرد إلا الإسكندرية، وتفرق منهم عدد، فولى شيركوه وقد قتل من أصحابه جماعة وقتل من أهل الإسكندرية كثير.

وكان سبب الخلل في عسكر شيركوه أنه فرق أصحابه فرقتين، فرقة معه وفرقة مع ابن أخيه صلاح الدين يوسف.

ثم إنهم تجمعوا وقت الظهر ووطنوا أنفسهم على الموت، وحملوا على شاور ومن معه فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأبلى يومئذ صلاح الدين يوسف بلاءً حسناً وحمل حملات فرق بها الجموع وبدد شملها. وحمل

شاور على عسكر شيركوه فكسر القلب، فتلاحقت الميمنة بمن كان في القلب، واستمر القتال حتى حال بين الفريقين الليل، فانهمز كثير من الفرنج وقتل منهم كثير، وكاد ملكهم أن يؤخذ، ووقع في قبضة شيركوه وأصحابه نحو السبعين أسيراً.

وبات الفريقان وقد تبين الوهن في الفرنج، فسار شاور بمن معه إلى منية بني خصيب . وكانت هذه الواقعة في موضع يعرف بالباين، بالقرب من الأشمونين، في يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة.

ثم إن شيركوه سار بأصحابه على طريق الفيوم إلى الإسكندرية وانتهب البحيرة، وأخذ عسكره غلالها ومواشيها، فخدمه ابن الزبير، متولي ديوان الإسكندرية، وحمل إليه الأموال وقواه بالسلاح، وأقام متخوفاً من مسير شاور إليه، فترك بالإسكندرية صلاح الدين يوسف وخرج إلى الصعيد وجبى أموال البلاد، فخرج شاور ونزل على الإسكندرية وحاصرها أشد حصار مدة ثلاثة أشهر ، ومنع عنها الميرة، فقلت بها الأقوات، هذا وشيركوه في جباية أموال الصعيد وأخذ غلاله.

ودخل عليه شهر رمضان ، فلما أتمه وأهل شوال بلغه ما نزل بالإسكندرية وأهلها من البلاء وقلة الأقوات، وأنها قد قاربت أن تؤخذ، فسار من قوص ونزل على مصر يوم الخميس ثامن شوال، فبلغ شاور أن شيركوه حاصر مصر، فرحل من الإسكندرية ، وأرسل شيركوه إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح، ورحل عن مصر إلى الشام. فبعث إلى ملك الفرنج يلتمس منه ذلك، فأجابه إليه ، وقرر مع شاور أنه يحمل إلى شيركوه جميع ما غرم في هذه السفرة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده. ووقع الحلف بالأيمان المؤكدة على ذلك.

فلما تقرر الصلح أرسل صلاح الدين إلى ملك الفرنج يقول إن لي

أصحاباً منهم القوي ومنهم الضعيف، فأما القوي فإنه يتبعنا في البر، وأما الضعيف فإنه يسير في البحر فنريد لهم مراكب، فأنفذ إليه عدة مراكب خرج فيها أصحابه.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية واجتمع بعمه أسد الدين شيركوه، ودخل شاور البلد، وجاءه مشايخ البلد للسلام عليه، ومري ملك الفرنج جالس معه، فلم ينظر شاور إلى الجماعة ولا أكرمهم، ولا أذن لهم في الجلوس، لأنهم كانوا قاتلوه قتلاً شديداً، فنقم عليهم ذلك. فقال له مري: أكرم قساك. فأذن لهم في الجلوس وعاتبهم على ما فعلوا من القتال وإظهار المخالفة. فسكتوا، وكان فيهم الفقيه شمس الإسلام أبو القاسم مخلوف بن علي المالكي، المعروف بابن جاره، شيخ الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر، فقال له: نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائناً من كان، فقال له مري: وحق ديني لقد صدقك هذا الشيخ. فسكت شاور وأكرمهم بعد ذلك اليوم.

وفر نجم الدين بن مصال والي الثغر إلى الشام، وقبض شاور على الأشرف بن الحباب قاضي الثغر وعاقبه، وأخذ منه مالاً جزيلاً، ولم يقنع بالرشيد بن الزين الناظر فولى القاضي الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن ابن منصور بن نجا النظر عوضه، فبعث شاور وقبض على جميع من كان مع صلاح الدين من أهل مصر، وعلى ابن مصال. فشق ذلك على صلاح الدين، واجتمع بملك الفرنج في ذلك، فأرسل إلى شاور وما زال به حتى أفرج عنهم. فخافوا من شاور وعزموا على الرحيل إلى الشام، فخرج إليهم شاور بنفسه وجمع وجوههم وطمأنهم، وحلف لهم أنه يضاعف لهم الإحسان ولا يتعرض لهم بسوء، فمنهم من إطمأن وأقام، ومنهم من رحل إلى الشام.

ووصل الذين ساروا من ضعفاء أصحاب صلاح الدين في المراكب

إلى عكا، وأحاط بهم الفرنج واعتقلوهم بمعصرة القصب حتى (عاد)
ملك الفرنج فأطلقهم.

وتسلم شاور الاسكندرية في نصف شوال ، وسار شيركوه ومن معه
وقد استمال شاور منهم جماعة ومعه مري ملك الفرنج حتى نزل الجيزة
وعدى إلى القاهرة من المقس ، فأقام مري أياماً ورحل عائداً إلى بلاده،
فخرج شاور يودعه إلى بليس ، وعاد إلى القاهرة أول ذي القعدة، فخرج
إليه العاضد يتلقاه إلى الطابية، وخلع عليه.

واستقر الأمر بينه وبين الفرنج أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وأن
تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عسكر إليها،
وأن يكون لهم من دخل ديار مصر في كل سنة مائة ألف دينار. فقرر لهم
شاور ذلك من غير علم العاضد ولا مشاورته ، فإنه كان ممنوعاً من
التصرف، وشاور يستبد بأمور الدولة، فرحل الفرنج إلى بلادهم وتركوا
بالقاهرة عدة من مشاهير فرسانهم، ورتبوا بها ابن بارزان والياً.

ووصل شيركوه إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة وفي نفسه من
مصر مالا ينفصل ، لأنه خبر متحصلها، وعرف بلادها واستخف بأهلها.

واستقر شحنة الفرنج أولاً بالقاهرة في الموضع المعروف اليوم بقصر
بيسرى من الخرنشف، وبعث الكامل شجاع بن شاور إلى نور الدين مع
بعض الأمراء ينهي محبته وولاءه، ويسأل الدخول في طاعته، وضمن له
عن نفسه أنه يفعل هذا ويجمع الكلمة على طاعته، وبذل له مالا يحمله
إليه كل سنة، فأجابه، وحمل إلى نور الدين مالا جزيلاً.

وأخذ شاور بعد عوده من الإسكندرية في الإكثار من سفك الدماء
بغير حق، فكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار
الوزارة ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار. واشتد ظلم إخوته وأولاده

وغلماناه ومن يلوذ به، وكثر تضرر الناس بهم ، فكان من تأمل أحوال الوزراء فإنه يجد الصالح بن رزيك ربي رجال الدولة، وجاء الضرغام فأفناهم، ثم جاء شاور فأتلف أموال مصر وأطمع الغز في البلاد، وجراً الفرنج عليها حتى كان ما كان مما يأتي ذكره إن شاء الله.

وفيهما أحضر القاضي رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن القاضي رشيد الدين أبي الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الأسواني، وقد فر إلى قريب برقة، فدخل على حالة سيئة، فأمر به شاور فضربت عنقه، وصلب عند مسجد الزيني على الخليج، بالقرب من قبو الكرمان، في يوم الأربعاء العشرين من ذي العقدة.

سنة ثلاث وستين وخمسة

ففيها بعث شاور إلى نور الدين رسالة مع شهاب الدين محمود، خال صلاح الدين يوسف، تتضمن أنه يحمل إليه مالاً في كل سنة من مصر مصانعة ليصرف عنه أسد الدين شيركوه، فأجاب نور الدين إلى ذلك، وأعطى شيركوه مدينة حمص وأعمالها زيادة على ما كان بيده. وذلك في شعبان، وأمره بترك ذكر مصر، فأرسل شاور إليه كتاباً يشكر صنيعة.

وفيهما قتل شاور القاضي الرشيد أبا الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم ابن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني، صاحب كتاب « الجنان ورياض الأذهان »، وكان من أهل العلم والأدب، وله رسالة أودعها من كل مشكله ومن كل فن أفضله. وسار إلى اليمن رسولاً - وكان أسود - في أيام الحافظ، وتلقب بعلم المهتدين، فقال فيه شاعر من أهل اليمن من قصيدة بعث بها إلى الحافظ:

بعثت لنا علم المهتدين

ولكنه علم أسود

وولي نظر الإسكندرية ، فقتله شاور في المحرم، بسبب أنه داخل
شريكوه وصلاح الدين وخدمهما، بعد أن عذبه عذاباً شديداً، ثم ضرب
عنقه.

فيها خرج يحيى بن الخياط يريد الوزارة ، فبعث إليه شاور عسكرياً
هزموه حتى لحق بالفرنج.

وفيهما ولي خطابة الجامع العتيق بمصر لتاج الشرف حسن بن أبي
الفتوح ناصر بن إسماعيل الحسيني بعد موت أبيه يوم عيد الفطر.

سنة أربع وستين وخمسة

فيها تمكن الفرنج من ديار مصر وحكموا فيها حكماً جائراً، وركبوا
المسلمين بالأذى العظيم وقد تيقنوا أنه لا حامي للبلاد، وتبين لهم
ضعف الدولة وانكشفت لهم عورات الناس. فجمع مري جموعه
واستشارهم في قصد ديار مصر، ففقوا عزمه على المسير إليها فأجمع على
الرحيل، واستدعى وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لأصحابه، ففرق قراها
عليهم بعد ما كتب جميع قراها وارتفاع كل ناحية، واستنجد عسكرياً
قوى به جنده.

فورد الخبر إلى شاور بمسير الفرنج إلى مصر في نصف المحرم، فبعث
إلى ملك الفرنج الأمير ظهير الدين بدران، وقيس بن طي بن شاور.

وكان نور الدين بحلب، فأسرع مري إلى المجيء إلى مصر ظناً أن نور
الدين بعيد منه وعساكره متفرقة عنه، فبلغ ذلك نور الدين، فأخذ في
جمع عساكره.

ووصل مري إلى الداروم. فبلغ شاوراً فارتاع وبعث أميراً يعرف ببدران

لكشف الخبر، فلما اجتمع بمري خدعه ووعدته بعدة من قرى مصر ،
نحو الثلاث عشرة قرية، وأمره أن يخبر شاور أنهم إنما قصدوا البلد
للخدمة ، فلما عاد إلى شاور جهز إلى مري شمس الخلافة محمد بن
مختار، فعندما دخل عليه قال له: مرحبا بشمس الخلافة. فقال: فمرحبا
بالمك الغدار، وإلا ما أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى
وصل إليكم ليزوج أختاً للكامل بن شاور بصلاح الدين يوسف ويتزوج
الكامل بأخت صلاح الدين، فحسبنا أن هذا عمل علينا، فقال: ما لهذا
صحة، ولو فعل لما كان ناقضاً للهدنة، فقال: الصحيح إن قوماً من وراء
البحر انتهوا إلينا وغلبوا على رأينا، وخرجوا طامعين في بلادكم، فخفنا
من ذلك، فخرجت لتوسط الأمر بينهم وبينكم. فقال له: فكم تريد أن
يكون مبلغ القطيعة التي تقوم بها؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: حتى
أعود إلى شاور بهذا الخبر وأرجع إليكم بالجواب، فلا تبرحوا من
مكانكم. فقال مري: بل ننزل على بلبيس حتى تعود.

وكان قد كتب إلى شاور: إني قد قصدت الخدمة على ما قررت لي من
العطاء في كل عام، فكتب إليه شاور: إن الذي قررت إننا جعلته لك
متى احتجت إلى نجدتك أو إذا قدم علي عدو، فأما مع خلو بالي من
الأعداء فلا حاجة لي إليك ولا لك عندي مقرر، فأجابه : لا بد من
حضورى وأخذى المقرر، فعلم شاور أنه قد غدر وخان الأيمان، ونقض
العهود، وطمع في البلاد، فجمع الأجناد وحشد العساكر إلى القاهرة،
وسير إلى بلبيس حفنة من العسكر، ونقل إليها ما تحتاج إليه من الأقوات
والعلف.

فنزل مري على بلبيس أول يوم من صفر، وكتب عدة من أعيان
المصريين كتباً إلى مري يعدونه المساعدة، لكراحتهم في شاور، منهم علم
الملك ابن النحاس، ويحيى ابن الخياط، وابن قرجلة، وجماعة،
فقوي الفرنج، وغندما قدم مري

إلى بلييس أرسل إلى طي بن شاور، وكان ببلييس ، أين ينزل؟ فقال لرسوله: قل له: تنزل على أسنة الرماح. فغضب من هذا وجعله سبياً لنقض ما قرره مع شمس الخلافة، وحاصر البلد حتى افتتحها قهراً بالسيف يوم الثلاثاء ثاني صفر، وأخذ الطاري والناصر، ابني شاور أسيرين، وقتل جميع من كان فيها وأسرهم وسباهم، ونهب سائر ما تحتوي عليه، وأسر المعظم سليمان بن شاور، وقيس بن طي بن شاور.

وأرسل إلى شاور يقول له: إن ابنك قال: أيجب مري أن بلييس جنة يأكلها! نعم بلييس جنة والقاهرة زبدة، فصعد شاور إلى العاضد وسأله مكاتبة نور الدين وطلب معونته فإن الفرنج قد ملكوا ببلييس والمسلمون يضعفون عن دفعهم، وأنه متى حصل التقاعد أخذت مصر وأسر الفرنج من فيها من المسلمين، ويحثه على إرسال من يتدارك هذا الأمر، فكتب العاضد إلى نور الدين يستغيث به، وأرسل في طي كتبه شعور النساء والأطفال، وقال: هذه شعور نسائي وأطفالي من قصري مستغيثين بك لتنقذهم من الفرنج.

ويقال بل كان كتاب العاضد إلى نور الدين برأي شمس الخلافة، فإنه اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه، فلما حلف له قال: إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة، وآخر أمره يسلم البلد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد ، فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره، فصعد الكامل إلى الخليفة العاضد وكتب الكتاب وأرسله إلى نور الدين، فقبل للعاضد لم لا أطلعت وزيرك على ذلك، فقال أعرف أنه لا يوافقني عليه لكراهته في الغز، وأنا أعلم من أي باب أدخل عليه.

وأرسل إلى شاور يقول: أين استدعائي الغز من المسلمين لنصرة

الإسلام من استدعائك الفرنج للإعانة على المسلمين، فقال للرسول: قل لمولانا عني: أنت مغرور بالغز والله لئن ثبت لهم رجل بديار مصر لا كانت عاقبته وخيمة إلا عليك، فلما بلغه ذلك قال: رضيت أن تكون إسلامية وأكون فداء المسلمين.

فوافقت كتب العاضد، وكتب جماعة من الأعيان إلى نور الدين بحلب، فانزعج لذلك وجمع الأمراء للمشورة فأشاروا بإرسال أسد الدين شيركوه. وكان بحمص وقد وصلت إليه الكتب من مصر باستدعائه لإنقاذهم وإنقاذهم مما نزل بهم، فخرج منها يريد السلطان بحلب، وخرج رسول السلطان من حلب بطلبه، فتلاقيا بباب مدينة حلب، وعادا فلما رآه السلطان عجب من سرعة مجيئه، فأعلمه بموافاة الكتب إليه تستدعيه إلى مصر، فسر بذلك وتفاءل به، وأعطاه مائتي ألف دينار وثمانين سلاحاً ودواب، وحكمه في العسكر فاختر ألفي فارس، وجمع فصار في ستة آلاف فارس.

وخرج معه نور الدين إلى دمشق، فوصل إليها في سلخ صفر، وجهز أسد الدين وأعطى نور الدين كل فارس مئة وعشرين ديناراً مصرية غير محسوبة عليه من جاكيتته وأضاف إليه جماعة من الأمراء، منهم: عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وعين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وصلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان صلاح الدين كارهاً في مسيره إلى مصر كأنها يساق إلى الموت فأخرجه نور الدين كرهاً ليحق قول الله سبحانه إذ يقول: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (البقرة ٢١).

فإن نور الدين أحب مسير صلاح الدين إلى مصر فكان مسيره إليها

لخروج الملك عن أولاده، وكره صلاح الدين مسيره إلى مصر فكان في مسيره إليها تملكه إياها وغيرها من الأقاليم.

وسار شيركوه من دمشق في ثاني عشر ربيع الأول، وتقدم الفقيه عيسى الهكاري إلى العاضد سراً وخفية من شاور ليحلفه على أشياء .

وأما مري فإنه كثرت أمداد الفرنج عنده لقصد سكنى بليس، فنزلها بأبطاله، وأمر بإخراج الأسرى من أهل بليس إلى ظاهر البلد، وركب وقد اعتقل رمحاً وحمل على الأسرى حتى فرقتهم فرقتين، فجعل لنفسه الفرقة التي وقعت عن يمينه، وأنعم بالفرقة اليسرى على أهل عسكره، وقال لمن صار إليه من الأسرى: قد أطلقتمكم شكراً لله على ما أولاني من فتح مصر فإني ملكتها بلا شك. وما زال واقفاً حتى عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل ، وأخذ عسكره أسراهم فاقسموهم، فبقوا في أيدي الفرنج بعد ذلك نحو الأربعين سنة، وهلك كثير منهم هنالك، وأفلت بعضهم.

وكان شمس الخلافة قد صار إلى مري قبل أخذه مدينة بليس بإجابته إلى القطيعة التي طلبها، فعاقه عنده حتى أخذ بليس، كما تقدم ذكره، ثم أذن له في الانصراف إلى القاهرة، واعتذر بأنه بلغه عن (قيس) ابن طي أشياء أمضته حتى فعل ما فعل، وأنه باقٍ على ما تقرر معه، فعاد شمس الخلافة، وأشار على شاور بالاحتراز وقال: إن الرجل مخاتل، وأنفذت الكتب إلى نور الدين.

وكان شاور قد شرع في بناء سور على مدينة مصر واستعمل فيه الناس فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه، وحفر من ورائه خندقاً، فلم يكمل من ناحية النيل. وعمل في السور ثمانية أبواب أحدها بدار النحاس على ساحل البحر، وهدم في سنة.... وخمسين وستائة،

وآخر بجانب كوم البواصين، وثالث على سكة سوق وردان سقط سنة إحدى وستين وستمائة، وباب في طريق زين العابدين، وباب عرف بباب الصفاء، وباب بحري مصلى الأموات سقط قبيل سنة خمسين وستمائة، وباب عند أقمنة الجير مما يلي درب السرية، وباب بقنطرة بني وائل، وتحت قنطرة بني وائل التي تصب في بركة الشيعية^(١٥٤)، التي كانت قديماً بستان الأمير تميم بن المعز، وكان الماء يدخل إليها من خليج مصر.

وسار مري بعقيب مسير شمس الخلافة عنه يريد منازل القاهرة بعد ما أقام ببليس خمسة أيام، فداخل الناس منه رعب شديد، وخوف عظيم، فاجتمعوا بالقاهرة ووطنوا أنفسهم على الموت، وكان هذا من لطف الله فإنه لو قدر أن الفرنج أحسنوا السيرة في أهل بليس لكان الناس لا يدافعونهم عن القاهرة ألبتة لما في قلوبهم من كراهة شاور، فما هو إلا قصد مري القاهرة وإذا بشاور قد قام في حريق مصر، وأمر شاور الناس بالانتقال منها إلى القاهرة، وحثهم على الخروج منها، فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وحرملهم، وقد ماج الناس واضطربوا اضطراباً عظيماً.

ووقعت النار في الأسطول فخرج العبيد إلى مصر وقد انطلقت النار في مساكنها فانتهبوا سائر ما كان بمصر، وبلغ بالناس الحال أن كانت الدابة تكرى من مصر إلى القاهرة ببضعة عشر ديناراً، والجمل بثلاثين ديناراً ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها، وملأوا جميع الشوارع والأزقة، وصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم على الطرق وقد ذهبت أموالهم وسلبت عامة أحوالهم، وهم مع ذلك ينتظرون هجوم الفرنج على القاهرة وقتل رجالها وسبي من بها من الحرير والصبيان.

وكان ابتداء الحريق بمصر في يوم (الثلاثاء) التاسع من صفر الموافق

له ثامن عشر هتور، واستمرت النار في المساكن أربعة وخمسين يوماً، والنهابة تهد ما هنالك وتحفر لطلب الخبايا.

ونزل مري بعساكره على بركة الحبش في يوم (الأربعاء) العاشر من صفر، فخرج إليه شمس الخلافة، فلما دخل إليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة، فخرج، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أترى دخاناً في السماء؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر ما أتيتك إلا وقد احترقت بعشرين ألف قارورة نפט وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاءه ونفعه، فخل الآن عنك. فقال مري: لا بد من النزول على القاهرة ومعني فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها.

ثم رحل فنزل القاهرة في عاشر صفر مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ، تقع في خيمه^(١٥٥).

١٥٥ - بهامش الأصل عدة أسطر مضموسة الآخر « بخط المصنف. ومن طريف ما وقع في هذه النوبة أن شيخاً من أجناد مصر يقال له الأمير الصادق، عرف بذلك لكثرة كذبه، كان مقدماً على طوائف من الجند، وكان يثير الفتن على السلاطين، وهو الذي كان أبداً يقول للجند صيحووا على السلطان: لا لا، وإذا كان لقاء في الحرب تحيز بطائفته على كوم أو موضع مرتفع فإذا رأى العدو قد أقبل نزل هارباً وهو يقول للجند: أرجلكم والطريق، فينكسر بحركته. فلما كانت هذه الحادثة سلم إليه برج من أبراج سور القاهرة، وهو برج البرقية، كما سلم لغيره من مقدمي الأجناد بقية أبراج السور. وكان هذا المقدم لا ينزل من السور ولا يفارقه قدر شبر لفزعه من الفرنج، فإذا حمل الفرنج على المصاف الذي قدام البرج الذي هو فيه يقول: الأوباش الذين أخذناهم من فوق السور

ولكم خبطوهم بالصراخ فيصرخون للفرنج وهو يصيح خوفاً ها هم
خوذوهم ويظن أن الفرنج ينكسرون بذلك، والفرنج يضربون الناس
بالسيوف إلى السور، وهو مع خوفه يظن أنه يحتمي من برصانيات الفرنج
بالصراخ.

وقاتل أهل القاهرة قتالاً شديداً وحفظوها وبذلوا جهدهم، واشتد
الفرنج في محاصرة القاهرة وضيقوا على أهلها حتى تزلزل الناس زلزالاً
شديداً وضعفت قواهم، وشاور هو القائم بتدبير الأمور، فتبين له العجز
عن مقاومة الفرنج وأنه يضعف عن ردهم، وخاف من غلبتهم فرجع
عن مقاومتهم إلى مخادعتهم وإعمال الحيلة، فأرسل شمس الخلافة إلى
مري يطلب منه الصلح على أن يحمل إليه أربعمئة ألف دينار معجلة،
فأجاب إلى ذلك، ويقال إنه خوفه من نور الدين واعتذر بأنه لولا
الخوف من العاضد ومن معه من المسلمين وإلا سلمه البلد، وإنه تقدم
له بألف ألف دينار. فتقرر الصلح.

على أن مري قال: لا أسمع من كلام شاور فإنه غدار، ولا بد من كلام
الخليفة العاضد، فمشى أبو الفتح عبد الجبار بن عبد الجبار بن إسماعيل
ابن عبد القوي، المعروف بالجليل قاضي القضاة وداعي الدعاة، ومعه
الأستاذ صنيعة الملك جوهر، بين الفرنج وبين الناس حتى تقرر الأمر
على تعجيل مائة ألف دينار وحمل الباقي بعد ذلك مع القطيعة المقررة
كل سنة، وزيادة عشرة آلاف دينار وعشرة آلاف إردب غلة على ما يقترح
من أصنافها، فأرسل العاضد القاضي الفاضل عبد الرحيم إلى الشيخ
الموفق ابن الخلال كاتب الدست، وكان مريضاً والفاضل ينوب عنه
بتعيين الكامل بن شاور، وقال له: استشره في هذا الأمر، فمضى الفاضل
إليه، وعرض ما تقرر عليه، وبلغه عن العاضد ما أشار به من أخذ رأيه

في ذلك، فقال: قبل الأرض عني لمولانا وقل له عن مملوكه إن وجد المشتري منها وصبر البائع فليست بغالية، وبين قيل وقال يتصرم الوقت.

وشرع شاور في حمل المال، فلم يجد في حاصل الخبايا بالقصر سوى مائتي ألف دينار مدفونة في أحد كمي المجلس من ذخائر الحافظ، أطلعهم عليها أستاذ من استاذي القصر، فأخرجت وحمل إلى الفرنج منها على يد ابن عبد القوي مائة ألف دينار، فأخذوها بعد امتناع. ووقع الطلب من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصل من الناس إلا نحو الخمسة آلاف دينار، لفقر أهل مصر، وسوء حالهم، وذهاب أموالهم في الحرق والنهب بحيث صاروا لا يجدون القوت عجزاً عنه، ولأن أهل القاهرة أكثرهم الجند وأهل الدولة وأتباعهم فقال الفقيه عمارة:

يأرب إني أرى مصر أقـد انتبهت
لها عيون الليالي بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية
واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عوناً نستجير به
من فتنة يتلظى جمر وقـدتها

فبينما الفرنج في استحثاث أهل القاهرة في حمل المال إذ وصل إليهم في مستهل ربيع الآخر خبر قدوم أسد الدين بالعساكر، فأزعجهم ذلك ورحلوا عن القاهرة يوم السبت، ثالث ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألفاً ما بين رجل وصبي وامرأة. فنزلوا على بلبس، وساروا منها إلى فاقوس.

ونزل أسد الدين بالمقس إلى اللوق خارج القاهرة يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر، فخرج إليه العاضد وتلقاه.

وكان شاور لما بلغه وصول شيركوه إلى صدر أخرج شمس الخلافة إلى

مري فقال له: قد وقف المال علينا، وقد جئت إليك أستوهب منك بعض ما قطعت علينا، فقال مري: اطلب ما شئت، قال: تهب لي من الألفي ألف ألف ألف. قال: قد فعلت فقال شمس الخلافة: ما بلغني أن ملكاً وهب مثل هذا لقوم هم في مثل حالنا، فقال مري: أنا أعلم أنك رجل عاقل وأن شاوراً ملك، وأنكما ما سألتماي أن أهب لكما هذا المال العظيم إلا لأمرٍ قد حدث. فقال: صدقت، هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نصره لنا وما بقي لك مقام، وشاور يقول لك: أرى أن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لنا ولك، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذه الألف ألف بشيء وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال مري: أنا راض بذلك. فقال: وأن تطلق ابن طي بن شاور وجميع من في عسكريك من الأسارى، ولا تأخذ من بليس بعد انصرافك شيئاً، فأجاب إلى ذلك، وأطلق ابن شاور ورحل.

ولما قارب شيركوه القاهرة خرج شاور إلى لقائه وقابله بالاحترام والإكرام، وأشار عليه باتباع الفرنج، فلم ير ذلك واعتذر بما هم فيه من التعب.

ونزل أسد الدين بظاهر القاهرة، ودخل على العاضد فخلع عليه في تاسعه بالإيوان، وعاد إلى مخيمه، وقد فرح الناس بقدومه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة والإقامات الوافرة، وثقل ذلك على شاور ولم يقدر على عمل شيء لما عرفه من ميل العاضد إلى شيركوه، وشرع يماطل بما تقرر لشيركوه ولنور الدين وهو يركب كل يوم إليه ويسير معه، ويعده ويمنيه.

وعزم على أن يعمل دعوةً ويحضر شيركوه وجميع أمرائه، فإذا صاروا إليه قبض عليهم واستخدم من معهم من الجند ليمنع بهم الفرنج، فنهاه

ابنه شجاع عن ذلك وقال: والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال: يا بني، والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً. قال: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحيث لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً، فترك شاور ما عزم عليه.

ولما طال مطال شاور على الغز اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك على قتل شاور.

واتفق أن شاوراً رأى في منامه كأنه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواته وهو يوقع، والحاجب بين يديه يتناول منه التوقيع، فقال: من هذا الذي جلس في مجلسي ووقع من دواتي؟ فقيل له: هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: وما يصنع محمد عندي، أما كان له في مملكة غيري متسع؟! ثم إنه قام إليه وضربه بسيفه حتى قتله وألقاه بظاهر الدار، فلما استيقظ هاله ما رآه، واستدعى أبا الحسن علي بن نصر الأرتاحي العابد، وكان نادراً في علمه، وقص عليه ما رأى، فقال له: هؤلاء الذين في القصر من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون هلاكهم على يدك، فأمره بكتمانه، فلم يظهر حتى قتل شاور.

ويقال إن العاضد خرج متنكراً إلى شيركوه وأمره بقتل شاور، فركب على عادته إلى شيركوه ومعه الطبل والبوق وخرج من باب القنطرة، فلما صار في مخيم الغز تلقاه صلاح الدين وجرديك في جماعتهم وأعلموه أن أسد الدين توجه إلى القرافة، فقال: نمضي إليه، فساروا جميعاً وصلاح الدين وجرديك عن يمينه وشماله، وكان اليوم كثير الضباب، فتناول صلاح الدين شاور على غرة هو وجرديك وألقياه عن فرسه إلى الأرض،

وأحاط أصحابها بمن مع شاور فانتهبوهم وفروا عنه. وأخذ أسيراً إلى المخيم، وأرسلوا إلى شيركوه، فحضر، وبلغ ذلك العاضد فأنفذ في الحال إلى شيركوه أحد الأستاذين بسيف. وقال: هذا غلامنا ولا خير فيه لك ولا لنا، فأمض حكم الله فيه، فقتل في يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر، وحملت رأسه إلى العاضد.

وفر الكامل شجاع بن شاور هو وأولاد أخيه إلى القصر، فكان آخر العهد بهم، وأحضرت رؤوسهم يوم الاثنين رابع جمادى الأولى، وبعث شيركوه يطلبهم، فأرسل إليه العاضد طبقاً من فضة مغطى، فلما كشف عنه وجد فيه رأس شجاع ورؤوس أولاد أخيه، فتأسف على قتل شجاع لما كان يبلغه عنه من منعه أباه من عزمه على الفتك بهم.

وكانت وزارة شاور هذه كثيرة البقائع والنوازل فإنه أطمع الغز والفرننج في البلاد وجرحهم إليها، فأحرق مصر وأزال نعم أهلها وأذهب أموالهم، وكان السبب في إزالة الدولة الفاطمية من ديار مصر وتملك الغز لها.

وكان مع ذلك منقاداً لولده الكامل قد أطاعه وسلم الأمر إليه بحيث إنه كان يأتي إلى داره فيحتجب عنه، وكان ضيق العطن، لا يصبر على شيء مما ينقل إليه من الأخبار. وكان إذا سئل وهو في الخدمة لا يرد سائلاً في شيء، وكان شديد النكال إذا عاقب، فتكشفت في وزارته الثانية التي قتل فيها صفحاته، وأحرقت كافة أهل مصر لفتحاته، وأغرقتهم نفحاته، فغصه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وكان عاقبة أمره القتل والعار، وسوء المنقلب والدمار.

ثم إن أسد الدين ركب بعد قتل شاور بجموعه ودخل إلى القاهرة في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر يريد لقاء الخليفة العاضد، فهاله ما

رأى من كثرة اجتماع الناس وتخوف منهم، فأراد أن يفرقهم، فقال لهم: إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فتسارعوا إليها وانتهبوا سائر ما كان فيها، فصعد شيركوه إلى القصر، وخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، ونزل إلى دار الوزارة حيث كان ينزل شاور ومن قبله من الوزراء، فلم يجد ما يجلس عليه، لما شملها من النهب، فجلس للهناء وغلب على الأمر.

وخرج إليه التوقيع بخط القاضي الفاضل وإنشائه، فقرأه المجلس ابن عبد القوي قاضي القضاة، على رؤوس الأشهاد، وفي أعلاه بخط العاضد: « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلاً بحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعتزت بأن اعتزت إلى بثوة النبوة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سيلاً، (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) (النحل ٩١). وهو توقيع كبير.

وكتب القاضي الفاضل إلى نور الدين محمود بن زنكي كتاباً بأن يقر شيركوه عنده بمصر فإنه فوض إليه الوزارة وأمر الجيوش، تاريخه سبع عشرين ربيع الآخر وكتب العاضد علامته بين سطريه الأولين بخطه « الله ربي »، فعاد الجواب بالامثال.

وسلك أسد الدين مع العاضد مسالك الأدب حتى أعجب به، ومال إليه، وركب إلى مصر فرآها مشوهة بالحريق وقد تلفت فيها أماكن وسلمت أماكن، وتشعث الجامع، فشق عليه، وعاد وقد حضر إليه الأمير ابن مماتي والقاضي الفاضل، فأمر بإحضار أعيان المصريين الذين جلوا عن مصر في الفتنة وصاروا بالقاهرة، فتغمم لما نزل بهم، وسفه رأى شاور فيما فعله، وأمرهم بالعود إلى مصر، فشكوا ما حل بهم من الفقر وذهاب

الأحوال وخراب المنازل، وقالوا: إلى أي موضع نرجع وفي أي مكان نأوي؟ فقال: لا تقولوا هذا، وعلي بإذن الله حراستكم وإعادتها إليكم على ما كانت عليه وأحسن فاستدعوا مني كل ما لكم فيه راحة، فهي بلدي وربما أسكن فيها بينكم. فشكروا له ودعوا.

وأمر فنودي على الناس بالرجوع إلى مصر، فتراجعوا إليها شيئاً بعد شيء.^{٤٠}

وجعل أسد الدين اجتماعه بالخليفة العاضد في الشباك على العادة، فأول ما اجتمع به قال له الأستاذ صنيعة الملك جوهر، وكان أكبر الأستاذين وأفصحهم لساناً، وهو قائم على رأس العاضد: يقول لك مولانا لقد كنا نؤثر مقامك عندنا أول طروقك بلادنا، ولكن أنت تعلم الموانع عنه، ولقد تيقنا أن الله عز وجل ادخرك لنا نصرة على أعدائنا، فقال أسد الدين شيركوه: ياموليننا - يامالة اللام - والله لأنصحك في الخدمة ولأجعلن دولتك بعون الله قاهرة. فقال الأستاذ: يقول لك مولانا: الأمل فيك هذا وأكثر، ثم جددت له الخلع وأفيضت عليه، ونزل إلى داره.

وحسن عنده موقع الجليس ابن عبد القوي، قاضي القضاة وداعي الدعاة، وأثنى عليه وشكره، وقال: لولا مذهبه، فقال: إنه ولد بالمغرب وله دالة على الخليفة، ولولا ضبطه حواصل القصر لخرجت كلها لكرم العاضد، لكنه يحترمه ويقبل مشورته. فازدادت مكانته عند أسد الدين وأقره على حاله.

واستبد أسد الدين بأمور المملكة، وغلب على الدولة، واستعمل أصحابه وثقاته على الأعمال، وأقطع البلاد لعساكره. ولما أكب الناس عليه بالتواقيع قلق من كثرة ما يوقع وقال: أظن مولانا استخدمني كاتباً.

في رابع جمادى الأولى قتل الكامل شجاع بن شاور، والمعظم سليمان ابن شاور، وركن الإسلام نجم أخو شاور، وأحضرت رؤوسهم إلى أسد الدين شيركوه.

ولما بلغ نور الدين وزارة شيركوه للعاضد واستبداده بالأمر كله ذلك وأمضيه، وظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وأخذ يتحدث في ذلك، وأفضى به إلى الأمير مجد الدين ابن الداية. وأخذ يعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين، وكاتب العاضد في ذلك غير مرة، ويلتمس منه أن يبعث إليه أسد الدين، يريد بذلك إخراجهم عن مصر فلم يسمح العاضد بإرساله لأنه دبر الأمور وقام بحمل أعباء المملكة من غير أن يغير على أصحاب العاضد شيئاً من أحوالهم، ولا أنكر عليهم أمراً من أمورهم، بل أقرهم على عوائدهم سوى أنه أقطع البلاد لأصحابه.

وتولى عنه التدبير ابن أخيه صلاح الدين وقام بمباشرتها، فصار إليه الأمر والنهي حتى مات أسد الدين، بعد أن استقر في الوزارة ثلاثة وستين يوماً، يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بخناق تولد له من إكثاره أكل اللحوم الغليظة، ودفن في الدار فلم تخرج له جنازة.

وكان شجاعاً قوياً، جلدًا عفيفاً، متألهاً، يحب أهل الخير، وله إثارة، وفيه ضبط وإمساك. وأصله من دوين، بليدة من عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، وهو من قبيل الروادية إحدى بطون الهذبانية من قبائل الأكراد. وقدم هو وأخوه نجم الدين أيوب، وكان أسن منه، إلى بغداد واتصلا بخدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق من قبل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولأزماءه، فبعث بأيوب إلى تكريت، وكانت إقطاعه، فأقره فيها دزداراً - ومعناه حافظ القلعة، فإن « دز » بالفارسي القلعة، « ودار » الحافظ - فأقام بها ومعه أخوه

شيركوه، وله به إقطاع، إلى أن انهزم عماد الدين زنكي من العراق، من قراجا الساقبي، ووصل إلى تكريت، فأمكنه أيوب من قلعتها ورفعها إليها بالحبال، وخدمه هو وأخوه شيركوه، فاعتدها يداً لهما. ثم أقام له السفن حتى عبر دجلة، وتبعه أصحابه فأحسن إليهم وسيرهم إليه.

فبلغ ذلك الأمير مجاهد الدين أستاذه فأنكر عليه وأخرجه من قلعة تكريت، فسار هو وشيركوه إلى عماد الدين زنكي، وهو يومئذ صاحب الموصل، فأكرمهما وأقطعهما إقطاعاً، وتقدما عنده، فلما ملك بعلبك جعل نجم الدين دزدارها، فأقام بها إلى أن قتل عماد الدين زنكي، وحصر عسكر دمشق بعلبك لأخذها لصاحب دمشق، مجير الدين أبق ابن محمد بن بوري بن ظهير الدين طغتكين الأتابك، فبعث إلى سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بالموصل يعرفه ويطلب منه عسكراً فلم يجبه، فسلم بعلبك لصاحب دمشق على إقطاع، وصار أحد أمراء دمشق.

وأما شيركوه فإنه لما خدم عماد الدين زنكي تمكن منه، بواسطة الوزير جمال الدين الأصفهاني، إلى أن قتل، فتعلق بخدمة ابنه نور الدين محمود ابن زنكي وتخصص به، حتى عظمت منزلته عنده، وصار معه إلى حلب فأقطعه وأنعم عليه، ثم أعطاه مدينة الرحبة وتدمر إلى أن جهزه إلى مصر وعاد منها وهو كثير الذكر لها، فخافه نور الدين وصرفه عنه وأعطاه مدينة حمص، وجعله مقدم عسكره إلى قدم مصر وملكها - كما تقدم - إلى أن مات، فدفن بالقاهرة، ثم نقل منها إلى المدينة النبوية بعد مدة.

ولما احتضر قال: من ههنا؟ فقال الطواشي بهاء الدين قراقوش: عبدك قراقوش. فقال: بارك الله فيك، الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا، ومتنا وأهلها راضون عنا، أوصيكم: «لا تفارقوا سور القاهرة حتى تطير رؤوسكم، واحذروا من التفريط في الأسطول».

ولما توفي أسد الدين افترق أهل القصر وحواشي الخليفة العاضد من الأستاذين وغيرهم فرقتين: فأما إحداهما - وكبيرهم الأستاذ صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر - فإنهم قالوا: قد مات أسد الدين المهديد به في الشرق والغرب ولم يحدث إلا خير، ومن الرأي أن نمسك مخلصته ونضيف إليها من جياذ فرسان الغز ما تكون جملة ثلاثه آلاف فارس، ونقدم عليهم بهاء الدين قراقوش، وننزلهم بالشرقية، ونجعلها بأجمعها إقطاعاً لهم يسكنون بها، فيصيرون بيننا وبين الفرنج الذين طمعوا في البلاد، يقاتلون عن حرمهم وإقطاعاتهم، ويرتب مولانا من أجناد الديار المصرية من ينتفع به، ولا يقيم وزيراً تثقل وطأته ويشارك الخليفة في أمره، بل يجعل صاحب وساطة بين الناس وبين الخليفة.

وقالت الطائفة الأخرى: لا وحق الله، ما يكون وزير مولانا إلا ابن أخي وزيره الذي هو منه وإليه، يعنون صلاح الدين، وإذا بقي المذكور أقام معه قراقوش وغيره من المعتبرين.

وكذلك وقع في عسكر أسد الدين، فإن شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، والأمير عين الدولة ياروق الياروقي، وأخاه الأمير بهاء الدولة، والأمير قطب الدين خسرو بن تليل، والأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب طلب كل منهم الوزارة لنفسه وجمع أصحابه ليغالب عليها.

واجتمع مماليك أسد الدين، وهم خمسمائة، على صلاح الدين وطلبوا وزارته، وتحدثوا بأن أسد الدين أوصى إليه، فبعث العاضد إليهم وسأل الأمراء من يصلح للوزارة، فسار إليه شهاب الدين محمود الحارمي وأرشده إلى تولية صلاح الدين، وكان العاضد قد مال إليه وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم لما اختلفوا، كما تقدم ذكره: والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين، وما بلغت غرضاً في حقه لقرب عهد

مقام عمه؟ فأرسل إليه وخلع عليه خلع الوزارة بالعقد والجوهر، وحنكة، ونعته بالملك الناصر، وذلك في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة.

وصفة الخلعة ثوب أبيض ديبقي بطرازين ذهب، وطيلسان بطراز ذهب دقيق، وعمامة بيضاء مذهبة، وفي عنقه العقد الجواهر وقيمتة عشرة آلاف دينار، وقد تقلد سيف الوزارة وقيمتة خمسة آلاف دينار. وركب حجرة صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، وعليها سرفسار ذهب مجوهر، وأعلاقها من سبته، وفي عنقها مشدة بيضاء برأسها مائتا حبة جوهراً، وفي أربع قوائمها أربعة عقود من جواهر، وعلى رأسه قصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة ومشدة بيضاء بأعلام ذهب. وحمل بين يديه عدة بقج فيها أنواع من الثياب، وقيد معه أيضاً عدة خيول، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض بخط القاضي الفاضل ومن إنشائه، وقرأه الجليس ابن عبد القوي. وهو كبير جداً وعلى رأسه بخط العاضد: « هذا عهد أمير المؤمنين إليك: وحجته عند الله سبحانه عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضاً بيمينك، ولئن مضى بجدنا رسول الله أحسن أسوة، ولئن بقي أعظم سلوة. (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) (القصص ٨٣). فكان آخر منشور كتب عن العاضد.

ولما نزل صلاح الدين إلى دار الوزارة لم يطعه أحد من الأمراء النورية ولا خدموه، فسعى الفقيه عيسى الهكاري في الإصلاح بينه وبينهم، وبدأ بالمشطوب فقال له: هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي (وابن تليل)، ثم قصد الحارمي وقال له: هذا صلاح الدين ابن أختك، وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجهم عنه ولا يصل إليك، وما زال بهم حتى مالوا إليه وأطاعوا بأجمعهم إلا عين الدولة فإنه قال: لا أخدم يوسف أبداً، وخرج من

القاهرة بجماعة وصار إلى نور الدين بالشام.

فلما بلغ نور الدين استيلاء صلاح الدين أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه من شدة ما عظم عليه ذلك وأغضبه.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وساس الأمور، وكاتب الأطراف، وأقبل على الجدد، وتاب عن الخمر، وأعرض عن اللهو، وتقرب إلى الخليفة العاضد بما يرضيه فأحبه وأدناه حتى كان يدخله إليه القصر راكباً ويقوم عنده بالقصر عدة أيام . وعظم في الدولة حتى حسده الأمراء وبأينه جماعة منهم وتوجهوا إلى الشام، وشرع في استمالة قلوب الناس إليه فبذل فيهم المال وأخرج ما كان في خزائن عمه أسد الدين، واستدعى من العاضد فأمدّه بشيء كثير من المال، فكان أمره في زيادة وقوة وأمر العاضد في نقص وضعف.

وركب العاضد ومعه الملك الناصر صلاح الدين يوسف في غرة شهر رمضان، وحمل العادل أبو بكر السيف، ثم ركب أيضاً جمعيتين في شهر رمضان إلى الجامع الأزهر والجامع الأنور على العادة، وركب في عيد الفطر.

وأرسل إلى نور الدين يسأله في إرسال أبيه وأخيه فلم يجبه إلى ذلك.

وصارت الخطبة بديار مصر للعاضد ومن بعده للملك العادل نور الدين، وهو في الظاهر ملك الديار المصرية، وصلاح الدين لا يتصرف إلا عن أمره كالنائب في الأمر عنه، ونور الدين لا يفرده بكتاب، بل يكتب : « الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا »، ويجعل علامته على رأس الكتاب تعظيماً لنفسه وترفعاً عن أن يكتب اسمه.

وعندما بلغه وفاة أسد الدين شق عليه استيلاء صلاح الدين، وتتبع أصحابه وأصحاب أسد الدين، وأخذ إقطاع صلاح الدين وإقطاع أسد الدين، ومنع نوابه من التصرف في حمص، وأبعد أهاليهم واستقلهم وطردهم عنه، وكتب إلى الأمراء بمصر بمفارقته وتركه بمصر وحيداً ليوهن أمره، وشرع يذمه ويذكره بالسوء ويعتته في الطلب بحمل الأموال إليه، وصار كثيراً ما يقول: « ملك ابن أيوب»، ويستعظم ذلك احتقاراً له.

وثقل ذلك على أهل الدولة وحواشي الخليفة العاضد، فإنه أقطع أصحابه أجل البلاد وقواهم، وأبعد أهل مصر وأضعفهم، واستبد بجميع الأمور ومنع العاضد من التصرف، ففطن العاضد لما يريد من إزالة الدولة، فثار الأستاذ مؤتمن الخلافة جوهر، وهو يومئذ من أكابر خدام القصر، وبعث بمكاتبة إلى الفرنج يستنجد بهم على الغز، ويحثهم على قصد البلاد ليخرج إليهم صلاح الدين بعساكره فيثور عند ذلك بعبيد مصر وطوائف العسكر، ويصير صلاح الدين محصوراً بين الفرنج وبينهم فيأخذونه ويتلفون من معه، ووافقه على ذلك جماعة.

وبعث رجلاً بالكتاب إلى الفرنج بعد ما جعله في نعل كي لا يعثر عليه، فلما وصل الرجل إلى البئر البيضاء (١٥٦) قريباً من بليس، ظفر به بعض أصحاب صلاح الدين ومعه نعلان جديدان في يده، فارتاب لما رآه من سوء حاله وحسن النعلين، وعلم أنها لا يليقان به، ولو كانا من ملابسه لكان تين فيهما أثر الاستعمال، فأخذهما منه وشقهما فوجد فيهما الكتب إلى الفرنج، فتقرب بذلك إلى صلاح الدين، وحضر بالرجل والكتب إليه، فكتب ذلك، وتتبع من كتب الكتب حتى أحضر إليه برجل يهودي، فلما خاف منه أسلم وأخبره الخبر.

فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة وخشي على نفسه، فلزم القصر وامتنع من

الخروج مدة وصلاح الدين لا يلتفت إليه، فاغتر بإعراضه عنه وخرج إلى منظره له على النيل، بستان بناحية الخرقانية قريباً من قليوب، فأرسل إليه صلاح الدين بجماعة من أصحابه هاجموا وقتلوه، وصاروا إليه برأسه، وذلك في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، وجعل صلاح الدين زمام القصر عوضه الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، فغضب لقتله السودان وحرك منهم ما كانوا يتكتمونه، فاجتمعوا لحرب صلاح الدين في سادس عشرينه، صبيحة قتل مؤتمن الخلافة، وقد صاروا في جمع كثير من الأمراء المصريين وعوام البلد يزيد على الخمسين ألفاً، وزحفوا إلى دار الوزارة.

فبدر إليهم فخر الدين شمس الدولة توران شاه، وركب صلاح الدين بعساكره وقد تجمعت الريحانية والجوشية والفرجية ومن انضاف إليها في بين القصرين، وخرجت إليهم الأرمن، فوقع بين الفريقين قتال عظيم استظهر فيه العبيد على الغز، والعاضد في المنظره يشرف على الوقعة، فلما تبين الغلب للعبيد وكادوا أن يهزموا الغز رمى أهل القصر بالنشاب والحجارة حتى امتنعوا عن مقاتلة العبيد، فنادى شمس الدولة النفاطين وأمرهم بإحراق المنظره التي فيها العاضد فطيب قارورة وصوب على المنظره بها، فإذا بباب الطاق قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة، أحد الأستاذين الخواص، وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم. فلما سمع العبيد ذلك، وكان قد قتل أحد مقدميهم، وبعث صلاح الدين في أثناء محاربتهم لهم إلى حارة السودان خارج باب زويلة، المعروفة بالمنصورة، فأحرقها وتلفت أموالهم وهلك أولادهم وحرمتهم، قضعت لهذه الأمور أنفس العبيد، وانهمزوا بعد ما ثبتوا يومين، وتبين لهم الغلب، فركب الغز أقفيتهم يقتلون ويأسرون، إلى أن وصوا إلى السيوفية وثبتوا هنالك، فألقى شمس الدولة النيران في المواضع التي امتنعوا بها.

وأحرق أيضا دار الأرمن التي كانت بين القصرين، وكان بها خلق كثير من الأرمن كلهم رماة لهم جار، وكانوا في هذه الحروب قد أنكروا الغز بشدة رميهم ومنعواهم أن يتجاوزوا من مواضعهم إلى محاربة العبيد، فلما احترقت عليهم الدار لم يكذبوا فقلت منهم أحد، فالتجأ العبيد إلى عدة أماكن، وكلما امتنعوا بموضع ألقى فيه الغز النار وقتلواهم، حتى صاروا إلى باب زويلة وأخذت عليهم أفواه السكك وقد وهنوا ولم يجدوا لهم ملجأ. فصاحوا وطلبوا الأمان، فأمنوا على ألا يبقى منهم أحد بالقاهرة، فخرجوا بجمعهم إلى الجيزة. ومال الغز على أموالهم وديارهم واستباحوا جميع ما فيها، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة، فما هو إلا أن صاروا بالجيزة حتى عدى إليهم شمس الدولة بالعسكر فأبادهم حصداً بالسيف، ولم ينج منهم إلا الشريد. وأمر صلاح الدين بتخريب المنصورة وصيرها بستاناً، فمضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر.

وقوي صلاح الدين، وتلاشى العاضد وانحل أمره، ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة، ووالى صلاح الدين الطلب من العاضد في كل يوم ليضعفه، فأتى على المال والخيول والرقيق وغير ذلك، حتى أن العاضد كان في بعض الأيام بالبستان الكافوري وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرساً وهو راكب، فقال: ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما وسلم إلى القاصد الفرس وعاد إلى قصره ماشياً، فلزم مجلسه ولم يعد بعدها يركب حتى مات.

وأخرج صلاح الدين خاله الأمير شهاب الدين الحارمي إلى الصعيد يتبع من فر من العبيد فأفناهم، ولم يبق منهم بديار مصر إلا من اختفى، بعد أن كانت البلاد كلها لا تخلو ضيعة ولا محلة من أن يكون فيها مكان معد للعبيد، محمي لا يدخله وإلّا ولا غيره. وكان منهم ضرر على الناس.

وأخذ صلاح الدين في القبض على دور العبيد والأرمن والأمراء،
وأسكن فيها أصحابه معه بالقاهرة.

وكان قاع النيل في هذه السنة ست أذرع وثمانى أصابع، وبلغ ثمان
عشرة ذراعاً^(١٥٧).

سنة خمس وستين وخمسة

فيها قدم من الشام إخوة صلاح الدين يوسف وغياله، وقيل كان
قدومهم في سنة أربع .

فيها تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خوفاً من صلاح الدين ونور الدين،
عندما بلغهم تمكنه من ديار مصر وقطع آثار جند المصريين، فكاتبوا
فرنج صقلية وغيرهم واستنجدوا بهم، فأمدوهم بالمال والسلاح
والرجال، وساروا بالدبابات والمنجنقات إلى دمياط، فنزلوا عليها في
مستهل صفر بألف ومائة مركب، ما بين شيني ومسطح وشلندي
وطريدة، وأحاطوا بها براً وبحراً.

فبعث صلاح الدين بالأمير تقي الدين (عمر بن شاهنشاه بن أيوب
- ابن أخي صلاح الدين) ، وأتبعه بالأمير شهاب الدين الحارمي، في
عساكر إلى دمياط، وأمدهم بالمال والميرة والسلاح.

وألح الفرنج على أهل دمياط وضايقوهم، والناس فيها صابرون في
محاربتهم، وبعث صلاح الدين إلى نور الدين . يستنجد به ويعلم أنه
لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفاً من قيام المصريين
عليه، فجهز إليه نور الدين العساكر شيئاً بعد شيء، وخرج بنفسه إلى
بلاد الفرنج بالساحل وأغار عليها واستباحها.

واستمر الفرنج على دمياط أحداً وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها في الحادي والعشرين ، وقيل في الثالث والعشرين، من ربيع الآخر، خوفاً على بلادهم من نور الدين ولفناء وقع فيهم، وغرق من مراكبهم نحو الثلاثمائة مركب. فأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنقات وغيرها.

وبلغت النفقة من صلاح الدين على هذه النوبة ألف ألف دينار مصرية، وكان يقول: مارأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

وورد كتاب نور الدين إلى العاضد يهته برحيل الفرنج عن دمياط، وكان صلاح الدين سير إليه يبشره برحليهم، وسير إليه العاضد يستقبله من الأتراك خوفاً منهم ويطلب الاقتصار على الملك الناصر صلاح الدين، فتضمن كتابه مدح الأتراك والثناء عليهم.

وفيه أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يبعث إليه بأبيه نجم الدين أيوب بن شاذي، فأرسله إليه في عسكر، وسار معه كثير من التجار ممن له هوى في مصر وغرض في صلاح الدين. فخرج ابنه صلاح الدين إلى لقائه ومعه الخليفة العاضد إلى صحراء الإهليلج خارج باب الفتوح ولقيه هناك، ولم تجر العادة بخروج الخليفة إلى لقاء أحد، وذلك في رابع شهر رجب، ولقبه العاضد بالملك الأوحده، وزينت القاهرة ومصر لقدمه فكان من الأيام المذكورة ، وبالع العاضد في احترامه والإقبال عليه. ونزل اللؤلؤة.

وكان سبب تجهيز الملك العادل نور الدين لنجم الدين أيوب كثرة ورود مكاتبة الخليفة المستنجد بالله العباسي عليه من بغداد بمعاتبته على تأخير إقامة الخطبة العباسية بمصر، فوالى نور الدين كتابة الملاحظات إلى صلاح الدين يأمره بذلك، وهو يعتذر إليه من ترك الخطبة بما يخافه

من المصريين . فـوردت رسل المستنجد إلى دمشق بالاستحثاث والعزم على إقامة الخطبة بمصر ولا بد ، فرأى نور الدين أن مثل هذا المهم لا يقوم به إلا نجم الدين أيوب، وكان يتولى قلعة بعلبك، فأرسل إليه وقرر معه الأمر وسيره.

وكان وصوله إلى القاهرة لست بقين من رجب، وقيل في جمادى الآخرة، فقررت له ولاية الإسكندرية وولاية دمياط والبحيرة. وأقطع الأمير فخر الدين شمس الدولة توران شاه، ابن والد الملوك الملك الأفضل نجم الدين أيوب، قوص وأسوان وعيناب، وكانت عبرتها يومئذ في تلك السنة مائتي ألف دينار وستة وستين ألف دينار، فاستناب عنه في قوص الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار.

فيها ثار الأمير عباس بن شاذي بمرج بني تميم^(١٥٨) من أعمال قوص، ومنع رسلان دغمش المتوجه لجباية خراج قوص من التوجه، واستباح عسكره.

وفيها أبطل صلاح الدين الأذان « بحى على خير العمل محمد وعلي خير البشر»، فكانت أول وصمة دخلت على الدولة، ثم أمر أن يذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون: أبو بكر، وعمر، وعثمان، ثم علي، وذلك يوم الجمعة لعشر مضي من ذي الحجة. ثم أمر أن يذكر العاضد في الخطبة بكلام التلبس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك. لاغير.

وفي يوم الاثنين ، بعد طلوع الشمس، الثاني عشر من شوال جاءت زلزلة عظيمة مهولة بدمشق سقط منها بعض شرف الجامع الأموي وتشقق رأسا المنارتين الشرقية والغربية، وكانت المنارة الشمالية تهتز اهتزاز السعفة في الرياح العاصفة، ثم جاءت زلزلة أخرى بعد ساعة، ثم جاءت

جاءت زلزلة ثالثة بعد العصر، وأثرت هذه الزلزلة آثاراً شنيعة بحلب، وبعليبك، وحمص، وحمّة، وشيزر، وكفر طاب، وتل بارين، والمعرة، وتل باشر، وعزاز، وأفامية، وأبو قبيس، والمنيطرة، وحصون الباطنية بأسرها، وامتدت إلى الجزيرة والموصل، ونصيبين، وسنجار، وديسر، وماردين، والرها، وحران، ورأس العين، والرقّة، وقلعة جعبر، وقلعة نجم، وبالس، ومنبج، وبزاعا، وعين تاب، وحارم، وأنطاكية، وما خلفها من الثغور وبيروت وأطرابلس، وعيرقة، وطرطوس، وجبلّة، والمرقب، واللاذقية، وعكا، وصور، وغيرها، فمنها ما دمر بأسره ومنها ما ذهب أكثره ومنها ما ذهب بعضه، ومنها ما تشعث. وهلك بحلب عالم كثير من الناس وبعليبك، ولم يهلك بدمشق غير واحد أصابته قطعة من حجر فسقط على درج جيرون فمات، وجاءت بدمشق زلازل في عدة ليالي وأيام إلى يوم الجمعة عاشر ذي القعدة.

فيها ولي القاضي المفضل أبو القاسم هبة الله بن كامل قضاء القضاة في ذي الحجة، فرتب صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري بحكم القاهرة وابن كامل بحكم مصر.

سنة ست وستين وخمسة

فيها رفع صلاح الدين جميع المكوس بديار مصر وأبطلها.

وفيها أمر بهدم المعونة بمصر فهدمت، وعمرها مدرسة للشافعية، ولم يكن قبل ذلك بديار مصر مدرسة لأحد من الفقهاء فإن الدولة كانت إسماعيلية، وهذه المدرسة بجواز جامع عمرو بن العاص وعرفت أخيراً بالمدرسة الشريفة، وهي أول مدرسة عمرت بمصر لإلقاء العلم، وأنشأ دار العزل مدرسة للمالكية بجواز الجامع أيضاً، وتعرف اليوم هذه المدرسة بالقمحية.

وفيها عزل صلاح الدين قضاء مصر من الشيعة، وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الشافعي، وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر بعد ما أحضره من المحلة، وخلع عليه في يوم الجمعة التاسع عشر جمادى الآخرة، فعزل من كان بها من القضاة واستناب عنه قضاة شافعية. ومن حيثئذ اشتهر مذهب الشافعي، ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما، واختفى مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية، وبطل من حيثئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره.

وفيها ابتداء صلاح الدين في غزو الفرنج، فجمع الجنود والعساكر، وخرج في أحسن زي إلى بلاد عسقلان والرملة فشن الغارات عليها، وهجم ربض مدينة غزة، وواقع ملك الفرنج على الداروم فقل جمعته وقتل منه كثيراً من الفرنج، ونجا ملكهم بحشاشته. وعاد صلاح الدين مظفراً غانماً.

ثم خرج في النصف من ربيع الأول ومعه مراكب مفصلة على الجمال، فسار إلى أيلة، وكان بها قلعة منيعة قد ملكها الفرنج، فألقى المراكب المحمولة معه بعد إقامتها وإصلاحها في البحر، وشحنها بالرجال والسلاح، وضايق قلعة أيلة في البر والبحر حتى افتتحها في العشرين من ربيع الآخر، وقتل من بها من الفرنج، وسلمها لثقات من أصحابه أقامهم فيها وقواهم بالسلاح والميرة ونحو ذلك.

ووردت عليه قافلة أهله فسار بهم إلى القاهرة، ودخلها في السادس عشر من جمادى الأولى. ثم سار إلى الإسكندرية لمشاهدة سورها وترتيب أمورها، فدخلها وأمر بإصلاح السور والأبراج، فعمر ما تهدم منه.

وفيها اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب منازل العز بمصر، في النصف من شعبان، وجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها عدة أماكن، منها الروضة تجاه مصر.

وفيهما خرج الأمير شمس الدولة توران شاه إلى بلاد الصعيد، وأوقع بالعربان، وغنم منها غنائم تجل عن الوصف، وعاد إلى القاهرة.

وفيهما ابتدأ صلاح الدين بعمارة السور الجديد على القاهرة.

وفيهما كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه، وانكفت أمراء المصريين عن التصرف ومنعوا من كل شيء، فبسطوا ألسنتهم بالقول مع ما عليه صلاح الدين وأصحابه من العمل في محو آثار الدولة الفاطمية وإزالة رسومها، وخلع العاضد وقتله، والدعاء للخليفة العباسي، فلما رأى أمره قد قوي وأوتاد دولته قد تمكنت من البلاد عزم على إظهار ما يخفيه، فواعد أمراء الشاميين على أن يمضوا إلى بيوت الأمراء المصريين في الليل، ويقف كل أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر، فإذا خرج للخدمة قبض عليه واحتاط على داره وما فيها وأخذه لنفسه.

فأصبحوا واقفين على منازل الأمراء المصريين بأجنادهم، فما هو إلا أن يخرج الأمير من منزله ليصير إلى الخدمة على عادته فإذا بالأمير الشامي الذي قد عين له وقد قبض عليه وأوثقه، وهجم بمن معه على داره فملكها بجميع ما تحتوي عليه، وما يتعلق بصاحبها وينسب إليه من أهل ومال وخيول وعبيد وجوار، وماله من إقطاع، فلم ينتشر الضوء حتى علت الأصوات وارتفعت الضججات وثار الصياح من كل جانب، وصار الأمراء الشاميون في سائر نعم أمراء مصر، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم، فال أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بواباً على الدار التي كان يسكنها، وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها، وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعاً له، ونحو ذلك من أنواع الهوان.

وبلغ ذلك العاضد فشق عليه وأرسل إلى صلاح الدين يسأله عن سبب القبض على الأمراء، فبعث إليه بأن هؤلاء كانوا عصاة لأمرك والمصلحة قتلهم وإقامة غيرهم ممن يمثل أمرك. فسكت.

وتقوى صلاح الدين وعظم أمره، وذهب من كان يخشاه ويخافه، وأخرج أكثر إقطاعات الأجناد بمصر، وزاد الأمير شمس الدولة على إقطاعه ناحية بوش ودهشور والمنوفية وغير ذلك. وانحل أمر العاضد.

فيها قبض صلاح الدين على جميع بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده، بحيث لم يبق له شيء، وقبض على القصور وسلمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، وهو يومئذ زمام القصور من بعد قتل مؤتمن الخلافة، وصار له في القصر موضع، فلا يدخل شيء من الأشياء إلى القصر ولا يخرج منه إلا بمرأى منه ومسمع، وضيق على أهل القصر حتى قبض في هذه الأيام على جميع ما فيها، وصار العاضد معتقلاً تحت أيديهم.

وفيها أمر صلاح الدين بتغيير شعار الفاطميين، وأبطل ذكر العاضد من الخطبة وكان الخطيب يدعو للإمام أبي محمد، فتخاله العامة والروافض العاضد وهو يريد أبا محمد الحسن المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين الخليفة، ثم أعلن بالعزم على إقامة الخطبة العباسية.

وفيها مات الشيخ الموفق يوسف بن محمد أبو الحجاج، ابن الخلال، كاتب الدست وفي يوم الجمعة سلخ ذي الحجة عزم صلاح الدين على الإعلان بالأمر وكشف الغطاء فأحجم الخطباء عن ذلك تقية وحذراً، فانتدب لذلك رجل من أهل المغرب يقال له اليسع بن عيسى بن حزم ابن عبد الله بن اليسع أبو يحيى الغافقي الأندلسي، فقصد المنبر مستعداً من الحديد بما يدفع عن نفسه إن أراده أحد بسوء، فخطب ودعا

للخليفة أبي محمد الحسن المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وذكر نسبه إلى العباس، وقيل بل كان ذلك في السنة الآتية (١٥٩).

سنة سبع وستين وخمسة

في أول المحرم نسخ منشور بنقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية لخلو هذه السنة من نوروز. ومنذ نقلت السنة في أيام الأفضل أمير الجيوش، كما تقدم ذكره، لم تنقل، وانسحب الأمر حتى تداخلت السنون، وصار التفاوت بين العربية والقبطية سنتين.

وفي رابعه جلس العاضد بعد الإرجاف بأنه اثخن في رمضه (١٦٠)، فشوه على ما حقق الإرجاف من ضعف القوى وتخاذل الأعضاء وظهور الحمى، وقيل إنها تفشت بأعضائه. وأمسك طبيبه المعروف بابن السديد عن الحضور إليه، وامتنع من مداواته، وخذله مساعدة عليه للزمان، وميلا مع الأيام.

وفيها نزل نجم الدين أيوب بجماعة معه إلى الجامع وأمر الخطيب ألا يذكر العاضد، وقال إن ذكرته ضربت عنقك، فقال لمن أخطب؟ فقال للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، فلما خطب لم يذكر العاضد ولا غيره، بل دعا للأئمة المهديين والملك الناصر. ف قيل له في ذلك، فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، وفي الجمعة الثانية أفعل ما يجب فعله وأذكره، فلما بلغ العاضد ذلك قال في الجمعة الأخرى يعينون اسم الرجل المخطوب له. فلما كانت الجمعة الثانية، وهي سابعه، خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله. وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة للفاطمين.

وذلك أنه لما ثبتت قدم صلاح الدين بالديار المصرية وأزال المخالفين له، وضعف أمر الخليفة العاضد بقتل رجاله وذهاب أمواله، وصار الحكم على قصره قراقوش، طواشي أسد الدين، نيابة عن صلاح الدين، وتمكنت عساكر نور الدين من مصر - طمع في أخذها. وكتب إلى صلاح الدين - وفي ظنه وظن جميع عساكره أن صلاح الدين إنما هو نائب عنه في مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه - يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للمستضيء العباسي. فاعتذر بالخوف من قيام المصريين عليه وعلى من معه ليلهم - كان - إلى الفاطميين، ولأنه خاف من قطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء أن يسيرنور الدين إلى مصر وينزعه منها. فلم يقبل منه نور الدين وألح عليه وألزمه إلزاماً لم يجد مندوحة عن مخالفته، وساعدته الأقدار بمرض العاضد المرض الذي غلب على الظن أنه لا يفيق منه، فجمع صلاح الدين أصحابه إليه واستشارهم في ذلك، فاختلفوا، فمنهم من أشار بقطع خطبة العاضد، ومنهم لم يشر بها.

وكان قد دخل إلى مصر رجل يعرف بالأمير العالم، يزعم أنه عباسي فاطمي من أيام الصالح بن رزيك، وما زال ينتقل في قوالب الانتساب وأساليب الاكتساب، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام وأن أحداً لا يتجاسر يخطب للمستضيء قال: أنا ابتدىء الخطبة له. فصعد يوم الجمعة المنبر بالجامع العتيق وخطب للمستضيء قبل الخطيب فلم ينكر أحد عليه ولا تحرك له، فتيقن حينئذ صلاح الدين ذهاب قوة القوم ومن وال يغريهم، فتقدم إلى جميع الخطباء بأن يخطبوا في الجمعة الآتية للمستضيء، وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر، فكان الذي ابتدأ بالخطبة للمستضيء في الجامع العتيق بمصر أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن الحسين بن أبي المضاء الدمشقي. وكان قدم به أبوه إلى مصر فنشأ بها وقرأ الأدب، ورحل إلى دمشق وبغداد وتفقه، وعاد إلى مصر، واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين فولاه الخطابة بمصر، ثم بعثه رسولا إلى بغداد، فمات بدمشق، وولى الخطابة بعده الشيخ أبو إسحاق العراقي.

فكتم أهل العاصد ذلك عنه لشدة ما به من المرض، وكان ذلك من أعجب ما يؤرخ، فإن الخطبة بديار مصر أول ما خطب بها للمعز لدين الله، أول خلائف الفاطميين بمصر، عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو، كما تقدم ذكره، وكان الذي قطع خطبة العاصد، آخر خلائفهم، رجل عباسي، ومثله في الغرابة أن الفاطميين لم يتمكنوا من الديار المصرية حتى قصدوها بعساكرهم مرتين مع القائم بن المهدي ولم يفتح، وفتحوها في الثالثة على يد جوهر، وكذا حصل في زواهم من مصر فإن شيركوه قصد مصر مرتين ورجع، ثم قصدتها المرة الثالثة واستقر بها حتى أزال عساكره الدولة.

في ثامنه أمر صلاح الدين بركوب عساكره كلها قديمها وجديدها، بعد أن تكامل سلاحهم وخيولهم، وخرج لعرضهم، وهي تمر عليه موكباً بعد موكب وطلباً بعد طلب - والطلب بلغة الغز هو الأمير المقدم الذي له علم معقود، وبوق مضروب، وعدة من الجند ما بين مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارس - واستمر طول النهار في عرضهم، وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلباً والغائب منها عشرون طلباً، ووتقدير العدة أربعة عشر ألف فارس.

في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرم، عشية يوم عاشوراء، نفذ حكم الله المقدور، وقضاؤه الذي يستوي فيه الأمر والمأمور، في العاصد لدين الله، في الثلث الأول من ليلة الاثنين يوم عاشوراء، وقامت عليه الواعية، وعظمت ضوضاء الأصوات النادية، حتى كأن القيامة قد قامت. وكان بين وضع اسمه من أعواد المنابر ورفع جسمه على أعواد النعش ثلاثة أيام، فاعتنى به صلاح الدين عن أن يتنذل أو يهان بعد الموت، وكان من معه من الأمراء يريدون ذلك، وأمر بكف الأيدي واعتقال الألسنة عن التعرض إليه بسوء، وركب معزياً لأهل القصر، وأمر بتجهيزه وقد أظهر الكآبة والحزن وأجرى دمه، ووعد أهله بحسن

الخلافة على أيتام العاضد وهم ثلاثة عشر ولداً: أبو الحسن، وأبو سليمان داود، وأبو الحجاج يوسف، وأبو الفتوح، وأبو إسحاق إبراهيم، وأبو الفضل جعفر، وأبو داود موسى، وأبو زكريا يحيى، وعبد القوي، وعبد الكريم، وعبد الصمد، وأبو اليسر، وأبو القاسم عيسى.

وأمر بإنشاء الكتب إلى البلاد بذكر وفاة العاضد، وأن الخطبة استقرت للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين العباسي، وألا يخوض أحد في شأن العاضد ولا يطعن في سلطان، وكتب إلى نور الدين بموت العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء كما أشار به مع ابن (أبي) عصرون.

وفي حادي عشره عمل الباقي بالإيوان، وحضر السلطان صلاح الدين، وكان محفلاً حافلاً وجمعاً حاشداً، فيه خلق من الزوايا وأهل التصوف وغيرهم، واهتم بما يحمل من أطعمة العزاء. وكانت النفوس متطلعة إلى إقامة خليفة بعد العاضد من أهله يشار إليه بالأمر، فلم يرض ذلك صلاح الدين.

ومات العاضد وعمره إحدى وعشرون سنة غير عشرة أيام، منها في الخلافة إلى أن أعيدت دولة بني العباس في مستهل المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً، وكان كريماً سمحاً لطيفاً، لين الجانب، يغلب عليه الخير وينقاد إليه، وكان أسمر حلو السمرة كبير العينين أزج الحاجبين، في أنفه خنس وفي منخرينه انتشار، وفي شفثيه غلظ.

وترك العاضد من الولد: الأمير داود، والأمير عليا، ويقال أبوعلي، والأمير عبد الكريم، وقيماً، وموسى، وعبد القوي، وجعفر، وعبد الصمد، وأبا الفتوح، وحيدرة، وإبراهيم، ويحيى، وجبريل، وعيسى، وسليمان، ويوسف^(١٦١) غير أن أيامه كانت ذات مخاوف وتهديدات، وقاسى شاوراً وبلوائه ومخاتلاته، ثم محاصرة الفرنج ومضايقته، وفي أيامه

احترقت مصر وذهبت أموال أهلها، وزالت نعمتهم بالحريق والنهب، وكان متغالياً في مذهبه شديداً على من خالفه، ولم يكن فيمن ولي من أبائه من أبوه غير خليفة سواه، ومن قبله الحافظ، وما عداهما فلم يل منهم أحد الخلافة إلا من كان أبو خليفة.

وقال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء: اكتب لنا ورقة تذكر فيها ألقاباً تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب، فكتب لهم ألقاباً كثيرة، وآخر ما كتب في الورقة العاضد، فاتفق أن آخر من ولي منهم تلقب بالعاضد، وهذا من عجيب الاتفاق.

قال: وأخبرني أحد علماء المصريين أيضاً أن العاضد رأى في آخر دولته في منامه كأنه بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغته، فلما استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعض معبري الرؤيا وقص عليه المنام، فقال له: ينالك مكروه من شخص هو مقيم في هذا المسجد، فطلب والي مصر وأمره يكشف عن مقيم في المسجد المذكور، وكان العاضد يعرفه، فمضى الوالي إلى المسجد فرأى فيه رجلاً صوفياً، فأخذه ودخل به على العاضد، فلما رآه سأله من أين هو، ومتى قدم البلاد، وفي أي شيء قدم، وهو يجاوبه عن كل سؤال، فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه أعطاه شيئاً وقال له: يا شيخ ادع لنا، وأطلق سبيله، فنهض من عنده وعاد إلى المسجد، فلما استولى صلاح الدين وعزم على القبض على العاضد واستفتى الفقهاء أفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياؤه من انحلال العقيدة وفساد الاعتقاد وكثرة الوقوع في الصحابة، وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الصوفي المقيم في المسجد - وهو نجم الدين الخبوشاني - فإنه عدد مساويء القوم وسلب عنهم الإيمان، وأطال الكلام في ذلك، فصحت بذلك رؤيا العاضد.

وحكى الشريف الجليس أن العاضد طلبه يوماً، فلما دخل عليه رأى عنده مملوكين من الترك عليهما أقيية، فسأله عنهما، فقال له: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا، فلما دخل الغز كانت هيئتهم كهيئة هذين المملوكين.

ومن العجيب أنه لم يمت بالقصر منهم إلا المعز أولهم بمصر والعاضد آخرهم، وعدتهم أربعة عشر دفنوا كلهم بالتربة في مجلس، فلو اتفق أنه مات آخر لم يوجد له عندهم مكان يدفن فيه لامتلأته بقبور الأربعة عشر، وهذا أيضاً من عجيب أمرهم.

ولما مات العاضد استولى صلاح الدين على جميع ما كان في القصر، فإن قراقوش قام بحفظه، فلم يجد فيه كثير مال، لكنه وجد فيه من الفرش والسلاح والذخائر والتحف ما يخرج عن الإحصاء، ووجد فيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تحلو الدنيا من مثله، ومن الجواهر ما لا يوجد عند غيرهم مثله، منها جبل ياقوت زنته سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً، ونصاب زمرد طوله أربعة أصابع في عرض كبير، ولؤلؤ كثير، وإبريق من حجر مائع يسع مائه رطل ماء، وسبعمئة يتيمة جوهر، والطبل الذي صنع لإزالة القولنج، وكان بالقرب من موضع العاضد، فلما احتاطوا بالقصر ظنوه عمل للعب فسخروا من العاضد، وضرب عليه إنسان فضرط فتضحك من حضر منهم، ثم ضرب عليه آخر فضرط، ثم آخر من بعد فضرط، حتى كثر ذلك فألقاه من يده فتكسر، وقيل للسلطان عليه وأنه عمل للقولنج فندم على كسره.

ووجد من الكتب النفسية ما لا يعد، ويقال إنها كانت ألف ألف وستمئة ألف كتاب، منها مائة ألف مجلد بخط منسوب، وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، فباع السلطان جميع ذلك، وأقام البيع فيها عشر سنين.

ونقل أهل العاضد وأقاربه إلى مكان بالقصر، ووكّل بهم من يحفظهم، وأخرج سائر ما في القصر من العبيد والإماء فباع بعضهم وأعتق بعضهم ووهب منهم، وخلا القصر من ساكنه كأن لم يغن بالأمس.

وكانت مدة الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر منذ دعي للمهدي عبيد الله (١٦٢) برقادة من القيروان إلى حين قطعت من ديار مصر مائتي سنة وتسعاً وستين سنة وسبعة أشهر وأياماً، أولها لإحدى عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين، وآخرها سلخ ذي الحجة سنة ست وستين وخمسائة، منها بالمغرب إلى حين قدوم القائد جوهر إلى مصر إحدى وستون سنة وشهران وأيام، ومنها بالقاهرة ومصر مائتا سنة وثمانين سنة. وما أعجب قول المهذب ابن الزبير في مدح العاضد:

بـل عـبـاد لـلـدـنـيـا الجـمـال
و بـدـا عـلـى الـدـيـن الجـلـال

أصبحت في الخلفاء
بـع عـشـر هـم، وهـو الكـمـال

فإن الشيء إذا كمل بدأ نقصه، وبالعاضد تم ملك الفاطميين وزال بموته.

قال ابن سعيد: ولم يسمع فيما بكت به دولة بعد انقراضها أحسن من قصيدة عمارة بن علي اليمني الذي قتله صلاح الدين، وهي:

رـمـيـت يـاد هـر كـف المـجـد بـالـشـلـشـل
و جـيـدة بـعـد حـسـن الحـلـي بـالعـطـل

سعيت في منهج الرأي العشور، فإن
قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت ما رنك الأقنى، فأنفك لا
ينفك ما بين قسعر السن والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سقيت مهلا، أما تمشي على مهل!
لهفي ولهف بني الأمال قاطبة
على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر، فأولتني خلافتها
من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف، ومن
كما لها أنها جاءت ولم أسبل
وكنيت من وزراء الدست حين سما
رأس الحصان بهادييه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش مكرمة
وخلة خرسست من عارض الخلل
ياعاذلي في هوى أبناء فاطمة
لك الملاممة إن قصرت في عذلي
بالله زر ساحة القصرين، وابك معي
عليهما، لا على صفين والجم
وقل لأهلها: واللهم ما التمت
فيكم جراحني، ولا قرحتي بمن دمل
ماذا عسى كانت الإفرنج فاعلة
في نسبي آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلت عليهما، واسم جدكم
محمد، وأبوكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود، وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجهي خوف متقد
من الأعداء، ووجه السود لم يمل
أسلت من أسف دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على مآثرات من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أضحت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديدهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجميل
وأول العام والعيدين كم لكم
فيه من ويل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصر يكم من الأسل
والخيل تعرض في وشي وفي شية
مثل العرايس في حل وفي حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ
أطباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت روايتكم للأنس والجن
والضيف المقيم، وللطازي من الرسل
ثم الطراز بتيس الذي عظمست
منه الصلات لأهل الأرض والدول

وللجوامع من أحبا سكم نعم
لمن تصددر في علم وفي عمل
وربها عادت الدنيا فمقلها
منكم فأضحت بكم محولة العقل
والله لا فإز يوم الحشر مبغضكم
ولا نجام من عذاب الله غير ولي
ولا سقي الماء من حر ومن ظمأ
من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التي خلقت
من خان عهد الإمام العاضدين علي
أئمتي، وهداقي، والذخيرة لي
إذا ارتهنت بما قدمت من عملي
تالله لم أوفهم في المدح حقهم
لأن فضلهم كالوابل الهطل
ولو تضاعفت الأقوال واستبقت
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة هم، دنيا وآخره
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى، ومصابيح السدجا، ومحل
الغيث إن ونبت الأنواء في المحل
أئمة خلقوا نورا، فنورهم
من نور خالص نور الله لم يقل
والله لا زلت عن حبي لهم أبداً
ما أخرج الله لي في مدة الأجل (١٦٣)

ووجد على بعض جذران القصر مكتوباً:
يا هذه الدنيا عجبت لولع
بك كيف أضحي في هواك يقاد
ما صبح منك لآل أحمد موعد
فكيف يصح منك لغيرهم ميعاد

أمانعيمك فهو ظل زائل
وصلاح مات أتية فهو فساد

ذكر طرف من ترتيب الدولة الفاطمية

اعلم أن الدولة كانت إذا خلت من وزير صاحب سيف يتغلب عليها فإنه يجلس صاحب الباب في باب القصر المعروف بباب الذهب، وهو أحد أبواب القصر، ويقف بين يديه الحجاب والنقباء، وينادي مناد: يا أرباب الظلامات، فيحضر إليه أرباب الحوائج. فمن كان أمره مما يشافه به، نظر في أمره بمن يتعلق من القضاة أو الولاة، فيسير إلى ذلك رسالة بكشف ظلامته، فإن كان مع المتظلم قصة أخذها منه الحاجب، فإذا اجتمع معه عدة دفعها إلى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها، ثم تحمل منه إلى الموقع بالقلم الجليل ليسط ما أشار إليه الموقع بالقلم الدقيق، فإذا تكاملت حملت في خريطة إلى الخليفة فوقع عليها، ثم أخرجت في الخريطة إلى الحاجب فيقف بها على باب القصر ويسلم لكل أحد توقيعه.

فإن كان في الدولة وزير صاحب سيف فإنه يجلس يومين في كل اسبوع في مكان معد له في القصر، ويجلس قبالة قاضي القضاة، وعن جانبيه شاهدان معتبران، ويجلس في جانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق ويليه صاحب ديوان المال، وبين يديه صاحب المال واسفهلار العساكر، وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم.

وكان أجل الخدم صاحب الباب، وهو من الأمراء المطوقين، ثم الأسفهلار، وهو زمام كل زمام وإليه أمور الأجناد، ثم حامل سيف الخليفة أيام الركوب، ثم زمام الحافظة والأمرية، وهما أجل الأجناد.

وكانت ولاية الأعمال أجلها ولاية عسقلان، ثم ولاية قوص. ثم ولاية الشرقية، ثم ولاية الغربية، ثم ولاية الإسكندرية.

وكان قاضي القضاة ينظر في الأحكام الشرعية، فلما صارت الوزارة إلى أرباب السيوف كان يقلد القضاة نيابة عنه. والقاضي أجل أرباب العمام رتبة، وتارة يكون داعي الدعاة، وتارة تفرد الدعوة عنه، ويجلس في يومي الثلاثاء والسبت بزيادة جامع عمرو بن العاص، وله طراحة ومسند حرير والشهود حوله، وله خمسة من الحجاب اثنان منهما بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم إليه، وله أربعة من الموقعين، ودواته بين يديه على كرسي محلى بفضة يحمل إليه من الخزائن ولها عامل بجار سلطاني في كل شهر. ويخرج إليه من إصطبل الخليفة بغلة شهباء، وهي مختصة به دون غيرها، ويكون عليها سرج محلى ثقيل ورادفتين من فضة، ومكان الجلد حرير.

وتخلع عليه الخلع المذهبة، فيسير بغير طبل ولا بوق إلا أن يضاف إليه الدعوة فإنه يسير حينئذ بالطبل والبوق، فإن ذلك من رسوم الداعي مع البنود. فإن كان إنما خلع عليه لوظيفة القضاء فقط فإنه يسير بالقرى رجالاً حوله وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة، أو الخليفة والوزير إن كان ثم وزير صاحب سيف، ويركب معه يومئذ نواب الباب والحجاب ولا يجلس أحد فوقه ألبته، ولا يمكنه حضور جنازة ولا عقد نكاح إلا بإذن، ولا يقوم لأحد من الناس إذا كان في مجلس الحكم، ولا ينشئ عدالة ألبته إلا بإذن، فلا تثبت إذا أذن له في إنشائها لأحد حتى يزكيه عشرون عدلاً من عدول البلد بين مصر والقاهرة ويرضاه الشهود كلهم.

فإن كان في الدولة وزير سيف لا يخاطب حينئذ من يتولى الحكم بقاضي القضاة فإنه من نعوت الوزير.

ويصعد القاضي إلى القصر في يومي الخميس والاثنين بكرة للسلام على الخليفة وله النواب، وإليه النظر في دار الضرب لتحرير العيار، ولا يصرف القاضي إلا بجنحة.

وكان في الدولة داعي الدعاة، ورتبته تلي رتبة قاضي القضاة، ويتزياً بزيه، ولا بد أن يكون عالماً بمذاهب أهل البيت، عليهم السلام، وله أخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبه، وبين يديه اثنا عشر نقيباً، وله نواب في سائر البلاد، ويحضر إليه فقهاء الشيعة بدار العلم ويتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة يقرأ في كل يوم اثنين وخميس بعد أن تحضر مبيضته إلى داعي الدعاة ويتصفحه ويدخل به إلى الخليفة فيتلوه عليه إن أمكن، أو يأخذ خطه عليه في ظاهره. ثم يخرج فيجلس على كرسي الدعوة بالإيوان من القصر، فيقرؤه على الرجال، ثم يخرج ليقراه على النساء، وله أخذ النجوى من المؤمنين بالأعمال كلها، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلاث، فيحملها إلى الخليفة.

كان متولي ديوان الإنشاء يخاطب بالأجل، يقال له كاتب الدست، وهو الذي يتسلم الكتب الواردة ويعرضها على الخليفة من يده، ثم يأمر بتنزيلها والجواب عنها. والخليفة يستشير في أكثر أموره ولا يحجب عنه شيء متى جاء، وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عنده، وجاريه في كل شهر مائة وعشرون ديناراً، مع الكسوة والرسوم، ولا يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكتابه إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء وفراشون ومرتبة هائلة، ومخاد ومسند، ودواة بغير كرسي وهي من أنفس الدوي، ولها أستاذ من خدام الخليفة يرسم حملها.

ولا بد للخليفة من جلس يذاكره ما يحتاج إلى علمه من كتاب الله وتجويد الخط ومعرفة الأحاديث، وسير الخلفاء ونحو ذلك، يجتمع به أكثر أيام الأسبوع، ويرسمه أستاذ محنك يحضر ثالثهما، فيقرأ ملخص

السير ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، ورتبته عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست، ويكون صحبته دواة محلاة. فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغدة فيها عشرة دنائير وقرطاساً فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة، وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق، كما تقدم، ويجلس حال التوقيع على طراحة ومسند، وله فراشون من فراشي الخاص تقدم له ما يوقع عليه، ويختص به موضع من ديوان المكاتبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن.

ورأس أصحاب دواوين المال من يلي النظر على الدواوين وله العزل والولاية، وهو الذي يعرض الأوراق على الخليفة أو الوزير، ويعتقل من شاء بكل مكان، ويجلس بالمرتبة والمسند، وبين يديه حاجب من أسراء الدولة، وتخرج له الدواة بغير كرسي ويندب من يطلب الحساب، ويحث في طلب المال ومطالبة أرباب الضمانات.

وكان لهم ديوان التحقيق، ومقتضاه المقابلة على الدواوين، وملتويه الخلع والرتبة والحاجب، ويلحق بناظر الدواوين.

وديوان المجلس، وفيه علوم الدولة، وهو أصل الدواوين، وفيه عدة كتاب لكل منهم مجلس معد ومعتاد، وصاحب هذا الديوان هو الذي يتحدث في الإقطاعات، ويخلع عليه، وهو لاحق بديوان النظر، ويجلس بالمرتبة والمسند والدواة والحاجب.

والتوقيع بالقلم الجليل يسمى الخدمة الصغرى، وملتولها الطراحة والمسند بغير حاجب، بل ويندب له فراش لترتيب ما يوقع عليه، ولا يوقع الخليفة بيده إذا كان وزيره صاحب سيف إلا في أربعة مواضع: إذا رفعت إليه قصة وقع عليها: «يعتمد ذلك إن شاء»، أو كتب بجانبها الأيمن «يوقع بذلك»، فيخرج إلى صاحب ديوان المجلس دون غيره

فيوقع جليلا، ويدخل بها إلى الخليفة ثانيا فيضع علامته عليها، وكانت علامتهم كلهم « الحمد لله رب العالمين »، ثم يخرج بها فتثبت في الدواوين. أو يوقع في مساحة، أو تسويغ ، أو تحييس ما مثاله: « قد أنعمنا بذلك، أو قد أمضينا ذلك »، فإذا أراد الخليفة الاطلاع على شيء ووقع ليخرج الحال في ذلك، فإذا خرج الحال عاد إليه ليعلم عليه، فإن كان الوزير صاحب سيف وقع الخليفة بخطه: «وزيرنا السيد الأجل، واللقب المعروف به، أمتعنا الله ببقائه، يتقدم بإنجاز ذلك إن شاء الله»، فيكتب الوزير تحت خطه: «يمثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه»، ثم يثبت في الدواوين.

ولديوان الجيش مستوف مسلم له غيرة، ويجلس بطراحة لحركة العرض والحلي والشيات. وفي هذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد، فإذا عرض الجندي حلي وذكر صفات فرسه ، ولا يثبت له إلا الفرس الجيد، ولا يثبت له برزون ولا بغل، ويقف بين يدي هذا المستوفي نقباء الأجناد لإنهاء أمور الأجناد، وفسح للأجناد في آخر الدولة أن يقايض بعضهم بعضاً.

وديوان الرواتب فيه أسماء كل مرتزق في الدولة ضمن له جار وجراية، وكاتبه يجلس بطراحة وتحت يده عشرة كتاب، وترد إليه التعريفات من سائر الأعمال باستمرار ما هو مستمر ، ومباشرة من يستجد، وموت من مات، ليجب استحقاقه.

وفي هذا الديوان عدة عروض. أولها: راتب الوزير وهو في الشهر خمسة آلاف دينار، ولكل من أولاده وإخوته من ثلاثمائة دينار إلى مائتي دينار. وقرر لشجاع بن شاور خمسمائة دينار، ولكل من حواشي..... من خمسمائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، وذلك سوى الإقطاعات.

وثانيهما : حواشي الخليفة ، وأولهما الأستاذون المحنكون، وهم : زمام القصر، وصاحب بيت المال، وحامل الرسالة، وصاحب الدفتر، وشاد التاج الشريف، وزمام الأشراف الأقارب، وصاحب المجلس، ولكل منهم مائة دينار في الشهر، ولمن يلي هؤلاء يتناقص عشرة، وهكذا إلى من يكون جاريه عشرة دنانير، وعدة هؤلاء ألف فما فوقها، وهم خصيصون ، ولطبيبي الخاص مائة دينار في الشهر، ولعدة من الأطباء برسم أهل القصر كل منهم عشرة دنانير.

ثالثهما: أرباب الرتب بحضرة الخليفة، وأولهم كاتب الدست الشريف، وجاريه في الشهر مائة وخمسون ديناراً، ولكل من كتابه ثلاثون ديناراً وملتوي مجالسة الخليفة والتوقيع بالقلم الدقيق في المظالم مائة دينار، ولصاحب الباب مائة وعشرون ديناراً، ولكل من حامل السيف وحامل الرمح سبعون ديناراً، ولكل من أزمة العساكر والسودان مائتان وخمسون ديناراً إلى أربعين ديناراً إلى ثلاثين ديناراً.

رابعها: قاضي القضاة ، وله في الشهر مائة دينار، ولداعي الدعاة مائة دينار، وكل من قراء الحضرة من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر إلى عشرة دنانير، ولكل من خطباء الجوامع من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير، ولكل من الشعراء من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير.

خامسها: أرباب الدواوين، وأولهم متولي ديوان النظر، وله في الشهر سبعون ديناراً، وملتوي ديوان التحقيق خمسون ديناراً، وملتوي ديوان المجلس أربعون ديناراً، ولصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون ديناراً، ولكاتبه خمسة دنانير، وملتوي ديوان الجيش أربعون ديناراً، وللموقع بالقلم الجليل ثلاثون ديناراً، ولكل من أصحاب دواوين المعاملات عشرون ديناراً، ولكل معين عشرة دنانير وفيهم من له سبعة وخمسة.

سادسها: المستخدمون بالقاهرة ومصر في خدمة الواليين، لكل منهم خمسون ديناراً، ولحماة الأهرام، والمناخات، والجوالي والبساتين والأماكن لكل منهم من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر إلى عشرة إلى خمسة.

سابعها: الفراشون برسم خدمة القصور، ومنهم برسم خدمة الخليفة خمسة عشر، منهم صاحب المائدة وحامي المطابخ، وجاريهم من ثلاثين ديناراً إلى ما حولها سوى الرسوم، ويليهم الرشاشون ونحوهم، وعدتهم ثلاثمائة فراش مولاهم أستاذ، وجارى كل منهم من عشرة دنائير إلى خمسة.

ثامنها: صبيان الركاب وهم ينفون على ألفي رجل، ولهم اثنا عشر مقدماً أكبرهم مقدمو الركاب، ومقدم المقدمين منهم هو صاحب ركاب الخليفة الأيمن، ولكل من المقدمين في الشهر خمسون ديناراً، وصبيان الركاب أربع جوق، جوق لكل منهم في الشهر عشرون ديناراً، ويليهم من له خمسة عشر ثم عشرة ثم خمسة دنائير، وهم يندبون إلى الأعمال ويحملون المخلقات لركوب الخليفة في الأعياد والمواسم.

وكان لنقيب الأشراف اثنا عشر نقيباً، ويخضع عليه فيسير بالطبل والبوق والبنود مثل الأمراء، وله ديوان ومشارف وعامل ونائب، وجاريه في الشهر عشرون ديناراً، ولمشارف ديوانه عشرة دنائير، ولنائبه في النقابة ثمانية دنائير، وللعامل خمسة دنائير.

وللمحتسب عدة نواب بالقاهرة ومصر وسائر الأعمال، ويجلس بجامع القاهرة ومصر يوماً بعد يوم، وتطوف نوابه على أرباب المعاش، ويخضع على المحتسب ويقرأ سجله على منبر جامع عمرو بن العاصي.

وكانت لهم خدمة يقال لها النيابة، ومتوليها يتلقى الرسل الواردين من الملوك، وكانت خدمة جليلة، لمتوليها نائب، ومن خواصه أنه ينعت أبداً

كل من يليها بغذي الملك، وله النظر في دار الضيافة، ويعرف هذا اليوم بالمهمندار. وكان له في الشهر خمسون ديناراً وفي كل يوم نصف قنطار خبز مع بقية الرسوم.

والخدمة في ديوان الصعيد عنده عدة كتاب، ولأسفل الأرض ديوان، وللثغور ديوان، وللجوالي ديوان، وللمواريث ديوان، ولديوان الخراجي والهلالي عدة دواوين، منها ديوان الرباع، وديوان المكوس، وديوان الصناعة، وديوان الكراع وفيه معاملات الإصطبلات وما فيها، وديوان الأهراء، وديوان المناخات، وديوان العماثر ومحله بصناعة مصر لإنشاء الأسطول ومراكب الغلات السلطانية والأحطاب، وكانت تزيد على خمسين عشارياً وعشرين دياراً منها عشرة خاصة برسم ركوب الخليفة أيام الخليج والبقية برسم ولاية الأعمال تجرد إليهم وينفق عليها من الديوان، وديوان الأحباس.

وكانت عاداتهم إذا انقضى عيد النحر عمل الاستيوار ويثبت فيه جميع ما يشتمل عليه مصروف تلك السنة من عين وورق وغلة وغيرها مفصلاً بالأسماء، وأولهم الوزير حتى ينتهي إلى أرباب الضوء، ثم يعمل في ملف حرير بشرابة حرير لشده، وكان يبلغ في السنة ما يزيد على مائة ألف دينار عيناً ومائتي ألف درهم فضة وعشرة آلاف إردب غلة، ويعرض على الخليفة، فيستوعبه، ويشطب على بعضه وينقص قوماً ويزيد قوماً ويستجد آخرين بحسب ما يعين له. فيحمل الأمر على الشطب. وعمل مرة في أيام المستنصر بالله، فوقع بظاهره: «الفقر مر المذاق، والحاجة تذلل الأعناق، وحراسة النعم بإدراك الأرزاق، فليجروا على رسومهم في الإطلاق، (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)» (النحل ٩٦).

وكان من عاداتهم إخراج الكسوة في كل سنة لجميع أهل الدولة من صغير وكبير في أوقات معروفة، فبلغت كسوة الصيف والشتاء في السنة ستائة ألف دينار ونيف.

وكانوا يتأنقون في المآكل ، حتى إن الخادم والسائس من غلمانهم ينفق في كل يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين ديناراً لسعة أحوالهم.

وكانوا يفرقون في أول كل سنة دنانير يسمونها دنانير الغرة تبلغ خمسمائة دينار في السنة ، فيتبرك بها من يأتيه منها برسوم مقررة لكل أحد.

وإذا أهل رمضان لا يبقى أمير ولا مقدم إلا ويأتيه طبق لنفسه، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه أنواع الحلوى العجيبة الفاخرة.

وكانت خلعتهم ثمينة جداً يبلغ طراز الخلعة خمسمائة دينار ذهباً، ويختص الأمراء في الخلع بالأطواق والأساور الذهب مع السيوف المحلاة، ويتشرف الوزير عوضاً عن الطوق بعقد جوهر فكاكه خمسة آلاف دينار يحمل إليه، ويختص بلبس الطيلسان المقور.

ولا يركب الخليفة إلا بمظلة منسوجة بالذهب مرصعة بالجواهر.

وسياتي من إيراد جزيات ترتيبهم وحكاية أمور دولتهم عند ذكر خطط القاهرة إن شاء الله ما يعرفك مقدار ما كانوا فيه من أمور الدنيا وحقارة من جاء بعدهم. فله عاقبة الأمور.

ذكر ما عيب عليهم

لا شك في أن القوم كانوا شيعة يرون تفضيل علي بن أبي طالب على من عداه من الصحابة، وكانوا يتحلون من مذاهب الشيعة مذهب الاسماعيلية، وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وتنقلها في أولاده الأئمة المستورين إلى عبيد الله المهدي، أول من قام منهم بالمغرب وبقية الشيعة لا يقولون بإمامة إسماعيل، وينكرون عليهم ذلك أشد الإنكار.

وكانوا مع انتحالهم مذهب التشيع غلاة في الرفض، إلا أن أولهم كانوا أكابر صابنوا أنفسهم عما قرف به آخرهم. ثم إن الحاكم بأمر الله أكثر من النظر في العقائد وكان قليل الثبات سريع الاستمالة، إذا مال إلى اعتقاد شيء أظهره وحمل الناس عليه، ثم لا يلبث أن يرجع عنه إلى غيره ف يريد من الناس ترك ما كان قد أمرهم به والمصير إلى ما استحسنه وما إلى ذلك. واقترن به رجل يعرف (بأنوشتكين) الدرزي فأظهر مذاهب الباطنية، وقد كان عند أولهم منها طرف، فأنكر الناس هذا المذهب لما يشتمل عليه عما لم يعرف عند سلف الأمة وتابعيهم ولما فيه من مخالفة الشرائع.

فلما كانت أيام المستنصر وفد إليه الحسن بن الصباح، فأشاع هذا المذهب في الأقطار ودعا الكافة إليه، واستباح الدماء بمخالفته، فاشتد النكير، وكثر الصائح عليهم من كل ناحية حتى أخرجوهم من الإسلام ونفوهم عن الملة.

ووجد بنو العباس السبيل إلى الغض منهم لما مكنوا من البغض فيهم وقاسوه من الآلام بأخذهم ما كان بأيديهم من ممالك القيروان وديار مصر والشام والحجاز واليمن وبغداد أيضاً، فنفوهم عن الانتساب إلى علي بن أبي طالب، بل وقالوا إنما هم من أولاد اليهود، وتناولت الألسنة ذلك، فملئوا به كتب الأخبار.

ثم لما اتصل بهم الغز ووزر لهم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وهم من صنائع دولة بني العباس الذين ربوا في أبوابها وغدوا بنعمها ونشئوا على اعتقاد موالاتها ومعاداة أعدائها، لم يزدتهم قريبتهم من الدولة الفاطمية إلا نفوراً، ولا ملأهم إحسانها إليهم إلا حقداً وعداوة لها، حتى قووا بنعمتها على زوالها، واقتدروا بها على محوها.

وكانت أساسات دولتهم راسخة في التخوم، وسيادة شرفهم قد أنافت على النجوم، وأتباعهم وأولياؤهم لا يحصى لهم عدد، وأنصارهم وأعوانهم قد ملؤوا كل قطر وبلد، فأحبوا طمس أنوارهم، وتغيير منارهم، وإلصاق العار والقبیح بهم، شأن العدو وعادته في عدوه.

فتفطن ، رحمك الله، إلى أسرار الوجود، وميز الأخبار كتمييزك الجيد من النقود، تعثر إن سلمت من الهوى بالصواب. ومما يدللك على كثرة الحمل عليهم أن الأخبار الشنيعة، لا سيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام، لاتكاد تجدّها إلا في كتب المشاركة من البغداديين والشاميين، كالمنتظم لابن الجوزي، والكامل لابن الأثير، وتاريخ حلب لابن أبي طي، وتاريخ العماد ابن كثير، وكتاب ابن واصل الحموي ، وكتاب ابن شداد، وكتاب العماد الاصفهاني، ونحو هؤلاء ، أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارها فلا تكاد تجد في شيء منها ذلك البتة. فحكم سلطان العقل، واهزم جيوش الهوى ، وأعط كل ذي حق حقه، ترشد إن شاء الله تعالى.

ذكر ما صار إليه أولادهم

ولما مات العاضد غسله ابنه داود (١٦٤) وصلى عليه، وجلس على السدة، واستدعى صلاح الدين ليبايعه، فامتنع، وبعث إليه: أنا نائب عن أبيك في الخلافة ولم يوصني بأنك ولي عهده، وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه في سادس شعبان سنة تسع وستين وخمسائة، ونقله هو وجميع أقاربه وأهله إلى دار المظفر (١٦٥) من حارة برجوان في العشر الأخير من شهر رمضان، ووكل عليهم وعلى جميع ذخائر القصر، وفرق بين الرجال والنساء حتى لا يحصل منهم نسل، وأغلقت القصور، وتملكت الأملاك التي كانت لهم، وضربت الألواح على رباعهم وفرقت على خواص صلاح الدين كثير منها وبيع بعضها، وأعطى القصر الكبير

لأمرائه فسكنوا فيه. وأسكن أباه نجم الدين أيوب في اللؤلؤة على الخليج، وصار كل من استحسن من الغز داراً أخرج صاحبها منها وسكنها.

ونقلوا إلى قلعة الجبل، وهم ثلاثة وستون نفرًا، في يوم الخميس ثاني عشرين رمضان سنة ثمان وستمائة، فمات منهم إلى ربيع الأول سنة أربع وعشرين وستمائة ثلاثة وعشرون. وتولى وضع القيود في أرجلهم الأمير فخر الدين الطنبا أبو شعرة بن الدويك والي القاهرة.

قال المهذب أبو طالب محمد بن علي، ابن الخيمي: وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة عوقبت بالقلعة، فوجدت بها من الأشراف أربعين شريفًا وهم: الأمير سليمان بن داود بن العاضد، وأبو الفتوح بن العاضد، وحيدرة بن العاضد، وجبريل بن العاضد، وعلي بن العاضد، وعبد القاهر بن حيدرة بن العاضد، وإسماعيل بن عيسى بن العاضد، وعبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد، وأبو القاسم بن أبي الفتوح بن العاضد، وقمر بن علي بن العاضد، ويحيى بن جبريل بن الحافظ، وسليمان بن يحيى المذكور، وتميم بن يحيى المذكور، وعبد الله بن أبي الطاهر بن جبريل، وسليمان بن أبي الطاهر بن جبريل، وأبو جعفر بن أبي الطاهر، وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل، وأبو الحسن بن أبي اليسر بن جبريل، وأحمد بن أبي اليسر بن جبريل، وأبو الحسن بن أبي العباس حسن بن الحافظ، وإبراهيم بن عبد المحسن بن عبد الوهاب بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر، ويونس بن سليمان بن عبد الخالق بن أبي الحسن بن أبي القاسم، وأبو اليسر بشارة بن عبد المحسن ابن أبي محمد بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر، وجعفر بن موسى بن محسن بن داود بن المستنصر، وعلي بن سليمان بن أبي عبد الله ابن داود بن المستنصر، ويحيى بن صدقة بن شبل بن عبد المجيد بن أبي

الحسن بن جعفر بن المستنصر، وعبد الله كمال بن داود بن داود بن يحيى بن أبي علي بن جعفر بن المستنصر، وأبو علي بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبي علي بن جعفر بن المستنصر، وسليمان بن عبد الصمد بن أبي عبد الله بن عبد الكريم بن أبي اليسر بن جعفر بن المستنصر، وأبو علي ابن عبد الصمد، وأخوه، وعبد الكريم بن إبراهيم بن أبي الحسن بن عبد الله بن المستنصر، وعبد الغني بن أبي الرضا بن أبي الحسن بن عبد الله ابن المستنصر، وعبد الصمد بن سليمان بن محمد بن حيدرة بن عقيل بن المستنصر، وإسماعيل بن صدقة بن أبي اليسر بن إسحاق بن المستنصر، وأبو محمد بن موسى بن عبد القادر بن أبي الحسن بن إسحاق ابن المستنصر، وعبد الصمد بن حسن بن أبي الحسن من أولاد المستنصر.

ولم يزالوا معتقلين بقلعة الجبل إلى أن حولوا منها سنة إحدى وأربعين وسبعين وستمائة.

هذا آخر ما وجد بخط مؤلفه عفا الله عنه

آخر كتاب اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء للمقريري.

من كتابة فقير رحمة الله محمد بن أحمد الجيزي الأزهرى الشافعي،
لطف الله تعالى (به) وغفر ذنوبه وستر عيوبه والمسلمين أجمعين.

في سنة أربع وثمانين وثمانمائة.

تراجـم من
كتاب
المقفى الكبير للمقرئ

الامام الظافر بأمر الله الفاطمي

إسماعيل بن عبد المجيد بن محمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار
ابن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيد الله، الإمام الظافر بأمر الله،
أبو المنصور، أمير المؤمنين، ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون، ابن الأمير
أبي القاسم، ابن الظاهر، ابن الحاكم، ابن العزيز، ابن المعز، ابن المنصور،
ابن القائم، ابن المهدي.

ولد يوم الأحد نصف ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وبويع
بالخلافة بعد موت أبيه يوم الأحد خامس جمادى الآخرة سنة أربع
وأربعين وخمسمائة، وعمره سبع عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام،
بعهد من أبيه. وكان أصغر إخوته، ولقب بالظافر بالله. واستوزر الأمير
نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال. فخرج عليه الأمير
المظفر أبو الحسن علي بن إسحاق ابن السلار واستولى على الوزارة إلى
أن قتل.

فقام من بعده بأمر الدولة المظفر أبو نصر عباس ابن أبي الفتوح،
وكان الظافر قد اختص بولده ناصر الدين بن عباس وأثم به. فأنكر
عليه أبوه ما يقال في حقه. فأراد البراءة مما رمي به، وسأل الظافر أن
يأتيه ليلة ليتفصحا. فنزل إليه في ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع
وأربعين وخمسمائة وهو متنكر، ومعه خادمان. فقتله ورماه في جب، ومعه
أحد الخادمين، وغطاه برخامة بيضاء. وفر الخادم الآخر إلى القصر،
فكانت مدته أربع سنين وسبعة أشهر وأربعة عشر يوماً. وعمره إحدى
وعشرون سنة وعشرة أشهر تنقص خمسة أيام.

وكان محكوماً عليه من الوزراء، وفي خلافته ملك الفرنج عسقلان،
وظهر الخلل في الدولة، وكان كثير اللهو واللعب مع جواريه، مقبلاً على
سماع الغناء.

- ١١٨٢٨ -

وأنشأ الجامع الظافري بالقاهرة، المعروف بجامع الفكاكين بخطّ
الشّوائين. وقام في الخلافة بعده ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى.

أيوب بن شاذي

أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب، الملك الرحيم الأفضل ابن شاذي بن مروان، من أبناء أعيان دوين، وكان بينه وبين جمال الدولة المجاهد بهروز صحبة. فاتفق أن بهروز أتهم بزوجة بعض أمراء دوين فخصاه. فخرج منها واتصل بلالا أولاد السلطان غياث الدين مسعود السلجوقي. واختص به وصار يركب مع أولاد السلطان. فرآه السلطان يوماً مع أولاده فأنكره فقال اللالا: إنه خادمٌ مثلي.

ثم صار يسيّره إلى السلطان فخفّ على قلبه، ولعب معه الشطرنج والنرد، وكان من أظرف الناس، فحظي عنده. ومات اللالا فأقامه مكانه. فاشتهر ذكره. واستدعى شاذي بن مروان، فلما قدم عليه أكرمه.

ثم إن السلطان بعث بهروز والياً ببغداد ونائباً عنه، فسار معه شاذي وأولاده. وكانت تكريت قد أعطاهما السلطان لبهروز فأرسل إليه شاذي، فأقام بها مدة ومات. فولّى ابنه نجم الدين أيوب عوضه فنهض في أمرها وشكره بهروز.

فاتفق أن عماد الدين زنكي صاحب الموصل لما قصد حصار بغداد أيام الخليفة المسترشد بالله الفضل بن أحمد المستظهر بالله. وكان من محاربة المسترشد ما كان وانهزام عماد الدين وعبوره على تكريت. خدّمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن حتى عبر دجلة، وتبعه أصحابه فأحسن إليهم وسيّرههم. فبلغ ذلك بهروز فأنكر على نجم الدين وقال: كيف نظفر بعدونا وتحسن إليه؟

واتفق مع ذلك أن أسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب أتمته امرأة باكية وذكرت أن فلاناً الأسفهلار تعرّض لها وهي داخلة في باب القلعة، فقام وضرب الأسفهلار بحربة قتله، فأمسكه نجم الدين

واعتقله وكتب يُعلم بهروز بخبره. فعاد جوابه: «إِنَّ لأبيكما شاذي عليّ حقاً. وما يُمكنني أن أكافئكما بسوء، ولكن أتركاً خدمتي وأخرجاً من بلدي».

فخرج أيوب وشيركوه من تكريت وقصدا عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل، فأحسن إليهما وأقطعهما إقطاعاً جيداً. ومازالا في خدمته إلى أن ملك قلعة بعلبك، فاستخلف بها نجم الدين أيوب، فأقام بها وعمرَ بها الخانقاه النجمية.

فلما قُتل عماد الدين زنكي، وحصر مجير الدين أبوق صاحب دمشق بعلبك ضاق الأمر على نجم الدين ولم تأتِه نجدة من أولاد عماد الدين زنكي، سلّم أبوق قلعة بعلبك على إقطاع ذكره بعدما حلف له، وانتقل إلى دمشق بأولاده وتسلم الإقطاع والمال، وقدمه إلى أبوق وعمله من أكبر الأمراء.

واتصل أخوه شيركوه بنور الدين محمود بن زنكي وخدمه في أيام أبيه فحظي عنده، وجعله بعد موت أبيه مقدّم عسكره بحلب، إلى أن ملك دمشق. فأقصر أيوب وشيركوه بخدمته. وبعث شيركوه إلى مصر نجدة لشاور كما ذكر في ترجمتهما. فتوجه صلاح الدين يوسف بن أيوب في خدمة عمّه أسد الدين شيركوه إلى مصر، وكان من ثَمَلِك شيركوه مصر، ثم ثَمَلِك صلاح الدين يوسف بعده إلى أيام الخليفة العاضد لدين الله ماكان.

فاستدعى أباه نجم الدين أيوب من دمشق، فجهّزه إليه نور الدين محمود في سنة خمس وستين وخمسمائة. وخرج العاضد فتلّقه عند شجرة الإهليلج خارج باب الفتوح، وأقطعه: الإسكندرية، ودمياط، والبحيرة، وأقطع ابنه شمس الدولة ثوران شاه بن أيوب: قوص،

وأسوان، وعيذاب، وعبرتها في كل سنة مائتا ألف وستة وستون ألف دينار.

فسلك صلاح الدين مع أبيه من الأدب ما يليق به، وعرض عليه الأمر، فأبى وقال: يا ولدي، ما اختارك الله لهذا إلا وأنت له أهل.

فلما استبد صلاح الدين بسلطنة مصر بعد موت العاضد، وخرج إلى حصار الفرنج بالكرك، ركب نجم الدين أيوب في يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي الحجة ليسير، وخرج من باب النصر، فشبّ به فرسه وألقاه، فحمل إلى داره بالقاهرة ولزم الفراش حتى مات يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة، ودفن بجانب أخيه شيركوه، ثم نُقِلَ إلى المدينة النبوية، ودُفِنَ بجوار الحجرة الشريفة في تربة هناك سنة ثمانين وخمسمائة.

وترك نجم الدين أيوب من الأولاد: السلطان صلاح الدين يوسف، والملك العادل سيف الدين أبا بكر محمداً، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الإسلام طغتكين، وتاج الدين بوري، وست الشام، وربيعه خاتون.

وكان ديناً خيراً له صدقات وعقل رصين وكرم وسماح.

ورثاه الفقيه عمارة بقصيدتين.

بغدوين صاحب القدس

بغدوين بن ... ملك بيت المقدس بعد قتل أخيه كندفري على عكا في سنة أربع وتسعين وأربعمائة. قدمها في خمسمائة فارس وراجل، فخرج من مصر في رجب سنة خمس وتسعين عسكرًا لمنع الفرنج مما بقي بيد المسلمين من البلاد الشامية، فسار إليهم بغدوين في سبعمائة فارس وقاتلهم، فنصرهم الله عليه وقتلوا أكثر أصحابه، ونجا إلى أجمة قصب، فأضرموها عليه بالنار، ففرّ وقد احترق بعض جسده.

وصار إلى الرملة والمسلمون في إثره. فسار إلى يافا بعدما عظم القتل والأسر في أصحابه. ثم كانت بينه وبين سعد الدولة القوّاسي مقدّم عسكر مصر وقعة في سنة ست وتسعين انهزم فيها سعد الدولة وقُتل، وأخذ بغدوين أمواله.

ثم ظهر المسلمون عليه ففر بغدوين إلى الرملة ثم إلى يافا، وعاود الحرب مع ابن الأفضل مدّة، ثم ملك عكا في سنة سبع وتسعين وسار إلى الفرما في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة فبعث الأفضل - ابن أمير الجيوش - الجيوش من القاهرة فأخذ بغدوين في نهب الفرما وخربها وأحرقها، وعزم على الرجوع، فأهلكه الله بها. وخاف الفرنج من اظهار موته فكتموه. وساروا به بعدما شقوا بطنه وملؤوه ملحًا ودفنوا ما في بطنه بالسبخة التي عرفت به الى اليوم قرب الودادة، والعامّة تسميها سبخة بردويل وترجم موضع قبره بالحجارة.

بهرام مقدم الباطنية

كان من أهل... فلما قتل خاله إبراهيم الأزدا بادي ببغداد في ... هرب إلى الشام وصار داعي الإسماعيلية بها. وتردد في البلاد يدعو أوباش الناس وطغامهم إلى مذهبه. فاستجاب له منهم من لاعقل له، وكثر جمعه، إلا أنه كان يخفي شخصه فلا يعرف، وأقام بحلب مدة ونفق على إيلغازي صاحبها، وأراد إيلغازي أن يعتضد به لاثقاء شر أصحابه، فإنهم كانوا يقتلون كل من خالفهم، وأشار إيلغازي على طغتكين صاحب دمشق بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه وأخذه إليه، وأظهر حيثئذ شخصه بدمشق وأعلن بدعوته، وكثر أتباعه من كل من يريد الفساد والشر، وأعانه الوزير كمال الدين أبو علي طاهر بن سعد المزدغاني قصداً للاستعانة به على ما يريد، فعظم شر بهرام واستفحل أمره في سنة عشرين وخمسة، وصار أتباعه أضعاف ما كانوا، إلا أنه خاف عامة دمشق لفظاظتهم وغلظتهم، فطلب من أتابك طغتكين حصناً يأوي إليه هو وأتباعه، فأشار عليه الوزير طاهر بتسليم حصن بانياس إليه، فسلمه إليه في ذي القعدة من السنة المذكورة وسار إليه، فاجتمع أصحابه عنده من كل ناحية، وملك عدة حصون، منها القدموس.

وأقام خليفته بدمشق يدعو إلى مذهبه، فكثر وانتشر، وعظم خطبه وحلت الملحنة بظهوره. وأشدّ الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، إلا أنهم لا يقدرّون على أن ينطقوا فيه بحرف واحد، خوفاً من سلطانهم ومن شر الإسماعيلية، فلم يقدر أحد على إنكار هذه الحالة، وشر أصحاب بهرام في قتل من يعاندهم ومعاضدة من يؤازرهم بحيث لا ينكر عليهم أمير ولا وزير.

فلما مات ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق في صفر سنة اثنتين

وعشرين وخمسمائة وقام من بعده ابنه تاج الملوك بوري في سلطنة دمشق
أقرّ الوزير طاهر المزدقانيّ على وزارته، وبثّ بهرام دعائه من بانياس في
سائر الجهات فاستغفروا خلقاً كثيراً، وامتدت أيديهم وألستهم إلى
الأخيار، وقتلوا كثيراً من الناس تعدياً وظلماً، وأعانه الوزير بغير رضى
تاج الملوك.

فلما أراد الله إنفاذ أمره خدع برق بن جندل مُقَدِّم وادي التّيم حتى
وقع في يده فقتله صبراً. وتألّم الناس لقتله وأعلنوا لعن قاتله عامة، فحنق
صخر بن جندل لقتل أخيه وثار في أخذ ثأره، وجمع لقتال بهرام. فخرج
إليه وقاتله بوادي التّيم، فقتل بهرام ومَن معه في يوم الجمعة سابع ربيع
الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وحُمل رأسه إلى القاهرة، فخلع على
مَن أحضره وأنعم عليه بما كان جزيلاً.

بهرام تاج الملوك الأرمني

بهرام بن أسيد، الوزير سيف الإسلام، تاج الملوك، الأرمني. كان يزعم أنه من نسل داود عليه السلام. وكان من جملة الأرمن الواصلين إلى ديار مصر من قلعة الروم، وسكن مع الأرمن في ناحية تلّ باشر مدّة. فلما مات كبير الأرمن، كان بهرام أحقّ بمكانه، فتعصّب عليه جماعة من الأرمن وأقاموا غيره، فغضب وخرج من تلّ باشر، وقدم القاهرة، وقتل يازمان القائم بأمر الأرمن في قلعة الروم. وكان بهرام أحقّهم بموضعه. فمُنِع وقام غيره بتعصّب وقع. فترك البلاد وخرج منها مغاضباً إلى القاهرة، وصار من الجند.

وكان ذا عقل متوفّر ورأي صائب وإقدام في الحروب، فزید في إكرامه لأجل ذلك وترقى في الخدم ولقب بتاج الدولة. وخرج مع المؤمن أبي تراب حيدرة أخي الوزير المأمون البطائحيّ مقدّماً على طائفة الأرمن حين توجه لغزو لواتة في سنة سبع عشرة وخمسمائة وشهد حروبه، ثم عاد إلى القاهرة.

وما زال بها إلى أن كانت فتنة الحسن، ابن الخليفة الحافظ لدين الله، ففرّ منه إلى الغريّة، وجمع مقطعيها والعربان والأرمن، وسار يريد القاهرة، وقد عاثت حشوده في القرى والضياع ونهبوها. وكثرت الفتن بالقاهرة بين الأجناد والسودان حتى أخرج السودان بعد قتل حسن الطائفة الجيوشية والفرجية والإسكندرانية من القاهرة، وقتلوا كثيراً منهم ونهبوا ماقدروا عليه.

فلما قدم بهرام بحشوده، تعلّق الأجناد به وأدخلوه على الخليفة وألزموه أن يؤلّيه الوزارة، فلم يجد بداً من إجابتهم، وخاف أن تثور الفتنة مرة أخرى. فخلع عليه يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة سنة تسع

وعشرين وخمسمائة—وقيل: لإحدى عشرة خلت منه— وهو باق على دين النصرانية ولُقِّبَ بسيف الإسلام، تاج الخلافة، فاشتد ذلك على الخليفة.

واقضى الحال توليته، ف قيل له: يا أمير المؤمنين، لا يرضاه المسلمون، ومن شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليُزَرَّرَ عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس، والقضاة نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة.

فقال: إذا رضينا نحن، فمن يخالفنا؟ وهو وزير السيف وأما صعود المنبر، فيستنيبُ عنه قاضي القضاة. وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك، ويُفعل ما كان يُفعل قبل أمير الجيوش.

فكثر الإنكار من الناس لوزارة بهرام، إلا أنه لم يدخل في شيء مشكل، وساس الأمور بعقل جيّد وتدبير حسن، وأنفق في الجند جملة من الأموال، فاستقامت أحواله وراسله الملوك وزالت الفتن من البلاد في أيامه، فلم ينكر عليه شيء سوى أنه نصراني. وكان يقعد في يوم الجمعة عن الصلاة ويعدل إلى مكان بمفرده إلى أن تنقضي الصلاة. وسأل الخليفة أن يسمح له إحضار أهله، فأذن له في ذلك فأحضرهم من تلّ باشر ومن بلاد الأرمن حتى صار منهم بمصر قدر الثلاثين ألف إنسان، فاستطالوا على المسلمين، وكثر جَورهم وبنوا عدّة كنائس وأديرة، حتى كان كلّ رئيس منهم يبني له كنيسة، فخاف أهل مصر منهم أن يغيّروا الملة الإسلامية، وكثرت الشكايات فيه وفي أخيه الباساك وكان قد ولّاه قوص، فعظم ذلك على الأمراء.

وتفاقم أمر النصارى، ووصل إليه ابن أخيه المعروف بالسبع الأحمر،

فأطلق الأسرى من الفرنج، وشنعت القالة، وكتب أهل الدولة الأمير رضوان بن الوحشي والي الغربية، فحشد لقتال بهرام، وخرج من سخا في ثلاثين ألفاً حتى نزل دجوة، وبهرام لا ينزعج. فلما قرب من القاهرة جمع بهرام الأرمن وقال لهم: قد علمتم بأننا غرباء ولم نزل نخدم هذه الدولة، والآن فقد كثر بغضهم لآيائنا وما كنت بالذي أكون (عبد قوم) وأخدمهم من حال الصبا، فلما بلغت الكبر أقاتلهم؟ والله لا ضربت في وجوههم بسيف أبداً، سيروا بنا.

ثم اجتمع بالخليفة وفاوضه في أمره، فقال له: يغلبني عليك الإسلام.

فأيس حينئذ وسار بالأرمن. وقيل: بل ركب في عساكر مصر، وخرج ومعه الأرمن، يريد محاربة رضوان. فلما التقى الجمعان خامر عليه الأمراء ولحقوا برضوان، فانهزم بالأرمن. وأخذ ماخف من المال وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين، وسار يريد قوص، وبها أخوه الباساك، وأوسق مراكب كثيرة وسيّرها في النيل بما يحتاج إليه. فعندما خرج من القاهرة تكاثرت الغوغاء على دار الوزارة ونهبوها وهتكوا حرمتها، وخرجوا إلى آدر الأرمن بالحسينية خارج باب الفتوح فنهبوها كلّها، ونهبوا كنيسة الزهري، ونشوا قبر البطريك أخي بهرام ومثّلوا برمته.

وطار خبر هزيمة بهرام في سائر إقليم مصر حتى وصل الخبر إلى قوص قبل وصوله إليها، فثار المسلمون بالباساك وقتلوه. فقدم بهرام بعد قتله بيومين إلى قوص، ومعه من الأرمن نحو الألفين، فرأى أخاه الباساك على مزبلة وقد رُبط معه كلب. فحنق ووضع السيف في أهل قوص، فقتل منهم خلقاً كثيراً، ونهب البلد وخرج إلى أسوان، ونزل بالأديرة البيض — وهي أماكن حصينة عدتها ثلاثة ديارات في غربي مدينة إخميم. وتقدّم إليه بأن يسرح من معه من الأرمن إلى بلادهم، ومن رضي منهم

أن يقيم بمصر فلاحاً فليفعل . فأقام بأهله وولده، وخرج جماعة ممن معه إلى أرض الشام، وبقيت منهم بقية كثيرة وتمنّوا أن يكونوا فلاحين . فردّت لهم جهات، منها سملوط، وأثلوسنا، وإبوان، والبرجين في صعيد مصر، وضيعة أخرى بالمحلة .

فسار إليه الأوحّد ناصر الدين إبراهيم، أخو الوزير الأفضل رضوان بالعساكر شرقاً وغرباً، وقد تبعه الأسطول في النيل، ومعه أمان لبهرام ليعود مكرّماً وطائفة على إقطاعاتهم . فلم يزل على الأديرة البيض . فتقرّر الحال مع بهرام على إقامته بها من غير أن تكون حرب . فلم يزل هناك إلى أن استدعاه الخليفة الحافظ في شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين، وأنزله معه في القصر وأكرمه، إلى أن هلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . فحزن عليه الحافظ حزناً كثيراً لأنه كان يشاوره في تدبير الدولة والأمور فيعجبه رأيه ويفتن بحزمه وعقله . وصار يوم موته على القصر غمة وأمر بغلق الدواوين، واستحضر بطرك الملكية ليجهّزه، فقام بأمره، وأخرج وقت الظهر في تابوت عليه الديباج، وحوله النصاري يبخرون باللبان والسندروس والعود . وخرج الناس كلّهم مشاة، ولم يتخلّف عن جنازته أحد من الأعيان، وخرج الخليفة راكباً بغلته خلف التابوت بعمامة خضراء وثوب أخضر من غير طيلسان، وسار والأقساء يعلنون بقراءة الإنجيل، والخليفة على حاله إلى دير الخندق خارج القاهرة—وقيل: بل في الكنيسة المستجدة بينان الزهري— فنزل الخليفة عن بغلته ونزل على شفير القبر وبكى بكاءً كثيراً، حتى دُفن . ثم عاد .

وكان بهرام عاقلاً حسن السياسة جيّد التدبير مقداماً في الحرب .

أخو المأمون البطائحي

جعفر بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، الأمير ركن الخلافة، عز الملك، أبو الفضل، ابن الأمير نور الدولة أبي شجاع ابن الأمير مجد الدولة أبي الحسن، ابن الأمير أمين الدولة أبي علي، المعروف بأخي الوزير الأجل المأمون أبي عبد الله محمد البطائحي.

رتبه أخوه لما ولي وزارة الخليفة الأمر بأحكام الله أبي علي منصور، بحمل السيف الخاص، وهي رتبة جليلة المقدار لا يليها إلا أمير عظيم القدر، وهو أكبر حامل.

وهذا السيف حليته ذهب مرصعة بالجواهر في خريطة مرقومة بالذهب لا يظهر إلا رأسه، يخرج من خزائن السلاح الخاص عند ركوب الخليفة في يوم العيد ونحوهما، فيسلم إلى حامله، وهو ممن يرخي الذؤابة مادام حاملاً له. ويكون في وقت مسير الخليفة راكباً في الجانب الأيسر هو وحامل الدواة.

وولاه أيضاً حماية خزائن الكسوات، وصناديق النفقات فجّل أمره واتسعت أحواله، بحيث إنه توفيت له حظية من حظاياها فحصل للغاسلة من المصاغ الذهب المرصع، والملبوس المذهب، والفرش ماتزيد قيمته على ألف دينار، سوى مائة دينار عينا، وجارية تحمل المصاغ والملبوس.

وكان مما عمل في عنق هذه الحظية لما كُفنت عقد فيه ثلاثة عشر حجراً فيهم خمسة ياقوت أحمر رماني، وثمانية ما بين أزرق وأصفر يساوي جملة كثيرة، وجعل في أذنيها خرصان وزنها مثاقيل ذهب وجوهر.

ثم لما قبض الأمر بأحكام الله على الوزير المأمون، قبض على جعفر

هذا في جملة مَنْ قبض عليه. ثم أفرج عنه. وتأخرت وفاته إلى خلافة الفائز، فمات في أثناء سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وصلى عليه الصالح طلائع بن رزيك في الإيوان.

وخلف سبعة ذكور وأربع بنات فرقت أحوالهم، وركبهم دينٌ ثَقِيل حتى احتاج بعضهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة إلى بيع تربتهم بالقرافة، ثم مضوا إليها وحفروا القبر الذي فيه حظية أبيهم المذكورة، وغربلوا ماتحتها من التراب، فوجدوا فيه من الذهب المسبوك ثلاثمائة وعشرين مثقالاً، ثم باعوا رخام القبر، والتابوت الساج حتى وفوا ما عليهم من الدين، فسبحان محيل الأحوال.

حميد بن مكّي القصّار

حميد بن مكّي، الإطفيحي، القصّار.

كان رفيقاً لبركات الذي استغوى الناس بمصر في أيام الأفضل بن أمير الجيوش. فلما مات بركات وقتل أصحابه بغد غلق دار العلم، فرحميد.

فلما مات الأفضل عاد حميد وسكن مصر، يدق الثياب، وصار يتردد إلى دار العلم بعدما فتحها الوزير المأمون أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي، ويفسد عقول الناس، وأدعى الربوبية فأتبعه أستاذ وخطاط وجماعة، فقام في أمره داعي الدعاة وليّ الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق وصار إلى الوزير المأمون وعرفه عن حميد بأنه قد عرف طرفاً من علم الكلام على مذهب الأشعري، ثم إنه انسلخ من الإسلام، وسلك طريق الحلاج في التمويه، واستهوى من ضعف عقله وقلت بصيرته.

فقبض على حميد وعلى جميع أصحابه. ماخلا الخطاط، فإنه فرّ، فنودي عليه وبُذِلَ لمن يُحضِرُه المال فلم يقدر عليه، وأودع حميد وأصحابه السجن، وقرروا فلم يعترفوا بشيء، فلما كان بعد أيام تماوت فأمر بدفنه، فإذا به حيّ، فترك في السجن. وعرضت البراءة منه على أصحابه، فمن تبرأ منهم، خُلّي عنه، ومن أصرّ ترك في السجن، وعُرضت البراءة على الأستاذ فقال: إنَّ القتل لا يصل إليه.

فأمر بقطع لسانه فقطع ورُمي قدّامه، فلم يرجع، وأخرج بحميد والخصي في من بقي من أصحابه فصلبوا وضربوا بالنشاب حتى ماتوا، وذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وخمسمائة. ثم ظفر بالخطاط فلم يتبرأ من حميد، فصلب بجانبه. وصار أصحابه يأتون بالكافور ويلقونه قريباً من خشبته سراً، حتى إنَّ من هناك يشمُّ ريح الكافور،

فَيُشَيِّعُ أَصْحَابَهُ أَنْ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بَعْدَ صَلْبِهِ، فَلَمَّا اشْتَهَرَ هَذَا أَمْرَ الْمَأْمُونِ بِحُطِّ رَمْلِهِمْ عَنِ الْخَشَبِ وَدَفْنِهِمْ، بِحَيْثُ لَمْ يَعْرِفْ قَبْرَ حَمِيدٍ.

وَكَانَ حَمِيدٌ قَصِيْرًا دَمِيْمًا الْخَلْقَةَ، يَتَنَمَّسُ بِالْدِّينِ وَيُوَاصِلُ طُلُوعَ الْجَبَلِ فِي عِدَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَحْضُرُ إِلَيْهِمُ الْمَأْكُلَ مِنَ الْجَبَلِ، فَيَرَى أَصْحَابَهُ أَنََّّهُ أَحْضَرَ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ مِنَ الْغَيْبِ. وَكَانُوا يِنَالِغُونَ فِي تَعْظِيمِهِ حَتَّى إِنَّهُمْ يَخَافُونَ الْإِثْمَ فِي تَأْمُلِ صُورَتِهِ، فَلَا يَزَالُونَ مَطْرُقِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَسْأَلُونَهُ الْحَوَائِجَ، فَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَيَسْتَدْعِي مِنْهُ بِالْجَبَلِ شَيْئًا عَلَى سَبِيلِ الْامْتِحَانِ فَيَحْضُرُهُ إِلَيْهِ لَوْقَتِهِ.

وَكَانَتْ مَعَهُ سَكِينٌ لَا تَقْطَعُ إِلَّا بِيَدِهِ. فَإِذَا أَمْسَكَ طَائِرًا أَوْ قَبِضَهُ أَحَدٌ مِمَّنْ عِنْدَهُ، يَدْفَعُ السَّكِينِ الَّتِي مَعَهُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: اذْبَحْهُ فَلَا تَمْشِي فِي يَدِهِ حَتَّى يَأْخُذَهَا هُوَ وَيَذْبَحْهَا بِهَا، فَيَجْرِي دَمُ الطَّائِرِ. ثُمَّ يَعُودُ فَيُمْسِكُهُ بِيَدِهِ وَيَسْرُحُّهُ فَيَطِيرُ.

وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَزْعُمُونَ فِيهِ أَنَّ الْحَدِيدَ لَا يُوْثِّرُ فِي جَسَمِهِ.

المؤمن بن البطائي

حيدرة بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، المؤمن، سلطان الملوك، نظام الدين، أبو تراب، ابن الأمير نور الدولة أبي شجاع، ابن الأمير منجد الدولة أبي الحسن، ابن الأمير أمين الدولة أبي علي، أخي الوزير المأمون بن البطائي.

نشأ بالقاهرة. فلما اتصل أخوه عبدالله محمد بن فاتك بالأفضل ابن أمير الجيوش، استعان به وبأخيهما أبي الفضل جعفر. فاستصوب الأفضل فعله، ورتب لهما الرواتب الدارة في اليوم والشهر والسنة.

فلما استقر أبو عبد الله بعد قتل الأفضل في الوزارة، صار إليه مقدمة العساكر وزم الأزمة. ثم ولاه الخليفة الأمر بأحكام الله: الإسكندرية، والأعمال البحرية، والغربية، والجزيرتين، والدقهلية، والمرتاحية، في سنة سبع عشرة وخمسة، وخلع عليه بدلة مذهبة من خاص لباسه وطوق ذهب، وقلد بسيف قرابه وسفطه ذهب بغير منطقة، وشرف بتقيل يد الخليفة في مجلسه، وسلم إليه تقليده في لفافة مذهبة، وشدت الأعلام والقصب والفضة والعماريات، وحمل على يديه أكياس المال برسم التفرقة، وحجبه الأمراء المطوقون والأساتذة المحنكون. وقبل أبواب القصور ومضى إلى داره. وأطلق له من ارتفاع الإسكندرية على الولايتين في الشهر خمسة دينار.

فورد الخبر بأن رزين الدولة علي بن تراب والي الصعيد الأدنى وضامنه قتلته لواته وعاثت في البلاد، فخرج المؤمن ومعه طائفة من المأمونية، وتاج الدولة بهرام زمام الأرمن وجميع طائفته، وجرد معه مائة فارس من خيرة الأجناد ومن أغنيائهم، وأضاف إليه أمثالهم مثل علي بن السلار،

وتاج الملوك قايماز، وسيف الملك الجمل، ودرّي الحرون، وحسام الملك بسيل، وكل واحد من هؤلاء له جيش بمفرده.

وسارت لواته إلى الفيوم ونهبوها وأحرقوها ومضوا مغربين، فأخذ مواشيهم، وتبعهم إلى الموضع الذي يقال له الحمام وأخذ أموالهم وعزم على استئصالهم.

فبلغه أنه قد وصل إلى الإسكندرية من مراكب الروم والبنادقة نيف وعشرون مركباً، فبادر إلى الثغر ودخله، فرأى الروم من عسكره ماهاهم فأقلعوا عن الثغر.

وأتاه مشايخ لواته ومقدموهم وسألوه الوساطة بينهم وبين أخيه الوزير المأمون في الصفح عنهم، على أن يقوموا عن جنایاتهم بثلاثين ألف دينار عيناً، أحضروها مع رهائهم، فقرر أمرهم على ذلك وقبض المال.

ولما اتّصل بأهل الإسكندرية قدومه خرج إليه الفقهاء والقاضي والشهود والتجار وكافة الناس، حتى النساء، ومعهم المصاحف والشموع، وسلّموا عليه. فخيم بظاهر المدينة، وخرج إليه الإمام أبو بكر الطرطوشي للسلام عليه. فلم يقبل من أحد شيئاً سوى من القاضي مكين الدولة أبي طالب أحمد بن حديد قاضي الإسكندرية وناظرها، فإنه قبل ما حمل إليه على حكم الضيافة ثلاثة أيام، ثم أمره بأن لا يعود إلى حمل شيء. وأخرج كتابين من الوزير المأمون، أحدهما يتضمن أن الغلال بالثغر وأعمال البحيرة كثيرة، وكذلك الأغنام مع قطيعة العربان، فمهما دعت الحاجة إليه برسم أسمطة العساكر يحمل ويساق وتكتب به الوصول على ماجرت به العادة، ويأمره فيه أن لا يقبل من أحد من التجار ضيافة ولا هدية.

والكتاب الآخر إلى مكين الدولة بأن يطلق في كل يوم من ارتفاع الثغر ما يحتاج إليه من الأصناف برسم الأسمطة للعساكر، وأن يستخدم عليها من يراه من الشهود. وكان التجار قد جمعوا من بينهم ثلاثة آلاف دينار ضيافة للمؤمن وحملوها إلى مكين الدولة، فلما أحضرها إلى المؤمن أنكر عليه وأمره بردها إلى أربابها. فأخذ مكين الدولة يتلطف به ويقول: تجعل عوضها طيباً وطرفاً مما عند التجار فإنه لا كلفة عليهم في ذلك. فأقسم أن لا يقبل منهم شيئاً، فأعادها إلى أربابها. واستمرت الأسمطة في كل يوم تعمل من مال الارتفاع.

وشرع المؤمن في ترتيب أحوال الثغر وعمارة ماتشعث منه، ولم يقبل لأحد هدية، ثم خلع على مكين الدولة وسار لتمهيد ما اختل من البلاد، فسدد الأمر في ذلك، وعاد إلى القاهرة. فمدحه عدة من الشعراء، منهم أبو الفتح محمد بن قادوس، وأبو القاسم علي بن الصيرفي.

وكان سبب عوده أن الخليفة الأمر لما تغير على الوزير المأمون، بعث أستاذاً من ثقاته في أمر نذبه إليه، وأسر له أن يجتمع بعلي بن السلار في خفية، ويبلغه سلام الخليفة ويقول له: إننا مازلنا نلتفت إليك ونندخرك لمهاتنا ونتحقق فيك الموافاة لنا. وإننا بحمد الله قادرون على المكافأة بالخير أكثر من غيرنا. وقد تلونت أحوال المأمون، وبالغ في عقوقنا بأشياء لا يتسع لنا ذكرها، ومقصودنا أن تكتم ما نقول لك.

فلما بلغه الأستاذ ذلك عن الأمر قال: السمع والطاعة لمولانا وأنا مملوكه وباذل نفسي في خدمته.

فقال له الأستاذ: هكذا والله قال عنك.

قال: فما يأمر به؟

قال: تحدّث رفقتك بأجمعهم في الانفصال عن المؤتمن.

ثمّ تركه، ففارق ابن السلار المؤتمن، ومعه قايماز، ودرّيّ الحرون. فتبعهم بقيّة الأمراء، وصار المؤتمن مستوحشاً، وكتب إلى أخيه المأمون بذلك، وكان يشعر بتغيّر الخليفة عليه فلم يحرك ساكناً، وتقدّم إلى الخليفة عند حضوره على العادة وقال: يامولانا، صلوات الله عليك. وصل كتاب عبدك أخي وهو يشكو من طول مقامه خارج القاهرة، وأسفه على ما يفوته من خدمة مولانا بالباشرة، ويسأل الفسحة له في العود إلى الباب الكريم.

فقال: مرحباً وأهلاً، وهذا كان رأينا، ونحن مشتاقون إليه، وإنّا قصّدا رضاك فيما رتبته له، يقدم على بركة الله.

فكوتب عن الخليفة بالعود وأن يرتّب في ولاياته من يختار، فلما دخل جلس له الخليفة في غير وقت الجلوس تشريفاً له وخلع عليه.

فلما دخل شهر رمضان سنة (تسع) عشرة وخمسمائة، حضر المأمون والمؤتمن السباط بقاعة الذهب من القصر أوّل ليلة، فأكرمهما الخليفة بما أخرج إليهما ممّا كانت يده فيه، وبعث يستأنس بالمؤتمن لحضوره السباط مع أخيه.

فعاد في الليلة الثانية فزاد الخليفة في إكرامهما، وأذن للمأمون أن يدخل إليه ليؤاكلة، ولم يتقدّمه أحد من الوزراء لذلك، فدخل. وهنّاه الناس بهذه المنزلة وخلع عليه وعلى أخيه المؤتمن من داخل الدار ثياباً دارية، فلما حضرا في الليلة الثالثة السباط بالقاعة استدعى المأمون ليؤاكل الخليفة كما أكله البارحة، فعندما جلس على المائدة قال له: قد جفونا المؤتمن، واستدعاه فدخل وصارا في القبضة، وكان قد رتب لهما

- ١١٨٤٧ -

مَن يأخذهما. فلما فرغ من الأكل وخرجا قبض عليهما واعتُقلا في خزانة،
و أحيط بدورهما، ثم قُتل مع أخيه في ليلة العشرين من رجب سنة
اثنيتين وعشرين وخمسمائة.

الأشرف خليل بن قلاوون

خليل بن قلاوون، السلطان الملك الأشرف، ابن الملك المنصور سيف الدين الألفي النجمي.

ولد سنة سبعين وستمائة. وأحبه (أبوه) وفوض إليه ولاية العهد وأركبه بشعار السلطنة من قلعة الجبل في يوم الجمعة حادي عشر شعبان سنة سبع وثمانين وستمائة فسار إلى باب النصر من خارج السور، وشق القاهرة وصعد القلعة من باب زويلة، وسائر الأمراء في خدمته، ودقت البشائر وخلع على أهل الدولة، وخطب له بعد أبيه على منابر مصر والشام، وكتب بتقليده فتوقف السلطان عن الكتابة عليه وقال لدغدي الدوادار لما قدم معه ليكتب عليه: خبئه عندك حتى أطلبه.

فلما سافر السلطان في المحرم سنة ثمان وثمانين وستمائة لأخذ طرابلس من الفرنج، استخلفه على مصر وجعل معه الأمير الوزير بدر الدين بيدرا إلى أن عاد.

فلما مات أبوه الملك المنصور جلس بعده على تخت الملك بقلعة الجبل في يوم الأحد سابع شوال سنة تسع وثمانين وستمائة، ولم يختلف أحد عليه. وحلف له الأمراء وأهل الدولة في يوم الاثنين ثامنه، وخطب له على منابر مصر في يوم الجمعة ثاني عشرة، فطلب من القاضي فتح الدين ابن عبد الظاهر كاتب السر تقليده بولاية العهد. فأحضره إليه مكتوباً وليست عليه علامة السلطان، وكان قد طلبه الأشرف في حياة أبيه مراراً، وابن عبد الظاهر يقدمه إليه، ويأبى أن يكتب عليه علامته. فلما تكرّر تقديمه للعلامة رده وقال: يفتح الدين، أنا مأوليّ خليلاً على المسلمين.

وبلغ ذلك الأشرف. فلما أحضر إليه ابن عبد الظاهر تقليد العهد

ورآه بغير علامة، قال: يافتح الدين، إنَّ السلطان امتنع من أن يعطيني، فقد أعطاني الله وألقى إليَّ التقليد.

ثمَّ خلع على سائر الأمراء وجميع أهل الدولة. وركب من قلعة الجبل بشعار السلطنة في يوم الجمعة المذكور، وسير بالميدان الأسود تحت القلعة على العادة وعاد سريعاً، فقد بلغه أنَّ طرنطاي النائب يريد الفتك به. فعندما استقرَّ بالقلعة استدعى طرنطاي وقبض عليه. ثمَّ قبض على سنقر الأشقر، وجرمك الناصري، وكانا أكبر أمراء دولة أبيه.

وتجرد للغزو فندب العساكر من البلاد الشاميَّة للجهاد وكتب إليهم بتجهيز الزردخاناه وأعواد المجانيق والحجَّارين. وخرج الأمير أيك الأفرم لذلك فجهَّز أعواد المجانيق من دمشق حتى كمل في ثاني عشر ربيع الأوَّل وسيَّرها مع الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وخرج الأمير لاجين نائب دمشق بعساكرها، وقدم صاحب حماء ونواب الممالك.

وبرز السلطان من قلعة الجبل في يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأوَّل سنة تسعين وستِّمائة، وسار بعساكر مصر، وقدَّم حريمه إلى دمشق، فوصل إلى عكا في يوم الخميس ثالث ربيع الآخر. وقدمت عليه المجانيق يوم الجمعة وعدَّتْها اثنان وتسعون منجنيقاً، فتكامل نصبها وأقيمت الستائر في أربعة أيَّام.

وكان الفرنج قد استنصروا بأهل الجزائر، فقدمت إليهم جموع كثيرة، وأغلقوا أبواب عكا، فوقع الحصار وعُملت النقب إلى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، فركب السلطان ورتب الكوسات على ثلاثمائة جمل وأمر أن تضرب جملة واحدة، وزحف بعساكر المسلمين عند طلوع الشمس ودقَّت الكوسات فارتجَّت الأرض وهال الفرنج ماسمعوه من ضرب الكوسات ومشاهدة الكماة. وأنزل الله نصره على المؤمنين، فلم

ترتفع الشمس حتى علت الصناجق السلطانية على أسوار عكا، وانهزم الفرنج إلى المراكب بالبحر، فهلك منهم في الزحام خلق كثير، والمسلمون تقتل وتأسر وتنهب وتسبي النساء والأولاد، فقتل وأسر وسُبي ما لا يُحصى كثرة، وأمر السلطان بتخريب عكا، فابتدأ هدمها وإحراقها في يوم السبت ثامن عشره. فكانت مدة حصارها أربعة وأربعين يوماً.

وأكرم الله بالشهادة من الأمراء: كشتغدي الشمسي، وأيبك العزي نقيب الجيوش، وأقوش الغتمي، وبيليك المسعودي، وقيران السكري، وأربعة من مقدمي الحلقة، وجماعة يسيرة من الأجناد.

وفتح الله تعالى أيضاً صور في تاسع عشره، وصيدا في عشرينه، وحيفا وعثليت. كل ذلك بغير قتال. فأمر بهدم صور وحيفا وعثليت فهدمت كلها.

وقبض علي الأمير لاجين نائب دمشق وبعثه إلى قلعة الجبل. ثم رحل عن عكا إلى دمشق فدخلها يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة وقد زُيّنت زينة عظيمة وكان يوماً مشهوداً. وفيه ولي الأمير سنجر الشجاعي نيابة دمشق.

وخرج السلطان من دمشق في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب، وسار إلى القاهرة، فوصلها يوم الاثنين تاسع شعبان ودخل من باب النصر وخرج من باب زويلة إلى القلعة، وقد زُيّنت القاهرة زينة عظيمة لم يُرَ قبلها مثلها، وكان من الأيام المذكورة.

وخرج الشجاعي من عكا فأخذ بيروت من الفرنج في شعبان، ولم يبق في جميع الساحل أحد من الفرنج.

وفي يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر سار السلطان من قلعة الجبل

إلى الشام بعساكر مصر، ومعه الأمير لاجين بعدما أفرج عنه وأعاد إليه الأمر بمصر. فدخل دمشق يوم السبت سادس جمادى الأولى، وأنفق في العساكر يوم الاثنين ثامنه، وخرج في سادس عشره إلى حلب فدخلها في ثامن عشرينه. وسار منها يريد أخذ قلعة الروم في يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة. فنزل عليها يوم الثلاثاء ثامنه وحاصرها ونصب عليها عشرين منجنيقاً، وعملت النقب وتخيّل الأمير سنجر الشجاعى نائب دمشق في عمل سلسلة شبك طرفها بالغرب من شراريف القلعة وطرفها الآخر بالأرض، وطلع فيها المقاتلة وقتلوا أهل القلعة قتالاً شديداً. ففتحها الله في يوم السبت حادي عشر رجب عنوة، فقتلت المقاتلة وسُبيت النساء والذراري، وأسر بطرك الأرمن، فكانت مدّة الحصار ثلاثاً وثلاثين يوماً، وسمّى السلطان هذه القلعة قلعة المسلمين، فعرفت بذلك إلى اليوم.

وكرّث الأسرى في أيدي العسكر، فكانت حصّة الزردخاناه السلطانية من الأسرى ألفاً ومائتي أسير، واستشهد من الأمراء شرف الدين الخطير وابن الأمير جاندار. وكتب بالفتح إلى البلاد، فزيّنت دمشق ودقّت البشائر.

ورحل السلطان عنها يوم السبت ثامن عشره، وأقام نائب دمشق لعمارة ما تهدّم منها بالمجانيق والنقب، وتخريب ربضها وإعادة قرياً منها. فأقام بحلب إلى نصف شعبان، وعزل قراسنقر نائبها وولى عوضه بلبان الطباخي.

وخرج من حلب إلى دمشق فقدمها في العشرين منه، وبين يديه البطرك والأسارى، فكان يوماً عظيماً. ونزل بالقلعة، وجرد الأمير بيدرا النائب بديار مصر على عسكر كبير إلى جبال كسروان فرجع بغير طائل.

ووقع في جمال العسكر وباء كثير فصار أكثر العسكر من دمشق إلى القاهرة في العشرين من رمضان.

فلما كانت ليلة عيد الفطر هرب الأمير لاجين الصغير (من داره بدمشق) خوفاً من القبض عليه، فنودي بدمشق: من أحضر لاجين فله ألف دينار، ومن أخفاه سُتق، وركب السلطان في خاصكيجه وجماعة من الأمراء، وترك سباط العيد وساق في طلبه وبعث الأمراء يميناً وشمالاً فلم يظفر به، وعاد آخر النهار وقد بلغ من التعب مبلغاً مشقاً، فزاد قلقه. واتفق أن لاجين نزل عند العرب فأخذوه برمته وحملوه إلى دمشق. فقبض السلطان على الأمير بيبرس طقصو حمي لاجين، وبعثهما إلى قلعة الجبل. وعزل سنجر الشجاعى عن نيابة دمشق وولى أيبك الحموي.

(وفي الثلث الآخر من ليلة الثلاثاء تاسعه) خرج من دمشق (عائداً إلى مصر، بعدما رسم لجميع أهل الأسواق) أن يقفوا من باب النصر إلى جامع القدم ويبد كل منهم شمعة. فلما ركب أشعلوا الشموع كلها وسار السلطان بين صفين من شموع مشعلة من باب النصر إلى مسجد القدم، ونزل مخيمه. ثم سار فدخل القاهرة من باب النصر، وخرج من باب زويلة وصعد قلعة الجبل في يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة، وقد عمل من الزينة والقلاع والتهاني، وأوقد من الشموع ما يحل وصفه.

ثم خرج إلى بلاد الصعيد في المحرم سنة اثنتين وتسعين فأنتهى إلى مدينة قوص ونادى بها في العسكر أن يتجهّزوا لغزو اليمن، وعاد إلى قلعة الجبل.

ثم خرج إلى بلاد الشام مُحفّاً على الهُجن في خواصّه، وسيّر العساكر والخزائن صحبة الأمير بيدرا نائب السلطنة والوزير شمس الدين محمد ابن السلعوس، فدخل السلطان إلى مدينة الكرك وسلك البرية إليها، فأقام بها حتى رتب الوزير أحوالها. فدخل إلى دمشق فقدمها في تاسع

جمادى الآخرة، وقد وصل النائب والوزير قبله بثلاثة أيام. وأمر بالتجهيز لأخذ بهسنا ومرعش وتلّ حمدون من الأرمن. فقدم عليه رسل سيس فسألوا العفو عنهم وأن يسلموا البلاد المذكورة، فأجيبوا إلى سؤالهم وسافروا ومعهم الأمير طوغان والي برّ دمشق ليتسلم ذلك، فقدم البريد بأنّه تسلمها في أوائل رجب، ودقت البشائر بقلعة دمشق، وبعث إليها النواب والقضاة والرجال، ثمّ قدم طوغان بالرسل ومعهم تقادم سيس والحمل في ثامن عشرينه بعدما توجه السلطان من دمشق في ثاني رجب إلى حمص فأدركوه، وسار من حمص إلى سلمية مخفّاً ونزل بغتة على الأمير مهنا بن عيسى وقبض عليه وعلى إخوته وبعث بهم إلى دمشق في سابعه، وبعث الأمير أيبك الأفرم فهدم قلعة الشوبك. وخرج الأمير بيدرا والوزير ابن السلعوس من دمشق بالعسكر والخزانة في حادي عشره. وخرج السلطان يوم السبت ثالث عشره في عدّة من خواصّه فدخل غزة في سابع عشره، وقدم إلى القاهرة في ثامن عشرينه.

ثمّ خرج من قلعة الجبل في ثالث المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة وعدّى النيل إلى برّ الجيزة وصحبته الأمير بيدرا النائب وغيره من الأمراء، وسار إلى الطرّانة، فقدم الوزير شمس الدين محمد بن السلعوس إلى الإسكندرية لتحصيل الأموال وتجهيز تعابي الثياب، فوجد نواب بيدرا قد استولوا على المتاجر والاستعمالات وغيرها، فكتب يعرف السلطان أنّه لم يجد بالثغر ما يكفي الإطلاقات الجاري بها العادة، وأنّ الصنف كلّه قد استولى عليه نواب الأمير بيدرا نائب السلطنة، فاشتدّ غضب (السلطان) وطلب بيدرا وشتمه وأخرق به بحضور الأمراء، فدارى أمره حتّى خرج من بين يديه، وجمع الأمراء أصحابه وشاورهم، فأشاروا عليه بقتل السلطان.

وكان السلطان قد نزل بأرض الحمّات للصيد، وأقام إلى يوم السبت ثاني عشر المحرم. واتفق أنّ السلطان كان قد أذن لأمرائه الخاصّة أن

بتوجهوا إلى إقطاعاتهم، وانفرد بمماليكه. وركب من تروجة ليتصيد، وبعث إلى بيدرا أن يسير تحت الصناجق بالأمراء الذين تأخروا وبقية العسكر، وحملت الزردخاناه وسار بها أمير جاندار.

وسار السلطان في وقت العصر وليس معه غير الأمير شهاب الدين أحمد بن الأشل أمير شكار فقط، يريد طيراً سمع به في ناحية تروجة، وساق ليسبق خاصكيته إلى أن رأى طيراً كثيراً فصرع منه بالبندق ماشاء الله، والتفت إلى أمير شكار وقال: أنا جيعان، فهل معك ما أكل؟

فقال: والله مامعي سوى رغيف واحد وفروج في صولقي (جراي) ادخرته لنفسي، فقال: ناولنيه، فتناوله وأكله جميعه. ثم قال لأمر شكار: أمسك فرسي حتى أنزل أبول — وكان أمير شكار كثير التبسط مع السلطان، فقال: مافيه حيلة: السلطان على حصان، وأنا على حجرة وما يتفقدان، فقال السلطان: انزل أنت وأركب خلفي حتى أنزل أنا.

فنزل أمير شكار وناوله السلطان عنان فرسه وأمسكه، ثم ركب خلف السلطان ونزل (السلطان) ففضى حاجته. ثم قام وركب حصانه ومسك فرس أمير شكار حتى ركب، وإذا بغبار عظيم قد ثار إلى جهته، فقال لأمر شكار: أمض اكشف الخبر!

فساق يريده وإذا هو بالأمير بيدرا في طائفة من الأمراء، فسألهم عن سبب مجيئهم فلم يجيبوه، ومروا كما هم إلى السلطان، وبلدوه بيلدوا بالسيف فقطع يده وثني في ضربه فألقى كتفه. فتقدم الأمير حسام الدين لاجين وقال: يا بيدرا، من يريد ملك مصر والشام تكون هذه ضريته، وضرب السلطان على كتفه فحله، فسقط إلى الأرض. وجاء بهادر رأس نوبة فوضع السيف في دبره وأخرجته من حلقه، وتناوبه قراستقر، وأقسنقر الحسامي، ونوغاي، ومحمد خواجا، وطرنتاي الساقبي، والطبتغا رأس

نوبة حتّى شفّوا أنفسهم، وذلك يوم السبت المذكور، وتركوه وانصرفوا. فبقي مطروحاً في موضعه يومين حتّى جاء الأمير أيّدمر العجميّ متولّي تروجة وحمله في تابوت إلى تروجة وغسّله في الحمام وكفّنه وخلّاه في بيت المال بدار الولاية إلى أن حضر الأمير سعد الدين كوجبا الناصريّ وحمله في تابوته إلى المدرسة الأشرفيّة بجوار المشهد النفيسيّ خارج مدينة مصر، ودفنه بها سحر يوم الجمعة ثاني عشرين صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وكانت مدّة سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيّام، ومات عن ابنتين من زوجته خاتون أردكين، فورثه معهنّ أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وكان كريماً شجاعاً مقداماً خفيف الركاب مظفّراً في حروبه، نظّف الساحل الشاميّ من الفرنج، وفتح عكا وصور وبيروت وصيدا وبهسنا وقلعة الروم وجميع الساحل في أقرب مدّة، وكان حسن النادرة يطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط، واتفق له أنّه جلس في أيّام أبيه بالميدان والقراء يقرؤون القرآن، وكان أبوه يحاصر طرابلس، فقال الأشرف: في هذه الساعة أخذت طرابلس، فضبط ذلك فكان كما قال.

وقال محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر: مارأيت وماسمعت أسبق من ذهن الملك الأشرف إلى فهم، ولا أدرك منه إلى مايريد الوهم. لقد كتبت عنه واستكتبت فما علم على مكتوب قطّ إلّا وقرأه جميعه، وفهم أصول المكتوب وفروعه، لابل استدرك عليّ وعلى الكتاب، وخرّج أشياء كثيرة معه فيها الصواب، وذلك بحسن تعطف وكثير تلطف.

وعظم الأشرف في نفسه حتّى صار في آخر أيّامه يكتب موضع العلامة «خ» إشارة إلى الحرف الأوّل من حروف اسمه. ومنع كُتاب الإنشاء أن يكتبوا لأحد من الأمراء والنواب «الزعيمي» وقال: من زعيم الجيوش غيري؟

وكان يؤخذ في باب الجابية، أحد أبواب مدينة دمشق، على كل حمل من القمح خمسة دراهم، فأمر بإبطال ذلك، وكتب مرسوم المساحة بهذا المكس، فكتب بخطه بين الأسطر بقلم العلامة: ولنكشف عن رعايانا هذه الظلامة، ونستجلب لنا الدعاء من الخاصة والعامة.

وأزرق الصبح يبدو قبل أيضه
وأول الغيث قطر ثم ينسكب

إلا أنه رُمي بأنه يشرب الخمر في رمضان، وأنه يفسق بالمردان، ولا يصلي، فاستفتى بيدرا في قتله فأفتوا بإراقة دمه، وذكر أن بيدرا جلس معه على الأكل. فلما فرغ من أكله لعق أصابعه فأنكر عليه الأشرف ذلك، فقال: يا خوند، السنة لعق الأصابع بعد الأكل، وذكر له قول رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فلا يغسل يده» — أو قال: أصابعه — حتى يلعقها.

فلما قال بيدرا الحديث قال الأشرف بالتركية: هي طاط — فسأل بيدرا الفقهاء ممن ذكر له حديث رسول الله ﷺ فقال: كذا، وهذا معناه بالعربية: فلاح — يعني أن قائل هذا فلاح — فقالوا: لهذا تنقيص، ويُقتل قائله لفساد طويته وخبث نيته.

ومن غريب ما وقع له أنه كان مرة راكباً للصيد، ولاجين يومئذ من جملة السلاح دارية، وهو نوبته في حمل السلاح، فلما أقام السلطان الحلقة دفع لاجين السلاح السلطاني إلى بدر الدين بكتوت أحد السلاح دارية ومضى في شغل ندب إليه، فوقف بكتوت بالسلاح على العادة، وأطرق السلطان ساعة كما لمفكر ثم قال لبكتوت: يا بكتوت، والله لقد التفت ورائي فرأيت لاجين خلفي وهو حامل سلاحي والسيف في يده، فخيل لي أنه يريد أن يضربني به. فنظرت إليه وقلت له: يا شقير أعط السلاح لبكتوت يحمله، وتوجه أنت مكانه.

قال بكتوت: فقلت للسلطان: أعيد مولانا بالله أن يخطر هذا بباله، ولاجين أقل من هذا، وأضعف نفساً أن يخطر هذا بباله، فضلاً أن يقدم عليه، وهو مملوك مولانا السلطان، ومملوك الشهيد، وتربية بيته الشريف، فقال: ما عرفتك إلا ما خطر لي.

ثم إنني اجتمعت بلاجين في خلوة وقلت له: بالله، تجنب السلطان ولا تكثر من حمل السلاح، وأخبرته بما قال. فضحك وقال: والله لما نظر إلي وقال لي: «يا شقير»، كنت قد عزمت على تجريد سيفه وقتله به.

فعد هذا من أعجب العجيب، وصدق حدس السلطان وتولى لاجين قتله.

ومن شجاعته أن كيختوا بن هولكو بن ملك التتار بعث في سنة اثنتين وتسعين وستمائة رسله بكتابه، وقالوا له مشافهة: القان يقصد دخول حلب والإقامة بها، فإنها مما فتحه أبوه هولكو بسيفه، وهي في ملكه، وإن لم يسمح بها، عبر إلى الشام.

فأجابهم في الحال من غير توقف، وهو يتسهم وقال: الحمد لله قد وافق أخي القان ما كان في نفسي، وتحدثت به مع أمراء دولتي: أي أسير أطلب من أخي بغداد، فإن لم يسمح بها ركبت وأخذتها بعسكري، وخربت بلاده، وقتلت رجاله وفتحتها قهراً وأقممت بها نائباً عني، فإن بغداد هي دار الإسلام، وأرجو أن أعيدها للإسلام كما كانت، ولكن عرفوه: سننظر من يسبق إلى بلاد صاحبه ويدخل إليها.

وأخرجهم إلى حيث أنزلهم، وكتب في الحال إلى نواب الشام بتجهيز الإقامات وأخذ العساكر الأهبة لعبور الفرات وغزو بغداد، وتقدم إلى أمراء مصر وعساكرها بلبس آلة الحرب والحضور إلى الميدان. وأنزل بالرسيل لمشاهدة العسكر، فخرج معظم أهل القاهرة ومصر ليروا عرض

العساكر، وكان يوماً مشهوداً، ركب فيه السلطان بعد أذان الظهر وعليه قرقل وفوق رأسه كوفية بيده شطفة، ودخل الميدان، وبعده الأمراء واحداً بعد واحدٍ وعليهم أ فخر آلات الحرب، وكلّ منهم يحمل شطفة فيها رُنكه، فكروا وفرّوا وأظهروا أعمالهم الحريّة، إلى أن أذن العصر، فدهش الرسل لما رأوا.

وكان هذا ثالث عرض عرضه في مدّة سلطنته، فلما انقضى أمرهم نزل وخلع وأنعم، واستدعى الرسل وقال لهم: أعلموا أخي كيختوا أن من يكون معه مثل هذا العسكر (لا) يتوقّف في دخول بلادك أو بلاد غيرك، والله، وتربة أبي، لأدخلن إليه و أخرب بيوت جميع المغل وأجعلها بلاد إسلام إلى يوم القيامة، إلا أن يدركني أجلي.

ثم خلع عليهم وردّهم، وكتب يستحثّ النواب فعاجلته منيته قبل بلوغ أمله عقيب ذلك.

وكان عزاؤه من الأمور المذكورة: فإن زوجته الخاتون أردكين بنت نوكاي استأذنت في عمل العزاء، فمرّت في القاهرة ومعها مائة جارية وثلاثون خادماً وعدّة بابيّة ومماليك صغار، وقد حسر الجوّاري عن وجوههنّ وأرسلن شعورهنّ من ورائهنّ محلولة، وعليهنّ جلال سود، وعُبي مخرّقة في أعناقهنّ، ومعهنّ عدّة جوق من النوائح المحزنة أصواتهنّ وقد أشعلت معهنّ ستّين شمعة، وعدّة كبيرة من الفوانيس يحملها الخدم والبابيّة والنوائح يندبن، والجوّاري يصحن، وكان من قول النوائح بالأصوات الشجيّة:

جَدّوا هَمّي وأحزاني

وافرحه الأعدا بسلطاني

ياضاربه بالسيف شئت يداك

قد بلغت يميناك منه منك

لامـاتنـي ربي حتى أراك
قد سـمـروا عينيـك وهـذا جزاك

إلى غير هذا. فأقمن على هذا ستّ ليال، كل ليلة من العشاء إلى
السحر حتى قلق الناس وكثر توجّعهم وبكاؤهم، فهاجت حفائظ
الممالك الأشرفيّة واجتمعوا إلى الأمير سنجر الشجاعيّ وبكوا عنده،
فهيّجه بكائهم، واجتمع بكتبغا النائب وغيره من الأمراء حتى كان من
قتل الأمراء ما ذكر في موضعه.

وكان بطلاً شجاعاً مهاباً عالي الهمة، يملأ العين ويرجف القلب، وكان
ضخماً سميناً، كبير الوجه، بديع الجمال، مستدير اللحية على وجهه رونق
الحسن وهيبة السلطنة.

وكان إلى جوده وبذله الأموال في أغراضه المنتهى، تخافه الملوك في
أقطارها، أباد جماعة من كبار الدولة.

وكان منهمكاً على اللذات لا يعبأ بالتحرّز على نفسه لفرط شجاعته.
وكان كرمه زائداً وإطلاقاته عظيمة.

وكانت واقعته تُسمّى وقعة الأيدي والأكتاف لأنّ جميع من وافق على
قتله قطعت أيديهم أوّلاً، وفيهم من سمّر، وفيهم من أحرق، وفيهم من
قتل.

ولم يجدد في زمانه مظلمة ولا استجدّ ضمان مكس، وكان يحبّ الشام
وأهله، وكان عندما أقيم سلطاناً، منع أن يكتب إلى أحد بدعاء في أوّل
المكاتبة مثل: حرس الله نعمة المجلس، وما أشبه ذلك، وقال: من هو
الذي افتتح خطابه بالدعاء له؟

ولما توفّي فتح الدين ابن عبد الظاهر، وأقام بعده عماد الدين ابن الأثير في كتابة السرّ بعث إليه ورقة بخطّه فيها: يا عماد، أكتب كيت وكيت، ثمّ بعد مدّة جاءت إليه منه ورقة فيها بخطّه: يا عماد الدين، أكتب بكذا وكذا، ثمّ بعد مدّة جاءت له ورقة فيها: يا عماد الدين كاتب سرّنا، أكتب بكذا وكذا.

وكان الموقّعون يكتبون في الطرّة إشارة إلى ما يعلمه السلطان، على قدر المكاتبة، إمّا أن يكتب: «أمره» أو يقولون «بيبرس» أو «قلاوون» أو «خليل» بحسب اسم السلطان. فأبطل ذلك ابن عبد الظاهر في أيّام الأشرف—أعني كتابة «خليل»— وكتب: «الاسم الشريف». فأعجب السلطان ذلك وأمر لكلّ حرف بألف درهم. ووجدت أوراق كثيرة عند شرف الدين فضل الله كاتب السرّ بخطّ الأشرف إليه وفيها مقاصد ما يكتبه عنه بعبارة مسدّدة، ومقاصد مستوفاة للغرض المقصود، وفي بعضها بخطّ يده: عجباً عجباً لذهنك الوقاد وفكرك النقّاد، كيف فاتك هذا؟

وكان فيها ما كتب إلى أبي نمي، ومن جملة: فرّكنت إلى الظاهر وهو أخبث الطير، وأنت أحذر الوحش.

وفيه يقول شمس الدين محمد بن سليمان بن غانم:
مَلِكُكَانَ قَدْ لُقِّبَ بِالصَّالِحِ
فَهَذَا خَلِيلٌ وَذَايُوسُفُ
فِي وَسْفٍ لَا شَكَّ فِي فَضْلِهِ
وَلَكِنْ خَلِيلٌ هُوَ الْأَشْرَفُ

وذكر ابن عبد الظاهر أنّ شرف الدين البوصيري رأى في منامه قبل الحركة إلى عكا في شوال سنة تسع وثمانين وستّائة—وقال ذلك لجماعة شهدوا بصحة ذلك— وكان قائلاً ينشد:

قد أخذ المسلمون عكّا
وأشبعوا الكافرين صكّا
وساق سلطاننا إليهم
خيلاً تذك الجبال دكّا
وأقسم التُّرك منذ سارت
لأتركوا للفرنج ملكا

وقال فيه ابن دانيال لما فتح عكّا:
ما رأى الناس مثل ملكك ملكاً
ملاً الخافقين للحرب تُركّا
وجيوشاً لوصادمت جبل الشَّرّ
لِذَكَتُهُ بالسَّنبابك دكّا

منها:

قد رأينا وأنت أنت صلاح الـ
سدين ما كان عن سميك يُجكّي
صدت صيدا قنصاً وصور وعثليـ
ث وبيروت بعد فتحك عكّا

وله فيه أمداح كثيرة، من ذلك قصيدة مدحه بها لما عمر الإيوان الذي
بالقلعة وقد زخره وعلى قبته:

وقبة هي لأفلاك عاشرة
ودونها في علو الشان كيوان
كانها العالم العلوي تحرشها
الأملاك لم يدن منها ثم شيطان
علت فأفلاكها الأفلاك في شرف
وتبرها الشهب والأركان أركان
وأنت يا أشرف الأملاك شمس علا
سمائها وعلى ظني سليمان

وتحت دهلِيزك الزاهي بزر كُشِيَّة
مِنْ كُلِّ مَا تَتَمَنَّى النَّفْسُ الْوَانُ
والجيشُ بالقَبْقِ المنتصرون قد ولَّعُوا
بِكُلِّ طَائِشِيَّةٍ وَالْقَوْسُ مِرْنَانُ
كَأَنَّمَا الْعَرَضُ يَوْمَ الْعَرَضِ إِذْ عُرِضُوا
عَلَيْهِ صَفًّا وَلَا عِطَاءَ مِيزَانُ

وكان مُغَرِّى بالهدم، لأنَّه هدم أماكن، وفيه يقول علاء الدين الوداعي:
لَمَّا أَمَرَ بِهَدْمِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي تَجَاوِرُ الْمِيدَانَ بِدَمَشَقٍ، وَوَزَعَ عِمَارَتَهُ عَلَى
الْأَمْرَاءِ. وَمِنْ خَطِّهِ نَقَلْتُ:

إِنَّ أَمَرَ السُّلْطَانِ أَنْ فِي جَلِّقِ
بِهَدْمِ مَا ضَايَقَ مِيدَانَهُ
فَلَا تَنْتَهَ قَدْ غَارَ لَمَّا رَأَى
غَيْرَ بِيْعَتِ اللَّهِ جِرَانَهُ

وقال أيضاً:
جُزِيْتُكُمْ أَيُّهَا الْأَرْمَاءُ خَيْرًا
عَلَى اتَّقَانِكُمْ هَذَا الَّذِي الْبَنِيَّةُ
فَلَا تَخْشَوْا عَلَى الْمِيدَانِ شَيْئًا
سِوَى سَيْلِ الْعَطَايَا الْأَشْرَفِيَّةِ

فاتَّفَقَ أَنَّ السُّلْطَانَ حَضَرَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنْفَقَ فِي الْعَسَاكِرِ.

وقال الشهاب محمود، لَمَّا فَتَحَ عَكَّا، قَصِيدَتَهُ الْبَائِيَّةَ الْمَشْهُورَةَ، يَمْدَحُهَا
بِهَا وَهِيَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ زَالَتِ دَوْلَةُ الصُّلُوبِ
وَعَزَّ بِالتُّرْكِ دِينَ الْمُصْطَفَى الْعَرَبِيِّ
هَذَا الَّذِي كَانَتْ الْأَمَالُ لَوْ طَلَبَتْ
رُؤْيَاهُ فِي النَّوْمِ لَأَسْتَحْيَتِ مِنَ الطَّلَبِ

ما بعد عكا وقد هُدَّتْ قِوَاعُهَا
فِي الْبَحْرِ لِلشَّرِكِ عِنْدَ الْبَرِّ مَنْ أَرَبَ
عَقِيلَةً ذَهَبَتْ أَيْدِي الْخَطُوبِ بِهَا
دَهْرًا وَشُدَّتْ عَلَيْهَا كَفٌّ مُغْتَصِبٍ
لَمْ يَبْقَ مِنْ بَعْدِهَا لِلْكَفْرِ مَذْخَرٌ بَتَ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا يُنْجِي سِوَى الْهَرَبِ
كَانَتْ تُخَيِّلُنَا آمَالًا نَافِرِي
أَنَّ التَّفَكُّرَ فِيهَا غَايَةُ الْعَجَبِ
أُمُّ الْحُرُوبِ فَكَمْ قَدْ أَنْشَأَتْ فِتْنًا
شَابَ الْوَلِيدُ بِهَا هَوْلًا وَلَمْ تَشِبْ
سُورَانِ، بَرًّا وَبَحْرًا حَوْلَ سَاحَتِهَا
دَارًا وَأَدْنَاهُمَا أَنْأَى مِنَ الْقُطْبِ
خَرَقَاءُ أَمْنَعِ سُورِيهَا وَأَحْصَنُهَا
غُلِبَ الرِّجَالِ وَأَقْوَاهَا عَلَى النُّوبِ
مُصَفَّحٌ بِصِفَاحِ حَوْلِهَا أَكْمُ
مِنَ الزَّمَاحِ وَأَبْرَاجُ مِنَ الْيَلْبِ
مِثْلُ الْغَنَائِمِ تَهْدِي مِنْ صَوَاعِقِهَا
بِالنَّبْلِ أَضْعَافَ مَا تَهْدِي مِنَ السُّحْبِ
كَأَنَّمَا كُلُّ بُرْجٍ حَوْلَهُ فَلَكٌ
مِنَ الْمَجَانِيْقِ يَرْمِي الْأَرْضَ بِالشُّهُبِ
فَفَاجَأَتْهَا جُنُودُ اللَّهِ يَقْدُمُهَا
غَضَبًا أَنْ لَللَّهُ لَلْمُلْكِ وَالنَّشَبِ
لَيْتَ أَبِي أَنْ يَرُدَّ الْوَجْهَ عَنْ أَمِّ
يَدْعُونَ رَبَّ الْعَلَى سُبْحَانَهُ بِأَبِ
كَمْ رَامَهَا وَرَمَاهَا قَبْلَهُ مَلَكٌ
جَمُّ الْجِيُوشِ فَلَمْ يَظْفَرْ وَلَمْ يُجِبْ
لَمْ يُلْهِهِ مَلَكُهُ بَلْ فِي أَوَائِلِهِ
نَالَ الَّذِي لَمْ يَنْلُهُ النَّاسُ فِي الْحَقَبِ

لَمْ تَرْضَ هِمَّتُهُ إِلَّا الَّذِي قَعَدَتْ
لِلْعَجْزِ عَنْهُ مُلُوكُ الْعُجَمِ وَالْعَرَبِ
فَأَصْبَحَتْ وَهِيَ فِي بَحْرَيْنِ مَائِلَةٌ
مَا يَنْ مَضْطَرِمٍ نَاراً وَمَضْطَرِبِ
جَيْشٍ مِنَ التُّرْكِ تَرَكُ الْحَرْبِ عِنْدَهُمْ
عَارِ وَرَاحَتُهُمْ ضَرْبٌ مِنَ الضَّرْبِ
خَاضُوا إِلَيْهَا الرَّدَى وَالْبَحْرَ فَاشْتَبَهَ الْ
أَمْرَانِ وَاخْتَلَفَا فِي الْحَالِ وَالسَّبَبِ
تَسْنَمُوهُمَا فَلَمْ يَتْرُكْ تَسْنَمُهُمْ
فِي ذَلِكَ الْأَفْقِ بُرْجاً غَيْرَ مُنْقَلَبِ
تَسْلَمُوهُمَا فَلَمْ تَخُلْ الرِّقَابُ بِهَا
مَنْ فَتَكَ مُنْتَقِمٍ أَوْ كَفَ مُنْتَهَبِ
أَتَوْاحَاهَا فَلَمْ يَمْنَعْ وَقَدْ وَثَبُوا
عَنْهَا مَجَانِقَهُمْ شَيْئاً وَلَمْ تَثْبِ
يَا يَوْمَ عَكَالٍ قَدْ أَنْسَيْتَ مَا سَبَقَتْ
بِهِ الْفَتْحُوحُ وَمَا قَدْ خُطَّ فِي الْكُتُبِ
لَمْ يَبْلُغِ النُّطْقُ حَدَّ الشُّكْرِ مِنْكَ فَمَا
عَسَى يَقُومُ بِهِ ذُو الشَّعْرِ وَالْخُطْبِ
كَانَتْ تُنَنِّي بِكَ الْإِيَّامُ مَبْعِدَةٌ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ نَلْنَا ذَاكَ عَنْ كَثْبِ
أَغْضَبْتَ عِبَادَ عَيْسَى إِذَا أَبَدَتْهُمْ
لِلَّهِ أَيُّ رَضَى فِي ذَلِكَ الْغَضْبِ
وَأَطْلَعَ اللَّهُ جَيْشَ النُّصْرِ فَابْتَدَرَتْ
طَلَائِعُ الْفَتْحِ بَيْنَ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ
وَأَشْرَفَ الْمُصْطَفَى الْهَادِي الْبَشِيرُ عَلَى
مَا أَسْلَفَ الْأَشْرَفُ السُّلْطَانُ مِنْ قُرْبِ
فَقَرَّ عَيْنَا بِهَذَا الْفَتْحِ وَابْتَهَجَتْ
بِفَتْحِهِ الْكَعْبَةُ الْغَرَاءُ فِي الْحُجْبِ

وسار في الأرض سير الريح سمعته
 فالبر في طرب والبحر في حرب
 وخاضت البيض في بحر الدماء وما
 أبدت من البيض إلا ساق مختضب
 وغاص زرق القنا في زرق أعينهم
 كأنها شطرن تهوي إلى قلب
 توقدت وهي غرقى في دمائهم
 فزادها الطفح منها شدة اللهب
 أجرت إلى البحر بحراً من دمائهم
 فراح كالراح إذ غرقاه كالجب
 وذاب من حرها عنهم حديدهم
 فقيدتهم به دُعرأيد الرهب
 تحكمت وسطت فيهم قواضبها
 قتلاً وعفت لحاويها عن السلب
 كم أبرزت بطلاً كالطود قد بطلت
 حواشيه فغدا كالمنزل الحرب
 كأنه وسان الرمح يطلبه
 بُرج هوى ووراه كوكب الذنب
 بُشراك يملك الدنيا لقد شرفت
 بك الممالك واستعلت على الرتب
 ما بعد عكاً وقد لانت عريكتها
 ليدبك شيء ثلاقية على تعب
 فانفض إلى الأرض فالديابا جمعها
 مُدَّت إليك قواصلها بلا نصيب
 كم قد دعت وهي في أسر العدى زمناً
 صيدا الملوك فلم تُسمع ولم تُجب
 أتيتها إصلاح الدين معتقداً
 بأن داعي صلاح الدين لم يُجب

أَسَلْتُ فِيهَا كَمَا سَالَتْ دِمَاؤُهُمْ
 مِنْ قَبْلِ إِحْرَازِهَا بِحَرِّ أَمْنِ الذَّهَبِ
 أَدْرَكْتَ ثَأْرَ صِلَاحِ الدِّينِ إِذْ غَضِبْتَ
 مِنْهُ لَسْرُ طَوَاهُ اللَّهِ فِي اللَّقَبِ
 وَجِثَّتْهَا بِجِيُوشِ كَالسِّيُولِ عَلَى
 أَمْثَالِهَا بَيْنَ أَجَامٍ مِنَ الْقُضْبِ
 وَحُطَّتْهَا بِالْمَجَانِيْقِ الَّتِي وَقَفْتَ
 إِزَاءَ جَدْرَانِهَا فِي جَحْفَلٍ لِحَبِ
 مَرْفُوعَةٍ نَصَبُوهَا أَضْعَافَهَا فَعَدَا
 لِلْكَسْرِ وَالْحَطْمِ مِنْهَا كُلُّ مُتَصِيبِ
 وَرُضَّتْهَا بِنَقْوٍ ذَلَّلْتَ شَمَاءَ
 مِنْهَا وَأَبْدَتْ مُحْيَاهَا بِلَا تَعَبِ
 وَغَنَّتِ الْبَيْضُ فِي الْأَعْنَاقِ فَارْتَقَصَتْ
 أَبْرَاجُهَا لِعِبَا مِنْهِنَّ بِاللَّعِبِ
 وَخَلَقْتَ بِالدَّمِ الْأَسْوَارَ فَانْفَعَمْتَ
 طَيْبًا وَلَوْلَا دِمَاءُ الْخَبِيثِ لَمْ تَطْلُبِ
 وَأَبْرَزْتَ كُلَّ خَوْدٍ كَأَعْيَنْ نَثَرْتَ
 رُؤُوسَهُمْ حِينَ زَفَّوْهَا بِلَا طَرَبِ
 بَاتَتْ وَقَدْ جَاوَرَتْ نَاشِزًا وَغَدَتْ
 طُوعَ الْهَوَى فِي يَدَي جِيرَانِهَا الْجُنُبِ
 بَلْ أَحْرَزْتَهُمْ وَلَكِنْ لِلْسِّيُوفِ لَكَيْ
 لَا يَلْتَجِي أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْهَرَبِ
 وَجَالَتْ النَّارُ فِي أَرْجَائِهَا وَعَلَتْ
 فَأَطْفَأَتْ مَا بِصَدْرِ الدِّينِ مِنْ كَرْبِ
 أَضْحَتْ أَبَاهُ بِتِلْكَ الْبُرُوجِ وَقَدْ
 كَانَتْ بِتَعْلِيْقِهَا (حَمَالَةَ الْحَطَبِ)
 وَأَفْلَتَ الْبَحْرُ مِنْهُمْ مِنْ مَجْزُرٍ مَنْ
 يَلْقَاهُ مِنْ قَوْمِهِ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ
 وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ الْعُظْمَى وَقَدْ كُمَلَتْ
 بِفَتْحِ صُورٍ بِلَا حَصَرٍ وَلَا نَصَبِ

أَخْتَانِ فِي أَنْ كَلَّا مِنْهَا جَمَعْتُ
صَلِيَّةَ الْكُفْرِ لَا أَخْتَانِ فِي النَّسَبِ
«لَمَّا رَأَتْ أَخْتَهَا بِالْأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ
كَانَ الْخَرَابُ لَهَا أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ»
اللَّهُ أَعْطَاكَ مُلْكَ الْبَحْرِ إِذْ جَمَعْتَ
لَكَ السَّعَادَةَ مُلْكَ الْبَرِّ وَالْعَرَبِ
مَنْ كَانَ مَبْدُوهُ عَكًّا وَصُورَ مَعَا
فَالصَّيْنُ أَدْنَى إِلَى كَفِّيهِ مِنْ حَلَبِ
عَلَا بِكَ الْمَلِكُ حَتَّى إِنَّ قُبَّتِهِ
عَلَى الْبَرَايَا غَدَتِ مَمْدُودَةُ الطُّنُبِ
فَلَا بَرِحْتَ قَرِيرَ الْعَيْنِ مَبْتَهَجًا
بِكُلِّ فَتْحٍ مَبِينِ الْمُنْحِ مُرْتَقِبِ

طغتين بن أيوب

طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان، الملك العزيز، سيف الإسلام، ظهير الدين، ابن الأجل نجم الدين والد الملوك أبي الشكر، الأيوبي، الكردي.

قدم إلى القاهرة على أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وسمع بالإسكندرية من السلفي.

ثم جهزه السلطان إلى بلاد اليمن فخرج من القاهرة في سنة ثمان وسبعين وخمسة، وسار إلى زبيد وملكها، وأخذ منها ما قيمته ألف ألف دينار، واستولى على عدن، ودانت له ممالكها.

وشكرت سيرته وحسنت سياسته. وقصده الناس من الآفاق فأفاض عليهم من بّره وغمهم بإحسانه، ومدحه غير واحد من الشعراء، منهم ابن عنين، وكان قد رحل إليه من دمشق.

ولم يزل باليمن حتى مات بها في شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسة.

وقام من بعده ابنه الملك المعز فتح الدين إسماعيل.

شمس الدولة ابن منقذ

عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ، أبو الحسين، وأبو الحارث، ابن أبي سلامة، الشيزري، أمير أديب فاضل.

مولده بشيزر يوم الأحد سابع شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسة مائة. وقدم إلى القاهرة، وبعثه السلطان صلاح الدين يوسف رسولاً إلى المغرب عند حصار عكا، فنزل الإسكندرية وسمع الحافظ السلفي. وسمع بفاس من أبي الحسن علي بن محمد بن فرحون، وعاد.

وكتب من الإسكندرية إلى سيف الدولة عند عوده من المغرب إليها:
ذكرتُك في سَلا والقلبُ عنكم
على فرط التنائي غيرُ سَـال
وفي آسفي خلى أسف عليكُم
وأشواق تجدها الليالي
على البحر المحيط حططتُ رحلي
منازل لم تكن يوماً ليالي
بلاد لوسرى طيف إليها
لأعجزه الوصول من الكلال
ولوريحُ الصبا طلبت هبوباً
إليها لأستعانت بالشمال
تملّ من المسير الشمس حتّى
توافيهَا على فرط الملال
وأعجب ما رأيت بهار جوعي
إليكُم وهو أغرب ما جرى لي

وكتب إلى مجد الدين أسامة بن منقذ:
أحبّابنا عز اللقاء وما أرى
تماذي لهذا البين يُفضي إلى حدّ

إذا قلت قد آن التداني تجددت
خطوب من الأيام تحكم بالبعد
ولست ألوهم الدهر فيما أصابني
لأنّ التناهي كان مني على عمد
وبعدك مجد الدين أعظم خطّة
لقيت، وما حال المفارق للمجد؟

وكتب إليه:
إن كانت الكتب فيما بيننا انقطعت
فإنّ جبل ودادي غير منقطع
وإن تصدّع شملي عن جنابكم
فإنّ شمل تنائي غير منصدع

وقال:
يقولون: لو كان الهوى منه صادقاً
لأصبح مغرّياً بالفراق وذمه
ولولا احتجاجي بالتفرّق والنوى
لما فزت في يوم الوداع بلثمه

وكانت وفاته بالقاهرة أول سنة ستمائة

المأمون البطائحيّ

محمد بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، الوزير الأجل، المأمون،

تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخّر أمير المؤمنين، عزّ الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين—ثم استقرّ من نُعوته: السيّد الأجلّ أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته— أبو عبد الله، ابن الأمير نور الدولة أبي شجاع (فاتك)، ابن الأمير منجد الدولة أبي الحسن (مختار)، ابن الأمير أمين الدولة أبي عليّ، المعروف بابن البطائحيّ، الأحول، الشيعي، الإمامي.

ولد في سنة ثمان—أو سنة تسع—وسبعين وأربعمائة. واتصل بخدمة الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجماليّ، في شهور إحدى وخمسمائة، عوضاً عن تاج المعالي مختار، وسلّم إليه ما كان بيد مختار من الخدمة، وتصرّف فيها، وأجرى له الأفضل ما كان يرسم مختار من العين، وهو مائة دينار وثلاثون ديناراً في الشهر، سوى الأصناف الراتبية في اليوم والشهر. فحسّن عند الأفضل موقع خدمته وسلّم إليه جميع أموره وصرفه في سائر أحواله، فاستعان بأخويه أبي تراب حيدرة، وأبي الفضل جعفر، ونُعت بالقائد فصار عند الأفضل استاذ داره.

فلم يزل على ذلك إلى أن قُتل الأفضل، فخلع عليه الخليفة الأمر بأحكام الله أبو عليّ منصور في مستهلّ ذي القعدة سنة خمس عشرة وخمسمائة بمجلس اللعبة من القصر، والأمر جالس، ولم يخلع على أحدٍ قبله بهذا المجلس. وكانت الخلعة بدلة مذهبة بشدة الخليفة الدائمة،

وحلّت المنطقة من وسطه، و أخلع على ولده بدلة مذهبة، وحلّت منطقته، وخلع على أخويه بمثل ذلك.

واستمرّ ينفذ الأمور، ولا يخرج شيء عن نظره، والخليفة يواصل الحديث معه في الوزارة وهو يمتنع، إلى مستهل ذي الحجة منها: ففي يوم الجمعة ثانية، خلع عليه من الملابس الخاصّة الشريفة في فرد كمّ مجلس اللعبة، وطوق بطوق ذهب مرصّع، وقلّد بسيف ذهب مرصّع، وسلّم على الخليفة وخرج، وكافّة الأستاذين المحنّكين والأمراء بين يديه، وركب من حيث كان الأفضل يركب، ومشى القوّاد في ركابه على عادة الأفضل، وخرج من باب العيد راكباً إلى داره، فضاعف الرسوم وأطلق الهبات إلى يوم الاثنين خامس ذي الحجة المذكور. فاجتمع أمراء الدولة لتقبيل الأرض بين يدي الخليفة على العادة التي قرّرها مستجدّة.

فاستدعى الشيخ أبا الحسن عليّ بن أحمد بن أبي أسامة كاتب الإنشاء، وأمره بإحضار السجّل، فأحضره في لفافة خاصّة مذهبة، وسلّمه الخليفة إلى المأمون من يده، فقبله وسلّمه لزمام القصر. وأمر الخليفة المأمون بالجلوس عن يمينه، وقُرئ السجّل على باب المجلس، وهو أوّل سجّل قُرئ هناك، وكانت السجّلات عادة تقرأ قبل هذا بالإيوان، ورسم للشيخ أبي الحسن ابن أبي أسامة أن ينقل نسبة الأمراء والأستاذين المحنّكين من الأمر إلى المأمون، ولم يكن أحدٌ قبل ذلك ينتسب إلى الأفضل ولا لأبيه أمير الجيوش، وإنما ينتسبون إلى الخليفة، فصاروا ينتسبون إلى المأمون، وقُدّمت للمأمون الدواة فعلم في مجلس الخليفة، وتقدّم الأمراء والأجناد فقبلوا الأرض وشكروا أمير المؤمنين على هذا الإحسان، واستدعى الخلع لحاجب الحجاب حسام الملك فأحضرت وأفيضت عليه، وطوّق بطوق ذهب وقلّد بسيف ذهب، وخلع على الشيخ أبي الحسن ابن أبي أسامة، وعلى أبي البركات ابن أبي الليث متولي ديوان المجلس، وعلى أبي الرضا سالم ابن الشيخ أبي الحسن، وعلى

أخويه أبي المكرم وأبي محمد، وعلى أبي الفضل يحيى بن سعيد الميمّذي منشئ ما يصدر عن ديوان المكاتبات ومحرّر ما يؤمر به من المهمّات، وهو الذي قرأ السجلّ، ووصل بدنانير جزيلة، وخلع على أبي الفضائل ابن أبي البركات بن أبي الليث صاحب دفتر المجلس، وعلى غُذّيّ الملك سعيد بن عماد الضيف، متولّي دار الضيافة وأخذ العلامات على التوقيعات.

وانصرف المأمون إلى داره والموكب بين يديه. وقال القاضي أبو الفتح محمود بن قادوس يمدحه، وقد زيد في نعوته:
قالوا: أتاه النعت وهو السيّدالـ
مأمون حقّاً والأجلّ الأشرف
ومغيث أمّة أحمد ومجيّرها
ما زادنا شيئاً على ما نعرف

ثمّ إنّه سأل الخليفة أن يتحدث معه في خلوة، فأمر بخلو المجلس، فقال: يامولانا، امثال الأمر صعب ومخالفته أصعب، وما يتّسع قدام أمراء دولة أمير المؤمنين، وهو في دست خلافته، ومنصب أبائه وأجداده، خلافة، وما في قواي ما يرومه منّي، فيكفيني هذا المقدار—وهيهات أن أقوم به— والأمر كبير.

فتغيّر الأمر وحلف: لا كان لي وزير غيرك، وهو في نفسي من أيام الأفضل، فأعاد الاستعفاء، فتغيّر الأمر وقال: ما اعتقدت أنّك تخرج عن أمري ولا أنّك تخالفني، فقال المأمون عند ذلك: فلي شروط أذكرها، فقال: ما شئت فاشط، قال: قد كنت مع الأفضل، وهو يجتهد في أن يشرفني بعدّة النعوت وبحلّ المنطقة من وسطي، فلم أفعل، فقال الخليفة: علمت ذلك في وقته، قال: وكان أولاد الأفضل يكتبون إليه بما يعلمه مولانا، من كوني قد خنته في المال والأهل، وما كان والله العظيم منّي يوماً قط، ثمّ مع ذلك معاداة الأهل جميعهم، والأجناد، وأرباب

الطيالس والأقلام، وهو يعطيني كل رقعة تصل إليه منهم، وماسمع كلام أحد منهم فيّ، فعند ذلك قال له الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك مذكرته، إيش يكون فعلي أنا؟

فقال المأمون: يعرفني المولى ما يأمر به، فأمثله بشرط أن لا يكون عليه زائداً.

فأول ما ابتدأ به الخليفة أن قال: أريدُ الأموالَ لا تُجبي إلا بالقصر ولا تصل الكسوات من الطراز والثغور إلا إليه، ولا تُفَرَّقَ إلا منه، وتكون اسمطة الأعياد فيه، ويوسّع في رواتب القصور من كل صنف، وزيادة رسم المنديل برسم الكم.

فقال المأمون: سمعاً وطاعة، أما الكسوات والجبايات والأسمطة فما تكون إلا بالقصر، وأما توسعة الرواتب فما ثمّ من يخالف الأمر، وأما الزيادة برسم منديل الكم، فقد كان الرسم في كل يوم ثلاثين ديناراً وسيكون في كل يوم مائة دينار. ومولانا—سلام الله عليه—يشاهد ما يعمل بعد ذلك في الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها في سائر الأيام.

ففرح الخليفة وسرّ بذلك. فقال المأمون: أريد بهذا خطّ أمير المؤمنين ويُقسم لي فيه بأبائه الطاهرين أن لا يلتفت لحاسد ولا مبغض، ومهما ذكر عني يُطْلَعُنِي عليه، ولا يأمرني بشيء سراً ولا جهراً يكون فيه ذهاب نفسي و انحطاط قدري، وتكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاتي. فإذا توفيت تكون لأولادي ولن أخلفه بعدي.

فحضرت الدواة وكتب ذلك جميعه وأشهد الله في آخرها على نفسه، فعندما حصل الخط بيد المأمون، وقفَ وقبل الأرض وجعله على رأسه، وكان الخط بالأيمان في نسختين، إحداهما في قصبة فضية، فلما قبض على المأمون أنفذ الخليفة طلب الأيمان، فنفذ إليه الذي كان في القصبة

فحرقها لوقتها، قال ابن المأمون: وبقيت النسخة الأخرى عندي،
فعدمت في الحركات التي جرت.

وعاد المأمون إلى مجلسه، وأمر بتفرقة كسوة العيد والهبات، وجملة العين
ثلاثة آلاف وثلاثمائة (وسبعون) دينار، ومن الكسوات مائة قطعة وسبع
قطع برسم الأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين، وكاتب الدست،
ومتولي حجة الباب وغيرهم، وعدة ماذبح في ثلاثة أيام النحر وفي عيد
الغدير ألفان وخمسمائة وواحد وستون رأساً، منها: نوق: مائة وسبعة
عشر. وبقر: أربعة وعشرون. وجاموس: عشرون. هذا ما ينحره الخليفة
ويذبحه بيده في مُصلى العيد، وفي المنحر وباب الساباط ويذبح
الجزأرون من الكباش ألفين وأربعمائة رأس، والذي أنفق على الأسمطة
في هذه الأيام خارجاً عما يعمل بالدار المأمونية من الأسمطة، وخارجاً
عن القصور الحلوى والقصور المنفوخ التي تصنع بدار الفطرة ألف
وثلاثمائة وستة وعشرون ديناراً، ومن السكر برسم القصور والقطع
المنفوخ أربعة وعشرون قنطاراً، منها عن قصرين في أول يوم خاصة اثنا
عشر قنطاراً، و(عن) المنفوخ عن الثلاثة الأيام اثنا عشر قنطاراً.

وكان الأفضل قد أبطل الموالد الأربعة: النبوي، والعلوي، والفاطمي،
والإمام الحاضر، فأعيدت في سنة ست عشرة وخمسمائة.

والذي استقر إطلاقه على حكم الاستثمار من الجرايات (المختصة)
بالقصور، والرواتب المستجدة، والمطلق من الطيب، وبذكر الطراز،
وما يتبع من الثغور ويستعمل بها: (فأولها) جراية القصور، والمطلق لها من
بيت المال إدراكاً لاستقبال النظر المأموني ستة آلاف وثلاثمائة وثلاثة
وأربعون ديناراً، وبرسم منديل الكم الخاص الأمري عن كل يوم مائة
دينار، ومقرر الحمام في كل جمعة مائة دينار. وبرسم الإخوة والأخوات،
والسيّدة الملكة والسيّدات والأمير أبي علي وإخوته، والموالي،

والمستخدمات ومن استجد من الأفضليات ألفان وأربعمائة وثلاثة وأربعون ديناراً. ولم يكن للقصور في الأيام الأفضلية من الطيب راتب، بل إذا وصلت الهدية والنجاوى من بلاد اليمن تحمل كلها إلى الإيوان، وينفذ منها للأفضل، ويطلق للخليفة من جملتها فصار في الأيام المأمونية الطيب مياومة ومشاهرة.

وما هو برسم الخاص الشريف في الشهر: ندمثلث: ثلاثون مثقالاً. عود صيفي: مائة وخمسة دراهم. كافور قديم: خمسة عشرة درهماً. عنبر خام: عشرون مثقالاً. زعفران: عشرون درهماً. ماء ورد: ثلاثون درهماً.

وما هو برسم بخور المجلس في الشهر خمسة أيام السلام: ندمثلث: عشرة مثاقيل. عود: عشرون درهماً. كافور: ثمانية دراهم، زعفران شعر: عشرة دراهم.

وما هو برسم بخور الحمام في كل ليلة جمعة عن أربع جمع في الشهر: ندمثلث: أربعة مثاقيل. عود صيفي: عشرة دراهم.

وما هو برسم الإخوة والجهات والسيدات على ما يستقر بأسمائهم في كل شهر: ندمثلث: خمسة وثلاثون مثقالاً. عود صيفي: مائة وعشرون درهماً. زعفران شعر: خمسون درهماً. عنبر خام: عشرون مثقالاً. كافور قديم: عشرون درهماً. مسك: خمسة عشر مثقالاً. ماء ورد: أربعون رطلاً.

وما هو برسم المائدة الشريفة، مما تستلمه المعلمة في كل شهر: مسك: خمسة عشر مثقالاً. ماء ورد: خمسة عشرة مثقالاً.

وما هو برسم خزانة الشراب الخاص في كل شهر لتطيب الماء: مسك: ثلاثة مثاقيل. ندمثلث: سبعة مثاقيل. عود صيفي: خمسة وثلاثون درهماً. ماء ورد: عشرون رطلاً.

وما هو برسم المواكب الستة، وهي: الجمعةان الكائنتان في شهر رمضان برسم الجامعين بالقاهرة، والعيددين، وعيد الغدير، والجوامع والمصلى: ندّ خاصّ: جملة كثيرة لم تضبط.

وعدة المبخرين في الموكب ستة: ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال، وكلّ منهم مشدود الوسط (وفي كمّه فحمٌ برسم تعجيل المدخنة) والمدخن فضة، وحامل الدرج الفضة الذي فيه البخور أحدٌ مقدّمي بيت المال، وهو يبخر طول الطريق، لهذا سوى مداخن كبار في صواني فضة، منها ثلاث صواني، في المحراب إحداهنّ، وفي جانبي المنبر اثنتان، وفي الموضع الذي يجلس فيه الخليفة إلى أن تقام الصلاة صينية رابعة.

والبخور المطلق برسم المأمون في كلّ شهر: ندّ مثلث: خمسة عشر مثقالاً. عود صيفي: ستون درهماً. عنبر خام: ستة مثاقيل. كافور قديم: ثمانية دراهم. زعفران شعر: عشرة دراهم. ماء ورد: خمسة عشر رطلاً.

وكان مبلغ الاستثمار في الأيام الأفضلية في الشهر اثني عشر ألف دينار، فبلغ في الأيام المأمونية إلى سنة ست عشرة وخمسمائة ستة عشر ألف دينار.

وكانت تذكرة الطراز في أيام الأفضل أحداً وثلاثين ألف دينار، فبلغت في أيام المأمون ثلاثة وأربعين ألف دينار.

وبلغت رواتب الخاص وما يختص بالقصور من السيدات والجهات والمستخدمات والحواشي والأصحاب والكتّاب وصبيان الخاص، وهوماتشتمل عليه جريدة المطابخ بما فيه من المواسم والأعياد وشهر رمضان ألف دينار، والركوبات الدائمة في يومي السبت والثلاثاء، سبعة وخمسين ألف دينار، خارجاً عن البهائم المختصة بالوزارة فإنها تساق من المراحات السلطانية مع غيرها برسم البطائحي. ومقرّر الوزارة في الشهر

عيناً من بيت المال ثلاثة آلاف دينار، منها ماهو عن النيابة في العلامة عن الخليفة ألف دينار، و ماهو عن الراتب: ألف وخمسمائة دينار، و ماهو عن مائة غلام برسم مجلسيه وخدمته: لكل غلام خمسة دنانير في الشهر. وفي السنة الإقطاعات: خمسون ألف دينار، منها: دهشور، وجزيرة الذهب، وعدة صفقات في البلاد.

ومن البساتين ثلاثة: بستان الأمير تيم الذي عُرف بالمعشوق، وبستانان بكوم أشيين.

ومن الشعير والقمح في السنة: عشرون ألف إردب، ومن الغنم برسم مطابخه سياقة من المراحات: ثمانية آلاف رأس. والأحطاب والتوابل: العال والدون، فتطلق لتولي مطابخه بحسب ما يستدعيه.

واستجد بعد الأفضل في الأيام المأمونية من خزائن التفرقة في كل يوم: اثنا عشر مجمعاً، كل بيت مئة عيارة رطل بالميزان، ولكل مجمع ثلاثة أرطال جبن تشوير وفاكهة: نصف درهم.

ومن اللبن الرائب بهذه المجامع في كل يوم: خمسة وثمانون رطلاً.

واستجد أيضاً برسم الخاص في كل يوم من الحلوى: اثنا عشر جاماً، رطبة ويابسة نصفين، وزن كل جام من الرطب عشرة أرطال، ومن اليابس ثمانية أرطال.

وانتهى مرتب دار التعبئة في كل يوم إلى عشرة دنانير سوى ماهو موظف على البساتين السلطانية، وهو النرجس والنينوفران، الأحمر والأصفر، والنخل المرصد برسم الخاص، وما يصل من الفيوم وثغر الإسكندرية، ومن هذه الدار—يعني للقصور—ولدار الوزارة، وللمناظر في أيام الركوب والجمع، بخلاف تعبئة الحمامات، وما يحمل كل يوم من

الزهر، وما هو برسم خزانة الكسوة الخاص، وبرسم المائدة، وتفرقة الثمرة الصيفية في كل سنة على الجهات والسيدات والحواشي والأصحاب، وما يحمل لدار الوزارة والضيوف وحاشية دار الوزارة.

وبلغ ثمن التوابل، العال منه والدون، وهي المرصدة لخزانة التوابل، إلى خمسين ألف دينار في السنة، سوى ما يحمل من البقولات، فإنه باب مفرد مع المستخدم في البستان الكافوري.

وأطلق من استقبال النظر المأموني برسم الشراب من السكر: مائة وخمسة عشر قنطاراً، وبرسم الورد المربي: خمسة عشر قنطاراً. وما يطلق برسم استعمال الخليل، الفاسد والحامض، وقفف البقولات في السنة: ستة آلاف وخمسمائة دينار. وراتب الأوطية في كل شهر: ثمانون زوجاً، منها برسم الخاص: ثلاثون زوجاً، وبرسم الجهات: أربعون، وبرسم الوزارة: عشرة، خارجاً عن السباعيات، فإنها تستدعى من متولى خزائن الكسوة، وفي كل موسم تكون مذهباً.

وجهاز المأمون التذاكر بما يُستعمل كل سنة برسم الخزائن بثغر الإسكندرية ويتاع من الأصناف من تجار الروم والمغاربة، وهو من السقلاطون الخاص، والعتابي الخاص، والمصمت الملوّن، والمناديل الصقلي الممرش الخاص، ما بين مذهب وحرير، ومن الملاحف الخاص، المذهب الحريري، ما بين مرقوم وساذج، ومن العراضي المشفع المذهب، والحريري الخام، والتلاثيم المشفع، المذهب والحريري، ومن المقصور السوسي الإسكندراني شيء كثير جداً، منها: ثمانية عشر ألف مقطع إسكندراني، وألفا منديل — يعني عمامة — وألفان وخمسمائة فوطة خاص حرير.

وخرجت التذاكر أن يبعث إلى الأندلس فيشتري من البلور ومن

الحرير الخزّ، ومن المقاطع، ومن البسط، ومن الرصاص والحديد والمسار والشمع.

وبعث إلى المهدية ليشتري منها الزيت والصابون واللوز، ومقاطع السوسي وتشتري من صقلية الطيافر والموائد والمناديل والكيزان والفراء الفاقم والسنجاب والسفر الأدم.

ويشتري من بلاد الروم الفضة النقرة والمصاغ والجوهر والديباج الأطلس والخشب والحديد والزفت والمراسي والقنب والنحاس والرصاص.

وخرجت التذاكر إلى مشارف الغربية بابتياح ماجرت به العادة في كلّ سنة من الأردنية الريفية، ومناديل الأكمام، الخام والمقصور، وشقق محلية خام، ومقصور عمل جوجر، والدميرتين، شيء كثير، منها من الشقق خاصة: ثمانية آلاف شقة.

واستدعى الشمع والعسل من الخلايا الجارية في الديوان بالأعمال.

واستدعى النوق من العربان، وتقدّم إليهم بتحصيلها ويقام لهم ثمنها.

وبعث إلى عسقلان تذكرة باستعمال الشقق المطرز الساذج، وابتياح مايرد من الشقق العتايي، والسقلاطون الدمشقي، والخز الحلبي، والنصافي، العال والدون مايين خام ومقصور، وابتياح القلوتات والقراضيا، والزيت، والسماق، ونحو ذلك، برسم الخزائن.

ونذب إلى الوجه القبلي من يحمل غلاتها جميعها إلى الديوان بحكم أنّ جميعها محلول من الإقطاعات.

وحمل من الأعمال البحرية والجيزة والجزيرتين والغربية والأعمال

الشرقية إلى ثغري صور وعسقلان ماجرت به العادة في كل سنة، وهو مائة ألف وعشرون إردب: برسم صور: سبعون ألف إردب. وبرسم عسقلان: خمسون ألف إردب، لتبقى بالثغور ذخيرة بها، ويُبَاع ما بقي من المخزون عند الغنى عنه، وكان المتحصّل للديوان في كل سنة ألف إردب.

ونذب من يحمل ماجرت به العادة من القشة في كل سنة: وهي وسقّ خمسين مركباً، مابين نخل وجريد وسلب وسحيل وطوانس، تساق إلى الحواصل، خارجاً عما يقطع ويحدّد برسم الجسور.

وعمل حُزن عاشوراء بالقصر، ومدّ السباط المعتاد، وجميعه بالخبز والشعير والحواضر، وتقدّم إلى والي مصر والقاهرة بأن لا يمكن أحداً من جمع ولا قراءة مصرع الحسين عليه السلام.

وأخرج الرسم المطلق للمتصدّرين والقراء الخاصّ والوعاظ والشعراء وغيرهم، على ماجرت به العادة.

وعمل المولد الأمريّ، فقرّر أن تُعمل فيه أربعون صينية خشكان وحلوى، تفرّق.

وأطلق رسم المشاهد، لكلّ مشهد سكر وعسل ولوز ودقيق وشيرج، وتقدّم بعمل خمسمائة رطل حلوى سوى ذلك، فرقت على المتصدّرين والقراء والفقراء ومن معهم، فحُمِل للمتصدّرين في صحون، وللفقراء على أرغفة السميد.

وأخرج من بيت المال صندوق مختوم ضمنه مائة دينار عينا، وألف وثمانمائة وعشرون درهما، برسم أهل القرافة ومساكينها.

وقام بأمور ركوب الخليفة في يومي السبت والثلاثاء.

وكان المأمون يركب من داره في هذين اليومين بالرهجية فيتوجه إلى القصر، فيركب الخليفة إلى ضواحي القاهرة للنزهة في مثل الروضة، والمشتهى، ودار الملك، والتاج، والبعل، وقبة الهواء، والخمسة الأوجه، والبستان الكبير.

وسلم الرسوم لأربابها، وهي بيد مقدمي ركاب الخليفة، لكل منهم أحد وعشرون ديناراً وخمسون ربيعاً، ولتالي مقدم ركاب اليمين مائة كاغدة في كل كاغدة ثلاثة دراهم، ومائة كاغدة في كل واحدة درهمان، ولتالي مقدم ركاب الشمال مثل ذلك.

فأما الدنانير فلكل باب يخرج منه الخليفة من أبواب البلد دينار، ولكل باب يدخل منه دينار، ولكل جامع يجتاز عليه دينار، إلا جامع مصر، فإن رسمه خمسة دنانير، ولكل مسجد يجتاز عليه ربيعاً، ولكل من يقف منهم كاغدة. ولكل فرس يركبه ديناران، هذا ومتولي صناديق الإنفاق يحجب الخليفة ويده خريطة ديباج فيها خمسمائة دينار لما عساه يأمر به. فإذا حصل بإحدى المناظر، فرق من العين سبعة وخمسين ديناراً ومائة وثمانين ربيعاً، في الحواشي، والأستاذين، وأصحاب الدواوين، والشعراء، والمؤذنين، والمقرئين، والمنجمين.

ومن الخراف الشواء: خمسون رأساً، منها: طبقان حارة مكملة مشورة برسم المائدة الخاص، مضافاً لما يحضر من القصور من الموائد الخاص والحلاوات، وطبق واحد برسم المأمونية، والبقية بأسماء أربابها، ورأساً بقر برسم الهرائس. فإذا جلس الخليفة استدعى على المائدة المأمون وأولاده وإخوته، ومن جرت له عادة بجلوسه معه، ومن تأخر عن المائدة منهم حمل إليه ما يكفيه.

فإذا عاد الخليفة إلى القصر يحاسب الوزير مقدمي الركاب على

ماصرف في مسافة الطريق على المساجد والجوامع وغيرها، وتقلّدوا الأمانة فيما فرقوه في الصدقات، والذي يتولّى محاسبتهم متولّي الدفتر.

وكان المأمون يجلس في يومي الأحد والأربعاء بداره على سبيل الراحة، والنفقة في العسكر الفارس البساطيّة إلى الظهر، ثمّ ترتفع النفقة ويحطّ السباط للناس. فإذا كان بعد العصر، جلس، والكتاب بين يديه فينفق في الراجل إلى آخر النهار.

وفي يومي الاثنين والخميس يكون الركوب للسلام على الخليفة والخدمة بالقصر.

وفي يوم الجمعة يركب المأمون إلى القرافة أحياناً، ويطلق دائماً في كلّ يوم جمعة للمقرئين بالحضرة خمسة دنانير، ولكلّ من هو مستمرّ القراءة عليّ بابيه من الضعفاء والأضراء خمسمائة درهم، مقرّرة بأسماء. ولبقية الضعفاء والمساكين خمسمائة درهم أخرى.

وبلغه أنّ أحد صبيان الخاصّ الأمريّ شتم صاحب الشريعة، فأخرج سيف النعمة وضرب عنقه به، بعد أن شهد عليه عدلان وجماعة كثيرة.

وتقدّم بعمل حساب الدولة من الهلاليّ والخراجيّ إلى آخر سنة ستّ عشرة وخمسمائة، فانعقدت على جملة كبيرة من عين وغلة، فأمر بكتابه سجلّ يتضمّن المصالح بالبوافي، وجملتها ألفا ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار وسبعمائة دينار وسبعة وسبعون ديناراً وكسر، ومن الفضّة النقرة أربعة دراهم. ومن النوق سبعة وستّون ألفاً وخمسة دراهم وكسر، ومن الغلّة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وثلاثون إردباً وكسر، ومن الأرز أربعمائة وستّة وسبعون إردباً وكسر، ومن الأصناف شيء كثير يطول تفصيله.

ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وثلاثمائة وخمسة رؤس.

ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفاً ومائة وأربعة وستون رأساً.

وقد ذكرت تفصيل الأصناف في كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.

وجدد عمارة المشاهد التسعة التي بين الجبل والقرافة، وبنى مسجداً تجاه باب الخوخة خارج القاهرة على الخليج. ورمّ جامع القرافة، وعمر بجواره طاحوناً للسبيل، وأقام بها الدواب، وجعل عليها أميناً أطلق له ولعلف الدواب ما يكفيه ويكفيها. فصار أهل القرافة يطحنون فيها قوتهم بغير أجر.

وأمر في آخر جمادى الآخرة أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم، ويحذر من بيع الخمر، كما جرت به العادة في كل سنة احتراماً للأشهر الشريفة. فرأى المأمون أن يكتب بذلك إلى جميع ولاة الأعمال، فكتب به، ونودي: من تعرض لبيع مسكر أو شرائه سراً أو جهراً فقد عرض نفسه لتلافها، وبرئت الذمة من هلاكها.

وعمل الأسمطة الجاري بها العادة ليلة أول شهر رجب. فلما جلس الخليفة على الأسمطة ومعه الوزير، بالغ في الثناء عليه وقال: قد أعدت لدولتي بهجتها، وجددت فيها من المحاسن ما لم يكن، وقد أخذت الأيَّام نصيبها من ذلك، وبقيت الليالي، فقد كان بها مواسم زال حكمها، وكان فيها توسعة وبر ونفقات وصدقات، وهي: ليالي الوقود الأربع، وقد آن وقتهن فاشتهدن نظرهن.

فامثل الأمر وحمل إلى القاضي خمسين ديناراً لثمن الشمع، وأن يعتد للركوب في الأربع الليالي، وهي: ليلة أول رجب ونصفه، وليلة مستهل

شعبان ونصفه، وتقدّم لتولي بيت المال بعمل الحلاوات برسم هذه الليالي.

واستجد في الأيام المأمونية أيضاً في كلّ ليلة على الاستمرار برسم الخاصين، الأمري والمأموني، قنطار سكر، ومثقالان مسك. وديناران برسم المونة تعمل خشكان وبسندود وغيره، في قعاب وسلال صفصاف، وهي التي تسمى اليوم العلب، فيحمل ثلثا ذلك إلى القصر، وثلثه إلى الدار المأمونية. وعمل أسمطة شهر رمضان.

فلما انقضت خلع عليه خلعاً عظيمة، ونزل إلى داره فمدحه عدّة من الشعراء، وحضرت كسوة الشتاء ففرقت، وكانت جملتها أربعة عشر ألف قطعة وثلاثمائة وخمس قطع. ووصلت كسوة العيد في آخر شهر رمضان، وهي بنحو عشرين ألف دينار، وعُمل شعار عيد الفطر وأسمطته بزيادة كثيرة في التجميل، وقد ذكرت ذلك في كتاب المواعظ والأعتبار.

ثم عاد المأمون إلى داره، فمدحته الشعراء، فأسنى جوائزهم. وبلغت النفقة على اسمطة شهر رمضان لتسع وعشرين ليلة ستة عشر ألفاً وأربعمائة وستة وثلاثين ديناراً، وبرسم القعبة (الجفنة) الخاصة تسعة وثمانون قنطاراً سكرًا ومائة وثمانية وسبعين ديناراً، وبرسم المقرئين والمؤذنين والمسحرين تسعة وعشرين قنطاراً سكرًا وثمانية وخمسين ديناراً. والمنفق في شهر رمضان برسم الصدقات والرسوم والتوسعة المطلقة برسم الحاشية والأمراء وصدقات الأقوات بالباب والأعمال والفطرة، والكسوات المختصة بالغة والعيد ما ينفى على ستين ألف دينار ويبلغ مائة ألف دينار، وضرب برسم خميس العدس ماجرت به العادة، وهو خمسمائة دينار عن عشرين ألف خروبة. فعمل المأمون ذلك ألف دينار ضربت عشرين ألف خروبة فرقت على أربابها.

ولما تنبه ذكر الطائفة النزارية، ووصلت الأخبار بأنهم قد سيّروا مالاً مع التجار إلى قوم، بأسمائهم، من أهل مصر والقاهرة، تقدّم بالفحص

وحفظ الدروب والأسواق حتى وجد خمسة وصلوا بالمال من الإسماعيلية
ببلاد المشرق، فقبض عليهم وصلبهم.

وعمر بمنية زفتا جامعاً كبيراً وفرشه وقرر فيه خطيباً ومؤذنين، فصارت
الجمعة تقام به.

وبنى أيضاً جامعاً بواحات البهنسا، فبلغت عدة ما بناه واستجدّه من
المساجد أحداً وأربعين مسجداً.

وبنى بالقاهرة دار ضرب بالقشاشين (وهي) التي تعرف اليوم
بالخراطين.

ورتب بداره قارئین يتناوبان قراءة القرآن الكريم ويصليان بمن في
داره جماعة. ورتب لها من الرسوم والكساوي شيئاً جزيلاً.

وأمر بعمل ميقات حرير فيه ثلاث جلاجل. وفتح طاقة من سور
داره. فإذا مضى شطر الليل وانقطع المشي دلي الميقات، وهناك عدة
يبيتون تحته، فإذا ظلم أحد في الليل جاء وشد رقعة في الميقات وحركه،
فيرفع إلى المأمون. فإن كانت الرقعة مُرافعة لم يمكن البياتون من رفعها.
وان كانت ظلامة مكن صاحبها من رفعها، وعوقه البياتون عندهم
حتى يخرج الجواب.

وحضرت كسوة عيد النحر ففرقت، وفرقت رسومها على من جرت
عادتهم بها. وجملتها سبعة عشر ألفاً وستمائة دينار. ونحر الخليفة بيده في
الثلاثة الأيام تسعمائة وستة وأربعين رأساً، وبلغ المصروف على الأسطة
في الثلاثة الأيام، خارجاً عن أسطة المأمون بداره، ألفاً وثلاثمائة وستة
عشر ديناراً وثمانية وأربعين قنطاراً سكرًا برسم قصور الخلاوة، والقطع
المنقوخ.

وجلس المأمون في ثالث يوم العيد بداره للراحة، وحضر الأمراء لحوائجهم. فلما كان يوم عيد الغدير هاجر إلى باب المأمون الضعفاء والمساكين من البلاد، ومن انضاف إليهم من العوال والأدوان على عادتهم في طلب الحلال وتزويج الأيتام. وكان موسماً يرصده كل أحد، ويرتقبه الغني والفقير فجرى في معروفة على رسمه، ومدحه الشعراء.

ووصلت كسوة عيد الغدير، وهي مائة وأربع وأربعون قطعة ففرقت في أربابها، ومعها رسومها، وهي من العين سبعمائة وتسعون ديناراً. وفرق المأمون من ماله بعد الخلع عليه ألفين وخمسمائة وثمانين ديناراً.

فلما انقضى العيد خلع على المأمون وقلده بالعقد الجوهري في عنقه بيده، ومضى إلى داره فمدحه عدّة من الشعراء، وحضر إليه متوليّ خزانة الكسوة الخاصّ بالثياب التي كانت عليه قبل الخلع، فأعطاه الرسم على العادة وهو مائة دينار، ثم حضر متوليّ بيت المال وصحبته صندوق ضمنه خمسة آلاف دينار برسم فكاك العقد الجوهري، والسيف المرصع، ففرّقها.

وركب الخليفة إلى قليب، ونزل بالبستان العزيزي لمشاهدة قصر الورد على العادة، ففرقت الصدقات في مسافة الطريق وعملت الأسمطة، ثم عاد آخر النهار.

فلما أهلّت سنة سبع عشرة وخمسمائة جرى الرسم في غرة العام (بحمل ما يحضر من عين وورق من ضرب السنة المستجدة) وتفرقتها والركوب على العادة، وعمل حزن عاشوراء والمولد الأمري. وخلع على المؤمن سلطان الملوك حيدرة أخي المأمون بولاية الإسكندرية والأعمال البحرية.

وفيهما رتب المأمون عدّة من السقّايين، ستّون كلّ ليلة على باب كلّ معونة بالقاهرة ومصر، معهم عشرة من الفعلة بالطوّاريء والمساحي لهمّ يقع من حريق في الليل، وألزم واليّي القاهرة ومصر أن يقوموا بعشائهم من أموالهما، فتقرّر ذلك.

وجرت الرسوم في مواسم السنة على عوائدها، فكان المنفق عيناً من بيت المال من أوّل المحرمّ سنة سبع عشرة وخمسمائة إلى آخر ذي الحجة منها، في العساكر المسيّرة لجهاد الفرنج برأ، وفي الأساطيل بحراً، والمنفق في أرباب النفقات مع العسكر بالحضرة، وفي جراية القصور، والمطابخ، ومنديل الكمّ، والأعياد، والمواسم، وعند الركوبات، وثمان الأمتعة المبتاعة من التجّار، والمطلق للرسل والضيوف، وبيدار الطراز، ودار الديباج، وبرسم الصلات والصدقات، ومن يهتدي إلى الإسلام، وما ينعم به على الولاة عند استخدامهم، ونفقات بيت المال والعمائر، أربعمائة ألف وثمانية وستين ألفاً وتسعمائة وسبعة وتسعين ديناراً ونصف دينار. والحاصل بعد ذلك ممّا يُحمل إلى ضناديق الخاصّ لما يتجدّد ثمانية وتسعون ألف دينار. ومائة وسبعة وتسعون ديناراً ونصف.

فجملة ما تحصل في سنة سبع عشرة وخمسمائة ألف ألف وسبعة وستّون ألفاً ومائة وأربعة وتسعون ديناراً. وذلك سوى المرتبات في كلّ شهر، وهي في السنة مائتا ألف ومائة دينار، بتتمة جملة مال السنة سبعمائة ألف وسبعة وستّون ألفاً ومائتان وأربعة وتسعون ديناراً.

ولم يزل المأمون إلى أن قبض عليه ليلة السبت الرابع من شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة، وعلى إخوته الخمسة، وثلاثين رجلاً من خواصّه وأهله، واعتقل الجميع.

ويقال إنّ السبب في القبض عليه أنّه راسل الأمير جعفر أخا الأمر

وأغراه بأخذ أخيه الخليفة الأمر، ووعدته أنه يقيمه بدله. فلما تقرّر ذلك بلغ الشيخ أبو الحسن عليّ بن أبي سامة هذا إلى الأمر حتى قبض عليه.

وقيل: إنّ المأمون بعث نجيب الدولة أبا الحسن عليّ بن إبراهيم إلى اليمن، وأمره أن يضرب السكة باسم الإمام المختار محمد بن نزار.

وقيل إنه سمّ مبضعاً يفصد به الأمر، ودفعه إلى طبيب الأمر وأمره أن يفصده به، فطالع الأمر بذلك.

ولم يزل في الاعتقال إلى أن قُتل في ليلة العشرين من شهر رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. وأخرج ومعه صالح بن العفيف، وعلي بن إبراهيم نجيب الدولة، فصلبت أجساد الثلاثة بالقرب من سقاية ريدان خارج القاهرة من غير رؤوس، وفي صدر كلّ واحد رقعة فيها اسمه. ثم أخرجت رؤوسهم وجعل على كلّ جسد رأسه.

وكان المأمون من ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول، كريماً، واسع الصدر. سفاكاً للدماء، كثير التحرز، مجتهداً في الاطلاع على أحوال الناس من العامة والجند في سائر البلاد. وكثر الوشاة في أيامه.

وكانت مدة وزارته ثلاث سنين وتسعة أشهر ويومين. وعمره نحو أربع وأربعين سنة. وكان السبب في تلقيبه بالمأمون أنه كان في خلافة المستنصر من جملة صبيان القصر فكان يرسله إلى بيت المال وخزانة الخاص في مهماته فيجد منه النهضة والأمانة فيقول: هذا المأمون دون الجماعة. فلما قتل الأفضل واستدعى القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك الخليفة الأمر بأحكام الله ليحضر إلى دار الأفضل ويتسلّم أمواله، حضر إلى دار الملك وسلّمه ابن فاتك الأموال كلّها، حتى أحضر إليه الجواهر، وكان شيئاً عظيماً. فلما رآها الأمر سرّ بها وشكر ابن فاتك وقال له: والله إنّك المأمون حقاً، مالك في هذا النعت شريك.

- ١١٨٩٠ -

فلما قلده الوزارة لقبه بالأجلّ المأمون، فعرف به.

قاضي القضاة ابن الزكيّ

محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين، قاضي القضاة، محيي الدين، أبو المعالي، ابن قاضي القضاة زكيّ الدين أبي الحسن، ابن القاضي الأجل قاضي القضاة أبي المفضل، ابن أبي الحسن، ابن أبي محمد، المعروف بابن الزكيّ، القرشيّ، الأمويّ، العثمانيّ، الدمشقيّ.

ولد سنة خمسين وخمسمائة، وتفقه علي جماعة، وسمع من أبيه ومن أبي محمد عبد الرحمن بن أبي الحسن الدارانيّ، وأبي المظفرّ سعيد بن سهل الفلكيّ، وأبي المكارم عبد الواحد بن محمد بن هلال، وأبي القاسم عليّ، وأبي الحسين هبة الله، ابنيّ الحسن بن عساكر، وحدث هو، وأبوه، وجده، وجدُّ أبيه. وكان ذا فضائل عديدة، من الفقه والأدب وغيرهما. وله النظم المليحُ (والخطب) والرسائل.

وتولّى القضاء بدمشق، هو وأبوه وجده وولداه، وكانت له عند السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب منزلة عالية، ومكانة مكيّنة، ولما فتح السلطان حلب في صفر سنة ثمانين وخمسمائة، أنشده محيي الدين هذا قصيدة، منها قوله:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر

مبشربفتوح القدس في رجب

فكان كذلك، وفتح السلطان القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. فقليل له: من أين لك هذا؟

فقال: أخذته من تفسير أبي الحكم ابن برجان في قوله: ﴿ألم * غلبت الروم﴾ (الروم ١-٢).

ولما فتح السلطان القدس تناول إلى الخطابة به في يوم الجمعة كلُّ أحدٍ من العلماء الذين شهدوا الفتح، وجهد كلٌّ منهم في عمل خطبة بليغة، ورجا أن يكون هو الذي يُعَيَّن لذلك، فخرج المرسوم إلى المحيي هذا أن يخطب، فخطب خطبة بليغة جداً في معنى فتح القدس، وذكر منتجب الدين أبو الفضل يحيى بن أبي طيء حميدة النجار: حدثني جماعة، منهم الركن بن جهبل العدل أن الفقيه مجد الدين (طاهر بن نصر الله) بن جهبل الشافعي وقع إليه تفسير القرآن الكريم لأبي الحكم المغربي، فوجد فيه عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ الآية، أن الروم يُغَلَّبُونَ في شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقدس وتصير دار إسلام إلى آخر الأبد. واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه. فلما فتح السلطان حلب، كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشّره بفتح القدس على يديه، وعيّن فيها الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى الهكاري. فلما وقف عليها الفقيه عيسى، لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وأعلم بما في الورقة محيي الدين محمد ابن الزكيّ الدمشقي، وكان ابن الزكيّ واثقاً بعقل ابن جهبل، وأنه لا يقدم على هذا القول حتّى يحقّقه ويثق به. فعمل قصيدة مدح بها السلطان حين فتح حلب في صفر، وقال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر

قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

فلما سمع السلطان ذلك، تعجّب من مقالته، ثمّ حين فتح السلطان القدس، خرج المجد بن جهبل إلى خدمته مهتئاً له بفتحه، وحَدَّثَهُ حديث الورقة، فتعجب السلطان من قوله وقال: قد سبق إلى ذلك محيي الدين ابن زكيّ الدين، غير أنّي أجعل لك حظاً لا يزاحمك فيه أحد، ثمّ جمع له من هناك من الفقهاء وأهل الدين، ثمّ أدخله إلى القدس.

ولما كانت... ولّى السلطان صلاح الدين محيي الدين قضاء حلب،

وقدم إلى القاهرة رسولاً من الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن
أيوب إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يحثه على قصد الفرنج،
فأقام بها أياماً يسيرة، وعاد من القاهرة يريد دمشق في يوم الأحد ثالث
صفر سنة ثلاث وتسعين وخمسة، وتوفي يوم الأربعاء سابع شعبان سنة
ثمان وتسعين وخمسة بدمشق.

العماد الأصفهاني

محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن عبد الله بن أله — يفتح الهمزة وضم اللام — اسم فارسي معناه بالعربية: العقاب — أبو حامد، عماد الدين — ويقال: أبو عيد الله — ابن صفى الدين أبي الفرج، ابن نفيس الدين أبي الرجاء، المعروف بابن أخي العزيز، الأصفهاني، الشافعي، الكاتب.

مولده بأصفهان يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة — وقيل: في شعبان — سنة تسع عشرة وخمسمائة، وأقام ببغداد يدرس الخلاف والمذهب بالمدرسة النظامية على أبي منصور سعيد بن الرزاز، وبعده على يوسف الدمشقي، وسمع بها من أبي الفتوح محمد بن الفضل بن محمد بن المعتمد الإسفراييني، وأبي المكارم المبارك بن علي بن عبد العزيز، وأبي منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون وأبي بكر أحمد بن علي بن عبد الواحد الدلال، وجماعة كثيرة.

وقرأ الأدب على أبي محمد بن الخشاب. وسمع بأصفهان أبا سعد محمد بن الهيثم الأديب وغيره، وقرأ الخلاف، وعاد إلى بغداد.

وتصرف في الأعمال الديوانية أيام المقتفي والمستنجد. ومدح الخلفاء والوزراء. ورحل في آخر أيام الخليفة المستنجد إلى دمشق، ومدح الملك العادل نور الدين محمود، وقدم كاتباً في ديوانه. ثم ولي الاستيفاء بجميع الأمور.

وقدم إلى القاهرة بعد موت نور الدين في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، فصار من خواصه. وسمع بالإسكندرية على الحافظ السلفي، وأبي الطاهر إسماعيل بن عوف. وحدث. ولم يزل في خدمة السلطان إلى

أن مات. فلزم منزله. واشتغل بتدريس الفقه والخلاف ورواية الحديث والأدب بدمشق إلى أن مات.

قال ابن النجار: كان من العلماء المتقنين فقهاً وخلافاً وأصولاً ونحواً ولغةً، وله معرفة بالتواريخ وأيام الناس. وله في البلاغة والانشاء والنظم والنثر اليد الطولى والباع الممتد. وإليه تشد الرحال في ذلك وعليه تعقد الخناصر وكان من محاسن الزمان لم تر العيون مثله.

وتوفي بدمشق ليلة الاثنين مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسة. ودفن بمقابر الصوفيّة.

وكان جامعاً لفضائل من الفقه والآداب والشعر الجيد. وله اليد البيضاء في النثر والنظم. وهو طويل النفس في رسائله وقصائده. وصنف تصانيف مفيدة منها: « خريدة القصر وجريدة العصر في محاسن أهل العصر » : عشر مجلدات. وديوان شعره في ثمان مجلدات. وديوان رسائله في أربع مجلدات. وكتاب « خطفة البارق وعطفة الشارق » ثلاث مجلدات. وكتاب « نصرة الفترة وعصرة القطرة » مجلدان. وذيل الخريدة، مجلدان. وكتاب « عتب الزمان في عقبى الحدثان » مجلد. وكتاب « الذيل والسيل ». وكتاب « الفتح القسي في ذكر الفتح القدسي ». وكتاب « البرق الشامي »، تاريخ في سبع مجلدات. وكتاب أخبار ملوك السلجوقية. وكتاب العقبي والعتبي.

وله ديوان دوبيت، ومكاتبات القاضي الفاضل إليه في جزء، وكان يكتب بالعربية والفارسية. وكان محل الثقة من الفاضل أمنا من توثبه عليه، ولهذا كان يطمئن إليه إذا غاب مع السلطان، وكان رحمه الله شديد الحرص على تحصيل الدنيا، وكان الفاضل يلومه ويعتبه ويعذله ويؤنبه على ذلك، فلا يرعوي. فبعث مرة يشكو إليه ضرورة، فكتب إليه الفاضل: يا سيد أخيه، لا تسمع الهر هذه الشكوى فيستعذبها

فيستمر على العدوى ، ولو أستغينا بالله لكان يغينا ، ولو قعدنا عن الرزق لأتانا لايعنينا ، وفي الحديث : اتقوا الله واجملوا في الطلب ، ولا يدرى كيف يكون المنقلب ، فبالله الا ما سمعت بهذا الأدب ؟

وله في هذا حكايات : منها أن رجلا من أهل حمص جاءه بطبق كيزان وتفصيلة كتان ، قيمة ذلك كله نحو خمسين درهماً ، وسأل حاجة ، فأخذ قصته وقراها على السلطان ، وكان قد بلغه الخبر . فلم يجبه . فأعاد العمداء عرض القصة وقراءتها مرات في مجالس عدة ، والسلطان لا يأمر فيها ولا ينسى ، ففطن العمداء وعلم أن الخبر قد اتصل بالسلطان فأعاد عرض القصة ، فلما لم يجبه عنها قال :

يا مولانا ، الطبق الذي أحضره صاحب هذه القصة باق إلى الآن لم اتصرف فيه . فما كان ما ينقضي شغله أعدت عليه طبقه .

فضحك السلطان وعجب من دناءة نفسه وأمر بقضاء شغل الرجل ، وكان شديد التهافت على أخذ الختم الذهبية التي تجيء على كتب الفرنج ، فوصل منهم كتاب بغير حضوره ففتحه السلطان بيده ، وأخذ بعض الحاشية الختم . فلما جاء العمداء قيل له : أكتب جواب هذا الكتاب

فقال : يكتب جوابه من أخذ الختم

فعز قوله على السلطان وقال : قم اخرج الوقت ، ما هو محتاج إليك ، فأتى إلى الفاضل وعرفه ما كان . فقال له : رح إلى الخانكاه وأقعد بها مع الفقراء وألبس زيهم . فإذا طلبك السلطان قل : « أنا دخلت في أسر لا أخرج منه » . ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مترضياً .

ثم لم يلبث الفاضل حتى أتته رسل السلطان في طلبه ، فلما أتاه شكوا

إليه العباد ، وقال له : أكتب جواب لهذا الكتاب ، فقال : والله ما أعرف ما أكتب فيه لأن العباد كان يصدد هذه الكتب فلا يعرفها سواه .

ولم يزل يتلطف بالسلطان حتى قال : أطلبه ، فبعث في طلبه فلم يحضر وأعتذر ، فعظم الفاضل الأمر ، وكرر الرسل في طلبه وهو لا يحضر ، فقال الفاضل : أنا أروح خلفه وأتلطف به . فوالله هذا باب ما يسده سواه .

ثم ذهب فأطال المكث ، وعاد إلى السلطان وقال : لقد حرصت به فلم يجب ، ورأيت مقبلا على ما دخل فيه إقبالا ما أظنه بقي يخرج عنه وما ضر السلطان لو زار الفقراء وترضى عنده ؟ ولم يزل به حتى أتاه وترضاه .

وما هذه الأيام إلا صحائف
نسطر فيها ثم نمحي ونمحق
ولم أرفي عمري كدائرة المنى
توسعها الآمال والعمر ضيق

وقوله :

هي كتبي فليس تصلح من بعد
لدي لغير العطار والإسكافي
هي إمام زواد للعقاقير
رواها بظائن للخفاف

وكان ذا قدرة على النظم والنثر ، وشعره ألطف من نثره لأنه أكثر من الجناس فيه ، وبالغ حتى صار كلامه كأنه ضرب من الرقى والعزائم .

ومن محاسن نثره : « فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها ، والآية التي لا أخت لها ، فتقول : هي أكبر من أختها ، أفضت الليلة إلى

فجرها ، ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها ، وجاءت بواحدتها الذي تضاف إليه الأعداد ، ومالكها الذي له الأرض بساط ، والسماء خيمة ، والحبك أطناب ، والجبال أوتاد ، والشمس دينار ، والقطر دراهم والأفلاك خدم . والنجوم أولاد .

ومن كلامه الذي أكثر فيه الجناس قوله : « ورد الكتاب الكريم الأشرف الذي كرم وشرف ، وأسعد وأسعف ، وأجنى العز وأقطف ، وأوضح الجذ وعرف ، وقوى العزم وصرف ، وألهج بالحمد وأشغف ، وجمع شمل الحب وألف ، فوقف الخادم عليه وأفاض في شكر فيض فضله المستفيض ، وتبلغ وجه وجاهته ، وتأرج نبأ نباهته ، ما عرفه من عوارفه البيض ، وأمنت بمكارمه المكاره ، وزاد في قدر التائه قدره النابه ، وافترت مباسم مراسمه عن ثنايا مناجحه ، ورقد طلائع صنائعه ، فسر بمنن منائحه » .

ومما أكثر فيه من رد العجز على الصدر قوله : « وسر أوليائه ، وأولي مسرته ، وأقدر يده وأيد قدرته ، وآزر دولته وأدال مؤازرته ، وبسط مكنته ومكن بسطته ، وأسعد جده وأجد سعادته ، وأراد نجحه وأنجح إرادته ، وأجل جيله وسر أسرته ، وحاط حماه وحمي حوطته ، ولا زال معروفه مواليا، ومواليه معروفا . ووصفه حسنا وإحسانه موصوفا ، وإلفه باراً ، وباره مألوفاً ، وعطفه كريماً وكرمه معطوفا » .

وله رسائل التزم في واحدة الدال في كل كلمة ، والضاد في أخرى ، والميم في أخرى ، والشين في أخرى ، وأشياء من هذا النمط .

وديوانه أربع مجلدات كبار . وما أحسن قوله في أترجة :

وأترجة صفراء لم أدر لونها

أمن فرق السكين أم فرقة السكين؟

بحق عرتها صفرة بعد خضرة
فمن شجربانت وصارت إلى شجن

وقوله :

متلون كمدا معي متعفف
كضما ثري، متعذر كوسائي
أنافي الضنى كالخصر منه يشتكي
من جائر ما يشتكي من جائل

ويحكى أنه قال يوما للقاضي الفاضل : سر فلا كبابك الفرس ،
فأجابه الفاضل : دام علا العباد ، وكلا الكلامين يقرأ مقلوبا .

واجتمعا يوما في موكب السلطان وقد ثار الغبار حتى سد الفضاء ،
فأنشد ارتجالا :

أما الغبار فإنه
مما أثارت به السناياك
والجو منه مظلـم
لكن أنار به السناياك
ياده رلي عبد الرحيم
سم، فلست أخشى مس نابك

وكان قدم وهو ابن عشرين سنة إلى بغداد ، ونزل النظامية ، وبرع في
الفقه ، وأتقن الخلاف والنحو و الأدب ، وسمع الحديث . فلما مهر
تعلق بالوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ، فولاه
البصرة ثم نظر واسط . فلما مات الوزير ضعف أمره واعتقل في جملة من
اعتقل . فكتب إلى رئيس الرؤساء عضد الدين أبي الفرج محمد الأستاذار :

قل للإمام : علام حبس وليكم
أولوا جميلكم جميل ولائه

أوليس إذ حبس الغمام وليه
خلى أبوك سبيله بدعيائه

يشير إلى قصة العباس بن عبد المطلب في الاستسقاء

وكان إذا دخل عليه من يعود في مرضه ينشد :
أنا ضيف بربكم
أين أين المضيف ؟
نكرتني معارف
مات من كنت أعرف

وقال القاضي الفاضل لجلسائه : بم تشبهون العماد ؟ — وكان عنده
فترة عظيمة وجمود في النظر والكلام ، فإذا أخذ القلم أتى بالنظم والنثر
— فكلهم شبهه بشيء . فقال : ما أصبتم ، هو كالزناد ظاهره بارد ،
وباطنه فيه نار .

ولما فرغ من كتاب الخريدة جهزها إلى القاضي الفاضل في ثمانية أجزاء
فقال : أين الآخران ؟ — لأنه قال : خري ده ، يعني : خري عشرة ،
فإن ده بالفارسية : عشرة . ومن هنا أخذ ابن سناء الملك قوله فيها :
خريدة أفيه من تنها
كأنها من بعض أنفاسه
فنصفه الأول في ذقنه
ونصفه الآخر في رأسه

ولما قدم دمشق سنة اثنتين وستين وخمسة تعرف بمدبر الدولة
القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وكان قد اتصل في طريقه بنجم الدين
أيوب لمعرفة كانت بينه وبين عمه العزيز بتكرير . فاستخدمه كمال
الدين عند السلطان نور الدين في الإنشاء . فجب أولاً ، ثم ترقى منزلته
عند السلطان ، وبعثه في رسالة إلى الإمام المستنجد بالله . وفوض إليه

تدريس المدرسة المعروفة بالعمادية بدمشق ، ورتبه في إشراف الديوان .

فلما مات نور الدين وقام من بعده ابنه تنكرت أحواله ، فعاد إلى العراق .

فلما بلغه وصول السلطان يوسف صلاح الدين إلى دمشق وأخذها ، عاد إلى الشام ، والسلطان على حلب ، فمدحه ولقي القاضي الفاضل على حمص ومدحه بقصيدة : فدخل على السلطان وقال له : غداً يأتيك تراجم الأعاجم وما يحلها مثل العماد .

فقال له : مالي عنك مندوحة ، أنت كاتبني ووزيرني ، ورأيت على وجهك البركة ، فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس .

فقال العماد : يحل التراجم وربما أغيب أنا ، فإذا غبت قام مقامي . وقد عرفت فضله وخدمته لنور الدين .

فاستخدمه عند ذلك وأطلعه على سره ، وكان يضاهي الوزراء فإذا انقطع الفاضل بمصر لصالح السلطان قام العماد مقامه . فلم يزل على ذلك حتى مات السلطان واختلت أحواله ، ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً فلزم بيته وأقبل على التصنيف بقية عمره .

وتأخرت وفاته بعد الفاضل سنة .

النجم الخبوشاني الصوفي

محمد بن موفق بن سعيد بن علي بن الحسن بن عبد الله، الشيخ الزاهد، نجم الدين، أبو البركات، ابن أبي المطهر، الخبوشاني، التبريزي، الصوفي، الشافعي.

مولده بأستوا خبوشان في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة عشروخمسائة. وتفقه بنيسابور على محمد بن يحيى. وكان يقول: أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عُبيد الكذابين، فقدم إلى مصر سنة خمس وستين وخمسائة، ونزل في بعض مساجدها. فاتفق أن الخليفة العاضد لدين الله أبا محمد عبد الله بن يوسف رأى في منامه أنه بمدينة مصر وقد خرج إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغه. فانتبه مذعوراً، واستدعى عابر الرؤيا وقص عليه ما رأى.

فقال: ينال أمير المؤمنين مكروه من شخص مقيم بهذا المسجد.

فألزم الوالي بإحضار من في المسجد. فمضى إليه وأحضر منه رجلاً صوفياً. فسأله العاضد من أين هو، ومتى قدم مصر، وفي أي شيء جاء.

فأجابه عن ذلك. ولم يظهر للعاضد ما يريه، بل تبين منه ضعف الحال مع الصدق، فدفع إليه مالا وقال له: يا شيخ، أدع لنا، وخلاّه لسبيله، فعاد إلى مسجده.

ولم يزل به حتى قدم شيركوه من دمشق، وقام في وزارة العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وشرع في إزالة الدولة، فاستفتى فقهاء مصر فكان أشدهم مبالغة في الفتيا، وعدد مساويء القوم، وسلب عنهم الإيمان، وأطال القول في الخط عليهم، وعندما عزم صلاح الدين على قطع اسم العاضد من الخطبة لم يتجاسر أحد أن يأمر

الخطيب بذلك، إلا الخبوشاني، فإنه قام يوم الجمعة، وفي يده جريدة وأمر بقطع اسم العاضد، وانقطع اسمه من يومئذ، وصدقت الرؤيا.

فلما استبدّ السلطان صلاح الدين بمملكة مصر، قرّبه وأكرمه، وبالع في اعتقاد دينه وعلمه. فأشار على السلطان بعمارة المدرسة بجوار قبر الامام الشافعيّ فامثل ذلك، وتبّتل الخبوشانيّ بعمارتها حتّى كملت، ودرس بها وسكن فيها إلى أن مات هناك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وخمسائة، ودُفن تحت رجليّ الشافعيّ.

ولم يأكل من وقف المدرسة شيئاً قطّ، ولا أخذ من مال الملوك شيئاً، ودُفن في الكساء الذي صحبه من خبوشان، وكان بمصر تاجرٌ من بلده يأكل من ماله.

وحدّث عن أبي الأسعد هبة الرحمن بن عبد الواحد، ابن الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيريّ. وكان فاضلاً ديناً سليم الباطن، معرضاً عن معرفة الأحوال الدنيويّة، شديد الورع، فقيهاً، يستحضر كتاب المحيط في شرح الوسيط. وذكر عنه أنه عدم مرّة فأمله من حفظه. وصنّف كتاباً في الفقه سمّاه «تحقيق المحيط» في ستّة عشر مجلداً.

وخبوشان—بضمّ الخاء المعجمة والباء الموحّدة، وسكون الواو، وفتح الشين المعجمة، ثم ألف بعدها نون—بليدة بناحية نيسابور، وكان من ورعه إذا ركب الحمار يجعل تحته أكيسة لئلا يصل إليه عرقه.

وأثاه السلطان الملك العزيز عثمان، فصافحه، فاستدعى ماءً وغسل يديه وقال: يا ولدي أنت تمسك العنان ولا يتوقى الغلمان النجاسة، اغسل وجهك فإنك بعد المصافحة لمست وجهك.

فقال: نعم، وغسل وجهه.

ولما خرج السلطان صلاح الدين إلى القريع قرب الرملة، جاء إلى الخبوشاني ليودّعه. فالتمس منه أموراً من المكوس ليسقطها عن الناس، فلم يفعل. فقال له: قم، لانصرك الله، وكن بغضاً.

فوقعت قلنسوة السلطان عن رأسه، فرجع السلطان، ثم توجه إلى الحرب فانكسر، وعاد إلى الشيخ وظن أن ذلك بدعوته وأذعن لكلامه.

وكان لتقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين مواضع يباع فيه المزرة. فكتب الشيخ ورقة إلى السلطان قال فيها: إن هذا عمر لاجبره الله يبيع المزرة.

فسيّرهما إلى عمر وقال: لاطاقة لنا بهذا الشيخ، فأرضيه.

فركب إليه. فقال له حاجبه: قف بباب المدرسة حتى أسبقك إليه وأوطيء لك، ثم دخل وقال: تقي الدين يسلم عليك، فقال: بل شقي الدين، لاسلم الله عليه، فقال: إنه يعتذر ويقول: ليس لي موضع يباع فيه المزرة، فقال: يكذب، فقال: إن كان هناك موضع مزرة فأرنا، فقال: أدن، فأمسك ذؤابته وجعل يلطم وجهه، ويضربه ويقول: لست مزاراً، فأعرف مواضع المزرة، ثم تركه، وخرج إلى تقي الدين فقال: فدئئك بنفسي.

وأناه القاضي الفاضل يوماً وهو يلقي الدرس على كرسي ضيق. فجلس على طرفه، وجنبه إلى قبر الشافعي، فصاح به: قم، ظهرك إلى الإمام، فقال: إن كنت مستدبره بقلبي، فأنا مستقبله بقلبي، فصاح فيه وقال: ماتعبدنا بهذا، فخرج وهو لا يعقل.

ويقال أنه كان يصرح بسب الدولة المصرية قبل انقراضها. فبعثوا إليه بأربعة آلاف دينار. فنهض إلى الذي أحضرها، وهو بذاك الزي الهائل

وقال له وقد اشتد غضبه: ويلك، ماهذه البدعة؟ فألقى إليه مامعه بين يديه. فضربه على رأسه حتى تحلقت عمامته في حلقه، وأنزله ورمى بالدنانير على رأسه، وسب أهل القصر.

القاضي ابن ميسر القيسراني

محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، القاضي الأمين، ثقة الدولة،
سنة الملك، شرف الأحكام، قاضي القضاة، عمدة أمير المؤمنين، أبو عبد
الله، ابن أبي الفرج.

قدم مع أبيه من قيسارية، وهو صغير، في أيام أمير الجيوش بندر
الجمالي، وولي أبوه خطابة جامع عمرو بن العاصي بمصر، وكان من
أرباب اليسار.

فلما مات أبو الحجّاج يوسف بن أيّوب بن إسماعيل المغربي، قلّد
الأمير بأحكام الله أبا عبد الله هذا قضاء القضاة بديار مصر بعده، في ذي
الحجة سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ورّتب مشارفا على ثقة الدولة...
ابن أبي الرّدّاد في قياس الماء، وعمارة المقياس وعمل مصالحه. فبقي
مستمرّاً فيها إلى أن قتل، فلم ينظر بعده أحد على هذه الجهة، وانفرد
ابن أبي الرّدّاد، وأطلق له كلّ سنة مائة قنطار جير لعمارة المقياس.

وواصل الملازمة والدؤوب، وتوفّر على الانتصاب للجلوس، واعتمد
التبّت في الأحكام التصبّر على الخصوم، وعدّل جماعة كثيرة، مستكثرا
من البياض والوجوه، فصار للقاهرة ومصر بذلك جمال، وللمسلمين
انتفاع. وبلغت عدّة الشهود في أيامه زيادة على مائة وعشرين، ولم تبلغ
عدّتهم قبله ثلاثين. وردّت إليه أيضاً المظالم، فاستوضح أحوال المعتقلين
وطالع بها حضرة أمير المؤمنين الأمر بأحكام الله، وكان منهم جماعة قد
قنطت نفوسهم من الخلاص وساءت ظنونهم، فلا يتوقعون لعقدتهم
انحلالاً، فاستخرج أمر (ال خليفة) بالإفراج عنهم، وأنهى أيضاً إلى الأمر
عن أحوال التجّار (فكتب) مناشير في معنائهم تليت على المنابر وصف
فيها ابن ميسر وشكر.

ولما ولد للأمير ولد ذكر في سنة أربع وعشرين (وخمسمائة)، وأحضر الكباش ليذبح في عقيقته، شرف ابن ميسر بحمل المولود حتى عُق عنه بحضرة الأمر ونثرت عليه الدنانير، وكان يوماً مشهوداً.

ولم يزل إلى أن قتل الأمر وبويع من بعده الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمد، فتولّى قراءة السجّل الذي كتب بمبايعته، وهو على كرسيّ تجاه الحافظ، بحضور أرباب الدولة.

ثم صُرف في يوم الثلاثاء أوّل ربيع الأوّل سنة ستّ وعشرين وخمسمائة بأبي الفخر صالح بن عبد الله بن رجا، فلما تغلّب الأمير حسن بن الحافظ على أبيه وقتل قاضي القضاة سراج الدين أبا الثريا بن جعفر، أعاد ابن ميسر إلى القضاء، وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة سنة ثمان وعشرين. وصُرف في وزارة بهرام يوم الأحد سابع المحرم سنة إحدى وثلاثين، وأخرج إلى تنيس، وقتل بها عشية يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وسبب قتله أنّه كان أسقط انساناً يُعرف بابن الزعفرانيّ فوشى به عند الخليفة الحافظ ان أبا عليّ أحمد بن الأفضل، لما ولي الوزارة واعتقل الحافظ وجلس للهناء، ودخل الشعراء يهتّونه على العادة، أنشده عليّ ابن عبّاد (الإسكندري) أبياته التي أولها:
تبسم الدهر لكن بعد تعب

إلى أن قال:

هذا سلباً نكم قد ردّ خاتمه

واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فقام ابن ميسر وألقى عرضيّته (عمامته) طرباً لهذا البيت.

وكان ابن ميسر كريماً جواداً سخياً، له نعمة وهمّة، وكان يعمل الاطعمة والسماطات المختلفة، والحلوى الكثيرة، وكان نبيلاً جليلاً، ضرب دنانير كبيرة باسمه اقترحها على الخليفة الأمر بأحكام الله، فبقيت بعده دهرًا طويلاً، وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى، لأن أبا بكر محمد بن علي الماذرائي وزير الدولة الإخشيدية عمل كغكا سماه «افطن له»، وعمل منه يوماً في صحن، وجعل عوضاً عن حشوه بالسكر، دنانير. فلما حضر الناس في يوم عيد وأكلوا من طعامه، أشار بعض الخدام لشخص بقوله: «افطن له» ليأكل من الكعك المذكور. فلما بلغ ذلك ابن ميسر عمل نظيره صحناً فيه فستق ملبس بحلوى، وجعل عوض قلب الفستق ذهباً، فأكل الحاضرون منه وأخذوا مافيه من الذهب.

وكان قليل العلم. وكان يركب بالمنارة النحاس الرومية ذات السواعد التي عليها السبع في ليالي الوقود. فاتفق أنه اجتاز بها بين يديه من تحت سدرّة بالقرافة، فأمر بقطعها. فحذر من ذلك، لما جاء في الحديث من نهي عن قطع السدر، فلم يعبأ بذلك وقطعها. ولم يمض عليه إلا قليل حتى قُتل. وكانت علامته: الحمد لله على نعمه.

وولي قضاء القضاة بعده القاضي الأعزّ أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن أبي محمد بن أبي عقيل.

أبو بكر الطرطوشي

محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب، ابن أبي رندقة—بفتح الراء المهملة، وسكون النون، وفتح الدال المهملة، وبعدها قاف، كلمة فرنجية معناها: رُدَّ تعالى—الإمام العلامة، أبو بكر، الفهري، الطرطوشي، الفقيه المالكي.

ولد بطرطوشة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة. وتوفي بـبغـر الإسكندرية ليلة السبت لخمس بقين من جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة، ودُفن بمقبرة وعلة. وقبره إلى الآن يزار ويتبرك به.

أخذ فقه الإمام مالك عن أبي الوليد الباجي بمدينة بسطة، وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمع منه فأجازه. وقرأ الفرائض والحساب بوطنه. وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم بمدينة إشبيلية.

ورحل سنة ست وسبعين وأربعمائة. فسمع ببغـر الإسكندرية من أبي القاسم مهدي بن يوسف. وببغداد من قاضي القضاة أبي عبد الله محمد ابن علي بن الدامغاني، وأبي الحسين عاصم بن الحسن، وغيره، وبواسط من أبي الحسن علي بن محمد المغازلي. وبالبصرة ومكة من غير واحد.

وحج سنة ست وسبعين وأربعمائة، وسار إلى بغداد والبصرة. وتفقه على أبي محمد الشاشي، واجتمع بالإمام أبي حامد الغزالي ببـيـت المقدس. وأقام بالإسكندرية فتفقه عليه أكثر فقهاءها. وكانت إليه الرحلة. وقدم القاهرة مراراً، وآخر ما قدم إليها في شهر شوال سنة ست عشرة وخمسمائة، والوزير يومئذ الأجل المأمون أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي، وكانت بينهما مودة قديمة، وأهدى إليه كتاب «سراج الملوك»، وكان قد صنّفه للأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، فقتل قبل إتمامه.

فبالغ في كرامته، وأنزله بمجلسه، وقام عند رؤيته، وجلس بين يديه، وأجرى له في كل يوم خمسة دنانير من مال الجوالي، فلم يقبل منها غير دينارين كانا باسمه من الأيام الأفضلية.

وكان الداعي لحضوره أمر المواريث، وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام، وهو ربع العشر وأمر توريث البنت نصف المال. وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود العصبه، كما هو مذهب آل البيت. فاعتد المأمون بأن هذه قضية لم يحدثها، وأن أمير الجيوش بدرأ هو الذي استجدها، وهي تسمى بالمذهب الدارج: وهو أن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه، وقد مرّ على ذلك عدة سنين.

فقال له الفقيه أبو بكر: اذا علمت أنها ماتخلصك من الله فغيرها، ويكون لك أجرها.

فقال: أنا نائب الخليفة، ومذهبه ومذهب جميع الشيعة من الزيدية والإمامية والإسماعيلية أن الإرث جميعه للابنة خاصة بلا عصبية ولا بيت مال، ويتمسكون بأية من كتاب الله كما يتمسك غيرهم، وأبو حنيفة موافقهم في القضية، يعني توريث ذوي الأرحام.

وطال بينهما الكلام، إلى أن قال المأمون للفقيه أبي بكر: أنا لا أريد مخالفتك، ولا في قدرتي أن أردّ على الجماعة مذهبهم، والخليفة يرى به وينقضه على من يأمر به، بل أرى لشفاعه الفقيه أن أردّ الجميع للابنة على رأي الدولة فيرجع كل أحد إلى حكم رأيه في مذهبه فيما يخلصه من الله، ويبطل حكم بيت المال الذي لم يذكره في كتابه ولا أمر به الرسول عليه السلام.

فأجاب الفقيه إلى ذلك. وأمر المأمون بأن يكتب بتعويض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال المواريث الحشرية. وكتب توقيع شملته العلامة

الأمريّة والمأمونيّة، نصّه، بعد البسملة: «خرج (أمر) أمير المؤمنين، الأمر بأحكام الله، أبو عليّ المنصور، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيّد الأجل المأمون أمير الجيوش، وهو الخالصة أفعاله في حياة المسلمين، وذو المقاصد المصروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين، والصمّة المومّقة على الرقيّ إلى درجات المتّقين، والعزائم الكفيلة بتسديد أحوال الكافة أجمعين، شيمة خصّه الله بفضيلتها، وجبله أسعده بخلاها وشريف مزيتها، والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة، وأنحاءه للميامن كافلة، ضامنة من أمور المواريث، وما أجراها عليها الحكم الدارجون بتغاير نظرهم، وقرّروه من تغييرها عما كان يعهد بتغلّب آرائهم، وما دخل عليها منهم من الفساد والخروج بها عن المعهود والمعتاد: وهو أنّ كلّ خارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته. فيخلص لحرم ذوي التشيع الوارثات جميع موروثهم، وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، (الأنفال ٧٥)، ويحمل من سواهنّ على مذهب مخلفيهنّ، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلّ الله لهم بعدهم، عدولا عن محجّة الدولة، وخروجاً عما جاء به الصادقون الأئمة الذين نزل في بيتهم الكتاب والحكمة، فهم كرماء القرآن، وموضّحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان، وإليهم يسلم المؤمنون، وعلى هديهم وإرشادهم يقول الموفقون.

فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الأصول، بعيدة من التحقيق، خالية من المحصول، ولم ير إلاّ العود فيه إلى عادة آبائه المطهرين، وأسلافه العلماء المهديين، صلوات الله عليهم أجمعين. وخرج أمره إلى السيّد الأجل المأمون بالايعاز إلى القاضي ثقة الملك النائب (أبو بكر مسلم الرسعنيّ، قاضي القضاة) في الحكم عنه، بتحذيره،

والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر، وسائر الأعمال دانيها وقاصيها، قريها ونائيها، من الاستمرار على تلك السنة المجدة، ورفض تلك القوانين التي كانت معتمدة، واستئناف العمل في ذلك بما يراه آباؤه الأئمة المطهرة، وأسلافه الكرام البررة، وإعادة جميع موارد الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم، إلى المعهود من رأي الدولة فيها، والإفراج عنها برمتها إلى مستحقيها، من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها، وأن يضربوا عما تقدم صفحا، ويطووا دونه كشحا، منذ تاريخ هذا التوقيع، وفيما يأتي بعده مستمرا غير مستدرك لما فات ومضى، ولا متعقب لما ذهب حكمه وانقضى. وليوعز الأجل المأمون—عضد الله به الدين—بامثال هذا المأمور والاعتماد على مضمون هذا المسطور، وليحذر كلاً من القضاة والنواب والمستخدمين في الباب، وسائر الأعمال من اعتراض موجود أحد ممن يسقط بالوفاء، وله وارث بالغ رشيد، حاضر أو غائب، ذكراً كان أو أنثى، من سائر الناس على اختلاف الأديان، بشيء من التأولات، أوتعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات، إلا ما أوجبه بينهم المحاكمات والقوانين الشرعيات الواجبات، نظراً في مصالح الكافة، ومداداً لجناح العاطفة عليهم والرافة، ومضاعفة للإنعام، وإبانة عن شريف النظر إليهم والاهتمام.

فأما من يموت حشياً، لا وارث حاضر ولا غائب فموجوده لبيت المال بأجمعه على الأوضاع السليمة، والقوانين المعلومة القويمة، إلا ما يستحقه زوج إن كان له، أو دين عليه يثبت في جهته. وإن سقط متوفى وله وارث غائب، فليحتط الحكام والمستخدمون على تركته احتياطاً حكماً، وقانوناً شرعياً، مصوناً من الاصطلام، محروماً من التفريط والاخترام. فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكام بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتباب، طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه، والإشهاد بقبضه عليه.

وكذلك أنهى حضرة أمير المؤمنين أن شهود الحكم بالباب وبجميع الأعمال اذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من الترك التي يتولّاها الحكّام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع فيعود ذلك بالنقيصة في أموال الأيتام، والتعرض إلى الممنوع الحرام، اصطلاحاً استمروا على فعله، واعتماداً لم يجز الأمر فيه على حكمه. فكره ذلك وأنكره، واستفظعه وأكبره. واقتضى حسن نظره في الفريقين ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام، وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جارياً يقام لكلّ منهم من الإنعام. وأمر بوضع هذا الرسم وتعقيمه وإبطاله وحسم مادّته. فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك في الباب، وليصدر الإعلام به إلى سائر النواب، سلوكاً لحجة الدين، وعملاً بأعمال الفائزين السعداء المتّقين، بعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين بالمعزّة القاهرة المحروسة ومدينة مصر، على رؤوس الأشهاد، ليتأدّى في معرفة مضمونه كلّ قريب وبعيد، وحاضر وباد، وليفرّغ منه النسخ إلى جميع النواب عنه في الأعمال، وليخلّد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديوان المجلس والخاصّ الأمريّ، وحيث يثبت إن شاء الله حجة مودعة في اليوم ومابعده.

وكتب لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ستّ عشرة وخمسة.

ولما ودّع الفقيه أبو بكر المأمون ذكر له أنّه يريد بناء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فكتب إلى مكين الدولة أبي طالب أحمد بن عبد المجيد ابن أحمد بن الحسن بن حديد قاضي الإسكندرية وناظرها بعمارة ذلك من مال ديوان المأمون، دون مال الدولة، فبنى مسجداً على باب البحر.

ثمّ بنى له أيضاً سلطان الجيوش حيدرة أخو المأمون مسجداً آخر بالمحجّة من الثغر.

وكان إماماً عالماً زاهداً ورعاً ديناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير. وكان يقول: إذا عرض لك أمران، أمر دنيا و أمر آخرة، فبادر بأمر الآخرة يحصل لك أمر الدنيا والآخرة.

وكان كثيراً ما ينشد:

ان لله عبداً فطناً

طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنة

فكّروا فيها فلم يعلموا

أنها ليست لحى وطننا

جعلوا لها لجة واتخذوا

صالح الأعمال فيها سفننا

وحصل كثيراً وكتب بخطه، وصنّف عدّة تصانيف مفيدة، وحدّث فروى عنه جماعة وتخرّج به جماعة كثيرة من أعيان الفقهاء. وظهرت بركته على من اشتغل عليه. فإنّه كان قدم مصر ولم يبق أحد ينتفع به غالباً، فكان يعلم الانسان كتاب الطهارة، ويخرجه إلى بلد فيعلمهم ذلك. ويعلم آخر الصلاة، ويفعل به كذلك، وآخر الزكاة، وآخر الصيام، حتّى كان من يستفاد منه غالباً إنما هم أصحابه أو أصحاب أصحابه.

وقال فيه أبو العباس العرشي:

لم يشمل الاسلام بعد انصداً

وتلا في رثيته تجديداً

مثل ما لمن أبو بكر

فعاد الطريق فمثل التليد

وقال إبراهيم بن مهدي بن قلنبا المالكيّ الفقيه المتكلّم: شيخنا أبو بكر الطرطوشيّ، زهده وعبادته أكثر من علمه. وكانت الطلبة والفقهاء يقرؤون عليه للتبرّك، وانتفع جماعة به وتخرّجوا عليه. وورد بغداد، وكان

عليه كساء وقلنسوة، وكان معه هميان فيه مائتا دينار. فاتفق أنه في الطريق أراد أن يتوضأ، فوضعه في موضع فنسيه فوجده رجل دين خير، فصبر يومين فرآه لا يضطرب ولا يطلب شيئاً، فقال له الرجل: هل ضاع لك شيء؟ فقال: هميان فيه كذا، فأخرج الهميان وقال: هذا لك؟ قال: بلى، فأخذه منه. فقال له الرجل: فما لك سكنت؟ قال: إذا قلت ضاع مني مائتا دينار، وعليّ هذه البزة، من كان يصدقني، وكان بالليل الفقهاء يكررون وينامون، فيجيء الفقيه الطرطوشي ويترك الدنانير الصالح في أفواههم. فإذا انتبه الفقيه منهم يجد الذهب في فيه ولا يعلم من تركه فيه.

وأخرج من الإسكندرية صبيحة يوم السبت لآخر ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وخمسمائة، ومنع الناس من الخروج معه خوفاً من فتنة تكون، وغلقت وقت خروجه عليهم أبواب المدينة فلم يقدر أحد يصحبه إلا أبو طاهر إسماعيل بن مكّي بن عوف، وعطيّة بن مسلم اللخمي، وحسين بن ياسين الصعيدي، وشبيب العلاف الأزدي، وعبد الله القاضي المالكي، فإنهم خرجوا معه إلى القاهرة. فدخل على الأفضل ابن أمير الجيوش يوم الاثنين ثامن رجب، فأكرمه وفرح به. ولم يبق متولي الثغر غير شهر حتى ورد عليه كتاب الأفضل بعزله، فخرج باكياً حزيناً في مثل اليوم الذي خرج فيه الطرطوشي. وكان اسمه جوهر. من جملة الأرمن الموالي، وقرّر الأفضل للطرطوشي عشرة دنانير في كل شهر من جوالي النصارى. وأعطاه المحرس المعروف بالشرف، وما برح بمصر حتى قتل الأفضل، وولي أبو عبد الله محمد بن فاتك الوزارة من بعده. فأذن له في الانصراف إلى الاسكندرية، وأكرمه، وأضاف إليه عشرين فدّانا من البهنسى بالصعيد، كانت لأبي شبل المعقليّ الزعبيّ العابد بجزيرة الاسكندرية. ثم توفّر له أيضاً بعد عوده إلى الاسكندرية خمسة دنانير في كل شهر من الخمس الروميّ. فسأل القاضي مكين الدولة أبا طالب أحمد بن حديد أن يجعلها على الجوالي.

وقال المنذري وقد ذكر وفاته: وصلى عليه ولده محمد بن محمد بن الوليد، وحضر القاضي الموفق بن الموفق أبو الفتوح متولي الاحكار والأشراف بالاسكندرية. ولم يتمكن الناس من دفنه لكثرة من صلى عليه. وعمره تسع وستون سنة. وكان استوطن الاسكندرية في حدود سنة تسعين وأربعمائة.

وكان من الأئمة المشهورين، والزهاد المذكورين. ودرس بالثغر وألف كتاب «تعليق الخلاف» وكتاب «سراج الملوك»، وكتاب «الحوادث والبدع» كتاب «برّ الوالدين»، وكتاب «العمدة في أصول الفقه»، وكتاب «تحریم الغناء»، وكتاب «الزهد والتصوّف»، وكتاب «السعود في الردّ على اليهود».

حواشي اتعاظ الحنفا

- ١- لك عند ياقوت : « بلدة من نواحي برقة بين الاسكندرية وطرابلس الغرب » وأكد هذا ابن الاثير في اللباب
- ٢- أي تولى الاشراف على أحد الدواوين ، والمشرف مثل الناظر ، ويختلف عنه أنه يحتفظ بمستخرج الديوان تحت حوطته في خزائنه انظر قوانين الدواوين للاسعد بن مماتي - ط . القاهرة ١٩٩١ ، ص ٣٠٢ .
- ٣- يريد به أفتكين ، وتقدم من قبل أنه نصر الدولة
- ٤- فراغ بالأصل بمقدار كلمة
- ٥- ماتزال بقايارقاد، عاصمة الاغالبة، قائمة على بعد حوالي الاثني عشر كم عن القيروان ، ووصفت في وقتها بالجمال الفائق.
- ٦- فراغ بالأصل
- ٧- عز الدولة هو نصر بن علي بن مقلد.
- ٨- هي ابنة الحسين بن زيد بن الحسين علي بن أبي طالب ، تزوجت من اسحق بن جعفر الصادق ، لقيها - من وراء حجاب الامام الشافعي ، وقيل انها صلت عليه اثر وفاته، توفيت بعده بأربع سنوات أي سنة ٢٠٨ هـ ودفنت بمنزلها الذي بات من زيارات مصر المشهورة.
- الزيارات للهروي - ط . دمشق ١٩٥٣ ص ٣٥ . خطط السخاوي - ط . القاهرة ١٩٣٣٧ ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- ٩- كتب هذا النص الهام على ورقة مفردة وردت داخل المخطوط.
- ١٠- في هامش الأصل « كذا بخط مؤلفه » ، وتداركنا الأمر كتبناه بين الحاصرتين.
- ١١- في هامش الاصل « أمير الجيوش المستنصري »
- ١٢- في هامش الأصل : « بياض نحو أربعة أسطر » وكان المقرئ مقلد مثله مثل غيره من المصنفين اعتاد على ترك بعض الاماكن الفارغة لاضافة معلومات مستجدة.
- ١٣- في هامش الأصل : بياض نحو ثلث صفحة.
- ١٤- فراغ بالأصل يمكن تقدير إحدى كلماته « فنزل »
- ١٥- بالأصل « دولة » وهو تصنيف.
- ١٥- ألقب أصفاء الفاطميون على حكام النوبة من أمراء ربيعة. انظر تاريخ دولة الكنوز الاسلامية لعطية القوصي - ط . القاهرة ١٩٧٦ ص ٥٥ - ٥٧ . مملكة ربيعة العربية في وادي النيل لعوض خليفات - ط . عمان ١٩٨٢ ص ٨٠ - ٨٢ .
- ١٦- المقور: الشيء الذي قطع من جوانبه. القاموس.
- ١٧- قال المقرئ في خطه ج ٢ ص ٢٥٢ (ط . العرفان - بيروت) : « وكان للفاطميين منظره تعرف بقصر اللؤلؤة وبمنظره اللؤلؤة على الخليج بالقرب من باب القنطرة ، وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد منتزهات الدنيا » ،
- ١٨- كذا بالأصل وفيه وهم ، فالذي تولى التوزيع السلطان مسعود الاول ، وقد ذكر هذا الموضوع فيما تقدم من مجلدات موسوعتنا أكثر من مرة
- ١٩- لا تتوافق هذه الرواية مع ما قدمه ابن القلانسي في تاريخ دمشق ص ٢٦١ - ٢٦٣ .
- ٢٠- من الواضح ان المقرئ ينقل هنا عن ابن القلانسي ص ٢٦١ ، وفي الحقيقة ان ابن صنجيل هو برتراند الابن الأكبر لريموند الصنجيلي .
- ٢١- بالأصل : فأتاهم ، وهو تصنيف
- ٢٢- في هامش الاصل : بياض ربع صفحة.
- ٢٣- كان من منتزهات الخلفاء ، وسبب فتحه أن الماء كان لا يصل الى البلاد الشرقية الا بصعوبة ويشكل غير كاف . خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٨٥ - ٣٨٧ .

- ٢٤- زيد ما بين الحاصرتين من تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٠٠، وكان موضع الاضافة بالأصل قارغا.
- ٢٥- كان باب الزهومة أحد أبواب القصر الشرقي الكبير من الجهة الغربية ، حيث كان خدم القصر يدخلون الاطعمة واللحوم، والزهومة : الزفر. نصوص من أخبار مصر لابن المأمون ط . القاهرة ١٩٨٢ ص ١٦ . خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٩٨ .
- ٢٦- تقدم ذكره في المنتقى من ابن ميسر .
- ٢٧- بهامش الأصل : بياض نحو الورقة . بياض نحو صفحة .
- ٢٨- كان باب الخوخة أحد أبواب القاهرة في سورها الغربي المطل على الخليج . ابن المأمون ص ٣٧ .
- ٢٩- كان يقال لها قاعة الذهب وقصر الذهب، وهي إحدى قاعات القصر الكبير بنيت أيام العزيز ثم جددت أيام المستنصر ، كانت الخلفاء تجلس فيها أيام المواكب ، وبها كان يعمل سماط شهر رمضان وسماط العيدين ، وبها كان سرير الملك . خطط المقرئ بها ص ٢١٤ .
- ٣٠- المأمون البطائحي الذي سيرد ذكره .
- ٣١- من انواع الستائر .
- ٣٢- كانت بالأصل خزانة للسلاح والرايات والأعلام ، ثم تحولت لتكون سجنا لكبار شخصيات الدولة وفيها كان يعدم بعضهم ويدفن . خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٨١ .
- ٣٣- أريد بالطيافير أحيانا الآنية الكبيرة، أو الصحنون المقعرة، وأحيانا أخرى الموائد الحاملة لعدد من الآنية . نزهة المقلتين لابن الطوير - ط . بيروت ١٩٩٢ ص ١٣١ .
- ٣٤- من ابواب القصر الشرقي الكبير ، وقيل له باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه في يومي العيد الى المصلى بظاهر باب النصر . خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٩٧ .
- ٣٥- سورة الانعام - الآية .
- ٣٦- طوله ثلاثة اشجار بشبر رجل معتدل . صبح الاعشى - ط . وزارة الثقافة المصورة عن الطبعة الأميرية - القاهرة ج ٣ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .
- ٣٧- وصف المقرئ في خطه هذه المناظر ج ٢ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .
- ٣٨- انظر وصفه في خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .
- ٣٩- كانوا من ارباب الوظائف الخاصة بالخليفة ، وعرفوا بالمحنكين لأنهم يدورون عمائمهم على احتاكهم كما تفعل الغرب والمغاربة، وكانت عدتهم تزيد على الألف . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٧٧ .
- ٤٠- في هامش الأصل : الميمذى : نسبة الى ميمذ بفتح الميمين ، بينهما ياء، آخر الحروف ، وفي آخرها ذال معجمه - وهي كورة من كور أذربيجان ، قاله الرشاطي . وكان لأبي الفضل ان ينشئ ما يصدر عن ديوان المكاتبات ويحرر ما يؤمر به من المهمات .
- ٤١- القاضي ابو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الفهري . خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني - قسم مصر ، ط . القاهرة ١٩٥١ ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٤ .
- ٤١- انظر حوله صبح الاعشى ج ٢ ص ٣٦١ . خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٥٥ .
- ٤٢- في هامش الأصل : بياض نحو نصف صفحة .
- ٤٣- أول الثمر للنخلة : طلع ، ثم خلال ، ثم بلح ، ثم يسر ، ثم رطب ، ثم تمر . عن الصحاح للجوهري
- ٤٤- السجيل ثوب لا يبرم غزله ، والحيل على قوة واحدة ، وثوب أبيض . القاموس
- ٤٥- السليب : المستلب العقل ، وامرأة سليب : مات ولد لها ، وشجرة سليب : سلبت ورقها واغصانها ، والسلب : أطول أداة الفدان ، وشجر طويل ، ومن القصبة قشرها القاموس .

- ٤٦- كان قصر اللؤلؤة على الخليج ، من أحسن القصور وأعظمها زخرفة . وهو أحد منتزهات الدنيا . خطط المقريري ج ٢ ص ٣٥٢ .
- ٤٧- هي مشاهد : زين العابدين والسيدة نفيسة والسبعة التي تزار بالقرافة . خطط المقريري ج ٣ ص ٣٣٤-٣٥٢ .
- ٤٨- انظر خطط المقريري ج ٢ ص ٣٩١
- ٤٩- هي ليالي : أول رجب ، ليلة نصفه ، ليلة أول شعبان ، ليلة نصفه . خطط المقريري ج ٢ ص ٣٩٠ .
- ٥٠- الخشكنان خير يابس ، بقسماط ، وبات يعرف بمصر باسم خشتنان ، وهو نوع من الحلوى مصنعة من الرقائق المجوفة المملوءة باللوز أو الفستق ، أما البستندود فطعام يصنع من الدقيق والبلح . صبح الاعشى ج ٣ ص ٥١٠ .
- ٥١- انظر حول اسمطة رمضان ثم الفطرة وحلوى العيد ، صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ . خطط المقريري ج ٢ ص ٢١٧-٢١٨ ، ٢٨١-٢٨٣ ، ٣٢٣-٣٢٤ .
- ٥٢- المال الذي كان يحصله الداعي الذي كان يواصل الجلوس بالقصر بدعوة الأولياء وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور وعوام الناس والطارئين على البلد والنساء . خطط المقريري ج ٢ ص ٢٢٤-٢٣٤
- ٥٣- عرف أيام المقريري باسم جامع الاولياء بنته أم الخليفة العزيز سنة ٣٦٦ هـ خطط المقريري ج ٣ ص ٢٧٥-٢٧٨
- ٥٤- انظر خطط المقريري ج ٢ ص ٣١٠ حيث تحدث عن حجر غلمان الخلفاء لكنه لم يذكر حجرا خاصة بالجواري .
- ٥٥- بالاصل اقام احمد بن المستعلى . وابن زائدة .
- ٥٦- بهامش الاصل : بياض ثلث صفحة .
- ٥٧- كانت معدة من اعمال الوجه البحري بين الفسطاط والاسكندرية . القاموس الجغرافي للبلاد المصرية - ط . القاهرة ١٩٩٤ ج ١ ص ٢١٧ .
- ٥٨- ذكر ابن الجيعان في كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية « منية زفيتي جواد » بين ما كان يتبع ثغر دمياط . ط القاهرة ١٩٧٤ ص ٩٦
- ٥٩- طبع أكثر من مرة آخرها بدار رياض الريس - لندن ١٩٩٠
- ٦٠- ربما جمع دواة .
- ٦١- بالفارسية : كوة ، نافذة فتحه لتجديد الهواء .
- ٦٢- الاموال التي كانت تجبى كجزية على المعاهدين . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٨ . قوانين الدواوين ص ٣١٧-٣١٩ .
- ٦٣- المواريث الحشرية : مال من يموت وليس له وارث خاص : بقرابة او نكاح او ولاء او باقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٠ . قوانين الدواوين ص ٣١٩-٣٢٤
- ٦٤- سورة الأنفال - الآية : ٧٥ .
- ٦٥- مدينة كانت عامرة بالناس من مدن الصعيد ، شهرت بالنسيج . القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ق ٢ ج ٣ ص ٢١١-٢١٢ .
- ٦٦- انظرهما في خطط المقريري ج ٢ ص ٣٢٣-٣٢٤
- ٦٧- بهامش الاصل : « وبخطه ، ابو جعفر يوسف بن أحمد بن حسدية الاسرائيلي الاندلسي أحد اعلام فضلاء اليهود الأطباء اسلم في القاهرة واختص بالمأمون ، وترجم بعض كتب ابقراط وصنف كتابا في المنطق ومات في حدود الثمانين . وكان فيه دعاية »
- ٦٨- انظر حول الاحتفال به الخطط للمقريري ج ٢ ص ٣٩٤ .

- ٦٩- كان بناحية الخاقانية ، وهي قرية من قرى قليوب . خطط المقريري ج ٢ ص ٢٨٧
- ٧٠- كان للخلفاء الفاطميين اعتناء ببليلة أول محرم في كل عام ، وكان من رسومهم صنع اطعمة كثيرة وحلويات كانت توزع على رجال الدولة . خطط المقريري ج ٢ ص ٢٨٩
- ٧١- كان الفاطميون يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الاسواق ، ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن . خطط المقريري ج ٢ ص ٢٨٩ - ٣٩٠
- ٧٢- بقي تقليد العماريات حتى الامس القريب وكان يحتفل به في حماه ، والعمارية هودج توضع عليه دميمة البست أفخر الثياب ووضعت عليها الحلبي الذهبية الثمينة ، وفي ذلك رمز للضعف والدفاع عنها أو غير ذلك.
- ٧٣- أي مقدم
- ٧٤- الجام : اناء من فضة . القاموس : وقد اورد المقريري هذه الحكاية في خطه ج ٢ ص ٣٨٢
- ٧٥- بناء الخليفة الحاكم ، وكان يخرج منه للتوجه الى مقس النيل وموضعه اليوم مدخل حارة بيت القاضي تجاه جامع الملك الكامل بشارع بين القصرين . صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٤٦ خطط المقريري ج ٢ ص ٢١٨.
- ٧٦- غالبا ما كان المنديل يستخدم لشد الوسط . انظر صبح الاعشى ج ١٣٢
- ٧٧- من أنواع الحرير الملون الفاخر . صبح الاعشى ج ٣ ص ١٣٢
- ٧٧- من انواع
- ٧٨- السيدة اروى الصليجية ابنة أحمد [٤٢٤ - ٥٣٢ هـ / ١٠٥٢ - ١١٣٨] ملكة حازمة مدبرة ذات شهرة واسعة - الاعلام للزركلي
- ٧٩- المجالس سجلات دروس الدعاة بعد موافقة الامام عليها.
- ٨٠- الرباع السلطانية : الاملاك من عقارات وسواها وخاصة في مدينة القاهرة التي كانت جل بيوتها وعقاراتها ملك للدولة ، وقد شكلت ايجاراتها موردا هاما للخزينة.
- ٨١- بعد وفاء النيل وبلوغه ستة عشر ذراعا تجري الاستعدادات للاحتفال باسالة الماء وذلك بكسر الخليج في اليوم الثالث او الرابع من يوم التخليق ومما يحدث في يوم التخليق ان يسير العشاري الذي يركبه الخليفة في النيل من المنظرة المعروفة برواق الملك الى باب المقياس العالي على الدرج ، فيطلع من العشاري ويدخل الى الفسقية التي فيها المقياس ، والوزير والاستاذون والمحنكون بين يديه ، ويصلي هو والوزير ركعتين كل منهما بمفرده ، ثم يؤتى بالزعفران والمسك فيتناولونه صاحب بيت المال ويعطيه لابن أبي الرداد ، فيلقي بنفسه في الفسقية بثيابه ، فيتعلق بالعمود برجليه ويده اليسرى ويخلقه بيده اليمنى والقراء يقرأون القرآن. ثم يخرج الخليفة الى العشاري فيركبه الى دار الملك ومنها يركب الى القاهرة ، وفي كسر الخليج بعد ثلاثة ايام أو اربعة تنصب الخيمة الكبيرة المعروفة بالقاتول للخليفة في البر الغربي عند منظرة السكره وحولها الخيام المختلفة الاحجام على قدر مراتب الامراء والمتفرجين. ثم يركب الخليفة في موكبته العظيم الكامل الأبهة حتى ينتهي بعد زيارات متتابعة الى منظرة السكره بقرب الخيام المنصوبة ، ثم يطل استاذ محنك فيشير بيده بفتح السد فيفتح بالمعاول وتضرب الطبول والابواق من البرين . ثم ينصب السماط ، ثم تتهادى العشاريات اللطاف ووراءها العشاريات الكبار في الخليج بعد اعتدال الماء فيه ، واثر هذا يعود الخليفة بعد صلاة العصر الى قصره بالموكب المعتاد. صبح الاعشى ج ٣ ص ٥١٢ - ٥١٧ ، خطط المقريري ج ٢ ص ٣٥٧ - ٣٧٢
- ٨٢- سلفت الاشارة الى ان الافضل بن بدر الجمالي هو الذي بعث نجيب الدولة الى اليمن سنة ٥١٣ هـ لتأييد الملكة الحرة.

٨٢- ذكرها القلقشندي بين فرعي النيل في الوجه البحري واشتملت الاولى على المنوفية والغربية. وامتدت الثانية في بحر ابيار حتى الفرع الغربي من النيل وعرفت بجزيرة بني نصر. صبح الاعشى ج ٣ ص ٨٨-٨٩.

٨٤- صاقت الدقهلية والمرتاحية عمل الشرقية من جهة الشمال الى السباخ والى بحر تنيس. صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٠١-٤٠٢.

٨٥- نزهة المقلتين لابن الطوير - ط. بيروت ١٩٩٢ ص ١١-١٦.

٨٦- استخراج المال وقبضه وكتابة الوصولات به. قوانين الدواوين ص ٣٠٤.

٨٧- عدت الضرائب غير الشرعية مكوسا. صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٨-٤٦٧.

٨٨- الخاقانية قرية من قرى قليوب، كان من خاص الخليفة وبها جنان كثيرة للخليفة، وكانت من احسن المنتزهات المصرية. خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٨٧.

٨٩- الرهاويج من الخيل: السريعة فليسرعتها تنثر الغبار. القاموس.

٩٠- هي الآن بمنطقة العباسية في القاهرة، وكانت بالاصل بستانا لريدان الصقلي أحد خدام العزيز بالله نزار. خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٤.

٩١- كان الأمر قد بلي بعشق الجواري العربيات وصارت له عيون بالبوادي فبلغه أن جارية بالصعيد من اكمل العرب واطرفهم شاعرة جميلة، فتزيا بزي الاعراب وكان يجول في الاحياء الى ان انتهى الى حياها. وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره، وعاد الى دانه ملكه وارسل الى اهلهما يخطبها وتزوجها فلما وصلت صعب عليها مفارقة ما اعتادته واحبت ان تسرح طرفها في الفضاء حتى لا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة، فبنى لها البناء المشهور في جزيرة الفسطاط وكان غريب الشكل، ولكنها ظلت مغلقة الخاطر بآبن عم لها يعرف بآبن مياح فكتبت اليه:

يا بن مياح اليك المشتكى مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حي مطاعا أمرا تائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مرصد لا ارى الا خبيثا ممسكا
فأجابها ابن عمها:

بنت عمي والتي غديتها بالهوى حتى علا واحتبكا
بحث بالشكوى وعندي ضعفها لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الأمر إليه أشتكى مالكا وهو الذي قد ملكا
خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٨١.

٩٢- الجلبة (ج - جلاب) سفن تجلب التجار والبضائع في البحر الاحمر.

٩٣- الجسر هنا الذي وصل بين الفسطاط وجزيرة الروضة وبين جزيرة الروضة وبر الجزيرة وكان معمولا من مجموعة من المراكب المربوطة الى بعضها والمغطاة بالواح من الخشب فوقها طبقة من التراب. خطط المقرئ ج ٣ ص ٧٠-٧٢.

٩٤- هي المدينة في الاعمال الدقهلية. ابن الجيعان ص ٤٦- ابن مماتي ص ٨٩.

٩٥- الغفارة: المعطف

٩٦- كذا بالاصل والاصح بالسين

٩٧- سورة الواقعة - الآية ١٠٠

٩٨- مار يمورمورا، والمور: الموج والاضطراب والتحرك، القاموس.

٩٩- قيل له باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه لدى مغادرته القصر الكبير متوجها الى المصلى بظاهر باب النصر. خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٩٧.

١٠٠- كان الحجرية جماعة من الشباب يتأهزون خمسة آلاف نفر يقيمون في حجر منفردة لكل حجرة منها اسم يخصها، وكانت حجرهم بمعزل عن القصر بجوار دار الوزارة. صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٧٧ خطط المقرئ ج ٢ ص ٣١٠-٣١٢.

- ١١٩٢٢ -

١٠١- كان حبس المعونة بالقاهرة قبل جامع عمرو بن العاص : كان يسجن فيه ارباب الجرائم من العامة. حوله صلاح الدين فيما بعد الى مدرسة باتت تعرف بالشريفية وكان الخاصة يسجنون بخزانة البنود في قصر الخلافة الكبير بالقاهرة . خطط المقريري ج ٣ ص ١٠٠-١٠١.

١٠٢- انظر حولها خطط المقريري ج ٣ ص ٣٥٢.

١٠٣- هو أحد ابواب القصر الغربي الصغير . خطط المقريري ج ٢ ص ٣٣٧

١٠٤- نسب الجيوشية الى امير الجيوش بدر الجمالي ويرجع انتساب الريحانية الى عزيز الدولة ريحان ، وكان قد تولى اخمد ثورة بني قره أيام المستنصر . خطط المقريري ج ٢ ص ٤٢٨-٤٣٠.

١٠٥- معجم السفر للسلفي - ط اسلام اباد ١٩٨٨ ص ٤٣-٤٤

١٠٦- خطط المقريري ج ٢ ص ٤٢٨-٤٣٠

١٠٧- كانت قوص مدينة جليلة من الير الشرقي من النيل ذات ديار فائقة ، ورياح انيقة ومدارس وربط وحمامات ، يسكنها العلماء والتجار وذوو الاموال ، وبها البساتين والحدائق المستحسنة ولها عمل متسع ينتهي آخره الى أسوان . صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٩٦-٣٩٧

١٠٨- انظر ترجمته في الخريدة - قسم مصر - ج ٢ ص ١-١٧

١٠٩- ماتزال تحمل الاسم نفسه في جمهورية تونس

١١٠- في هامش الاصل : « بياض سطر »

١١١- مدينة قديمة حسنة في اقليم الغربية . الانتصار بواسطة عقد الامصار لابن دقماق ، ط.

بيروت دار الآفاق الجديدة ص ٩١

١١٢- قرية بمصر على شط النيل الشرقي على بحر رشيد معجم البلدان

١١٣- انظر خطط المقريري ج ٢ ص ٤١٨.

١١٤- حول حارة الحسينية انظر خطط المقريري ج ٢ ص ٤٣٣-٤٣٥

١١٥- وصفها المقريري وحدد مكانها في خطه ج ٣ ص ٤٢٥-٤٣٢

١١٦- سملوط من مدن الصعيد ، تقع غربي النيل على بعد نحو خمسة وعشرين كيلو مترا

الى الشمال من مدينة المنيا . معجم البلدان. قوانين الدواوين ص ١٥١ ، ١٧٠

١١٧- ابوان : قرية بالصعيد الادنى غربي النيل، وتعرف بابوان عطية. قوانين الدواوين ص

١٠٤-١٠٥

١١٨- من اعمال الصعيد تتبع الان مركز بني مزار بمحافظة المنيا معجم البلدان قوانين

الدواوين ص ١٧٠

١١٩- من اعمال الجيزة قوانين الدواوين ص ١٠٢

١٢٠- كان الاشراف زمن الفاطميين على دار الضرب يسند الى قاضي القضاة والقاضي ان

ينيب عنه في مباشرة شؤون دار الضرب من يختاره من نوابه ثم اصبحت دار الضرب تحت

اشراف ناظر الخاص بعد الغاء الوزارة . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦١-٤٦٢ . قوانين الدواوين

ص ٣٣١-٣٣٣

١٢١- كان يقال له ايضا ديوان العمائر ، وكان محله بدار الصناعة بمصر وفيه انشاء

المراكب للاسطول وحمل الغلال السلطانية والاحطاب وغيرها ، ومنه ينفق على رؤساء المراكب

ورجالها . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٢.

١٢٢- اختص ديوان النظر بالاشراف على ارزاق ذوي الاقلام وغيرهم يتولى عرضها على

ال خليفة والوزير واليه طلب الاموال واستخراجها والمحاسبة . عليها قوانين الدواوين ص ٢٩٨ -

٣٠٠ . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٩ خطط المقريري ج ٢ ص ٢٤٠

- ١٢٢- المحول هو مجلس الداعي ، ويدخل اليه من باب الريح وبابه من باب البحر ويعرف بقصر البحر . وكان في اوقات الاجتماع يصلي الداعي بالناس في رواقه . خطط المقريري ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٩٤ - ٢٩٧
- ١٢٤- تدعوه العامة قصر الشوق وكان أحد أبواب القصر . خطط المقريري ج ٢ ص ٢٤٦
- ١٢٥- ظاهر القاهرة عمره جوهر الصقلبي عوضا عن دير هدمه في القاهرة كان بالقرب من الجامع الاقمر . خطط المقريري ج ٢ ص ١٨٤
- ١٢٦- رطل بالمصري، والرطل المصري مائة درهم واربعة واربعون درهما او اثنتا عشرة اوقية . قوانين الدواوين : ٣٦٥ - ٤٥٥
- ١٢٧- في خريدة القصر قسم شعراء مصر : ٢ : ٦٤ - ٦٥ تعريف موجز به ويتضمن ابياتا خمسة من شعره منها البيتان المذكوران هنا
- ١٢٨- هو نصر الله بن عبد الله بن علي بن الازهري ، شاعر اسكندري [٥٣٢ - ٥٦٢ هـ] رحل الى صقلية وأقام بها نحو عامين ، ثم عاد منها ليرحل الى اليمن حيث اقام بها مدة ، وقد توفي بعيذاب في طريق عودته . الخريدة - قسم مصر - ج ١ ص ١٤٥ - ١٦٥
- ١٢٩- ولد بأسوان ورحل الى مصر واتصل بوزرائها وخلفائها ، ومدحهم فتقدم عندهم ارسله الحافظ الى اليمن داعيه له فيقال انه دعا لنفسه وضرب السكة باسمه ، فقبض عليه وارسل الى مصر ، فعفا الخليفة عنه وهو ابن اخت الموفق ابن الخلال كاتب الانشاء للفاطمييين ترقى في الخدمة حتى تولى نظارة ديوان الاسكندرية سنة تسع وخمسين وخمسمائة في وزارة الصالح طلائع بن رزيك ، وقتله شاور في وزارته لميله الى اسد الدين شيركوه . خريدة القصر قسم شعراء مصر ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠٢
- ١٣٣- أبويط من القرى القديمة من الاعمال البوصيرية أو من الاعمال البهنساوية . القاموس الجغرافي ، ق ٢ ج ٣ ص ١٢٥ .
- ١٣٤- دهشور من القرى القديمة ، واقعة في جنوب منف . القاموس الجغرافي ق ٢ ج ٣ ص ٤٣ .
- ١٣٥- كانت صول قرية واقعة على فم الخليج المتصل بأرض الفيوم ، واسمها الان المنذرة بحري . القاموس الجغرافي ق ٢ ج ٤ ص ٤٢
- ١٣٦- سلفت الاشارة الى ان رضوان بن ولخشي كان أول من تلقب بلقب ملك .
- ١٣٨ - على مقربة من غزة
- ١٣٩- في هامش الاصل : بياض ربع صفحة
- ١٤٠- سورة البقرة - الآية : ١٣٠
- ١٤١- ديوان طلائع بن رزيك - ط النجف الاشرف ١٩٦٤ ص ٥٨ مع فوارق ، وانظر ايضا سورة البقرة - الآية : ٥٨ قوله تعالى « وادخلوا الباب وقولوا حطة »
- ١٤٢- ليسا في ديوانه المطبوع .
- ١٤٣ - بهامش الاصل وبخطه « شاور بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن سعد بن مخيس بن أبي ذؤيب عبد الله والد ذؤيب والد حليلة بنت أبي ذؤيب »
- ١٤٤- بهامش الاصل : بخطه « الارتاحي هو ابو محسن علي بن خير بن محمد بن عبد الله ابن مفرج الارتاحي المذحجي العابر ، ولد في سنة اربع وثمانين واربعمائة بمصر ومات بها في ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وستين وخمسمائة .
- ١٤٥- في هامش الاصل بخطه « ما نزل شاور دار الذهب وترك دار الوزارة بينه وبين شيركوه ... طمع ... يستخدمهم ، فلما تحقق شيركوه من ... »
- ١٤٦- بهامش الاصل بياض صفحة

- ١٤٧- قرية بالصعيد الأدنى غربي النيل الى جوار اشنين : معجم البلدان
١٤٨- من اقليم الغربية يتفرع عندها النيل الى قرعين باتجاهي : تنيس ورشيد . معجم
البلدان
١٤٩- بهامش الأصل : بياض سطرين
١٥٠- بهامش الأصل : بياض صفحة وبالنسبة للقاضي الجليس انظر الخريدة - قسم مصر
- ج ١ ص ١٨٩ - ٢٠٠
١٥١- من الاعمال الاطفيحية . قوانين الدواوين ص ١٢٨
١٥٢- في الصعيد الأدنى في شرقي النيل من أعمال كورة البهنسا . معجم البلدان . قوانين
الدواوين ص ١٥٨
١٥٣- من أعمال الأشمونين . معجم البلدان . قوانين الدواوين ص ١٤٠
١٥٤- كانت تجاور بركة الحبش .
١٥٦- قريبة من بلبيس ، على الطريق بين القاهرة وغزة . معجم البلدان
١٥٧- بهامش الأصل : بياض صفحة
١٥٨- بلد شرقي النيل من أعمال الصعيد يسكنها عرب من بلي
١٥٩- بهامش الأصل : بياض صفحة ونصف .
١٦٠- رمضه : اشتد حره ، والترمض : غثيان النفس : القاموس .
١٦١- سلف للمقريري قبل اسطران ذكر أولاد العاضد على انهم ثلاثة عشر ، واعاد الآن
ذكرهم فجاءوا ستة عشر ويشير هذا الى أن المقريري صنف كتابه كمسودة ، ولم يعد النظر به .
١٦٢- كذا والصحيح « عبد الله » .
١٦٣- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة - القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب
في حلى المغرب - ط . القاهرة ١٩٧٠ ص ٩٨ - ١٠٠ مع فوارق
١٦٤- لقبوه : الحامد لله وقد توفي في زمن العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب في الحبس ،
ف قيل انها صارت من بعده لابنه سليمان بن داود بن العاضد ، وكانت أمه قد ولدته بالصعيد حتى
لا يقع في ايدي الايوبيين ، فعلم الملك الكامل ابن العادل بخبره فظفر به وحبس به بقلعة الجبل ،
وتوفي بها في سنة خمس واربعين وستمئة ايام الصالح نجم الدين بن الكامل . مفرج الكروب
في أخبار بني أيوب - الجزء الأول - ط القاهرة ١٩٥٧ ص ٢١٠ - ٢١١
١٦٥- هي الدار التي انشأها بدر الجمالي لتكون سكنا له ومقرا لوزارته ، فلما جاء من بعده
ابنه الافضل أنشأ دارا جديدة عرفت بدار الوزارة وظلت المقر الرسمي للوزارة الى أواخر
الفاطميين . خطط المقريري ج ٢ ص ٣٠٢ - ٣٠٤ ، ٤٠٤ - ٤٠٥ .

المحتوى

توطئة	- ٣
من المنتقى من اخبار مصر	- ٨
سنة ٤٩٠	- ١٠
خروج الفرنج الى ديار المسلمين	- ١٠
سنة ٤٩١	- ١١
سنة ٤٩٢	- ١١
سنة ٤٩٣	- ١٢
سنة ٤٩٤	- ١٣
سنة ٤٩٥	- ١٣
سنة ٤٩٦	- ١٤
سنة ٤٩٧	- ١٤
سنة ٤٩٨	- ١٥
سنة ٤٩٩	- ١٥
سنة ٥٠٠	- ١٥
سنة ٥٠١	- ٢٥
سنة ٥١٦	- ٢٧
سنة ٥١٧	- ٢٥
سنة ٥١٩	- ٢٦
سنة ٥٢٠	- ٢٧
سنة ٥٢١	- ٢٧
سنة ٥٢٢	- ٢٨
سنة ٥٢٣	- ٢٩
سنة ٥٢٤	- ٢٢
سنة ٥٢٥	- ٢٢
سنة ٥٢٦	- ٤٥
سنة ٥٢٧	- ٤٥
سنة ٥٢٨	- ٤٦
سنة ٥٢٩	- ٤٩
سنة ٥٣١	- ٥٢
سنة ٥٣٢	- ٥٤
سنة ٥٣٣	- ٥٤
سنة ٥٣٤	- ٥٥
سنة ٥٣٥	- ٥٦
سنة ٥٣٦	- ٤٧
سنة ٥٣٧	- ٤٧
سنة ٥٣٨	- ٤٧
سنة ٥٣٩	- ٤٧

سنة ٥٤٠	- ٥٨
سنة ٥٤١	- ٥٨
سنة ٥٤٢	- ٥٩
سنة ٥٤٣	- ٦٠
سنة ٥٤٤	- ٦١
سنة ٥٤٦	- ٦٤
سنة ٥٤٧	- ٦٥
سنة ٥٤٨	- ٦٥
سنة ٥٤٩	- ٦٦
سنة ٥٥٠	- ٦٧
سنة ٥٥١	- ٧١
سنة ٥٥٢	- ٧٢
سنة ٥٥٣	- ٧٢
من اتعاط الحنفا	- ٧٢
المستغلي بالله	- ٧٦
سنة ٤٨٨	- ٨١
سنة ٤٨٩	- ٨٥
سنة ٤٩٠	- ٨٥
سنة ٤٩١	- ٨٧
سنة ٤٩٢	- ٨٨
سنة ٤٩٣	- ٨٩
سنة ٤٩٤	- ٩٠
سنة ٤٩٥	- ٩١
الأمر بأحكام الله	- ٩٢
سنة ٤٩٦	- ٩٣
سنة ٤٩٧	- ٩٤
سنة ٤٩٨	- ٩٤
سنة ٤٩٩	- ٩٥
سنة ٥٠٠	- ٩٦
سنة ٥٠١	- ٩٦
سنة ٥٠٢	- ٩٠
سنة ٥٠٣	- ٩٢
سنة ٥٠٤	- ٩٣
سنة ٥٠٥	- ٩٥
سنة ٥٠٦	- ٩٦
سنة ٥٠٧	- ٩٧
سنة ٥٠٩	- ٩٨
سنة ٥١٠	- ٩٩
سنة ٥١١	- ٩٩
سنة ٥١٢	- ٩٩
سنة ٥١٥	- ٩٩

سنة ٥١٦	- ١٢٢
سنة ٥١٧	- ١٥١
سنة ٥١٨	- ١٦٠
سنة ٥١٩	- ١٦٢
سنة ٥٢٠	- ١٦٩
سنة ٥٢١	- ١٧٠
سنة ٥٢٢	- ١٧١
سنة ٥٢٣	- ١٧٤
سنة ٥٢٤	- ١٧٦
الحافظ لدين الله	- ١٨٣
سنة ٥٢٥	- ١٨٧
سنة ٥٢٦	- ١٨٨
سنة ٥٢٧	- ١٩٢
سنة ٥٢٨	- ١٩٣
سنة ٥٢٩	- ١٩٦
سنة ٥٣٠	- ١٩٩
سنة ٥٣١	- ٢٠٠
سنة ٥٣٢	- ٢٠٥
سنة ٥٣٣	- ٢٠٧
سنة ٥٣٤	- ٢١١
سنة ٥٣٥	- ٢١٣
سنة ٥٣٦	- ٢١٤
سنة ٥٣٧	- ٢١٥
سنة ٥٣٨	- ٢١٥
سنة ٥٣٩	- ٢١٥
سنة ٥٤٠	- ٢١٦
سنة ٥٤٢	- ٢١٧
سنة ٥٤٣	- ٢٢٠
سنة ٥٤٤	- ٢٢٢
الظاهر بأمر الله	- ٢٢٦
سنة ٤٤٥	- ٢٣٣
سنة ٤٤٦	- ٢٣٣
سنة ٤٤٧	- ٢٣٤
سنة ٤٤٨	- ٢٣٤
سنة ٤٤٩	- ٢٣٨
الفائز بنصر الله	- ٢٤١
سنة ٥٥٠	- ٢٥٤
سنة ٥٥١	- ٢٥٤
سنة ٥٥٢	- ٢٥٤
سنة ٥٥٣	- ٢٥٦
سنة ٥٥٤	- ٢٥٨

- ١١٩٢٨ -

سنة ٥٥٥	- ٢٥٩
العاقد لدين الله	- ٢٦١
سنة ٥٥٦	- ٢٦٣
سنة ٥٥٧	- ٢٧١
سنة ٥٥٨	- ٢٧٢
سنة ٥٥٩	- ٢٧٨
سنة ٥٦٠	- ٢٩٠
سنة ٥٦١	- ٢٩١
سنة ٥٦٢	- ٢٩٢
سنة ٥٦٣	- ٢٩٧
سنة ٥٦٤	- ٢٩٨
سنة ٥٦٥	- ٣٢٠
سنة ٥٦٦	- ٣٢٣
سنة ٥٦٧	- ٣٢٧
ذكر طرف من ترتيب الدولة الفاطمية	- ٣٢٧
ذكر ماعيب عليهم	- ٣٤٥
ذكر ماصار اليه اولادهم	- ٣٤٧
تراجم من المقفى الكبير	
الامام الظافر	- ٣٥٢
أيوب بن شادي	٣٥٤
بغدوين صاحب القدس	- ٣٥٧
بهرام مقدم الباطنية	- ٣٥٨
بهرام تاج الملوك الارمني	- ٣٦٠
أخو المأمون البطائحي	- ٣٦٤
حميد بن مكى القصار	- ٣٦٦
المؤمن بن البطائحي	- ٣٦٨
الأشرف خليل بن قلاوون	- ٣٧٢
طغتكين بن أيوب	- ٣٩٢
شمس الدولة ابن منقذ	٣٩٤
المأمون البطائحي	- ٣٩٦
قاضي القضاة ابن الزكي	- ٤١٦
العماد الاصفهاني	- ٤١٩
النجم الخبوشاني	- ٤٢٧
القاضي ابن ميسر	- ٤٣١
أبو بكر الطرطوشي	- ٤٣٤
حواشي اتعاظ الحنفا	- ٤٤٢